رواية

عبد الإله بلقزيز

سراديب النهايات





منتدى المعارف
alMaaref Forum

عبد الإله بلقزيز

- أستاذ التعليم العالي ـ شعبة الفلسفة ـ جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ بنمسيك ـ الدار البيضاء.

- عضو مجلس الأمناء واللجنة التنفيذية في مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت.

- باحث في الفلسفة والإسلاميات وتاريخ الفكر.

- نال جائزة المغرب للكتاب العام ٢٠٠٩.

- فاز بجائزة السلطان قابوس التقديرية عن مجال الثقافة (قضايا الفكر المعاصر) العام ٢٠١٣.

سراديب النهايات

رواية

عبد الإله بلقزيز

سراديب النهايات

رواية

«جميع الشخصيات الواردة في هذه الرواية هي من نسج الخيال ولا تمت للواقع بصلة وأي تشابه في الأسماء أو الأحداث هو صدفة ليس إلا. كم إن الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر منتدى المعارف»

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٤

ISBN 978-614-428-064-5

منتدى المعارف

بناية «طبارة» ـ شارع نجيب العرداتي ـ المنارة ـ رأس بيروت
ص.ب: ٧٤٩٤ ـ ١١٣ حمرا ـ بيروت ٢٠٣٠ ١١٠٣ ـ لبنان
بريد إلكتروني: info@almaarefforum.com.lb

«مَـن تخصَّـص فـي صنـاعـةٍ،
فَقَلَّ أن يُحسِن صناعةً أخرى».

عبد الرحمن بن خلدون

I

كان يمكنه أن يتَّقيَ حمَّام الشمس القاسي، المنسدل على رأسه والجسد في جحيم منتصف هذا النهار، لولا أن غيوماً شاردةً أوهَمَتْهُ، في أوّل الصباح، أنّ يومَهُ سيكون مأموناً من غارات السماء العارية على جَسَدٍ ضعيفِ المِنْعَة، وكثير التعرُّق. فَعَل غيرَ ذلك في الأسابيع الماضية؛ منذ بدأ موسم الحصاد، وحتى قبل أن يُنْشِب الصيفُ حرارتَه في الأرض، ومَن عليها، كمخْلب حيوانٍ مفترس. فهو تعَوَّد أن يستكمل عُدَّة الخروج المبكّر من البيت بوضع «التَّارَازَا» على رأسه، قبل شدِّ الرحال إلى الأرض القرعاء من الشجر؛ فليس في ذلك الخَلاء ما يحميه من غائلة الشمس غير بعضٍ شحيحٍ من ظلٍّ يسمح به انزياحُها عن الكبد، بعد الظهيرة، حيث يصير في وُسْع حائطِ ضيعةِ العياشي المجاورة أن يحرِّر مساحةً صغيرة من الأرض ـ تقع خارج أرضه ـ من النار المنبعثة من أعلى. وعليه، كي يظْفر ببعض ذلك الفيء، أن يجاوِزَ مَصْرف الماء، الجاف، الذي يفصل بين قطعة أرضه والضيعة المجاورة، ليبحث عن الجوار الآمن.

وهو قلّما فكَّر في أن يزرع شجراً على حدود قطعة الأرض، أو داخلها، لأنه ما إنْ يشرع في التفكير في ذلك، حتى يعكره

حسابُ الكلفة الثقيل؛ حفر بئرٍ لعشرات الأمتار، واقتناء المُوَلِّد لسحب الماء، وتوفير المازوت الكافي لعمل المولّد، وشراء فسائل وشتْلات الشجيرات من الأنواع المثمرة، ثم تفريغ مُزارعٍ دائمٍ لتَعَهُّد الأرض بالزراعة والريّ. وليس له أن يَحْمل على العاتق هذه التكاليف جميعاً لفقره، وقِلّة حيلة اليد. وهو، إلى ذلك، لا «يملك» غير قطعة أرضٍ صغيرة لا تُجَاوِزُ مساحتُها ثلاثة هكتارات، تتوزّع ملكيتُها بين ستة نفر، ولا يعود إليه حقُّ بيعُ بعضِها، لتنمية بعضها الآخر، مثلما نَصَحَه بذلك مَن نَصَحَه من المعارف والأصدقاء. وهو لا يرغب في أن يتذكر أن قطعةً منها، تُضارِعها مساحةً، بيعَتْ قبل سنواتٍ عشْرٍ للعياشي، بثمن بخس، من أجل مصاريف علاج الوالد في مَرْضته، التي أقعدتْه طويلاً، وتنقَّلت به من مستشفىً لآخر، قبل رحيله. فَلْيَنْسَ، إذاً، فكرةَ بَيْع بعضِ ما بقيَ من قليلِ الأرض،وَلْتَظَلَّ هذه قرعاء ـ كما تعوَّد أن يقول ـ ما دام ليس في مُكْنه أن يكْسُوَ صلعتها بالشَّعَر؛ مادام كساؤها على فصل الإمطار؛ إنْ هو انتظم سخاؤُهُ ولم يُخْلِف، وما دام يستأجر ماءً مقابل نصف غلّة الأرض عيناً، كما يفعل غيرٌ قليلٌ من الفلاحين والمُلاَّك الصّغار الفقراء في الجوار.

يَعْرف، على التحقيق، بخبرة السنوات القليلة في الفَلْح، والطويلة في معاينته شؤونَ الزراعة على عهد والده، وما جَدَّ على مألوفها من عادات حديثة، أن وضعه ـ اليوم ـ ليس يُعفيه من مشاق المعايَنة، كما في الماضي، وأن عليه أن يراقب عملية زراعة الذُّرَة أوّلاً بأول، بمثل ما راقب يوميّاً ـ وعلى غير تخلُّف ـ حصادَ الحِنْطة ودِرَاسَها قبل شهر؛ فهو إذْ يخشى غشّاً في العمل من مزارعين لا يعرفهم، معرفةَ الأهل والأقارب، أو معرفة الجيران والأصحاب، فلأنه تعاقَدَ معهم على العمل، كَمُيَاوِمين، بالأجرة. وهذه، وقد

فُرِضت عليه على غير رغبته، تزيد أو تنقص تبعاً لإيقاع العمل والجَهد والوقت المبذوليْن فيه. وهو كان تعوَّد، على عهد أبيه، ومنذ بدأ يتلقن المبادئ الأولى في الزراعة صغيراً، قبل ما يزيد عن ثلاثين عاماً، على نظام الاحتصاص بحصّة الخُمْس من غلة الأرض لمن يتعهّدها بالفلح والريّ من الفلاحين. وهذا لم يَعُد مألوفاً، ولا مقبولاً، في بيئة الفلاحين، منذ سنواتٍ عدّة، إلّا حين يكون مغرياً لـ «الخَمّاس» أن يتعهّد أرضاً واسعة المساحة، ومهيَّأة للاستثمار: بالمياه الجوفية اليسيرة الاستخراج، أو بتشجيرٍ لا يكلّف طويلَ انتظارٍ لتحصيل الثمار، أو بثروةٍ حيوانية مُدِرَّةٍ للربح، كعَلْف الأغنام والثيران، أو إنتاج الألبان.

تُعَلِّمه التجربة أن الكسل تسرَّب إلى عادات الفلاحين وأخلاقهم، في السنوات الأخيرة، حتّى لكأنهم أصبحوا لا يرغبون إلّا في اقتسام المَغْنَم مع الملاكين، من دون أن يبذلوا في سبيل ذلك جَهْداً! يقول في نفسه: «لو كان في وسعي توْسعة مساحة الأرض ضعفيْن، وحفر بئرٍ بعمق مائتي متر، واقتناء مُوَلِّدٍ لسحب المياه، وتوفير حاجته من المازوت، واقتناء مئات مشاتل الأشجار، وإقامة اصطبل للأبقار، وشراء البذور للحبوب والخضروات. . . إلخ. ، فلماذا أبحث لي عن «شريك» يحصل على خُمُسٍ صافٍ، بينما أدفع ـ أنا ـ النصف من التكاليف أو أكثر؟». لا سبيل إلى مقارنة حاله بحال غيره من الملاكين في الجوار؛ من القوادري، الذي يملك قطعة أرضٍ صغيرة من ثلاثة هكتارات، لكنها مسْقية، ومغروسة بأشجار الزيتون والرمّان، إلى الحاج الدفالي؛ الذي يملك ضيعةً من خمسين هكتاراً مسقية، وعشرات الأبقار الرومية الحَلُوب، بل إلى العياشي نفسِه؛ الذي توسَّعت أرضُه المتوسطة بالشراء من تخوم الفقراء والمعدِمين مثله، فتحوّلت من ضيعة متواضعة، كانت

نواتُها في حدود ستة هكتارات، إلى ضيعة ضخمة تقارِبُ عشرين هكتاراً في المساحة، عَدَا عمّا في ملكيته، وتحت يده، من عقارات في بن جرير.

*

لا مَهْرب له من مواجهة غارات الشمس في الصيف إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. هاهو، اليوم، يستسلم لوهْم الطقس الغائم، فيخِفّ إلى الحقل من دون تارازا. ولم يكن مضى على وصوله ساعتان، بعد نصف ساعةٍ مشياً على الأقدام من «الدوّار» إلى الأرض، حتى بَدَّدَتْ سماءُ التاسعة صباحاً غيومَها العابرة، وأرسلت في الفضاء لهيبَها المبكّر. «ترى، كيف ستصبح الحال حينما تتوسط الشمس الكبد؟». قال ذلك وهو يمسح، بظاهر كفه، حبيبات عرَقٍ تجمّعت على جبينه، ويبدي حسرتَه على تهاوُنِهِ في إصلاح درّاجته النارية المعَطَلَة منذ شهرين.

يسأله أحد العمال المزارعين الثلاثة إنْ كانت بذور الذُّرَة تكفي لتغطي المساحة التي حدّدها ـ هو ـ للحرث والبِذار، أم إنّ عليهم أن يوازنوا بين كمية البذور التي وفّرها لهم والمساحة المناسبة لها، وهي أقل بكثير ممّا يرغب فيه. لم يكن يملك جواباً فوريّاً، لكن حيرتَهُ زادت؛ هو لا يستطيع أن يوفّر المزيد من البذور، لأنها تكلّفه مالاً إضافيّاً لا يملكه، ولا يملك سبيلاً إليه، وهو لا يستحب أن تبقى مساحات أخرى من الأرض ـ على صِغَر حجمها ـ غيرُ مستَغَلّة رغم أنّ رَيَّها مضمونٌ من العيّاشي حسب الاتفاق القائم بينهما منذ أربع سنوات. لو أن الاتفاق شمل البذور، أيضاً، لكان في سعَةٍ من أمره اليوم، لكنه ارتضى ـ ولو على مضضٍ ـ أن تكون «الزَّرِّيعَة» من حسابه حين أبْرَم الصفقة مع

العياشي. لو نجح في أن يدفَع الأخيرَ إلى توفير «الزّريعة» لاختلف الأمر؛ لأصبح في إمكانه أن يغطّي الأرض كلَّها بالبذور، أن يرفع من نصيبه من الدّخْل، وأن يستغل قسماً آخر مُهْمَلاً من الأرض. خطر له ذلك، منذ اللحظة الأولى التي فاتَحَ فيها العياشي، في منزله في بن جرير، في أمْر اقتسام غِلال الأرض التي يملكها مقابل تزويدها بالماء أُسْوةً بما فعل مع آخرين غيره، لكنَّ خجلاً طارئاً مَنَعَهُ من أن يشير إلى الموضوع. ليس متأكداً، اليوم، من أن العياشي كان سيقبل، أمس، بتحمُّل تكاليف البذور، لكنه قد يستطيع أن يقنعه باقتسام تكاليف الذرة والسمسم لو ألحَّ قليلاً، وقد يراهِن في ذلك على لهف العياشي للرّبح واقتناص الفرص.

ما أسوأهُ حظُّه من حظٍّ؛ يملك أرضاً، لكنه لا يملك أن يتمتع بثمْراتها وحده، ومعه عائلتُه. عليه أن يقتسم الأرباح مع غيره: منه البِذارُ، والحرثُ، والعملُ، والسقي، والحصاد...، ومن «شريكه» الماء. يعزّي نفسَه بالقول إن الأرض، والبذار، والعمل، لا تساوي شيئاً من دون ماء. والماء إذا كانت توفّره الأمطار، إنْ كان الموسم ممطراً، وكان المطرُ منتظم التساقط، فهو لا يَفي إلا بحاجة المزروعات الشِّتَوية كالقمح والشعير، وهي - في النهاية - لا تُدِرّ ربحاً، وبالكاد تُوفِّر الكفايةَ من استهلاك العائلة. أما المزروعات المفيدة، والمربحة، كالفَصَّة والبرسيم، لعَلْف الأبقار، أو كالخضروات ذات الاستهلاك والطلب؛ كالطماطم، والبطاطس، والفلفل، والباذنجان، والقَرْع، واليقطين، أو كالفواكه مثل البطيخ، أو مزروعات أخرى مثل الذرة، والسمسم، والحُمُّص، والفاصوليا، والعدس، والفول، وكلها تزرَع في المنطقة، فلا يمكن الاعتماد فيها على مياه الأمطار؛ لأنها تحتاج إلى سقْيٍ منتظم، غيرِ موسمي، ولأن أكثرها يُزْرَع بعد أن يَكُفّ فصل الشتاء.

لكنّ بعض الشعور بالأنَفَة ينبعث في داخله، فجأةً، فيحرِّره من الشعور بالحرمان، أو بالحاجة إلى غيره، فيجد نفسَه يقول ـ بغَير قليلٍ من الثقة ـ إن الماء من دون أرضٍ خَصُوب لا يساوي شيئاً، وهو في أفضل حالٍ ماءٌ يجري في مَصْرَف، أو يرقد في بركة يتبخّر، أو يهجع في بئرٍ تحت الأرض، وأنه كالمني المقذوف خارج الرحم؛ وكان يقول إن العياشي لا يُنْفِق ماءَهُ، خارج أرضه، إلّا كي يتحصّل من ورائها أضعافَ أضعافِ ما يُنفق. العياشي رجلٌ مهووس بالربح، وهو لا يرمي بالفِلْس في فراغ إنْ لم يتأكد أن الفلس صنّارةٌ لصيدٍ أثمن. ولذلك، فهو لا يتصدّق عليه بما شاط من الماء عن حاجات أرضه، وإنما يعطيه ما يَأخذُ أضعافَه. أرضُه أقْوى وأَعْطَى من ماء العياشي، ليتَه ـ فقط ـ مَلَكَ ماءَهُ مثلما يملك الأرض؛ كان أخرج من جوفها العجب العجاب!

مرَّ عليه زمنٌ غيرُ يسير، عامان أو أكثر، قبل أن يفهم لماذا رفض العياشي ـ وابنُه ـ بشدة أن يزرع شتلاتِ شجرِ الزيتون والبرتقال والرمّان واللوز في أرضه، ويتقاسم ثمارها مع العياشي مقابل تأمين الماء الكافي لسقْيها. لم يطلب منه ـ حين عَرَض عليه الأمر أوّل مرّة ـ أن يساعده في تأمين الفسائل؛ فقد ارتضى أن يتحمل وحده كلفتها الباهظة، لكنه أمل في أن يقبل تزويده بالماء للرّيّ. نبَّهه السّي كبّور، جاره في الدّوار، والمالك لقطعة أرضٍ صغيرة تبعد قرابة كيلومتر ونصف عن قطعته الأرضية، إلى أن العياشي ما رَفَضَ عرضَه ـ وهو مُرْبِحٌ ومُغْرٍ ـ إلّا لأنه خشِيَ من أن إدْرَارَ الشجر ثمارَهُ السخيّةَ قد يوفّر له بعضَ مالٍ يمكّنه من حفْر بئر، واقتناء مولِّدٍ لسحب الماء، والاستغناء ـ من ثمة ـ عن مياه العياشي وعوائدها عليه. يريدُهُ، إذاً، فقيراً مُعْدِماً، يقف ـ بالكاد ـ على قدميْه، ولا يَجْمح طموحه لأكثر من الكفاية الذاتية، بحيث

يظل مشدوداً بحبْل الخَصَاصة إليه! وحين سمع من السّي كبّور ما سمع، سلَّم بأن الرجلَ على حقٍّ في تفسيره؛ فلو أن مدخوله زاد بثمار الشجر مثلاً، لَمَا تردَّد في فكّ «الشراكة» مع العياشي، والاستقلال بزراعة أرضه، وحصاد ثمارها.

ينتابه الشعور الثقيل بالإحباط واليأس كلما فكّر في حاله، وكلّما قارن بينها وما كانت عليه قبل أن تُجْبره الأقدار على حمل مسؤولية ستة أفواه. قبل سبعة وعشرين عاماً، حيث كان طفلاً صغيراً لمّا يجاوز العاشرة سنّاً، خرجَ إلى الحقل مع والده ليساعده في الريّ صباحاً، ويسْرح بالأبقار والأغنام في الخلاء المفتوح على حدود القاعدة العسكرية في بن جرير. لم يكن والدُهُ قد حَفَر بئراً، أو استجلب مولِّداً، فالماء كان غزيراً وكافياً لريِّ الأربعين شجرة رمان المعمَّرة، ولِـ «بْحَايَر» الخضر التي كانت تتعاقب طيلة الفترة من أوّل الخريف حتى آخر الربيع. ما كَلَّفَ الوالدَ رزقُهُ الموفور أكثر من محراث خشبي تجرُّه بغلة مملوكة للأهل، وبذور رخيصة الثمن، وسماد من رَوْث البهائم، لا أكثر ولا أقل. ومع ذلك، كان الخير فائضاً: من سماءٍ سخيةٍ، ومن أرضٍ مِدْرَارة. حتى الذين حفروا آباراً، واقتنوا موتورات مازوت، وكان ذلك في بدايات الثمانينيات مع اشتداد وطأة مواسم الجفاف، وجدوا ماءً على عمقٍ لم يتجاوز الأربعين أو الخمسين متراً، ولم يكلِّفهم استخراجُه الكثير: لرخص المولّدات ـ التي شجع «القرض الفلاحي» على اقتنائها بالدفع المُقَسَّط ـ ولرخص المازوت.

«كيف اختفى الماء من تحت الأرض؟»: يسأل نفسه، وهو يراقب كيف تغوص آلات الحفر في قعر الأرض لِمَا يزيد عن مائة وخمسين متراً، بحثاً عن صفحة الماء الضائعة، فلا تكاد أن تبلغ ضالتها. حتى العياشي أُجْبِر على تعميق البئر التي احتفرها، قبل

عشرين عاماً، بعد أن شَحَّ الماء في السنوات الأخيرة، ثم ما لبث أنِ احْتَفَر أخرى على الطرف الجنوبي من أرضه، أسوةً بالحاج الدفالي وأولاد الفقيه العثماني ومولاي هاشم، ممّن سَنَحَ اتساعُ أرضهم وزراعتهم، وما درَّتْهُ عليهم غِلالُهم وأبقارُهم من أرباح، بحفر آبارٍ أخرى لتوفير الماء الكافي. سمع، يوماً، عبد العزيز العثماني، الابن الأصغر للفقيه العثماني، والطالب في الجامعة، يقول إن محنة أهل المنطقة مع الماء لا تعود إلى شحّ الأمطار والجفاف، وإنما إلى الاستهلاك الضخم للمياه الجوفية من قِبَلِ القاعدة العسكرية المجاورة. لكن السّي محمد، معلّم المدرسة الإعدادية في بن جرير، والذي أطْلِق سراحُهُ من السجن بعد مشاجرةٍ بينه وقائد الدرك في المنطقة، شهِدَها الجميع وشهِدوا ضدّهُ فيها، يؤكد أن أزمة الماء يَشترك في صناعتها القاعدة العسكرية وكبار مُلّاك الأراضي ممّن يملكون القدرة على سحب المياه الجوفية، بالمولِّدات التي لديهم، وبكمّيات تفوق حاجياتهم، وتسرق حقوق صغار المُلّاك والفلّاحين

يتحدث السّي محمد، بثقة عالية، عن سرقة المياه، من أهالي المنطقة الفقراء، من قِبَل حفنة صغيرة من كبار ملاك الأراضي، لا تتجاوز أصابع اليديْن، مستدلّاً بأن القاعدة العسكرية موجودة منذ عشرات السنين في المنطقة، وأن المياه لم تبدأ في النضوب والاختفاء من باطن الأرض إلّا بعد أن قامت الضيعات الضخمة، ليبدأ معها سقي مئات الهكتارات من مختلف المزروعات. يجادله عبد العزيز، الذي كان تلميذاً له قبل ثماني سنوات، في المسألة مؤكِّداً أن احتياجات القاعدة العسكرية من المياه تساوي أضعافَ أضعاف احتياجات أهالي المنطقة، ضيعات وأراضيَ بوراً، أغنياءَ وفقراء، وأن موتوراتها تسحب من الماء يوميّاً ما يكفي لزراعة

المنطقة كلِّها شهراً. يردّ عليه السّي محمد، الذي ألِف مجالسته في المقهى كلما عاد من الجامعة إلى بن جرير، بأن أوَّل بئرٍ حُفِرت في المنطقة، في بداية السبعينيات، قبل خمسةٍ وعشرين عاماً، لم تكلِّف صاحبها، الحاج قدُّور، سوى القليل من المال؛ لأن الماء كان على بعد خمسين متراً فحسب، بينما يصل الحفر - اليوم - إلى المائتي متر، وأكثر من ذلك أحياناً.

«ينبغي ألَّا تنسى أن موجةَ الجفاف ضربت البلد، في سنوات الثمانينيات، لأعوام سبعةٍ متعاقبة، وكان نصيب مناطق الرّحَامْنَة من أضرارها كبيراً»؛ قال عبد العزيز.

«لكن استغلال الأثرياء للماء زاد، حينها، أكثر لتزيد معه محنة الفلاحين الفقراء؛ فأمثال والدك وعمّك وحدهم استطاعوا أن يجلبوا الماء من بواطن الأرض، وأن يلاحقوا هبوطه إلى قَعْر القعر، ولم يُصِبْهم من الجفاف ضرر. بل هو شجعهم على مدّ أيديهم إلى أراضي الفلاحين الفقراء يشترونها بعد أن أعوزتهم قلّة الحيلة، ويَئِسوا من رحمة السماء»؛ ردّ السّي محمد.

يتابع عبد الرحمن مثل هذه الحوارات، في «مقهى المسافرين» في بن جرير، حين تشتعل بين السّي محمد وعبد العزيز. ويشترك فيها آخرون تختلف دوافعهم بين راغب في تبيُّن حقيقة الأوضاع الاجتماعية، وأوضاع الزراعة والرعي خصوصاً، في المنطقة المنكوبة بالجفاف والفقر والتهميش، ومسؤولية فلان وعلان في ما يصيبها من كبير النوائب، وبين فضوليٍّ لا يشدُّهُ إلى الحديث المتبادل سوى الرغبة في تمضية الوقت، أو الرغبة في تزويد النّفس بما تيسَّر من معلومات تصلح للتَّنَمُّمِ في مجْمَعٍ آخر، وبين راغبٍ في النفخ في جمر الخلاف بين المتحادثيْن لإشباع نهمٍ ذاتي يفور

في الداخل كالغليل. وهو يشعر، في الغالب، أنها لا تخلو من إفادة، لأن حُجَج المتناظريْن قوية، وأحياناً متكافئة، وإن كان هواهُ مع السّي محمد أكبر؛ لأنه لا يوفّرُ أحداً من المسؤولين عن نكبة منطقة الرّحَامْنَة وأهاليها، ولا يكتفي ـ مثل عبد العزيز ـ بإلقاء اللوم على الدولة والسلطات المحلية والقاعدة العسكرية، وإنما يزيد على هذه جميعاً بتشنيع حادّ على من يسميهم بالإقطاعيين. لم يكن قد سمع هذه العبارة قبل أن ينطق بها السّي محمد، قبل عاميْن، ولم يفهم معناها. وحين سأل جعفر، جاره في الدوار، عمّا تعنيه الكلمة، أجابه بأن الإقطاعيين هم قُطّاع الطرق. الأمر الوحيد الذي يثير استغرابه، في المجادلات التي تدور في «مقهى المسافرين»، أن عبد العزيز يجترئ على أستاذه في الحديث، من دون أن يردعه عن ذلك رادع من خجل، وأن السّي محمد يتقبل منه، بصدر رحب، جرأته وكأنها أمر عاديّ بين معلِّم وتلميذ سابق، بل هو يَسْعَى في لقائه وتجاذُب الحديث معه كلّما زار البلد، وكأن الشابّ الصغير ندٌّ له!

*

اشتدّ الحرّ في الظهيرة، ولم يَعُد حائط ضيعة العياشي يوفّر ظلّاً يلوذُ به. ماء «البرَّادة» الطّينية، المغلَّفَة بقماشٍ من الخِيش المبلَّل لترطيب ما في جوفها، أصبح دافئاً بحيث لا يغري بالشرب. أما الهواء القليل الذي يهبّ من نواحي مناطق السّرَاغْنَة فمشبَّع بالنار، كأنما هو على جمرٍ يمُرّ قبل أن يلفح بن جرير. ما زال العمّال الزراعيون لم يكملوا عملية الحرث، وهُمْ توقفوا ساعتين بسبب عطل فني في التراكتور استدعى مجيءَ ميكانيكيٍّ من بن جرير لإصلاحه. أمامهم ساعة أخرى، على الأقل، قبل أن يُنْهُوا عملهم.

فكّر في أن يستغل بعضَ هذا الوقت لجلب ماءٍ بارد يطفئ ظمأه وظمأ العمال. ليس من دكّانٍ قريب ليقتني الماء منه، وأقرب دكّان يبعد مسافة نصفِ ساعةٍ مشياً، وليس في وسعه قطع هذه المسافة كلِّها، في الذهاب والإياب، تحت جحيم هذه النار الحارقة. لا سبيل إلى الحصول على الماء إلّا بطلبه من حارس ضيعة العياشي، الحريزي، أو من حارس ضيعة الحاج بورحيم، بوبْكَر. علاقتُه بالأخير ليست على ما يُرَام منذ زمنٍ بعيد؛ منذ شجارٍ بين والده وبوبكر على أغنامٍ للوالد وجدها الحارس ترعى داخل الضيعة قبل تسويرها، وحين كانت الحدود مفتوحة بين الأراضي، فهدّدَ والدَهُ بذبحها إن وجدَها ثانيةً في أرض الحاج، وتَلاَسَن الرجلان، ومن يومها بات بوبكر يُبْغِض عائلتَه كلَّها: كبيرَها والصغير. أما الحريزي الأعور، وإن كان غليظاً وذا طبْع حادّ، إلّا أن صلات العمل المباشر معه بدّدت كثيراً ممّا بينهما من جفاء.

تَعَوَّد أن يطلب منه ماءً، في مثل هذه الحالات، أو من زوجته فطُّومة إن كان زوجُها خارج الضيعة. وكانت إجابةُ حاجته وفيرة: سطلاً من ماء البئر لا تقل حمولتُها عن عشرين لتراً تكفي لترويَ عطش جمهرةٍ من العُمّال المزارعين أو الحصّادين. وهو ما شَعُر، يوماً، أنه يتسوّل ماءً حين يطلبه من الحريزي، ولا كان الأخيرُ يستكثر عليه الحقَّ فيه؛ فهو لا يطلبه إلا متى اشتد الحَرّ عليه وعلى العاملين في حقْلٍ يشترك معه في غلّته مخدومُه العياشي. والحريزي لا يستطيع فوق ذلك أن يَمْنَع عبد الرحمن منه خشية أن يَشِيَ به لدى العياشي وأبنائه، على الرغم من أن حبْل المودّةِ بينهما مقطوع، ولئلّا يحاسبه العياشي على سوء معاملته لمن هُمْ في حكم «شركائه».

طَرَقَ باب الضيعة، الذي كان مُغْلَقاً، ووَقَفَ ينتظر مثلما يفعل دائماً كلما هبَّ لطلب شيء من الحريزي. طال انتظاره ولم يُجِبْه

أحد. كرّر الطّرْقَ ثانيةً وثالثةً من دون أن يَلْقَى جواباً. استغرب الأمر لأن الحريزي لا يخرج عادةً في مثل هذا الوقت من الظهيرة. وهو لم يَرَهُ يخرج منذ وصوله قبل أربع ساعات إلى هذا المكان: حيث مدخل ضيعة العياشي على مرمى بصره من المكان الذي هو فيه. والحريزي حين يخرج من الضيعة، يركب دراجته النارية إن كان يبغي قضاء حاجة شخصية أو عائلية خاصة، كأن يقتني شيئاً من سوق بن جرير، أو من الدكان البعيد قرابة كيلومترين، أو يركب سيارة البيجو بيك آب إذا كان وجهته قضاء أمرٍ للضيعة أو لصاحبها وأبنائه. وهو إذا خرج يترك أهل بيته في الضيعة: زوجته وابنتيْه. وكثيراً ما أسعفتْه فطُومة، في غياب زوجها، بما أتى يطلبه. لكنه الآن يقف حائراً أمام سِرِّ غياب الجميع عن الضيعة مع أن مَسْكن الحريزي الأعور يقوم على مدخل الضيعة، ويكفي طَرْقٌ خفيف على بوابتها ليسمع أيٌّ من قاطنيه صوت الطَّرق. فكَّر في أن يكون الحريزي يأخذ قيلولته في ذلك الحين، ثم ما لبث أن طرد الفكرة من رأسه؛ ليس في يوميات الحريزي شيء اسمه القيلولة، لا لأنها لا تنتمي إلى عاداته، ولكن لأن مسؤوليته في مراقبة المزرعة والعاملين فيها لا تسمح له بترف الاستلقاء بعد الغداء. وهو على فَرَض أنه يَقيل، ويطلب للجسد راحةً يختلسها من غفلة أصحاب الضيعة، القاطنين في البيت الفسيح ذي الطابقيْن، الذي يُطِل على مسكنه على بعد مائة متر، فهو لا يمكن أن يكون قد تناول وجبة الغداء وخَلَد للهدأة في هذا الوقت من النهار حيث الساعة لم تبلُغ الواحدة والنصف بعد. ولو حصل ذلك، صدفةً، فليس للجميع أن يكون غارقاً معه في القيلولة!

نسيَ عطشه، قليلاً، وهو يفكّر في المسألة. قدّرَ أن شيئاً ما غيرَ عاديّ يجري، أو هو جرى، وراء أسوار ضيعة العياشي؛ إذ لا

يمكن أن يغيب أفراد أسرة الحريزي جميعاً من دون أن يكون السبب كبيراً، وحتى إذا ما كانت زوجته وابنتاه في بيت العياشي، وهنّ نادراً ما يذهبْن إليه جميعاً، حين تدعو الضرورة إلى ذلك، كوفود ضيوف على أصحاب الضيعة، وحاجة أهل العياشي إلى مساعدتهن خادمةَ البيت ورَبَّتَهُ في ترتيبه، أو في إعداد الطعام، لا يغادر الحريزي مكانه؛ إذ لا حاجة لأحدٍ به في داخل البيت، بعيداً عن المزرعة والعاملين فيها.

عاد إلى طرق باب الضيعة بقوّةٍ عساهُ يظفر بجوابٍ من أحدٍ ما، بعد أن يئِسَ من أن يكون الحريزي هو المجيب، فلم يردّ على طرْقاته العنيفة سوى نباح الكلاب. لم يعد العطش هو ما يدفعه إلى مزيدِ إصرارٍ على طَرْق الباب، وإنما الفضول الذي رَكِبَهُ فجأةً، ولعلّه الخوف على الحريزي من أن يكون مكروهٌ ما أصابه، أو أصاب أحداً من أفراد أسرته. ليس بينهما ودّ منذ عَرَفا بعضَهما قبل عشرين عاماً، حين التحق بالخدمة في أرض العياشي؛ فقد كشف الحريزي عن بعض الخشونة والغِلْظة في معاملته، على الرغم من أن والدَهُ عَامَل الحريزي معاملةَ الجار، ولم يتوقف عن سؤاله عن احتياجاته، في الأيام الأولى لوصوله، لعِلْمِه أنه ليس من أهالي المنطقة، ولا يعرف أحداً منها سوى السّي العياشي وزوجته التي يصله بها الانتماء إلى «أولاد حريز». غير أن انقطاع الودّ لم يمنعهما من التعاون في الأمور التي تتعلق بـ «المصالح المشتركة» بين «الفيرما» والأرض القرعاء.

عاد، يجرُّ خفّيْ حُنَيْن، إلى الماء الساخن يستجير به من شدّةِ الحَرّ. لم يكن يستطيع شربه مثلما فَعَل عاملاَ الحراثة، فاكتفى بصبّه على رأسه وصدره عسى أن يُرَطّبَ بعضُ الهواءُ الساخن نصفَه الأعلى المبلول. حين تهيّأ للعودة إلى الدوّار، بعد انتهاء العامليْن من عملية

الحرث، وكان ذلك قرابة الثالثة بعد الظهر، فوجئ بسيارة رونو ١٨ متهالكة تتوقف أمام بوابة ضيعة العياشي، وتنزل منها حليمة: الابنة الصغرى للحريزي. أسرع الخطى نحو الضيعة، ونادى على الصغيرة بصوتٍ عال. فوجئ باحتقانٍ في عينيْها حين اقتربت منه، فتردَّد قليلاً أن يسألها عن سبب غيابهم المفاجئ، ثم تَشَجَّعَ قائلاً من دون أن يُشْعِرها بالمفاجأة: «طرقْتُ باب الضيعة قبل قليل، ولم يردَّ عليَّ أحد؛ هلِ الوالدُ في الخارج؟». أجهشت بكاءً وانصرفت من أمامه مسرعة من دون ردّ. وقف مذهولاً لِلَحظةٍ وزادت وساوسه: «ترى ماذا حصل للحريزي؟» تَخَطّى عَتَبة مدخل الضيعة على غير عادته ودخل؛ ربَّما من باب الشعور بأن أحداً غير الحريزي لا يمكن أن يمنعه من الدخول، وربّما تحت وطأةِ صدمةِ بكاءِ حليمة، أو بدافع ما لم يَتَبَيَّنْهُ على وجهٍ من الدقة حين وَلَجَ إلى حيث وَلَجَ. تقدَّم بضعةَ أمتارٍ إلى قريب من «بيت» الحريزي ووقَفَ متردّداً. نادى على حليمة مرتين أو ثلاثاً وانتظر. لم تأت، خَطا الأمتار الثلاثة، التي تفصله عن البيت الطيني، ونادى عليها ثانية. حين أطلّت عليه، كانت قد غسلت وجهها من الدموع، وتوقفت عن البكاء، فبدَت أكثر تماسكاً وإنْ لم يزايل الاحمرارُ وجنتيْها وعينيْها.

«خيرٌ إن شاء الله؛ لماذا تبكين؟».

أحْنَتْ رأسها وعينيْها وصمتت.

«أين السّي الحريزي؟».

«في المستشفى».

«في المستشفى؟ ماذا حصل؟».

روت له، بصوت مخنوق، ما جرى لوالدها منذ مساء الأمس بعد عودته من صخور الرحامنة مع يوسف، ابن العياشي، حيث كانا

على موعدٍ مع مورِّدِ أعلاف؛ «عاد متعباً ـ تقول ـ وكأنه قطع الأربعين كيلومتراً مشياً، ولم يأكل شيئاً مما قدّمتْه له الوالدة مفضّلاً شرب ماء الزعتر المغلّى. كان يُحِسّ بوجَعٍ في بطنه، وعَزَا الأمر إلى حبّات «الهندية» التي تناولها بعد الغذاء. حاول أن ينام، لكن وجعه اشتدّ عليه فطيَّر نومَه الذي أنضجه التعب. خرج إلى فِنَاء الضيعة بعد أن أعيَتْهُ مقاومةُ الآلام، ثم ما لبث أن شرع في أنينٍ حادّ يشبه الصراخ. سمعناهُ جميعاً: أمي وأختي وأنا، فهرعنا لإسعافه. بدأ الوالد يتلوى من جحيم الألم في أحشائه، وهو منبطح على الأرض، وكان يضرب بطنه بقبضته ثم يصرخ كحاملٍ أرهقها مخاضُ الوضع. فقدنا تماسكنا ولم نعد ندري ما نفعل، ولم نشعر إلّا والوالدة تهرول إلى بيت السّي العياشي وهي تطلب النجدة. تعالى نباح الكلاب في الأثناء، واختلطت الأصوات العالية، فوصلت أصداء الجلبة إلى البيت الكبير، ثم لم يلبث السّي يوسف أن أطل من شرفة غرفته يسأل عمّا يحدث. توسّلت إليه أمّي أن ينزل لنجدة والدي لأن مصاباً أصابه. حين وصل السّي يوسف وعاين وضْعَ أبي، الذي يتلوى من الألم ويُطلق صراخه في الفضاء، قرَّر أن يحمله إلى مستشفى المامونية في مراكش، ورافقناه جميعاً في السيارة».

«ممَّ كان يشكو، وما هي حاله الآن؟».

«طوال الطريق إلى مراكش، لم تتوقف أمي عن القول إنه تناول طعاماً مسموماً، وإنّ أحداً ـ ربما ممّن يكرهونه ـ دسَّ له سمّاً في مأكولٍ أو مشروب، وكانت تسأل السّي يوسف عن سفرتهما إلى صخور الرحامنة، وعمّا تناولاهُ هناك من طعام، وعند مَن مِن الناس تناولاه. أكّد لها أنهما تناولا الغداء في مقهًى في السوق، وأنه هو نفسه من اشترى لهم لحم الماعز من الجزّار وسلَّمه للمشواتي لشيِّه، ولم يَعْدُ شرابُهما برَّاداً من الشاي بالنعنع.

لم يُطَمْئِنْهَا كلامُهُ فقالت له إن والدي تعوَّدَ أن يأكل نصف نعجةٍ في الوجبة من دون أن يُصاب بطنُه بإسهالٍ، أو معدَتُهُ بمغص، فما كان من السّي يوسف سوى أن طلب منها الإمساك عن الحديث لأنه يسوق السيارة في منتصف الليل، فاستجابت مرغمة».

«وماذا حصل حين وصلتُم إلى المستشفى؟».

«أدخلَهُ السّي يوسف إلى قسم المستعجَلات، وحقَنَه الطبيب بحقنة مهدّئة خففت، قليلاً، من آلامه. وبقينا ننتظر إلى الصباح، وابن الحاج العياشي لم يفارقنا لحظةً، حيث عاينَه الطبيب، وفحصه مقدار ساعة، ليخبرنا بأنه من الضروري أن يخضع لعملية جراحية في المصران الأعور».

«هل أجروا له العملية؟».

«لم يجروها حتى الآن، وإنما في صباح الغد كما قال لنا السّي يوسف نقْلاً عن الطبيب.

«من بقي في المستشفى مع والدك؟».

«أمي».

«وأين أختك والسّي يوسف؟».

«أختي راحت مع السّي يوسف إلى بيت أخته في حيّ جْنَان العافية لترتاح هناك قليلاً، لأن الطبيب لم يسمح لنا بالمكوث معه جميعاً في غرفة المرضى، أمّا أنا فجئت إلى الضيعة لأكون قريبة من طلبات أهل البيت الكبير، وسأعود غداً صباحاً إلى المستشفى».

«سأرافقُك غداً إلى مراكش لأطمئن على الوالد».

*

لا يدري كيف وصل خبرُ مرض الحريزي إلى بن جرير، ولا من أبلغه للناس. حين جلس إلى أصدقائه في مقهى المسافرين، في مساء اليوم نفسِه، كان الحريزي حديثَ الجميع؛ قال العطاوي إن «المصرانة الزايدة» لا قيمة لها في الجسم، ولا وظيفة لها حيوية، ولذلك سموها «زائدة»، ولن يلبث الحريزي الأعور، بعد العملية، أن يصبح مثل البغل. ضحك مبارك من كلامه معلقاً: «ولكنك تنسى أنها تُنْبِتُ جذورها تحت، وإذا اقْتُلِعت، ماتت جذورها بين الفخذين». أردف حمّان مقهقهاً: «وأية جذور بقيت للحريزي؛ لقد أفناها في زواجاته الثلاثة، وهو نيَّفَ اليوم على الستين؟» سأل العطاوي عمّا إذا كان الحريزي يتناول كثيراً بذْر اليقطين لأن هذا مسؤول عن مشاكل المصران الأعور، فأجابه حمّاد بأن العقارب والأفاعي وحدها سلِمتْ من أشداقه، وأنه يدفع ـ اليوم ـ ثمن شراهةِ بطنه. قال عبد الرزاق، الميكانيكي، إن الحريزي سليمُ الأمعاء، وإن الذي به هو انفجار مرارته، مستدلّاً على ذلك بأنه أخبره مرةً أنه يُفِيق على فمٍ وحَلْقٍ تتسلقهما المرارةُ في الصباح، مضيفاً أنه يعاني مشاكلَ في العمل في ضيعة العياشي، وأن ابن الأخير ـ يوسف ـ يتهمه بالغش في حسابات الحليب المورَّد للتعاونية، وفي حسابات سماد الأرض.

«وما قولكم في أن السّي يوسف هو من أخذه إلى المستشفى في منتصف الليل، ولَبثَ معه حتى الصباح؟»: أردف عبد الرحمن.

لم يكن عبد الرزاق قد سمع بذلك، فأبدى الاستغراب من الخبر. لقد أفاده بلخير، سائق سيارة العياشي الكبير، أن شجاراً وقع قبل يومين بين يوسف العياشي ومندوب التعاونية على كمية الحليب الموردَّة إليها من الضيعة؛ لاحظ يوسف أن مائة وستين لتراً اختفت من سجلّ التسليم خلال أسبوع واحد، وحين طالب المندوبَ بتفسير

ذلك، أجابه بأن عليه أن يسأل في الأمر المسؤولَ في الضيعة عن إمداد سائق سيارة التعاونية بالحليب. ويؤكد بلخير، الذي حضر الواقعة، أن يوسف كتم الأمر عن الحريزي، وراقبه من بعيد إلى أن ضبطه شبهَ متلبِّسٍ بالاختلاس؛ فقد أوصى أحد عمّال الضيعة بحضور عملية تسليم الحليب، ومراقبتها من دون إثارة انتباه أحد، وإبلاغه بمقدار الليترات المسلَّمة للتعاونية، على أن لا يشعر الحريزي بالأمر. وقد أخبرهُ العامل أن عدد الليترات المسلّمة ذلك اليوم، الذي تجسَّس فيه، بلغ مائة وأربعةً وثمانين ليتراً. لكن الحريزي أبلغه ـ حين سأله عن المقدار المسلَّم ـ أنه مائة وأربعة وستون لتراً، فلم يكن منه سوى أن انفجر في وجهه شتماً، مهدِّداً إياهُ بإبلاغ الوالد بسرقاته وخيانته لمن مدَّ له يدَ العَوْن، ووضع فيه ثقته. حاول الحريزي أن يدفع عنه التهمة، لكن ابن العياشي لم يأْبَه لكلامه، ثم لم يلبث أن قال إنه سبق وتستَّر على غشّه حين راجع دفاتر المشتريات من سماد الأرض، فاكتشف أن الوالد دَفَع سعر واحدٍ وعشرين قنطاراً من السماد الكيماوي، بينما لم يَصِل الضيعةَ منها سوى تسعة عشر قنطاراً! وقد روى بلخير، لعبد الرزاق، أن الحريزي الأعور سُقِط في يده، بعد أن واجهه يوسف بحقيقة ما يَعْلم عن غشه، ونَفى متوسِّلاً في ذلك أغلظ الأيْمان، ثم ما لبث أن بدأ في رجائه واستعطافه، بعد أن أيْقن بأنه لم يصدّق حلْف يمينه، وخشيَ أن يَشِيَ به. ولم تهدأ ثائرةُ يوسف ويُعْرِضَ عن الحريزي، حتى وجدَ الأخيرُ نفسَه ـ يؤكّد بلخير ـ يضع رأسه بين يديه، ويجثم على صخرة على مقربةٍ من الإسطبل وهو يندب حظه العاثر في صمت. وحين أَتَتْهُ بنتُه الكبرى، ربيعة، تسأله إن كان يريد شاياً، قذفها بأشنع الشتائم، وسبَّ التي ولدتْها من دون سبب!

ظل سعيد البركاوي، ابن بوجمعة البركاوي خمّاس مولاي

هاشم في أرضه، صامتاً على غير عادته وهو يتابع الحديث عن مرض الحريزي. وقد استغرب كثيرون صمْته لعِلمهم أنه لا يفوِّت على نفسه فرصة التعريض بالحريزي حين تلوح، لسلاطةِ لسانه، ولحسابٍ بينهما منذ زمن اختلف في بيانه خلطاؤهم لإمساك الرجليْن معاً، الحريزي وسعيد، عن الحديث بشأنه. ولم يكن سعيد ينتظر أكثر من سؤاله رأيَه في مرض الحريزي حتى ينطلق في الكلام؛ فما إنْ قال حمَّان، بلؤم مفضوح، إنّ سعيداً وحده يستطيع أن يُخْبر عن وضع الحريزي الصحيّ، وما إذا كان مصاباً ـ فعلاً ـ في المصران الأعور، كما يقول الأطباء، أم بالمرارة كما يقول عبد الرزاق، حتّى أطلق لسانه في الرجل الغائب مستعيراً لغة البريء الذي تستبد به الخشية عليه. قال منتحلاً التساؤل الساذج: «لا أدري إن كان مرضه في المصران أو المرارة، لكني أخشى أن يكون السبب، في الحالتين، واحداً». ازدرد ريقه ثم استطرد، بعد أن شدّ إليه انتباه الجميع، قائلاً وكأنه يستأنف معهم حديثاً بدأه: «أنتم تعرفون أن أخطر شيء أن يَبْلَع المرءُ، على غَفْلةٍ منه، ما يمزّق أحشاءَه؛ والحريزي يثق سريعاً بمَن يرتاح إليه فلا يحتاط».

انطلقت ألْسُنٌ من المفاجأة تسأله قصدَه في ما قال. نَهَرَهُ ميلود السمسار قائلاً إنهم كانوا ينتظرون منه معلومات عن مريضٍ فإذْ به يحدّثهم عن ضحيَّةٍ وجُناة، واستعاذ بالله من سوء نيته. ابتسم سعيد وقال:

«لو عرفتم الحريزي مثلما عرفته، لما تكلَّفْتُم مفاجأةً أو عتاباً. إن الرجلَ فُعِلَ به ما مزَّق بطنه، ولا يَخَالَنَّ أحدٌ منكم أنّي أُعَرِّض به أو أُشَهِّر، إنّما أقول ما أرجّح أنه حصل له ممَّن بَيَّت له السوءَ من خِلّانه».

نظر الحاضرون، في وجوه بعضهم البعض، نظرات تساؤل

عمَّن يكون هؤلاء «الخِلّان» (منهم) ممّن تَسَبَّب في رقاد الحريزي في المستشفى. ركّز أكثرهم النظر على عبد الرزّاق الذي عُرِف عنه غيرُ قليلٍ من الخشونة تجاه الحريزي.

«من فَعَل به ذلك؟ وماذا فعل به؟» تَسَاءل العطاوي.

ـ «الحريزي تَنَاوَل «التُّوكال» من امرأة، ليس لديَّ شكٌّ في ذلك. وإذا كان اصطدم بيوسف العياشي حقّاً حول الاختلاس، فليس ذلك هو السبب في ما جرى له، ولن يلبث الطبيب أن يكشف ذلك بنفسه».

«مَنْ تكون المرأة التي دسَّت له «التوكال»؟».

«الضَّاوية؛ عشيقتُه التي هام بها، وأفنى نصف ما يجمع من مال بين فخذيْها».

«اتَّقِ الله يا رجل»؛ علَّق مبارك البرَّاح.

«أقول ما أعلم»؛ أضاف سعيد.

حدّق عبد الرحمن في عينيْه قائلاً:

«أُقْسِم أنك تفتري عليه كذباً؛ فالرجل مستقيم مع أهله، ولم يُسْمَع عنه ما يُشينه، وهو فوق ذلك يصلي وأنت لا تصلي. فكيف لك أن تتطاول عليه بالبهتان؟».

قهقه سعيد وقال موجهاً حديثه إلى عبد الرحمن:

«أنا لست مغفَّلاً مثلك لأُخْدَع في الحريزي، وأنا أعلَمُ من خباياهُ وأسراره ما لا يعْلمه عنه أحد؛ إنه زير نساء يندلق لسانُه ما إن يرى أنثى تمرّ من أمامه، أو يشمّ رائحتها».

«يفعل ذلك في الحلال»؛ قال العطَّاوي.

«أيّ حلالٍ يا ابني في معاشرة الضاوية، وقبلها محجوبة ومَنَّانة وعيشة؟».

سأله كثيرون كيف يجزم بأن الرجل عاشر هؤلاء النسوة وهُنَّ تحت أنظار أهل بن جرير جميعاً، وزبائنهم معروفون لدى الجميع، فجادلهم في الأمر متهماً إياهم بالجهل. وحين قال حمَّان ـ معرِّضاً بسعيد ـ إنه قد يكون صادقاً في ما يقول لأنه خبير بالمومسات وأسرارهن، لم يَزِد عن القول إن حمّان صادق في حدْسه، ولعلَّ تردُّدَه على مومسات بن جرير، واستقاءَهُ المعلومات منهن عن زبائنهن، هو ما يجعله موافقاً رأيَه في ما ذهب إليه من تفسير لمرض الحريزي.

حين انفضَّ الجَمْع مع غروب الشمس، قبيل الثامنة والنصف، انتحى عبد الرحمن بعبد الرزّاق جانباً، وطلب منه أن يُعِيرَهُ سيارةً من الكاراج ليوم واحد، مدّعياً أنه مضطرّ للذهاب صباح الغد إلى قلعة السراغنة لقضاء أغراض إدارية. أبَى الميكانيكي جوابه، لكنه بعد إلحاحٍ منه وبعد أن دسَّ في يده ورقتيْن من فئة عشرين درهماً، نزل عند طلبه مشترطاً أن يعيد السيارة عصر اليوم التالي لأنه ملتزم مع مالكها، كما ادّعى، بتسليمه إياها في مساء الغد. وافق عبد الرحمن واستلم السيارة.

مرَّ بضيعة العياشي، في طريق عودته إلى الدوّار، وطرق الباب طرقتين. بعد هنيهة سمع صوت حليمة يسأل من الطارق. طلب منها أن تفتح الباب، ففتحته وأطلّت بعينين شبه متورمتين من البكاء. واساها بكلمتين وقال لها: «سآتي صباحاً في السابعة والنصف لنذهب سويّاً إلى المستشفى». شكرته ثم توادعا.

II

كانت حليمة جاهزة تنتظر على مدخل الضيعة حين وصل في السابعة والنصف صباحاً. استقلت السيارة، مقتعدةً المقعد الأمامي المجاور، وانطلقا. سألها في طريقهما إلى مراكش، إنْ كانت تعلم متى ستُجْرى العملية للوالد، فأجابت بأن الطبيب حدَّد موعدها بين العاشرة والعاشرة والنصف. شجعه الجواب لأن يعْرض عليها تناول وجبة الفطور في سيدي بوعثمان، الذي كان على وشك بلوغ مداخله، ولم تمانع ما دامت المسافة المتبقية للوصول إلى المستشفى لا تزيد عن الأربعين دقيقة.

طلبَا شاياً وخبزاً وزيت زيتون؛ فُطورَهُ المُفَضّل والمعتاد منذ الطفولة. اكتشف أيضاً، أنها تشبهه في عادة الفطور بدليل أنها هي من طلبت الوجبة. لم تكن أمامها خيارات كثيرة؛ فلا أرغفة في المقهى ولا بَغْرير، ولا هلاليات، ولا طواجن بيضٍ بالخليع، إنما زيت، وزبدة، ومُرَبّى المِشمش. ولم تختر من ذلك ـ على قلّته ـ غير ما يطيب له تناولُهُ صباحاً بعد حريرةِ السميد. تفاءل خيراً بهذا التوافق بينهما في الذوق، وطَفِقَ يَحتسي شَايَهُ وهو يتأمّلها من دون أن تشعر بنظراته. كانت هادئة وساهمة تتأمل في البعيد، ولم تتحدث إلّا حين سألها، في السيارة، عن موعد العملية، وحين

دعاها إلى أن تطلب من نادل المقهى فطورها. احترم صمتَها وسهومها ولم يَنتهكْهُ بكلامٍ أو سؤال، بل هو وَجَد فيه مناسبة لاكتشاف جمالها الهادئ. تزدادُ سحراً مع الحزن والصمت، لكنه لا يريدُها حزينة وإن أضاعَ عليه ذلك فرصةَ التملّي في حُسْنها المغموس في الحزن. لا تشبه أحداً من أفراد أسرتها، ولا هي تشبه واحدةً ممَّن وقَعَتْ عيناهُ عليهن في المنطقة بعد تلك التي خطفت لبَّه في الصِّغَر ثم اختفت؛ في عينيْ حليمة صفاءٌ مُذْهِلٌ، ونظرةُ استغراقٍ يُجَلِّلُها بعضُ ميْلٍ إلى الزرقة في البؤبؤيْن شبيهةٍ بزرقة عينيْ أخيه عبد الرحيم؛ وفي الثغر مشروع ابتسامة مؤجَّلَة تنتظر خبراً سارّاً، أو تحيةَ طلعةٍ مليحة، أو نكتةً ينزِل العبوسُ أمامها طائعاً. لم يَفُتْهُ أن يلاحظ، منذ فترة، علامةَ الجمال التي لا يُخطئها في المرأةِ رجُلٌ: احتفار الوجنتين عند الابتسام وتكوُّن الغمّازتيْن، وبريق العينين المتوهّج. لاحظ ذلك في الماضي القريب، منذ أشهر معدودات اكتشفها فيها، أو اكتشف فيها المرأة التي فاضت ـ سريعاً ـ عن الطفلة والصبيّة التي كانتْها.

اكتشفها ثانيةً في مطلع الربيع الماضي؛ قبل قريبٍ من أشهر خمسة. الطفلة الصغيرة التي كانت تعبث بقيلولته، وهو مُسْتَلْقٍ على ظهره في الحقل، أصبحت امرأةً على نحوٍ مفاجِئ. متى حدث ذلك، وكيف؟ ليس يدري؛ يعرف، فحسب، أنه انتبه متأخراً إلى أن جسمها فاضَ عن حدِّه المألوف، وأخذَ هيئةَ جسمِ امرأةٍ ولمَّا تُكْمِل عامَها السادس عشر. كان في الواحدة والعشرين من عمره حين وُلِدَتْ حليمة، وهو مَنْ أبْلَغَ أباه بأن طفلةً وُلِدت في بيت الحريزي الأعور. وهو يَذْكُر أن والده علّق، حينَها، على الخبر قائلاً إنه لا يعرف إنْ كان عليه أن يهنئ الحريزي أم يواسيه؛ فالرجل انتظر مولوداً ذكَراً، حتى إنه وثِقَ بأن حمْل فطومة الصعب لا يمكن أن

ينطويَ إلّا على جنينٍ ذكر، وكان يستشير أصحابه في أيّ اسمٍ يختار له: اسم والده أحمد، أم اسم جدّه المختار. شاطر أباهُ رأيَه - من دون تصريحٍ أو تلميح - في أن الحريزي لابدَّ أن يكون حزيناً لأن زَوْجَتُه أنجبَتْ له أنثىً ثانيةً فيما كان ينتظر ذكراً يساعِدُه على حَمْل أعباء العمل في الضيعة. لكنه كان مرتاحاً في داخله لهذا القَدَرِ الذي أصاب الحريزي في تلك اللحظة؛ فلقد كان يحتقد عليه، ولا يحتفظ له في نفسه بمشاعر طيبة كردٍّ فِعْل - بَدَا له مشروعاً تماماً - تجاه رجُلٍ يُجاهِرُ بشعورِ كُرْهٍ له لم يَعْرف له سبباً. ها هو الآن يجدّد الإعلان - في داخله - عن الارتياح لأن الحريزي أنجب هذه المرأة الصغيرة الجذابة التي حرَّكَت فيه رجولةً خامدة، وجدَّدَتْ في صدْره ذكرى حبٍّ قَضَى - وهو في المَهْد - قبل ثلاثة وعشرين عاماً: اكتشف، متألماً، كم كان مستحيلاً بين ابن فلّاحٍ صغير وابنةِ ملّاكٍ كبير. ليذهبْ ذلك الحبُّ القديم المستحيل إلى الجحيم، ما دام يمكن القلب أن يَسَع غيره. . . ولو بعد زمن طويل.

صَعِدَا السيارة، عند التاسعة صباحاً، واستأنفا المسير إلى مراكش. عند مدخل باب دكّالة، توقف ونزل من السيارة متجهاً إلى عربات الفواكه. اشترى موزاً، وتفاحاً، وإجّاصاً، وبرتقالاً. حين عاد قالت حليمة، برِقّة، إنه كان عليه أن لا يكلّف نفسه ذلك كلَّه، لأن ما قام به معها، وحرصاً منه على الاطمئنان على صحة والدها، يكفي ويزيد. نزلت عليه عباراتها برداً وسلاماً، فاغتنم الفرصة كي يقول إنها ووالدُها أعزُّ عليه من نفسه، ثم ساد بينهما صمت.

*

اشتدّ الوجع على الحريزي، حين وصل عبد الرحمن وحليمة إلى المستشفى، بعد نفاد مفعول الحقنة المهدّئة التي حقنَهُ

الممرِّض إياها في السادسة صباحاً. كان وجهُه حادّاً، لكنه أبدى التأثر لزيارة عبد الرحمن، وشَكَرَ سعْيَه الحميد في الاطمئنان عليه، وطلب منه أن يستعجل الطبيب في إجراء عملية الاستئصال، أو في حقنه ثانيةً بمهدّئ. ردّت فطومة بأن الممرّض أخبرها، للتوّ، أن العملية ستُجْرى بعد نصف ساعة، وأنه لا يستطيع حقنه بمهدّىءٍ من جديد لأنه سيخضع، بعد قليل، للتخدير. جرَّب، بصعوبة، أن ينسى آلامَهُ الموجعة بالحديث إلى عبد الرحمن. أوصاه خيراً بأهل بيته إن أصابه مكروه، وقال له إن ربيعة وحليمة أختان من أخواته، ولا يستطيع أن يستأمن عليهما أحداً غيره، لأنه ـ مثلما قال له ـ يشبه والدَهُ في أخلاق المروءة والشهامة. تأثر عبد الرحمن لكلامه، ودمعتْ عيناهُ حين رأى بكاء الزوجة والبنتين، وأكَّد له أنه سيُعافَى ما إنْ يخضع للعملية. بعد قليل، وضع الممرضون الثلاثة الحريزي على سرير متحرّك، وأخذوه إلى غرفة العمليات.

جلس الأربعة في الممرّ المقابل لغرفة العمليات، وما لبث يوسف العياشي أنِ التحق بهم. سأل فطومة عمّا جرى أمس مساءً وليلاً؛ منذ ترك المستشفى إلى بيت أخته. وروَتْ له أن أوجاعه اشتدتْ منذ تركهم عصر أمس، وأن الممرضين حقنوه بمهدّئات ثلاث مرّات منذ ذلك الحين، ورفض أن يتناول أيّ طعام بما في ذلك الفاكهة، ولم يزد عن شرب قدحيْن من الحليب، وكان طيلة الوقت يصرخ، أو يَئِنّ، أو يغالب آلامه فيقرأ «آية الكرسي». التفت يوسف، فجأة، إلى عبد الرحمن وكأنه انتبه إلى وجوده، وسأله متى أتى إلى المستشفى وكيف علم بخبر مرض الحريزي. أجابه بأنه وصل من ساعة وربع بعد أن أخبرته حليمة، أمس في الضيعة، بأنه نُقِل على عجل إلى مستشفى المامونية، وأردف عبد الرحمن بأنه لن ينسى له جميلَهُ بنقله في منتصف الليل إلى المستشفى،

وأضاف ـ مختلقاً ـ أن أهالي المنطقة جميعاً أكبروا فيه هذه اللفتة الكريمة حين علموا بما فعله إنقاذاً للحريزي.

«هل رأيت أحداً منهم وحدّثك في الأمر؟»: سأل يوسف.

«نعم؛ رأيتُ كثيرين مساء أمس في بن جرير، وأخبرْتُهم بما أبلغتني إياه حليمة، فتحدثوا طويلاً في الموضوع شاكرين لك حُسْن التصرف، ومتمنين الشفاء للمريض».

«لكني لم أَرَ أحداً منهم معك هنا».

ـ «لم أخبرهم باعتزامي المجيء. وأغلب الظن أنهم سيزورونه بعد العملية؛ إمّا هنا في المستشفى، أو بعد أن يعود إلى الرحامنة معافًى إن شاء الله. أنت تعرف أن السّي محمد محبوب عند كل من عرفه، وأن أصدقاءه كثر».

تَهَامَسَا قليلاً بينما فطومة تضع راحتها على خدّها وهي غارقة في الصمت والسهوم، بينما تتناوب ربيعة وحليمة على بكاءٍ خافت تُخْفِيانه بالحركة في الممرّ جيئة وذهاباً. تتعالى الضوضاء من جنبات المستشفى كافة، وخاصة من زوار المرضى، وممّن يقتعدون الأرض منتظرين خروج أهلهم من غرف العمليات، ولا تنفع معها تنبيهات الممرّضات والممرضين للمتكلمين بأصوات مرتفعة بوجوب التزام الصمت. ضجر يوسف من الانتظار، ومن الجلبة التي تزيدُها أواراً حركةُ الممرضين الداخلين إلى، والخارجين من، أمكنةٍ لا تُتبيَّن وظيفتُها. طلب من عبد الرحمن أن يرافقه إلى خارج كي يدخّن في باحة المستشفى، وهناك سأله عمّا إذا كان يعتقد أن الحريزي سيكون قادراً، بعد العملية الجراحية، على أن يستمرّ في أداء عمله في الضيعة مثل السابق. استغرب عبد الرحمن السؤال، معلِّقاً بالقول إن جراحة استئصال المصران الزائد لا تكلّف إنساناً

قوَّته وهِمَّته بعد التئام الجرح والتماثل للشفاء، ثم إن الحريزي مخلصٌ في عمله، وليس له في الدنيا غير أسرته الصغيرة وخدمة أسرة الحاج العياشي. لكن يوسفاً فاجأه بسؤاله:

«وكيف عرفت أنه مخلصٌ في عمله؟».

استغرب السؤال، وأجاب على الفور:

«عرفتُ ذلك ممَّا ألاحظه يوميّاً من نشاط ودأبٍ في عمله في الضيعة، ومن حديث سائر أهالي المنطقة عنه».

«ومَن أدْرى هؤلاء به وبعمله؟».

«عِلْمُ ذلك عند الله وعندهم».

«أَلَا ترى في أحاديث هؤلاء الثرثارين نفاقاً ورغبةً في تقطيع الوقت؟».

«الله أعلمُ بالسرائر يا السّي يوسف».

عادت أسئلة التشكيك في إخلاص الحريزي، التي ألقاها ابن العياشي على سمعه، تَطْرق رأسه. في لهجة يوسف نبرةٌ اتِّهامية للحريزي لا يمكن أن تنطليَ على لبيب، وإن جرَّب ابنُ العياشي أن يُخفيها في أسئلة استفسارية. هل صحَّ، إذاً، ما قاله عبد الرزّاق عن محاسبة يوسف للحريزي على الغش في المعاملة؟ هل صدَّق الشهودَ على الحادثة في ما رَوَوْه عنها؟ ولكن، ما الذي يدفع يوسف إلى مكافأة الظَّنين على فعلته، وحمله إلى المستشفى في منتصف الليل، إن كان ما رواه عبد الرزّاق صحيحاً؟ ولكن، أيضاً، ماذا يُفْهم من كلام يوسف غير أنه يطعن في إخلاص الحريزي؟ لو اكتفى بالقول إنه يخشى أن لا يعود في مقدور الحريزي أن يقوم بما كان يقوم به قبل العملية، لكان لخشيته بعضُ ما يبرّرها، خاصةً بعد تقدُّمِ الرجل

في السّنّ وبلوغه الخامسة والستين. أمّا وأنه أردف متسائلاً عن مدى إخلاصه، فليس من تفسيرٍ لذلك غير أنه بات موضعَ شكٍّ وشبهة، سواء صحَّت رواية عبد الرزاق عن شهادة بلخير، أم لم تَصِحّ.

أخرجه صوتُ يوسف من شروده وهو يقول إنه أطال المقام في مراكش وليس في الضيعة من يراقب العمال، وقد يضطر إلى العودة بعد ساعة، حتى وإن لم تنته جراحة الحريزي، لأن مواعيد تنتظره هناك. ثم ما لبث أن انتقل إلى موضوع آخر مفاجئاً إياهُ بالسؤال عما إذا كان ما زال مصراً على عدم بيع الأرض للحاج. نزل السؤال على رأس عبد الرحمن كالمطرقة، ولم يستطع أن يداريَ دهشته من جرأة يوسف. لم يردّ على سؤاله، تجاهله تماماً كأنما هو لم يسمعه، ولم يزد عن أن قال له: «أرى أن من اللائق أن نكون بجانب أسرة الحريزي».

لم تأخذ الجراحة وقتاً طويلاً بعد عودتهما؛ إذ سرعان ما أخبرهم ممرِّضٌ أنها تمت بنجاح، وأنهم لا يستطيعون رؤية المريض إلّا بعد زوال تأثير المخدر فيه. وحين سأله يوسف متى يمكنه أن يغادر المستشفى، ردّ بأن ذلك غير ممكن قبل يومين. التفت يوسف إلى فطومة وقال: «أنا مضطر للعودة إلى الضيعة، وقد أعود غداً إن لم يحصل لي طارئ يمنعني. في كلّ الأحوال، أخبرتُ والدي بما جرى لزوجك، وطلب مني أن أبلّغكِ بأنه سيتحمّل مصاريف العملية الجراحية، وقد يزوره مساء هذا اليوم». أمْطَرَتْه ووالدُهُ بأجزل الدعوات الصالحات، وشاطرتْها البنتان الدعاء. وقبل أن يغادر، طلب منها أن ترسل ربيعة أو حليمة إلى الضيعة عصر اليوم لمساعدة الأسرة في شؤون البيت.

استعاد الحريزي وعيه في منتصف الظهيرة، وأمكن أهلَه ـ بمعية عبد الرحمن ـ رؤيتَه وتهنئته بالسلامة. وما لبث عبد الرحمن

أن استأذن في العودة إلى بن جرير لتسليم السيارة لصاحبها. شكرته فطومة وبنتاها، وطَلَبْن له سلامة العودة. وقبل الانصراف، سأل إن كانت إحدى البنتين ترغب في الذهاب إلى الضيعة نزولاً عند طلب يوسف، فذكَّرهُنّ سؤالُه بما ليس منه بدّ. تبادلت البنتان التعبير عن الرغبة في البقاء مع الوالدة إلى جانب الوالد، لكن الأمّ حسمت الأمر وكأنها توزّع الإطراء بعدالةٍ على بنتيْها ـ بأن طلبتْ من حليمة الذهاب إلى الضيعة والعودة في الغد، لأنها تحتاج إلى ربيعة وتثق في قدرة حليمة على تقديم الخدمة اللازمة للبيت الكبير، وتطمئن إلى علاقتها الطيبة بزوجة الحاج، لَلَّا أمّ هانئ، تجعل أداءها ميسوراً ومَرْضيّاً عنه؛ مثلما قالت وهي تخاطبه وكأنها تبرّر له هو ـ لا لبنتيْها ـ لماذا قرّرتْ ذلك. أبْدَتْ حليمة بعضَ الشعور بالضّيقِ صمتاً، من دون كلام، لكنها امتثلت ـ على الفور ـ لإرادة أمّها واكتفت بأن سألتْها عمَّا تحتاجه من البيت لإحضاره غداً، من أغراضها أو من أغراض الوالد، فنبَّهها سؤالُها إلى حاجتها وزوجها معاً إلى ملابس لتغيير ما عليهما. أمّا ربيعة فطلبت منها أن تأتيَ لها بسِوَاكٍ من البيت. وحين حاولت حليمة أن تتأكد من أن أختها تريد سواكاً فقط من دون فرشاة ومعجون أسنان، ردَّتِ الأختُ الكبرى بأن في السِّواك كفايةً، وأن حساسية لثّتها لا تُقَاوَم إلّا به.

وصل الحاج العياشي في اللحظةِ التي تأهَّب فيها عبد الرحمن وحليمة لمغادرة المستشفى نحو بن جرير. اقتضاهُما وصولُه بعضَ تَرَيُّثٍ في الانصراف مجاملةً له واحتراماً. صافحه عبد الرحمن مع انحناءةٍ يليق بها مقامُه عنده وعند والده، فيما الثلاثة قبَّلن يَدَه مثلما اعْتَدْنَ دائماً. سألَ الحريزي عن حاله بعد العملية، التي قال إنه لم يعلم بأمرها سوى صباح هذا اليوم من ابنه يوسف، فأجابه المريض بحمْد الله وشكره على ما قدَّرَ وأقْدَر، داعياً له بدوام

العافية وطول العمر، وراجياً له حُسْن قبول فِعْل الخيْر من الجوَّاد الكريم. فَهِم العياشي من دعوات الحريزي ونسائه الثلاث أن خبر نفقات العلاج بَلَغَهُم من يوسف، وتمنى لو أنه لم يُخْبِر ابنه بذلك حتى لا يفوِّت على نفسه الشعور بلذَّة وقْع مفاجأة الكرم على أنفسهم. نسيَ ملاحظَتَه سريعاً حين دخل الطبيب إلى الغرفة، وطلب من المتحلقين حول سرير المريض أن يكفّوا عن حديثه، وأن يَدَعوه يرتاح قليلاً.

لم يَفُت عبد الرحمن أن يلاحظ الفتور البيِّن على صفحة وجه العياشي وسلوكه تجاهه، حتى إنه لا يذْكُر أنه التفت إليه في تلك الدقائق العشر التي قضاها معهم في غرفة المريض. لم يفهم سبباً لذلك، ولا عَثَرَ في سلوكه ـ هو ـ على ما يبرّر للعياشي أن يتجاهله بهذه القسوة الملحوظة التي لم يَعْتَدها منه. هل ارتكب في حقّه ما يسوِّغ ذلك؟ هل هو من فِعْلِ وُشاةٍ مغرضين؟ أم أن مزاجه معكّر هذا اليوم؟ لكنه بَدَا بشوشاً مع الحريزي وعائلته، وتبسَّط معهم في الحديث من غير تكلّف أو اصطناع. لعله يدفع ثمن اللامبالاة بوجوده لأنه ليس من عائلة الحريزي. لكن العياشي تحدث، مبتسماً، إلى الطبيب والممرضين والممرضات، وأوصاهم خيراً بالمريض وأهله. جرّب أن يكسر الجَفْوَة فسأله إن كان سيذهب إلى الضيعة اليوم أم سيبقى في مراكش، فتجاهل سؤاله حين طلب الطبيب من الزائرين مغادرة الغرفة من أجل راحة المريض. وحين خرجوا من الغرفة، فضّل عدم تكرار المحاولة ثانيةً مخافة أن يُصْدَم أكثر.

*

المقهى غاصّ بالرواد والعابرين، على غير العادة في هذا الوقت من بداية المساء، ومن حرِّ الصيف. وجَدَ صعوبةً في العثور

على مكان يُلقي فيه جسَدَه، البالغَ من الإنهاك غايةً، في انتظار قدوم عصابةِ الأصدقاء مع اقتراب الغروب. لم يفهم سبب هذه الزحمة المفاجئة في المقهى، الذي لم يكن يوماً مقصِداً لركاب الحافلات المتنقلة بين مراكش والدار البيضاء، لأنه لا يُقدِّم وجْبات اللحم المشوي كغيره، ولبعده عن منطقةِ توقُّف تلك الحافلات. لم يفهمِ السبب إلّا بعد أن انتبه إلى السيارات المرصوفة في الساحة المقابلة لها، كان أغلبها سيارات عمّال مغاربة في المهاجر الأوروبية؛ عرف ذلك من لوحاتها. تذكَّر على الفور أخاهُ عبد الرحيم؛ المقيم في بوردو، والعامل في مزرعةٍ من مزارعها، والذي لم يَزُرِ العائلة منذ ثلاث سنوات. آخر مرة زار فيها الأهل، اصطحب معه زوجته الفرنسية التي تعمل معه في الحقل. قدّمها للعائلة زاعماً أنها أسلمت قبل أن يَعْقِد عليها. وحين لاحظت صفية، أختُه، أن كريستين لا تصلّي وسألتْهُ السبب، وما إذا كان عليها أن تعلّمها الصلاة إذا كانت حديثةَ عهدٍ بالإسلام، أبدى تضايقاً من كلامها،وأجابها بأنها حائض، ثم حَمَلا أغراضهما في اليوم التالي وسافرا إلى أكادير، ومنها إلى فرنسا. وفي المرّة الأخيرة التي تحدثا فيها بالهاتف، وكان ذلك بعد سفره إلى بوردو بعشرة شهور، أخبرهُ بأنه رُزِقَ منها ببنْت، سمَّاها يَارَا. لم يعرف عبد الرحمن إن كان الاسم عربيّاً أم إفرنجيّاً، بل رجَّح أن يكون من أسماء الفرنسيات. وحين سأل أخاه الأصغر مهدي في الأمر، أخبرهُ الأخير بأن اللبنانيين يطلقون هذا الاسم على بناتهم، فاطمأنت نفسه، وإنْ ظلَّ يشك في بقاء زوجة أخيه على دين آبائها وأجدادها.

ماذا يفعل عبد الرحيم، الآن، وكيف تمضي أحواله في العمل، وفي الحياة مع زوجته وابنته، وهل تراهُ أنجب ابناً جديداً؟ لا يعلم عن أمره شيئاً؛ حتى هاتِفُه الذي كان يحادثه عليه، قبل

ثلاث سنوات، أصبح خارج الخدمة. ولعلّه غيَّره أو غيَّر مسكنه، وآخر مكالمة هاتفية بينهما، وهي التي أخبره فيها بأنه رُزِقَ ببنت، لا يعلم إن كانت من هاتفه القديم؛ فقد اتصل أخوهُ بالمقهى وطلب من صاحب المقهى إخبار عبد الرحمن بأنه ينتظره غداً في الساعة السادسة ليحدّثه. وحين جرَّب، بعد شهرين من المكالمة، أن يتصل به للاطمئنان ـ كعادته كلما طال العهد ـ اكتشف أن هاتفه لا يردّ، ومن حينها انقطعت أخباره. كيف هان عليه أن ينقطع عن أهله، وأن يتوقف حتى عن كتابة الرسائل؟ وكيف يسمح لنفسه أن يضع أخاه الأكبر في إحراج مع الوالدة والأخوات الثلاث كلما سَأَلْنَه عنه، فيضطره إلى الكذب عليهن بادّعائه التواصل معه هاتفيّاً؟ هل غيَّرتِ الفرنسيةُ طباعَه بهذه السرعة، وأنْسَتْهُ قرابتَه وناسَهُ، فسلَّم لها نفسَه؟ ولكنّ زوجَه تبدو طيبة للغاية، أو ـ على الأقل ـ غير شريرة ولا نزّاعة إلى التسلّط والاستحواذ، وهي سريعاً تأقلمت مع جوّ الأسرة، في الأيام القليلة التي قضتْها وعبد الرحيم معهم، حتى أنها كانت تخاطب والدته بعبارة ماما، وتتصرف بودٍّ بالغ مع زينب ورقية وصفية كما لو أن بينها وبينهن عِشْرة طويلة. لا شكّ في أن شيئاً فيه ـ هو ـ قد تغيَّر، فغيَّر طباعه.

ولكن لماذا عليه أن يؤاخذ عبد الرحيم على الانقطاع عن الزيارة والاتصال، وهو في بلادٍ بعيدة، بينما مهدي ـ الأخ الأصغر ـ على مقربة من الأهل. . . ومبعدة؟ يقيم في مراكش منذ ثلاث سنوات، منذ تسجَّل في جامعتها، ولا يكاد أن يزور أهله إلّا في الصيف، بحيث يقضي أيّاماً معدودات ثم يعود من حيث أتى. لم تكن تلك حالُه في عامه الأول؛ كان يخِفّ إلى بن جرير مع نهاية كل أسبوع، وفي الأعياد والعطل الموسمية. ثم خفّت زياراته في العام الثاني كثيراً، وما لبثت أن انقطعت أو كادت، في العام

الثالث، مع أن المسافة بينه والأهل لا تزيد عن الساعة. وحين سألته الوالدة عن سبب انقطاعه عن زيارة الدّوار، ادَّعى أنه مشغول بمتابعة دروسه في الجامعة، لكن زميله عبد الصمد في الدراسة، ابن الدوار المجاور، والمتردد دوماً على بيت أهله، لم يشأ أن يخفَي أن مهدي لا يتابع دروسه بانتظام، وأنه قلما يلتقيه في الكلية أو في الحيّ الجامعي. لكن أكثر ما بات يزعجه في أخيه الأصغر الكِبْر والاستعلاء اللذان صار يبديهما أمامه، بعد زمنٍ طويلٍ لم يبْدُر منه ما يُستاء منه في القول والتصرّف. كان في مقام والده، الذي رحل عن الدنيا وترك مهدي طفلاً صغيراً لم يتجاوز الخامسة من عمره. ربَّاه وأنفق عليه بسخاء، وأدخله المدرسة، ولم يقطع عليه التحصيل ليعيده إلى العمل في الأرض، مثلما قطع الوالد عليه، وعلى عبد الرحيم، رحلتهما الدراسية بعد نيل الشهادة الابتدائية لمساعدته في أمور الزراعة، وإنما ظل يشجعه على استكمال تعليمه الثانوي، ثم على ولوج الجامعة أُسوةً بأبناء المُلّاك الكبار في المنطقة، وأبناء الموظفين في بن جرير. كان يبغي أن يفتخر به بين الناس، أن يجعل كبيرَهم والصغير يعترف أن بَلْمَعْطي الرحماني أنجب رجلاً فريداً، وأن عبد الرحمن عرف كيف يأتمن على وديعةٍ تركها المرحوم بين يديْه. هو ليس متأكداً، حتى الآن، من أنه متهاون في الدراسة مثلما يقول زميلُه؛ فهو ـ على الأقل ـ لم يسمع من أخيه غير ما يبشّر ويريحُ النفس، لكنه يخشى على أخلاقه من العَوَج في مدينةٍ مفتوحةٍ لكل المغامرات، وفي مكانٍ لا يراقبه فيه أحد، وهو يخشى أكثر من أن يركبه الغرور، فيُفْسِد ذلك ما بينه وأهالي المنطقة من ودّ.

لم يفكر يوماً في مصلحةٍ يَنْظِرها من عبد الرحيم ومهدي سوى أن يُفْلِحَا في حياتهما؛ فما بين يديْه من أرضٍ صغيرةٍ يكفيه ـ هو ونساءَهُ الأربع ـ ويكفي أخويْه إن قَنِعا بالقليل الذي اعتادتْ عليه

الأسرة في معيشها؛ في عهد ربِّها وبعد رحيله. كان عليه أن يتحول، سريعاً، إلى ربٍّ لأسرةٍ من ستة نفر ولم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين. تزوّجت أخته الكبرى زينب قبيل وفاة والده بعام، وكانت حاملاً في شهرها السابع حين رحيله، فسمَّت مولودها باسمه: المعطي. وتزوّجت رقية، التي تصغره بعامين، قبل ستّ سنوات، وهما تعيشان معاً مع زوجَيْهما في بن جرير. أمّا صفية، التي تكبر مهدي بعامين، فما زالت عازباً تعيش في البيت معه والوالدة، ولم يُكتَب لها اقتران، مع أنها أجمل أخواته. وجد نفسه، فجأةً، مسؤولاً عن هذه العائلة، ومربّياً لاثنين منها: صفية ومهدي. ونسيَ أمرَه تماماً وهو منغمس في العمل والمسؤولية إلى أن بلغ السابعة والثلاثين، من دون أن يفكّر في الزواج.

الزواج؛ ضحك في سرّه وهو يردّد العبارة. كُتب عليه أن يظل أعزب. كيف له أن يحمل أعباء أسرةٍ جديدة وهو ينوء بأثقال الأولى؟ وخاصة حين أصبح وحده يعمل في الأرض، من دون معين، بعد هجرة عبد الرحيم إلى فرنسا قبل سبعة أعوام؛ وهو الذي تعلّم الفلاحة منذ الصغر، واشتد ـ هو ـ عليه ليتعلمها مثله متلقياً رضا والده عن تعليمه إياها. ها هو عبد الرحيم يستفيد، اليوم، من خبرته وهو يعمل في أرض أخرى بعيدة. أما مهدي فقرّر في نفسه، ومنذ وفاة الوالد، أن لا يشبهه هو أو يشبه عبد الرحيم، وأن يأخذ في الحياة مسلكاً آخر مختلفاً. هل أخطأ الاختيار؟ يتمنى، في قرارة نفسه، أن لا يكون قد أخطأ، وأن لا يخيب أمله الذي وضعه فيه. كان لا يزال مستغرقاً في تداعيات أفكاره حين داهم حمّان خلوته. سحب كرسيّاً واقتعده من دون استئذان؛ على عادة أهل المنطقة وعادة الأصحاب. سأله عن الحريزي، فأخبره بأمره ناصحاً إياه بزيارته مع مَن يرغب في الزيارة من الأصدقاء.

حين اكتمل جمع الأصدقاء في المقهى، استبدّ الحديث عن الحريزي بكل حديث آخر، ولم يكن كلام كثيرين في الموضوع يخلو من اللؤم، وخاصة في أسباب تحمّل العياشي لتكاليف العلاج، وهو المعروف ببخله. أكّد العطاوي، في ما يشبه القطع، أن العياشي ما كان ليتكلف فرنكاً واحداً لولا ضغط زوجته عليه التي تصلها بالحريزي قرابة ما. ثنّى على كلامه كثيرون، لكن السّي محمد، أستاذ المدرسة، سرعان ما قلب هذا الاطمئنان إلى تفسير العطاوي حين قال ـ وقد وصل متأخراً ـ إن علاج الحريزي على نفقة العياشي حقّ قانوني له لا يملك مخدومه أن يتهرب من واجب أدائه. وأمام استغراب الجميع، طفق يشرح لهم معنى حقوق العمال والفلاحين في نظر القانون.

*

لم ينعم بنومٍ هادىءٍ، ليْلَةُ ذاك، رغم التعب الذي هدَّ جسمه ذلك اليوم. طيْفُ حليمة يخيّم على ذهنه ويشغله. قبل ساعات كانت تقتعد مقعد السّيارة الأمامي جنبه. وفي جلال الصمت المُطْبِق، كان يَسَعُه أن يسمع نحنحتها الخافتة، أنفاسها المنتظمة، وأن يشمَّ رائحتها. تركها تستغرق في الصمت، في طريق العودة، ولم يشأ أن يبدّده بسؤال. قطعتْ صمتها مرتين لتشكر له عناءً تَجَشَّمَهُ لإيصالها إلى المستشفى وإعادتها إلى البيت في الضيعة، وإصراراً على الاطمئنان على والدها. قالت ذلك وهما يصعدان السيارة آيِبَيْن، وكرَّرته وهي تتهيّأ للنزول من السّيارة عند مدخل الضيعة. في اللحظة التي فتحت الباب للخروج من السيارة، تشجّع وقال: «أنا رهنُ إشارتك في أي شيء تحتاجين إليه، وسأكون سعيداً جدّاً بتلبيته». ردّت بابتسامة رضا، ولم يَفُتْه في الأثناء أن يلحظ بعض احمرارٍ

تسلَّق وجنتيْها وهي تحني رأسها، وتستدبر في اتجاه بوابة الضيعة.

ليْتَه تشجَّع أكثر ـ يقول في نفسه ـ فلَمَّح لها بإعجابه ولو مواربةً، كأن يقول «لولا حزني على مصاب والدك، لكنتُ أسعد خلق الله اليوم لأني صحبتك ذهاباً وإياباً»، أو كَأَنْ يقول: «رُبَّ ضارة نافعة؛ فلو لم يمْرض والدك، شفاه الله، لما كان لي أن أحظى برفقتك، ولا بكل هذا الوقت معك». حمد الله في نفسه أنه لم يفعل، وإلّا كان أفسد كل ما قام به معها ذلك اليوم.

يتذكر الآن أن والدها أوصاه بأهله قبل الدخول إلى غرفة العمليات. خصَّه وحدهُ بهذا الطلب من دون الناس جميعاً؛ أَلأَنَّه وحده كان إلى جانبه لحظةَ كان سيخضع للجراحة؟ استبعد الاحتمال لأن الحريزي كان يستطيع أن يطلب منه إبلاغ شخص آخر بوصيته، فيُشعِرُه بأنه يأتمنه على وصيةٍ ذات خطر. لم يستوقفه طلب الحريزي، في حينه، وإن هو تأثّر لسماعه، لكنه الآن يعني له الكثير في هذه اللحظة التي يتقلب فيها على جنبيه، وتَسْرِق منها نومَهُ صورةُ حليمة المحفورة في ذاكرة يومه. أليس في ثقة الحريزي به ما يشجعه على طلب يدها منه؟ لقد استأمنه الرجل على أسرته جميعِها، فكيف لا يستأمنه على ابنته؟ ومن ذا الذي سيحرص عليها حرصه هو عليها إن تزوّجها؟ سيكون الحريزي أوّل من يُدرِك ذلك، وليس بعيداً أنه فكَّر فيه حين أوصاه خيراً بنسائه الثلاث. فلْيتوكل على الله، إذاً، ولْيتقدّم من والدها بطلب يدها بعد أن يتعافى الأخير، ويستعيد لياقته. سيكون عليه أن يهيئ نفسه، منذ الآن، لهذه الخطوة بملازمة الحريزي، يوميّاً، وإجابة حاجاته في فترة النقاهة، وحَمْل ما يمكن حمْلُه من أعباء عنه، إلى حين معاودته العمل في الضيعة. أمّا والدتها، وهي مفتاح القضية، فسيكثِّف سؤالَهُ طلباتِها، وقد يأتي بأخته صفية عندها لملازمتها ومساعدة بناتها.

ارتاح إلى تصميمه، وبدا له الترتيب في غاية الدقة والإحكام، وواعداً بثمارٍ طيبة. لكن هاجساً مفاجئاً أفسد عليه الشعور بالاطمئنان؛ كيف يفكّر في الزواج وهو يعاني - وأسرته - ضائقة شديدة في المعيش. ما تُدِرُّهُ الأرض - بعد اقتسام دخْلها مع العياشي - بالكاد يكفي الأفواه الستة. ولو أن عبد الرحيم أبدى تعفُّفاً في تحصيل حصّته، التي يحوّلها إلى حسابه البنكي في المغرب خريف كل عام، وتخلَّى عنها للأسرة، لكان يسعه أن يجد للزواج مكاناً مقبولاً في حياته. لكن عبد الرحيم لم يراع، يوماً، الأوضاع الصعبة لأسرته الريفية الفقيرة، فيتبرّع لها بحصّته من دخْل الأرض، أو حتى ببعض حصّته، ليرفع عنها الخصاصة، بل هو لا يتورَّع في تدقيق الحسابات معه، كما في المرّة الأخيرة حين جاء إلى البلد من فرنسا، وكأنه يشك في نزاهته. ولقد سمح لنفسه يوماً أن يجادله في حصّته التي تراءت له شحيحة؛ ذكّره عبد الرحمن بأن دخْل الأرض محدود، ولا يسمح بأكثر من ذلك. وحين لَمَّح له عبدالرحيم بأنه يأخذ ضعف حقوقه في الأرض، أطرق حزيناً ولم يَزِد عن أن قال إنه وحده الذي يَفْلح الأرض، وأن ما يتحصله منها لا يصْرفه على نفسه، بل على أهله وعلى أخيه الأصغر ليستكمل تعليمه. أمّا حين يزور أهله، في المرات الأربع التي زارهم فيها منذ هجرته إلى فرنسا قبل سنوات، فلم يُبْدِ شهامةً في المشاركة في تحمُّل النفقات؛ صحيح أنه حمل معه بعض الهدايا للأهل: ثياباً، وقهوةً، وشاياً، وأجباناً إفرنجية، لكنه لم يزد على ذلك بمصروفٍ متواضع في بن جرير، على الرغم من أنه قضى مع الأسرة، في زيارته الأولى، شهراً ومثله قضاه في زيارته الثانية، في العام الموالي، قبل أن يكتفي ببضعة أيام في الثالثة، ثم في الرابعة التي اصطحب فيها زوجته الفرنسية، وغادرا سريعاً للاصطياف في أكادير؟ كيف له أن يفكر في الزواج، إذاً، والحال

على ما هي عليه من عُسْر؟ وكيف يرضى لنفسه أن يذيق حليمة طعم الحاجة والخصاصة؟ عليه أن يجد السبيل إلى بعض اليسار من أمره قبل أن يفكر في الزواج.

انقبض صدرُه لهذا الخاطر المكدِّر. صوتُ العقل يتكلم فيه؛ يعرف ذلك، لكنها عاطفة الحبّ، أيضاً، تلك التي تمنعه من أن يُقْدِم على قرارٍ يَشْقَى به مَن يُحِب. لا يستطيع أن يَتبيَّن، الآن، ما إذا كان عازفاً عن الزواج، مُقْفِلاً قلبه في وجهه، لأنه لم يعثر على المرأة التي تناسبه، وتستحق أن يتقاسم معها الحياة، وتُنجب له، أم لأن ظروفه الصعبة تحولُ دونه والتفكير في الزواج. يُحرِّك السؤالَ في نفسه قلبُه الذي تحرَّك أخيراً بعد عطالةٍ مديدة إلّا ما كان من عاطفةٍ فيه تجاه أهله. لكن التفكير فيه يصطدم بتكافؤ الأدلة أمامه. لِيَقُل إنه أضرب عن الزواج للسببيْن معاً كي يكون أكثر عدْلاً في توزيع المسؤولية، أو كي يتهرب من التفكير في سؤالٍ مُقْفَل. ولكنه الآن عثر على ضالةٍ وجدها من دون أن يَبحث. وهي، من دون ريب، المرأة الصالحة للزواج. قلبُه يقول ذلك، وهو لا يكذّبه، فليبحث عن طريقة لتذليل صَعْبه الثاني.

أمَلٌ قليلٌ يتسرّب إلى نفْسٍ ضاقت بالكرب واليأس، ضوءٌ خافت في آخر النفق المظلم. يخَيَّلُ إليه أن التكافؤ بين الدليلين وهْم؛ ماذا لو تحسّنت أحواله مستقبَلاً وضاعت حليمة؟ ماذا لو نجح في إقناع عبد الرحيم بإقراضه مبلغاً لاحتفار بئرٍ، وشراء مولّد لاستخراج الماء، فيستغني عن ماء العياشي الذي يسرق منه، ومن أهله، نصفَ الحقوق في الأرض؟ سيكون رائعاً أن يحصل ذلك، وأن يُخرجه من عُسْره وقلّةِ حيلةِ يده، ويفتح أمامه باب الزواج. ولكن ماذا لو أصبحت حليمة، حينها، في ذمّة رجل آخر؟ وهل يسهل عليه أن يعثر على واحدة أخرى تُشبهها خِلْقةً وخُلُقاً؟ لا

مهرب له، إذاً، من أن يبادر بطلب يدها لئلّا تضيع الفرصة، على أمل أن يتحقق حلمه في تجهيز الأرض بالبئر والمولّد والتشجير. ولقد يعوِّضُ حبُّه لحليمة عن بعض حاجاتها، فلا يتركها تشعر بالخصاصة. سيفعل ذلك حتى لو اقتضاه الأمر التخلي عن عادة الجلوس في المقهى مساءً لتوفير النفقات. ثم إن حليمة لا تعيش في بيئة ميسورة بحيث تشعر بتدهور حالها المعيشية إن انتقلت إلى بيته؛ فأهلُها أفقر من أهله، و«البيت» الذي تقطنه أسرتها، في ضيعة العياشي، أشبه ما يكون بالكوخ. ستكون سعيدة بالخروج من هذه الحال، ومن جحيم الخدمة اليومية في بيت العياشي، حين يُعْرَض عليها الزواج، خاصة وأنها لن تنتظر أن تحظى يوماً بعريسٍ ثريّ، ولن تجد رجلاً يحميها مثله.

عاد إلى نفسه المضطربة بعضُ الهدوء، قبل أن يداهمَه هاجسٌ جديد: الفارق في السّنّ. حليمة في السادسة عشرة من عمرها، يعرف ذلك من عمره هو؛ فلقد ولدت حين كان ـ هو ـ في الحادية والعشرين. لو كان أصغر قليلاً، عشرة أعوام مثلاً، لكان أيسر عليه أن يخطبها من والدها من غير حرج، من دون أن يسمع اعتذاراً من الحريزي بداعي الفارق بينهما في السنّ. ها هو، إذاً، يدفع ثمن التأخر في الزواج. ولكنه رجل وليس بنتاً عانساً؛ هكذا قال وهو يطرد عنه غارة الهاجس المفاجئة، والمرأة ـ يقول ـ تفضِّل، عادةً، الذي يكبرها سنّاً بكثير، لأنها تشعر معه بالأمان؛ يكون لها في مقام الأب، وتطمئن إلى حكمته ورزانته أكثر مما يحصل لو كان في سنّها أو أكبر ببضع سنين. أخشى ما تخشاه المرأة، إذْ تتزوّج واحداً من أبناء جِيلها، طيش الشباب. ثم لماذا يذهب بعيداً؟ ألم تكن فطومة، أم حليمة، في سنّ ابنتها حين تزوَّجها الحريزي، فيما كان الأخير يكبرها بثلاثين عاماً؟ هو،

اليوم، في الخامسة والستين، وقد تزوّج مرات عدّة قبل الاقتران بفطومة. صحيحٌ أنه يبدو أصغر من سنه بكثير، لكنه لا يخفي عُمره على مَن يسأله عمره؛ يقول متفاخراً: «وُلِدْتُ يوم تنصيب الملك محمد الخامس، وتزوجْتُ زواجيَ الثاني بعد عودته من المنفى»، لكنه لم يكن يقول ومتى تزوّج في الأوّل، ومتى طلّق زوجه؛ حيث يحيط ذلك بكتمان شديد لم ينجح أحدٌ في تبديده يوماً. وحين كان يُسْأَل عن ذلك، يجيب إجابات غامضة ومضلِّلة، أو يتحايل على سائلهِ فيغيّر الموضوع. وقد ترك إضرابُه عن الكلام في هذا الموضوع المجال فسيحاً أمام الخيال لينسج روايات عدّة عنه، برع عبد الرزاق والعطاوي وسعيد البركاوي في حياكتها، والتفنّن في اختلاق وقائعها بالقدر المطلوب من التماسك.

لديه، الآن، ما يردّ به على الحريزي إن تذرّع بفارق السّنّ وأَبَى تزويجَه بنتَه. حجّته ستكون قوية، مفحِمة، ولن يسع والدها أن يرُدّها. ولكن الحريزي ثعلب، وقد يرفض طلبه بداعٍ آخر من قبيل أن حليمة لا يمكن أن تصبح على ذمّة رجلٍ قبل أختها ربيعة التي تكبرها بعامين. سيصبح الأمر صعباً عليه في مثل هذه الحال، إذ سيكون عليه أن ينتظر حظّ الأولى. وهو مستعد لأن ينتظر إنْ وعده والدُها بأنها ستكون له. ولمزيد من الضمانات، قد يقطع الشك باليقين فيُعلنا خطوبتهما إشهاراً للاقتران أمام الملأ، وحينها ليس من موعدٍ مقدَّسٍ للزواج بين خطيبيْن.

*

بذل جهداً سخيّاً، صباح هذا اليوم، كي يحصل على سيارة من عبد الرزاق لِيَصِل حليمة بأبيها في المستشفى، ولكي يأتيَ به مساءً إلى الرحامنة بعد أن يأذن الطبيب بعودته. كلّفه ذلك ضعف ما كلّفه

أمس تقريباً: سبعين درهماً، لأن السيارة (وهي من نوع رونو ١٨) أكبر من الأولى، ولأن استعمالها سيستغرق اليوم كلّه وصباحَ اليوم الذي يليه؛ فعبد الرحمن لم يكن متأكداً من أن الطبيب سيسمح للحريزي بمغادرة المستشفى في اليوم التالي للعملية الجراحية، فكان عليه ـ لذلك السبب ـ أن لا يَعِدَ صديقَة الميكانيكي بإعادة السيارة قبل نهاية صباح اليوم الثاني لاستئجارها كموعدٍ افتراضي أقصى. ثم إن الذين سيستقلونها معه، هذه المرة، أربعة غيره هو؛ ولذلك ينبغي أن تكون أكبر حجماً من بيجو التي رافقته فيها حليمة جيئةً وذهوبًا؛ وهذه سعْرُ إيجارها اليوميّ أعلى بالضرورة. حين بلغَ الضيعة، اكتشف أن حليمة غادرت في اتجاه الطريق الرئيس إلى مراكش في انتظار حافلةٍ ما، أو سيارةِ أجرة كبيرة من تلك التي تتحرك في الاتجاهين بين بن جرير والمدينة. تذكّر أنه نسيَ، أمس، أن يخبرها بنيّته في اصطحابها معه إلى المستشفى. ندب حظَّه، ولَعَنَ ذكاءَهُ، وهو يطلق عجلات السيارة للريح كي يصل طريق الأسفلت قبل وصول حافلةٍ أو سيارةِ أجرة. حين بلغ الطريق، لم يجدها حيث أمل، فأخذ سبيله نحو مراكش مسرعاً كي يصل إلى محطة باب دكالة قبل وصول حليمة، وهو في غاية الحزن والانكسار لإضاعة فرصة مرافقتها في رحلة الذهاب التي سيختلي بها فيها مثل خلوة الأمس. لَعَنَ حظّه العاثر، ولَامَ نفسَه على التقصير في ترتيب الرحلة. الآن لن يحظى بمرافقتها إلّا مع أهلها حين الأوْبَة إلى بن جرير، ولن يكون متاحاً له كثير وقت كي يحدّثها، مثلما أمل ودعا ربَّه إلى أن يُطْلِق عقدة لسانه.

حين جاوز القاعدة العسكرية قليلاً، خفّض السرعة تحسُّباً لحاجز الدرك على مداخل «نزالة العظم». بمحاذاة حاجز الدّرك، شاهد دركيّاً يُحَادث سائق سيارة أجرة كبيرة وراء شجرة كانت

السيارة على مقربة منها. خمَّن أن مساومَةً تجري بين الرجليْن، كعشرات أخرى تجري كل يوم، على سِعْر الإفراج عن أوراق السيارة المحجوزة، وخمَّن أن ذلك ممّا يحصل لكل سائق سيارةِ أجرة أو حافلة، سواء أسْرَع في السير أم تباطأ؛ فلكلّ سائقِ مركبَةٍ عمومية خوّةٌ، أو إتاوةٌ، عليه أن يؤديها لِلدَّركي، لأن الطريق العام من أملاكه، كما قال السّي محمد يوماً وهو يعلّق ـ ساخراً ـ على اضطرار سائق حافلةِ ركاب لأن يدفع لثلاثة حواجز بين الدار البيضاء وبن جرير، في انتظار حاجز رابع وخامس على الطريق إلى مراكش. وحين قال له عبد العزيز، ممازِحاً، إن على حواجز الدّرك أن تنسّق بينها في تحصيل الإتاوات رأفةً بمن يقع استيفاؤها منهم، ردَّ السّي محمد بأن في ذهن كلّ حاجزٍ أنه يملك شطراً من الطريق يقع بينه والحاجز السابق، وهو يتحصَّل «فقط» على «حقوقه» منه وليس على «حقوق استعمال» كل الطريق. وأضاف موضحاً أن حالهم كحال حرّاس السيارات في أحياء الدار البيضاء ومراكش؛ كلٌّ يملك زنقة أو شطراً من الزنقة والشارع، ويعتبرها من أحكاره، ويسلّم له الأقرانُ بذلك تسليمَ بعضهم للبعض الآخر بما يقع تحت اليد من مساحات. ضحك عبد العزيز، وعلّق على التشبيه قائلاً: «ولكن «الغارديانات» يحصلون على رخص، من السلطات المحلية، لجباية الدريهمات القليلة من أصحاب السيارات الذين يَصُفّون سياراتهم على جنبات الطرق. وفي وسع صاحب أيّ سيارةٍ بَخِيلٍ أن لا يتبرّع بدرهمٍ واحد لحارس السيارات، أو التذرُّع له بعدم حمل النقود، مع وعدٍ بنقده في المرة القادمة. أما حواجز الدّرك فلا تمارس استيفاء «حقوقها» بقانون، بل على حساب القانون تفعل ذلك!».

دارت في رأسه تفاصيل ذلك الحوار الشيق، الذي استعاد

شريطه من الذاكرة، وهو يفكر في مشهد الدّركي والسائق. خُيِّل إليه، في تلك اللحظة، أن السلطة كائن متوحّش، لا مكان للرحمة في قلبه. اكتشف ذلك منذ زمن بعيد؛ حين عاين كيف يتعسف الشيخ والقائد على فقراء الفلاحين، ويتزلفان لكبار المُلاّك، ويقضون لهم المعاملات الإدارية بهمّة لا تفتر. وهو لا يمكنه أن ينسى أن السّي محمد سِيقَ إلى السجن ظلماً لأن غريمه من رجال السلطة، ولأن الخونة والبصاصين شهدوا ضدَّه لصالح الدّركي، فأقيمت عليه الحُجّة. ولا هو يمكنه أن ينسى مشاهد العدوان على أرزاق الناس وأملاكهم باستغلال النفوذ؛ الابتزاز لغة المخاطبة الوحيدة عند من يملكون النفوذ، إذا لم تفهم «واجبك» تجاه نداء الجشع، تتعطل مصالحك وتُرْجَأ إلى ما شاء الله. وعليك أن «تَدْفَع» في أي مكانٍ ألجأتْكَ إليه الظروفُ لتقضيَ فيه مصلحة. كلٌّ يريد «قهوته»، ولسان حال الجميع «دْهَنْ السِّيرْ يْسِير». وإذا أَبَتْ نَفْسُك رِشوةَ من يدعوك إلى رِشْوَته: خِشيةَ غضب الله، أو صوناً للكرامة، فعلى نفسها جَنَتْ بَرَاقِشُ. «متى ينتهي هذا الظلم، ويعاملنا رجال السلطة كالبشر؟»؛ قال بصوتٍ مرتفع اختلط بتنهيدةٍ قذفَتْهَا أعماقُه كما يقذف البركان حُمَمَه.

كان قد انتبه متأخراً، بعد أن طوى مسافةَ عشرة كيلومترات، إلى أنه فَاتَهُ أن يتأكد مما إذا كانت حليمة موجودة، أو غير موجودة، في سيارة الأجرة المحجوزة عند مداخل نْزَالة العظم. ماذا لو كانت تستقل التاكسي الكبير إياهُ وأضاعها بالاستغراق في موْجاتٍ من التداعي؟ سيكون ذلك مدعاةً إلى شماتةٍ ما بعدها شبيهٌ أو نظير. تمنى، في قرارة النفس، أنْ لا يَصِحَّ حدْسُه. تمنى، أيضاً، لو أن حليمة استقلت حافلةً حتى يكون في وسعه أن يَلْحَقَ بها ويسْبقها إلى المحطة. لكنه تذكّر، سريعاً، أنه قطع نصف

المسافة بين بن جرير ومراكش من دون أن يعثر على حافلة، وليس معقولاً أن تكون ركبت حافلةً بهذه السرعة، وأن تكون الحافلة قد تفوَّقت على المَرْكبات جميعها في سرعة السَّيْر، خاصة وأن الطريق مأهولة بحواجز الدّرك: المعروفة مواقعُها أو المجهولة والمفاجئة، وخاصة أنه سرَّع وتيرة حركة السيارة فراوحَتْ سرعتُها بين المائة ومائة وعشرين. حين وصل إلى المحطة الطرقية في باب دكالة في مراكش، رَكَنَ السيارة جانباً، ووقف ينتظر وصول حافلة من سطات أو من الدار البيضاء. طال انتظاره لأكثر من ساعة، ثم اقتنع بأنها استقلت سيارة أجرة، وأنها وصلت إلى المستشفى منذ وقت، فأخذ طريقه إلى المامونية.

تفاجأ، في المستشفى، بعدم وصوله حليمة على غير ما توقّع. أخبر أهلَها بأنه سأل عنها في الضيعة، فقيل له إنها انحدرت إلى الطريق العام لركوب واسطة نقل، وقدَّر ـ هو ـ أن تكون استقلت حافلة، ولذلك مرَّ بمحطة الحافلات في باب دكالة وانتظر من دون جدوى. بَدَا قلقاً، لكنه اكتشف أن أحداً من أفراد أسرتها الثلاثة لم يساوره الشعورُ نفسُه، وكأنهم يستهينون بالأمر، على الرغم من أن خروجها من الضيعة مرَّ عليه ما يزيد عن الساعتين والنصف. كان يتحدث إلى الحريزي عن صحّته، ومدى قدرته على الحركة، أو على ركوب السيارة، حين دخل يوسف العياشي وحليمة. فوجئ بالأمر، سألها كيف تدبرت أمْر انتقالها من الضيعة إلى مراكش، أجابت أنها رافقت السّي يوسف في سيارته. وحين استَعْلَم منها عن الزمن التقريبي لمغادرتهما الضيعة، ردّت بأن ذلك حصل من حوالى ساعة. حين هَمَّ بإخبارها أنه أتى إلى الضيعة لاصطحابها معه، أردفت قائلة إنها رأتْه من شرفة بيت الحاج العياشي وهي تساعد خادمة الحاجَّة في نشر الأغطية لتشميسها، ولم يكن يسعها

أن تنادي عليه لأن يوسفاً أخبرها أمس أنه سيصطحبها معه إلى المستشفى صباحاً. ثم لم تلبث أن أبْدَت اعتذاراً وهي تقول: «سامحني، يا السّي عبد الرحمن، لم يكن لي من حيلة في الأمر»، وتورَّد وجهها. . .

أطفأ اعتذارُها غضبه. لكن هاجساً فيه تحرَّك: هل يكون بوجمعة أخطأ في الإخبار، حين أعلمه بأنها غادرتِ الضيعة نحو الطريق العام، أم ضلَّله؟ إن كان ضلَّله، فقد فَعَل بأمرٍ من يوسف لا محالة. وإذا كان الأمر كذلك، ففي المسألة خطورة لا يليق به تجاهلُها. يستطيع يوسف أن يخبر حليمة أنه سيصطحبها معه إلى زيارة أبيها في المستشفى. لا مشكلة في ذلك، ولا ما يبعث في الأمر على شُبهة؛ فحليمة ابنة الحريزي حارس الضيعة، وهي تكاد أن تعيش مع أسرته من فرط حضورها اليومي في مطبخ العائلة، وأدائها أدواراً في تنظيفه وترتيبه. ثم إنه لن يأخذها إلى نزهة، وإنما إلى زيارة والدها المريض في مشفاه. غير أن الإيعاز لبوجمعة، أو لغيره، بالكذب عليه، إن سأل عنها، ليس له سوى معنى واحد: أن له تعلقاً ما بها، أو رغبة في أن تكون له وحده، وأنه يرى فيه غريماً أو شخصاً ينافسه عليها. ليس من تفسيرٍ للكذب عليه غير أن يوسفاً يشك فيه، وهو لا يمكن أن يشك فيه إلّا إن كان لديه هوىً ما تجاه حليمة.

ضغط الخاطر على نفسيته كثيراً. وزاد من وطأته أنه شعر في اعتذار حليمة بما يشبه التسليم منها بأنها خانتْه مضطرة، ولم تستطع مرافقته خشية غضب ابن العياشي. لا شك أن بينهما شيئاً ما لا يعلمه، ولا يعلم عنه! سيعرف ذلك، في ما بعد، حين يختلي بها. ولكن، كيف سيختلي بها إذا كان يوسف يعتزم نقل الحريزي وعائلته بالسيارة؟ سيارته كبيرة الحجم من نوع لاندروفر، وهي

تَسَعُ كثيرين. حين بدأت إجراءات المغادرة، بعد موافقة الطبيب، وبعد محاسبة ابن العياشي لإدارة المستشفى على نفقات العملية والعلاج، سأل فطومة إن كان يستطيع أن يقدّم مساعدة للعائلة، لأنه سيُقفِل عائداً إلى بن جرير، فأجابته شاكرةً لطفه وشهامته، قائلةً إن السّي يوسف سيأخذهم معه إلى الضيعة. ساعد الحريزي على الوقوف، وهنأه بالشفاء، واعداً إياه بزيارته. وهو يودّعهم خائباً، قال له يوسف: «لا تَنْسَ أن تمرَّ مساء اليوم لأن والدي يريد أن يحدثك في أمر. سيكون في انتظارك بعد صلاة المغرب».

III

ما به أشدُّ من الحزنِ وأَمَضّ، ما به يشبه الاكتئاب منذ وقع الخبرُ على رأسه وقْعَ الصاعقة قبل خمسة أيام؛ هكذا سمى له السّي محمد مرضه تفسيراً لحالته النفسية، محرِّضاً إياه على المقاومة وعدم الاستسلام. لا يتذكر أن يوماً مرَّ عليه لم يذهب فيه إلى الحقل منذ بدأ يشتغل فيه قبل ستّةٍ وعشرين عاماً. لا رغبة لديه في شيء بعد نكبته. ولماذا يذهب إلى الحقل؟ كي يودّع الأرض التي عاقرها منذ الصّبا، أو يروِّض النفس على توديعها؟ ولكن، لماذا عليه أن يودِّعها؟ أسهل عليه أن ينتحر من أن يَنْحَر أرضاً تركها الوالدُ لأهله، وأوصاهُ بها وبهم خَيْراً. يتذكر آخر ما سمعه منه وهو يُحْتَضَر: «الأرض، يا ابني، شرف الفلّاح. هل يستطيع الفلّاح أن يبيع شرفه؟ وأنا تَعْرف أني لم أوافِقْكَ، وعبد الرحيم، على بيْع جزءٍ منها لعلاجي. أنا ذاهب لملاقاة ربّي وهو عليم بأني ما بعتُ منها شيئاً، ولا رضيتُ البَيْع. وأملي في أن تستعيد ـ وأخوك ـ يوماً مّا ما بيعَ منها، فأكون عنكما راضياً حين أستقبل الخبر بين يديْ ربّي». سيكون مذنباً وعاصياً إن عَمِل بغير هذه الوصية، إن قذف به اليأس إلى الرضوخ للضغط والابتزاز. يعرف كم عليه أن يدفع، وأَهْلُهُ، من ثمنٍ لقاءَ رفض عَرْض بيع الأرض الذي عرضه عليه العياشي قبل ثلاثة أيام، بعد أن مهَّد له بإبلاغه

امتناعه عن تزويده بالماء، والاستغناء عن غلة الأرض المقابلة للريّ؛ سيتضوّرون جوعاً ويُسَامون هواناً، وقد يضطر إلى البحث عن عملٍ في ضيعةٍ من الضيعات، أو في مكان آخر من بن جرير، لتوفير لقمة العيش بعد أن عزَّت من أرضٍ قاحل لا تُدرّ. يَهُون عليه أن يفعل ذلك، على قِلّةِ العائد، على أن يمزّق وصيةَ والده ويَنْزِل عند ضَغْطِ مَلّاكٍ شَرِه لا يكفيه ما تحت يديه من أملاكٍ وأموال!

حين ذهب إلى العياشي، مساء ذلك اليوم المشؤوم، اختار أن يراه قبل أن يطمئن على صحة محمد الحريزي. ما حَسِب أن في اللقاء نهايتَه التي لم يتوقعها يوماً. كان صاحبُ الضيعة مقتعداً كرسيّاً على مدخل البيت، ودعاه إلى الجلوس أمامه خارجاً على غير عادته في استقباله داخل البيت. تطيَّر من اللقاء قبل أن يبدأ العياشي في الحديث. وحين تشجع وسأله عن سبب دعوته إياه إلى البيت، لم يُجِب فوراً وإنما سأله عن المحصول السنوي للأرض من الفصّة، والبرسيم، والبطاطس، والذرة، وغيرها. أجاب عبد الرحمن:

«تعرف ذلك يا حاج من دفاتر الحسابات التي يدوّن فيها السّي يوسف المداخيل».

«أعرف، ولكنك لا تعرف أن سقْيَ أرضك يكلّفني أضعاف ما أحصل عليه من غلالها».

انقبض صدر عبد الرحمن وافتعل ابتسامةً، وهو يردّ: «كان يمكن زيادة المحصول لو تفضلت علينا، يا حاج، بغرس أشجار البرتقال أو الليمون أو الرمّان أو الزيتون».

«لم يَبْق لي إلّا هذا يا ابن الرحماني. تكفيني مشاكلي مع أشجاري». مرَّت لحظة صمت قبل أن يسأله:

«وماذا تقترح، يا حاج، لزيادة المحصول؟».

«لا أقترح شيئا»، وبعد تردُّدٍ أضاف: «الأفضل أن نفُضَّ ما بيننا من اتفاق».

نزلت عليه العبارة كصفعة دوَّخَتْه، وأفقدتْه التوازن. قال مرتبكاً:

«تَقْطع رزقَك ورزقي يا حاج؟».

«كلٌّ يبحث عن مصلحته يا ابني».

«ولكن مصلحتنا مشتركة».

«كانت يا رحماني ولم تعد؛ أصبحتُ أنا الخاسر في الشراكة».

«ولكن ماذا تغيَّر بين أمس واليوم حتى أصبحتَ ترى الأمور هكذا؟».

«أنت لا تتابع الأخبار؟ إن الحرب في الكويت والعراق رفعت أسعار المحروقات إلى السقف، وما كنّا نسقيه بدرهم أصبحنا نسقيه بدرهميْن من دون أن يرتفع سعر المحصول».

هو لا يعرف عن العراق والكويت إلّا أنهما بلدان عربيان. أمّا أين يقعان، فلا يعرف عن ذلك شيئاً. والحقّ أنه سمع بالعراق حين كان تلميذاً؛ فقد قال لهم المعلّم يوماً إن معظم شعراء العرب، وكتابهم وفقهائهم، وفلاسفتهم، وملوكهم من العراق. لكن الكويت ـ التي سمع بأثريائها في ما مضى ـ فلم تكن له سابق معرفة بها إلّا قبل بضعة أشهر حين سمع السّي محمد يتحدث عنها بوصفها دولة غنية بالنِّفط، وفيها أثرياء يملكون ثرْوات خرافية، وبعضهم يملك فيلات في عين الذئاب في الدار البيضاء يبلغ سعر الواحدة منها سعر ضيعة الدفالي أو ضيعة العياشي، وربما أكثر! يتذكر أنه سمع عبد العزيز يهاجم العراق ورئيسَه بدعوى جشعه

وطمعه في خيرات الكويت، في مناقشةٍ صاخبة دارت بينه والسّي محمد، فيما دافع الأخير عن العراق واصفاً رئيسَه بأنه أهم رجُلٍ في العرب بعد عبد الناصر، وأن الذين يهاجمونه يهودٌ أو موالون لليهود، ويتذكر أن أكثرَ مَن حضروا جلسةَ المناقشة بينه وتلميذه كان منحازاً إلى الأستاذ ومتحمِّساً لرئيسٍ قال عنه عبد الله الحليمي، مدير الوكالة البنكية، إنه نَاصَرَ المغرب في قضيته الوطنية في الصحراء، وقدَّم له النِّفط بأسعار امتيازية خاصة، رمزية ورخيصة، مراعياً أوضاعه الاقتصادية والمالية الصعبة.

لا يهمه من الموضوع كلِّه، اليوم، سوى أن العراق والكويت خرَّبَا زراعتَه ومستقبله، وقذفا بمصير عائلته إلى المجهول. لو كانَتَا قبيلتَيْن في بلاد الرحامنة، لَسَعَى في الصلح بينهما، كما كان يفعل في رأب الصّدع بين الجيران في الدّوار، لكنهما دولتان بعيدتان عنه، وغنيتان عن دوره، وتملكان من المال والجاه والنفوذ ما لا يملكه بلدُهُ الذي كان يتصوره، قبل عهدٍ قريب، أكبر بلاد الدنيا بعد أمريكا وفرنسا! وحين قال له السّي محمد إن عدد سكان الكويت يكاد أن لا يتجاوز عدد سكان بن جرير وقلعة السراغنة، استغرب كيف يمكن هؤلاء أن يملكوا أضعاف ما يملكه سبعة وعشرون مليون مغربي! لكن ذلك أقنعه بأن رئيس العراق طمّاع جَشِع، ولم تَصْرِفْهُ عن رأيه هذا محاولات السّي محمد لشرح دواعي اجتياح جيش العراق للكويت. الأرجح عنده الآن، بعد نكبته، أن عبد العزيز العثماني على حقّ في الذي ذهب إليه من رأيٍ في رئيس العراق وجشعه، وأن أستاذه السابق حاقدٌ على الأثرياء وناقِمٌ منهم ليس أكثر. ولكنه يحار، في الوقت عينه، في ما يقوله عبد الله الحليمي؛ فليس للرجل حسابٌ مع أحدٍ من المُلّاك الكبار في المنطقة يشبه حساب السّي محمد معهم، وهو

يتحدث ـ فوق ذلك ـ بالأرقام عمّا يقدّمه العراق للمغرب من نفط ومن دعم سياسي، وما يوفّره لآلاف العائلات الفلاحية المغربية، المقيمة فيه، من فرص العيش بكرامة. ثم لماذا هو يحشر نفسه في موضوعٍ شائك مثل هذا فيما مشكلتُه مع العيّاشي، لا مع العراق والكويت؟!

باتت الخيارات أمامه محدودة وضيقة؛ عليه أن يستجيب للعَرْض أو يرفض، أن يختار بين موتٍ سريع وآخر بطيء. ليس من سبيل آخر إلى النجاة من المقصلة. حين عاد إلى ضيعة العياشي، بعد يومين من لقائهما المشؤوم، عاد حاملاً معه عرضاً مُهِيناً بتفويت مَا لَهُ من حقوقٍ إلى صاحب الماء عَلَّه يروي غلّة جشعه. قال له، بصوتٍ مكسور، إنه مستعد للبحث معه في تعديل حصص «الشريكين» من الحقوق، وإنه جاهز لإعادة النظر ـ «إلى أن تنفرج غمّة العراق والكويت» ـ في مبدإ المناصفة، وذلك برفع حصّة صاحب الماء على صاحب التراب. ولقد خيَّره في أن يحدّد بنفسه الحصّة التي ترضيه من «الشراكة»، آملا في أن تكون معقولة و«عادلة» بحيث لا يترتب عليها حيْف وضيم. لكن العياشي صدَّه، على الفور، قائلاً:

«لا أريد منك شيئاً يا عبد الرحمن سوى أن تنسى موضوع ما كان بيننا من اتفاق في الماضي».

«لكني أعرض عليك يا حاج التنازل عن بعض حقوقي وحقوق الورثة مقابل الحفاظ على صيغة الاستثمار المشترك للأرض، مع علمي ـ والله يعلم ـ أنها متحيِّفة ولا انتصاف فيها، وستكلّف أهلي المزيد من الخَصاصة والفاقة».

«دعْك يا ابني من الشكوى، فأنا مثلك أشكو، وأرضك لن

تنفعني في ضرَّائي حتى وإنْ أصبحتْ حصّتي من مداخيلها ثلاثةَ أرباعها أو يزيد».

سدّد له طعنة جديدة بكلامه. الوغد الجشع يريد أكثر مما يتخيَّل هو أنه يكفيه. لا حدود لطمعه إن كانت ثلاثة أرباع مدخول الأرض لا تُشْبع نَهَمَه. لم يبق له، بعد هذا التمنّع الصارم، سوى أن يخاطب فيه بقايا الرحمة والإنسانية في قلبه. قال له، بغير قليل من الذِّلّةِ، وبعينين خفيضتين، في ما يشبه الاستعطاف والتسوّل:

«لا أتصور يا حاج أنه يرضيك أن يُقْذَف بعائلة الرحماني إلى الفقر والإملاق بعد أن كنتَ لها أباً وظهيراً في أوقات الشدّة». توقَّف عند هذا الحدّ؛ لم يقل له إن أفضال والده عليه كثيرة، ولا إنّه كان مجرَّد خمَّاسٍ يعمل، قبل أربعين عاماً، في ضيعة بوشْتَى الرحماني، عمِّه الذي بدَّدَ أولادُهُ ثروتَه بعد وفاته، والذي توسَّل والدُهُ لابن أخيه البكر عبد القادر حتى لا يَصْرِف العياشي من الخدمة. كما لم يشأ أن يقول له إن ثروتَه من الأرض ليست من عرق جبينه، وإنما من مال زوجته الحريزية، التي تكبره بعشر سنوات، والتي ورثتها - هي الأخرى - عن زوجها الذي قضى وتركها أرملة في ريعان الشباب، قبل أن ينصحها والدُهُ بالزواج بالعياشي لحفظ أملاكها والقيام عليها. عرف ذلك كلَّه من والده حين حدَّثه عن العياشي، وكيف لعب الحظ لصالحه بعد أن تشرَّد وضاع في بلاد الرحامنة، قبل أن تضحك الدنيا في وجهه، فيصير، فجأةً، واحداً من أكبر المُلَّاك في المنطقة. لم يَقُل له إنه يعرف عنه كل هذا، ولا إن روايته عن أنه كان «شريكاً» لزوج زوجته ليست صحيحة، ولا أن أحداً من كبار أبناء المنطقة، من بني جِيله، يصدّقها أو يُقِرُّ بها، ولو على مضض، اكتفى بأن أشْعَرَهُ أنه في مقام الوالد الحريص على الأبناء، أو في مقام المتمسّك بقيم

الشهامة بحيث لا يَرْضَى للأقربين والحلفاء ضَيْماً أو سوءَ مصير، خشية أن يتقوَّل فيه المتقوّلون، وخاصة من ينتظر منهم اقتناص فرصة الطعن عليه من خصومه.

في برهةٍ من الصمت، خَالَها دهراً طويلاً، قال له العياشي: «سأعرض عليك أمراً ربّما يحُلّ مشكلتك الدائمة مع هذه الأرض».

توقّف، فجأة، فتطلَّع عبد الرحمن ينتظر الإفصاح متسائلاً بعينيه: «أنا مستعد لأن أشتريها منك إن وافقتَ على بيعها».

نزلت عليه العبارةُ كالصاعقة. توقَّع أيّ شيء إلّا أن يطلب منه بيع أرضه له. الآن فقط عرف لماذا كان متحاشياً الحديث معه في المستشفى قبل أيام؛ فلقد تجاهل عبد الرحمن كلام ابنه عن بيع الأرض من دون أن يحسب أن الابن يحمل إليه عرضاً من أبيه. ولا شك أن يوسف أبلغَ أباهُ صدَّه له، مما أزعجه ودفعه إلى سلوكه الخشن تجاهه. ما عجز عنه يوسف يجرّبه والدُه اليوم، ويمهّد له بقرار فض الاتفاق. يضعه أمام الأمر الواقع، بل يبتزّه ابتزازاً رخيصاً: تبيع الأرض أو لا ثمار بعد اليوم. الوغد يتصور أنه أمسكه من أضعف أطرافه وأطبق عليه. أيُّ جشعٍ هذا الذي يسكنه؟ لا بدّ من محاولةٍ أخيرة.

«أنا فلّاح ابن فلّاح يا حاج؛ ماذا أفعل من دون أرض؟».

«تأخذ ثمنها وتستفيد منه في تجارة. وقد فعل ذلك، قبلَك، كثيرون من أبناء المنطقة».

«أية تجارة هذه التي بها أستعيض عن الأرض؟ وأيّ ثمنٍ يهيئني لبناء تجارة؟»

«سأعطيك ما يساعدك على البدء من جديد».

قطع الطريق على مساومةٍ أوحى جوابُه للعياشي بفتحها قائلاً:

«أنا لا أفهم إلّا في الفلاحة، وأنا مؤتَمن على أرضٍ أوصاني بها والدي، رحمه الله، وهو يُحْتَضَر».

«إذاً، ما عليك إلّا أن تحتفظ بها وتزرعها بإمكانياتك. أما أنا فقد قدّمتُ لك ما عندي».

أنهى الحديث بهذه العبارة ووقف، فما كان منه سوى أن ودَّعه. لم يكن قد استدبر ليأخذ طريقه قافلاً، حتى سمع العياشي يقول له إن عَرْضَه شراء الأرض ليس عرضاً مفتوحاً، وقد يتراجع عنه إن تأخر في التجاوب. يُصرّ الوحش على المزيد من الابتزاز والإذلال وكأنه واثق بأن الأرض آيِلَةٌ إليه لا محالة.

*

نجح في أن يتفلَّت من ضغط العياشي عليه لبيع الأرض. ساعدتْهُ في ذلك مساندةُ السّي محمد وأصدقاء آخرين في التمسك بها مهما يكن الثمن، والثمن كان فادحاً لأن الجدب أصاب الأرض فلم تَعُد تُدرّ شيئاً. ولقد نصحه كثيرون بأن يطلب قرضاً بضمانةِ الأرض لاحتفار بئرٍ ونصْبِ مولِّد، وأشار عليه آخرون بالالتجاء إلى عبد الرحيم ليوفّر المبلغ الذي يقتضيه تجهيزُها بالمورد المائي. جفل من فكرة القرض الفلاحي لأن سوابق عدة في المنطقة فشلت، وكان نهايتها أن المقترضين استهلكوا المال المقترَض فاضطروا لبيع أراضيهم، أو أجزاء منها، لسداد ما عليهم تجاه البنك، واستصوب فكرة اللجوء إلى عبد الرحيم، وإقناعه بالأمر. ولكن أين هو عبد الرحيم؟ وكيف يصل إليه وقد انقطع حبل الاتصال به؟ لو أمكنه العثور عليه، لو نزلت رحمةٌ على قلب أخيه فكلّمه بالهاتف، لاستطاع أن يقنعه بالفكرة. سيغريه بالعائدات؛

سيعطيه مثل ما كان العياشي يأخذ منه، نصف غلة الأرض، ويقتسم ـ هو والأسرة ـ النصف الثاني مثلما كان يفعل. من أخيه الماء، ومن الأسرة الأرض، ومنه هو الجَهد والشقاء. يعرف أنها قسمةٌ ضيزي، لكنها كذلك كانت مع العياشي. الجديد الوحيد فيها أن المستفيد منها، هذه المرة، ليس شخصاً غريباً، بل شريكٌ من دمه ولحمه، ابن أبيه وأمّه، الذي لا يمكنه أن يَنْفِس منه. سيُبْرِد له بريداً، قد يصله وقد لا يصله، المهم أن يحاول: هكذا قال له السّي محمد وآخرون، واستحسن نصيحتهم.

انتظر شهراً كاملاً أن تصله رسالةٌ من عبد الرحيم أو مكالمةٌ من دون جدوى. ازدادت عليه ضغوط الحياة بعد شهرين من انقطاع عطاء الأرض، وعليه أن ينتظر سبعة أشهر كي تُخْرِج الأرض حمْلَها القليل من شعيرٍ غامرَ بزرعه، في أوّل الخريف، مستبشراً بمطرٍ هَلّ على غير توقّع. أمسكت السماء منذ شهر، مع نهاية أكتوبر، لكنه لم ييأس من رحمة الله. ولكن ماذا تفيده غلتها من الشعير حتى إن سار الحَمْل على ما يرام؟ ماذا يساوي الشعير اليوم؟ ثم هل عليه أن يبقى بلا مصروف في انتظار موسم حصادٍ لن يوفّر له عُشُر ما كان يحصل عليه قبْلاً؟ يُوجِعُه كثيراً أن يرى نفسه في عُسْرٍ من أمره بحيث لا يملك أن يجيب حاجات أهله البدائية. لو كان وحيداً، لهان عليه أمرُه؛ لعاش بأقلّ القليل: خبز وماء وزيت، لكن وراءه أسرة من أفراد لا يعيشون إلّا من ثمار الأرض، ومنهم أخ أصغر كثيرُ المطالب، بل هو اليوم شديد الإزعاج بعد الذي جرى من إنهاءٍ للاتفاق مع العياشي. حين أخبره بالذي حصل، وطلب رأيه في الموضوع، لم يتوقع منه أن يَخْذُله في حسن ظنه به؛ تَوقَّع أن يشير عليه برأيٍ مفيد، وهو المتعلّم في الجامعة، كأن يقترح عليه ما فَاتَهُ ـ هو ـ أن يفكر فيه مثلاً، أو أن يسعى في البحث معه عن

أخيهما عبد الرحيم، لإقناعه بعمل شيء ما ينقذ الأرض والعائلة، بل توقَّع حتى أن يكتفي بمواساته إن لم يستطع تقديم شيء أكثر، لكنه ما توقَّع منه أن يقترح عليه التجاوب مع عرض العياشي وبيع الأرض. وحين ردَّ اقتراحه، وهو في غاية المفاجأة، بأن الأرض أمانةٌ في عنقه وفي أعناق أفراد الأسرة جميعاً، أجابه بأن كلامه لا معنى له اقتصادياً سوى إفقار الأسرة من أجل إرضاء شيءٍ وهميّ اسمُه الضمير.

شعر عبد الرحمن بداخله يَمْرَض ويئِنّ من الوجع وهو يتلقى كلمات مهدي كنصالٍ يُغمِدها في جسده. هكذا يكافئه على كل ما فعله من أجله، ما ضحّى به كي يتعلم ويصبح رجلاً. يحدثه عن الفائدة الاقتصادية، وكأنه لا يعرف في شأنها شيئاً، ويستهين بوصية الوالد. يا حسرته على أولاد اليوم وأخلاقهم، وخصوصاً حينما يذهبون إلى المدن، ويتأثرون بقيم أهلها، ويتطبعون بطباعهم، فيصيبهم عُجْبٌ وثقةٌ زائدة بالنفس، واستعلاءٌ على الأهل والمحيط. يلتمس له العذر، أحياناً، بالقول إنه لم يعرف الوالد جيداً ويتشرب منه القيم؛ فلقد قضى الأب وهو لا يزال طفلاً صغيراً. لكن ذلك لا يعني، أيضاً، سوى أنه لم يُفْلح ـ هو ـ في تربيته على الوجه الأمثل؛ لقد بالغ في التساهل معه، وفي إعفائه من الواجبات الفلاحية، التي يقوم بها أفراد الأسرة جميعاً، ظنّاً منه أن تلك هي الطريقة الأفضل لتمكينه من تلقي تعليمٍ مريح. ها هو يكتشف، اليوم، أن ذلك لم يُرَبِّ فيه سوى نزعة الكسل، وحبّ الكسب السريع من دون جَهْدٍ ومشقة، ناهيك باحتقار المهنة التي كسب منها الآباء والأجداد، وفاخروا بأنهم من أهلها.

حين ذكَّر مهدي بذلك كلِّه قائلاً إنه بالفلاحة تربَّى وتعلّم وصار رجلاً، أجاب الأخير أن الفلاحة لم تعد تُشبع حاجةً، ولا

تسَدُّ رمقاً، وخاصة بعد تعاقب مواسم الجفاف، ونضوب المياه الجوفية، وفقر الإمكانيات المادية إلى استغلال الأرض بالوسائل الحديثة التي لايملك حيازتها إلا الأثرياء، ولم يَنْسَ أن يذكّره ـ هو نفسه ـ بأن فقر الأسرة إلى تلك الإمكانيات هو ما دفعها إلى ذلك الاتفاق المشؤوم مع العياشي: الذي كان وحده يكسب منه قبل أن يَفُضَّه. لم يجد عبد الرحمن ما يختلف فيه مع مهدي، في ما قاله الأخير، سوى في أنه جرَّب أن يبني عليه ليقوّي حجته:

«هذا ما يدفعني إلى التعويل على مساعدة عبد الرحيم لاستثمار الأرض وإخراجنا من هذا الوضع الذي نحن فيه».

«وأين هو عبد الرحيم؟ وحتى إن عثرنا عليه، مَن يضمن لك أن يستجيب لعرضك؟ ومَن أدراك بأن إمكانياته المادية تسمح له بالاستثمار فيها؟».

«أما إن إمكانياته تسمح؟ فهي تسمح، وأنا أعرف ذلك مما قاله لي عن تقشفه في الإنفاق، وعن جمعه المال لبناء مشروع. وأما أنه يستجيب، فهذا متوقف على مساعدتك إياي في إقناعه بفائدة استغلال الأرض بالطرق الحديثة».

«لا أظنّه يقبل وإن سمحتْ له إمكانياتُه؛ فهو يعرف أن الفلاحة ليست المجال المناسب للكسب».

«وما المجال المناسب للكسب في نظرك؟».

«أي شيء آخر غير الفلاحة. . . ، التجارة مثلاً».

«لكن أخاك، مثلي، فلاح لا يتقن غير فَلْح الأرض. هنا كان فلاحاً، وهناك ما زال فلاحاً».

«التجارة مهنة الجميع، مهنة كل من يملك مالاً، وليس

مطلوباً من صاحبها أن يتلَّقنها ـ مثل الفلاحة ـ مِن صِغَر. ثم إنها مدرارةٌ للربح، ولا مشقة أو عناء فيها مثل الزراعة. وليس على المرء فيها أن ينتظر مطراً، أو يخشى انحباسه، ليحصل منها على رزقه، فهو مأمون مضمون».

«هذا كلام من لم يتعلم الزراعة ويمارسها».

«وما تقوله كلام من لم يعرف التجارة ومكاسبها».

«وهل عرفتَها أنت؟».

«لا، ولكن كثيراً من زملائي في الجامعة أبناء فلاحين تحولوا إلى التجارة، وكسبوا منها الكثير الكثير مما لم يكسبوا منه شيئاً في الأرض».

«لكم دينكم وليَ دين». قالها منهياً جدلاً عقيماً مع أخٍ يتعصّى على التفاهم والترويض.

مَنْ زَرَع في رأس مهدي هذه الأفكار الشيطانية؟ قطعاً هو لم يكن هكذا قبل انتقاله إلى مراكش للدراسة الجامعية. وهناك كل شيء ممكن: من الاختلاط ببيئات مدينيّة مختلفة، وأخلاق وطباع مختلفة، ومغريات في الحياة غير مألوفة في بيئة شبه بدوية في الرحامنة. ولا شك أن مهدي صَيْدٌ سهل لمثل تلك الأفكار والإغراءات؛ فهو لم يؤخَذَ في تربيته بالشدّة والحزم اللذيْن أُخِذ بهما هو وعبد الرحيم، ولم يتشبَّع كفايةً بقيمِ الفلاحين وتمسُّكِهِم بنمط حياتهم الذي يَرْبَى عليه أكثرُهُمْ ولا يحيد عنه، بل وتمسُّكِهِم بالفلاحة كموْردٍ وحيدٍ للعيش. وهو يذْكُر أن مهدي لم يكن يستطيب أكل البيت حين انتقل إلى المدرسة الثانوية، فكان يفضل الكرواسان، عديم المذاق، على الأرغفة وبَغْرِير والحَرْشة، ويَخِفُّ للدكاكين ليشتري الكاشير أو السردين المعلّب مستعيضاً به عن أكل

البيت الطيبِ مذاقاً. كان عليه أن يكبح عاداته الجديدة والغريبة، منذ ذلك الحين، وأن لا يجيب طلباته إلى استهلاك مثل هذه المواد الغذائية، وأن يحرص على ترسيخ عادات الفلاحين في نفسه حتى لا يزحزحها طارئٌ يطرأ. نعم، هو المسؤول عن إهمال هذا الأمر، وعدم الانتباه إليه في اللحظة المناسبة، والدليل أن عبد الرحيم عاش في بلاد النصارى وصاهرهم، ولم تتغير طباعه في الحديث، ولا في الإقبال الشره على مأكولات البادية، والتمسك بالفلاحة كمهنة. وحتى حينما غادر بن جرير إلى الدار البيضاء، قبل تسع سنوات، للعمل في متجر كبير لبيع قطع غيار السيارات، لم يتردد في الاستجابة لعرضٍ بالعمل في مزرعة بفرنسا، لأنه تشرَّب عادات الفلاحين، وأحبَّ مهنته. لو أنه درّب مهدي، على صِغرٍ، على الحرث والريّ والقِطاف، أو في أوقات فراغه حين كان في المدرسة، لَمَا اصطدم اليوم بأفكاره المجنونة التي تملأ رأسه، وتجرِّؤُه على أخٍ أكبر كان له في مقام الوالد!



شعر بغصّة شديدة حين أعلمته صفية، أختُه، أن حليمة أتت تسأل عنه في البيت، وأنها قضت قريباً من ساعة تنتظره قبل أن تنصرف، طالبةً منها أن تخبره أن أباها ينتظره في المقهى، في بن جرير، مساء اليوم نفسه ليحدثه في أمرٍ خاص. لا يدري لِمَ تأخر في العودة إلى البيت ظهيرة ذلك اليوم للغداء على عادته كل يوم. هل كان الحديث العارض مع بوجمعة يستحق التأخر إلى ذلك الحدّ فيما لم تكن منه فائدة سوى تزجية الوقت؟ لم يكن قد رأى حليمة منذ شهر ونصف، حين التقاها صدفةً تدخل إلى ضيعة العياشي، وهو يهمّ بمغادرة أرضه التي انتهى، من فوره، من زراعة الشعير فيها. تبادلا التحيةَ من بعيد، لأنه لم يرغب في أن يقترب

أكثر من ضيعة العياشي، وسألها عن صحة الوالد وعن أحوال الأهل. كانت تقطر جمالاً وحِشمةً وهي تردّ، ولم يَخْفَ عليه مسحةُ الحزن التي طغت على صفحة وجهها، والتي حاولت تبديدها بابتسامة. ترى هل كان لحزنها سبب من أحوال أهلها، أو من شغلها السِّخري في بيت العياشي، أم هو حزن عليه لما أصابه؟ تمنى لو كان هو السبب، لو أن ظهوره قلّب عليها المواجع. سيكون شعور الشفقة لديها عليه قاسياً على نفسه، لكنه يَقبله منها، بطيبة خاطر، ما دام يولِّده في قلبها حرصٌ منها على أن لا يصيبه قَرْحٌ أو تحيُّف. لقد دمَّر العياشي حبّهما الذي كان يتبرعم حين أجبره على فكّ الارتباط بضيعته ومن فيها، وعلى هجْر أرضه التي كان يثوب إليها كل يوم. حبُّهُما المغدور في رقبة العياشي إلى يوم الدين، وسيقف يوم الحساب ليطلب القصاص العادل من رجلٍ أهلك أرضاً وعائلةً وقلبيْن، لِطمعٍ في نفسه وجَشَعٍ، ولن يلتمس له صفحاً أو غفراناً لأنه اعتدى بغيرِ حقّ مثلما قالَ له إمام المسجد حين سأله رأيَ الشرع فيه.

لم ينتظر كثيراً في المقهى؛ وصل محمد الحريزي قبيل الغروب. بَدَا نشطاً في حركته وقد استردّ عافيته تماماً. حين مازحه قائلاً إنه زاد شباباً بعد العملية عمّا كان قبلها، ابتسم وأخبره أنه لم يعد يستطيع أن يحمل أثقالاً مثلما كان يفعل في الماضي. عزَّاهُ بأن الجرح يحتاج إلى وقت طويل ليلتئم تماماً، وأن في الضيعة من العمال من يقوم، نيابةً عنه، بحمل ما ثَقُل. دخل الحريزي في الموضوع مباشرة، وكأنه في عجلة من أمره، حين سأل عبد الرحمن:

«ما الذي ستفعله، يا ابن أخي، بعد الذي صارت إليه أمور أرضك؛ أقصد هل ستكتفي بحرثها وانتظار غيثٍ قد يأتي وقد لا يأتي، وإنْ أتى لن يسُدّ حاجتك وحاجة أهلك؟».

«هذا قدري إلى أن يفرج الله كربتي».

«وكيف ستنفرج وأنت لا تفعل شيئاً؟».

«وماذا تريدني أن أفعل: أن أبيع الأرض، أو أبحث لها عن قرض يرهقها ويرهقني؟».

«لا هذا ولا ذاك، وإنما تستطيع أن تؤجّرها، مثلاً، لمن يستطيع استغلالها؟».

«أؤجّرها؟ وماذا أفعل أنا؟».

«تحصل من إيجارها السنوي على رزقك ورزق أهلك».

«أنا فلاحٌ، لا أعرف كيف أعيش إلّا من عرقي وعملي».

«ما أكثر الفلاحين الذين أجَّروا أراضيهم للملاكين، وعاشوا من دخل الإيجار».

«لن أكون منهم».

«فكّر جيداً في الأمر؛ أنا أحمل إليك عرضاً لن تجد له مثيلاً لإخراجك مما أنت فيه».

سكت عبد الرحمن وهو يكظم غيظاً تحاشى أن تُفصِح عنه ملامحه. تشجَّع الحريزي بصمته، ظانّاً أن عريكته لانت، فأردف:

«العرض الذي أَعْرض عليك مُغْرٍ، ويَعِد أرضَك بالخصب؛ فالمستأجر يلتزم بأن يحتفر فيها بئراً، وينصُب مُوَلِّداً، ويغرس أشجاراً، وما هي إلّا سنوات حتى تونِع الأرض. وهو مستعدّ لأن يفعل ذلك شريطة أن يكون الإيجار لفترة عشر سنوات، لأن المغروس من الأشجار يأخذ وقتاً من الزمن، كما تعرف، قبل أن يغِلَّ ثماراً. ثم إنه سيبني حظيرة للأبقار. وهذا كله سيصبح في

ملكك بعد عشر سنوات تكون قد استرحْتَ فيها من عناء جدب الأرض، وحصلت فيها على مبالغ مقدارها عشرة آلاف درهم كل عام قابلة للزيادة بعد خمس سنوات».

ضحك عبد الرحمن، بصوت شبه مسموع، متسائلاً عمّا يمكن أن يفعله مبلغ العشرة آلاف درهم سنويّاً لمن كان نصيبه من الأرض، بعد نصيب العياشي وأخيه عبد الرحيم، لا يقل عن ستين ألف درهم. ردّ الحريزي بأن ذلك كان، أما اليوم فاختلف الأمر، وأن شعير الأرض، إن أخذ الله بيده، لن يساوي المبلغ.

«وماذا أفعل أنا كل هذه السنوات؟».

«ترتاح من التعب أو تشتغل في أرضك أجيراً».

ضرب كفّاً بكفّ وحوقل قائلاً:

«أيُرضِيك ذلك يا السّي محمد؟».

«لا تكابر يا عبد الرحمن، مصلحة أهلك تقتضي منك هذه التضحية. لن تجد عرضاً مثل هذا يسُدّ بعضَ حاجتك اليوم، ويوفِّر لك غداً أرضاً مجهَّزَة. وقريباً سيتخرج مهدي ويشتغل فيساعدك في النهوض بأمور الأسرة. وإذا كان عبد الرحيم في يُسْرٍ من أمره، فيمكنه التنازل ـ ولو على سبيل الاقتراض ـ عن ماله الذي تُودِعُهُ له في البنك. وأنا ـ في الأحوال جميعاً ـ لا مصلحة لي في العرض سوى خدمتك، لأنك شهمٌ ابن شهم، ويعلم الله كم سعيت من أجل أن أجد لكربتك مخرجاً من دون أن أخبرك. وأنا لا أريدك أن تجيبني الآن؛ خذ وقتك لتفكر وتشاور. لكني أنصحك، نصيحة من هو أعرف بالدنيا منك، أن لا ترفض هذا العرض».

«سعيك مشكور يا السّي محمد، لكني لا أستطيع تأجير

الأرض، فهي في عنقي أمانة، وهي ليست ملكاً لي لأتصرف فيها بيعاً أو كراءً».

«ونِعْم الأمانة يا عبد الرحمن، ولكنني لا أعرض عليك بيْعها، وإنما إنقاذها وإنقاذك ممّا أنت فيه. وكما قلت لك: فكر مليّاً في الأمر ولا تُسرع في اتخاذ قرار. وشاور أهلك في الأمر، وعلى الله التوكل».

حين غادر محمد الحريزي، كان عبد الرحمن لا يزال تحت تأثير الشعور بالغضب الممزوج بالخيبة؛ فهو لم يتوقع من الحريزي أن يعْرِض عليه مثل هذا العرض الذي يشبه بيعاً مؤقتاً للأرض. يعرف أن حرصه صادق على أن يُخْرِجَه من أزمته، لكن الذي يحمله إليه يحوِّل أزمته إلى أزمة نفسية. لماذا يَخْفَى عليه أنه فلّاح، وأنه لا يستطيع أن يعيش إلّا من عرقه؟ ثم ما معنى أن يعْرض عليه العمل في أرضه، بعد تأجيرها، كعاملٍ زراعيّ فيها؟ يشبه ذلك أن يؤجّر المرء بيته الوحيد الذي يقطنه، مقابل إيجار شهري، وأن يعمل فيه طباخاً أو عامل تنظيف؟ ماذا حصل للحريزي حتى سمح لنفسه بأن يعْرض عليه ما سيجعله فضيحة بين الناس تلوكها الألسن؟ هل نسي ما حصل للمعطي، قبل سنوات، حين أجَّر أرضه فلم يكْفِه إيجارُها، واضطر للعمل مساعداً لبوشعيب الجزّار؛ يرافقه إلى المجزرة، ويحمل على ظهره الخرفان المسلوخة إلى عربة اللحوم الآلية لإيصالها إلى الدكان في سوق بن جرير،ويساعده في تقطيعها وفي البيع؟ كان المعطي سعيداً بعمله، أو هكذا بَدَا، ولكنه سقط في أعين الفلاحين من كبار السّن، الذين باتوا يتندرون به، ويؤاخذونه على التفريط بميراث والده. هو لا يرضى لنفسه بما رضي به المعطي. ثم إن المعطي حرٌّ في أن يفعل بأرضه ما شاء، فهي أرضه وملكه بعد أن وزّع الميراث

بين الإخوة، أمّا هو فلا يملك أرضاً خاصة به، دون أهله جميعاً، كي يتصرف فيها بمشيئته.

في طريق العودة إلى البيت، تذكّر أن حليمة سألت عنه ظهر يومه، وانتظرت مجيئه ساعةً من نهار قبل أن تنصرف. لابدّ أنها كانت ترغب في رؤيته وإلّا ما انتظرته كل هذا الوقت. شيءٌ ما في داخله يقول ذلك. هل هو وهمٌ هذا الشعورُ البالغُ حدّ اليقين في نفسه، أم محضُ رغبةٍ مكبوتة، أم فيه قَدْرٌ ـ ولو زهيد ـ من الصّحة؟ خفق قلبه حين عثر على جوابٍ غيرِ طائش: لم تأت حليمة لكي تبلّغه سرّاً من والدها حتى تنتظر مَأْتَاهُ كل ذلك الوقت، جاءت لتخبره أن أباها يريده في لقاء خاصّ لا تعرف من أمره شيئاً. ودليله أنها بلّغتِ الأهل ما كانت تنتوي تبليغه إياه. ولقد كان يمكنها أن تفعل ذلك من دون انتظار. ما أغباه وأبْطَأَ فهمَه! لو رآها ظهيرة هذا اليوم، لكان مزاجه مختلفاً، لغفر لوالدها ما قاله له في المقهى.

IV

يخرجان من البيت باكراً ليستقلَّا الباص الذي يأخذهما إلى المزرعة. المسافة لا تزيد عن عشرة كيلومترات، لكن الحافلة تقطعها في ثلاثين دقيقة، لأنها تتوقف كثيراً لحمل مزارعين آخرين يعملون في المزرعة عينِها وفي مزرعة مجاورة. وعليهم أن يكونوا فيها قبل السابعة صباحاً؛ حيث يبدأ العمل في المزرعة التي يشتغلان فيها، ويمتد إلى الرابعة بعد الظهر، بعد استراحة ساعة، بين الثانية عشرة والواحدة، لتناول وجبة الغداء. الحافلة ليست حديثة، لكنها مكيَّفة، ومقاعدها لا تكفي قرابة الخمسين راكباً، لذلك يضطر عدد منهم لا يقل عن عشرة إلى الوقوف. من حسن حظهما أنهما يجدان دائماً مكاناً، لأن بيتهما أبعد، نسبياً، من بيوت نصف المزارعين، وحين يصعدان إلى الحافلة يجدان بضعة مقاعد فارغة يقتعدان اثنين منها في آخر الحافلة. والحافلة مملوكة للمزرعتين معاً، مع باصٍ صغيرٍ يَسَع عشرين راكباً، ويأتي بالمزارعين من جنوب بوردو وشرقها. أما من ليس يدفع أقساط التنقل الشهرية، على رمزيتها، فيتنقل بدراجته الهوائية أو النارية. وأكثر هؤلاء من الذين يقطنون قريباً من مكان العمل، وبعض هؤلاء ـ وخاصة الشباب الصغار منهم ـ يقطعون المسافة مشياً على الأقدام، إن كان الجو صحواً أو دافئاً، لاقتصاد النفقات من جهة،

ولإعداد الجسم لأداء مهماته في المزرعة من جهة أخرى.

منذ اقتنى سيارة الستروين، قبل ثلاثة أعوام، وبُعيْد زواجه من كريستين، لم يستعملها لتنقلهما إلى المزرعة إلّا لماماً. لا يتذكر عدد المرات التي فعل فيها ذلك؛ ربّما ستٌّ أو سبْع وَجَدَ فيها نفسه وزوجَه، أو أحدهما، في حال من الاضطرار إلى ذلك: بسبب مَرْضةٍ ألمَّت بأحدهما ـ كالزكام مثلاً ـ أو بسبب تأخّرٍ في الاستيقاظ اضطراريٍّ، أو ما شاكل ذلك. فهو ما وجدَ حاجةً إلى استعمال السيارة لأن رسم الاشتراك الشهري في الحافلة لا يزيد عن المائة وخمسين فرنكاً فرنسيّاً للفرد الواحد، بينما يكلفه بنزين السيارة للتنقل إلى العمل، ذهاباً وإياباً، ما لا يقل عن ستمائة فرنك، عدا عن إرهاق السيارة بالاستعمال اليومي. وحين سافر بها من بوردو إلى بن جرير، قبل خمسة عشر شهراً، كلفته كثيراً من الإنفاق، وخاصة في طريق العودة إلى فرنسا حين تعطلت تماماً، عند مداخل مدريد، فأُجْبر على نقلها بواسطة شركةِ مساعدةٍ طرقية كلَّفته، مع إصلاح الموتور في ورشة صيانة، قرابة الخمسة آلاف فرنك فرنسي أدرك ـ متأخراً ـ أنها كانت تكفيه، مع نفقات البنزين، لاقتناء بطاقتيْ سفر بالطائرة. أمّا اليوم، فلم يعد يستعملها إلا للضرورة: مرةً واحدة في الأسبوع للتنزه في ضواحي بوردو، أو لأخذ الرضيعة يارا إلى الطبيب، أو لزيارة أصهاره في الضواحي الغربية للمدينة، أملاً في أن تتحسن ظروفُه فيقتني أخرى جديدة وغير مستعمَلة كالتي لديه.

غير أنه نسي، تماماً، موضوع تغيير السيارة حين تحسنت ظروفه قبل عام، وزاد راتبه عمّا كان بأكثر من ألفٍ وخمسمائة فرنك شهريّاً، من دون أن يزيد راتب دومنيك إلَّا ببضع مئاتِ الفرنكات بعد التحاقها به للعمل في الحقل قبل خمسة شهور. نقلوه، في المزرعة، من حظيرة الأبقار إلى مُزَارع يتعهد الأشجار بالتقليم

والريّ، وأحواض الخضروات بالازدراع والسقي، ورش المبيدات، وَذَرّ السّماد الكيماوي. لم يكن عمله سهلاً، بل كان شاقّاً لأنه يغطي مساحات شاسعة من المزرعة تشمل قرابة العشرين هكتاراً مزروعة أشجاراً وخضروات، ولم يكن يشاركه العمل في هذه المهمّة سوى ثلاثة مزارعين آخرين، بينما يقوم عمال آخرون بأدوار أخرى مثل جمع بقايا الأوراق والغصون المتساقطة، بالتقليم أو بالرياح، ونقلها، أو حراثة الأرض بالجرارات، أو جني الأشجار والخضروات عند ثمارها، وتعبئتها في صناديق، أو نقل الصناديق إلى العربات ومنها إلى خارج المزرعة، أو نقل الأعلاف إلى الحظائر، أو حلب الأبقار، أو زراعة الورود وسقيها بأدوات الرش داخل مزارع مغطاة أو في مزارع مكشوفة، وتقليمها ثم قصّها، عند النضوج، ثم تعبئتها في أكياس. . . ، وما إلى ذلك من أعمال تقتضيها مزرعة كبيرة من ستين هكتاراً نصفها أشجار وأحواض خضروات، ونصفها الثاني أحواض ورود ومساحات لزراعة الأعلاف، ومزارع شاسعة للعنب من مختلف الأصناف، خاصة من النوع الذي يستعمل في صناعة النبيذ الذي تُشْتَهر به بوردو. ولم يكن الخمسون عاملاً في المزرعة لينعموا بالقليل من الراحة لأن الشغل كثير، وتزيد كميته ووتيرته عند ثمار المزروعات.

ومثله انتقلت كريستين من حلب الأبقار في حظائرها إلى جني ثمار الأشجار وأحواض الخضروات. لكنها لم تكن مرتاحة لذلك النقل، مثل ارتياح زوجها له، لسببين: فالعمل في حلب الأبقار لم يكن شاقاً، على كثرة هذه الأبقار في الحظائر، لأن أدوات الحلب تقوم مقام عمل الأيدي التقليدي، ولا يكلفها ذلك سوى وضع الأنابيب على حلمات الضرع، ثم سحبها بعد الانتهاء من التحليب. كنّ ثلاثاً من العاملات المكلفات بهذه المهمة، يتقاسمْن الأعباء

والأبقار، ولم تكن حصتها تزيد عن عشرين بقرة، ولا كان حلبها يأخذ منها جميعها أكثر من أربع ساعات إلى خمس ساعات، بحسب حمولة الضرع من الحليب، وبقية الوقت يقضينه في تقديم الأعلاف والمياه إلى الأبقار، في الأحواض المخصصة لها، وفي تنظيف أنابيب الحلب. وإلى ذلك، فإنها كانت تتمتع في الحظائر بجو التدفئة وخاصة في فصلَي الخريف والشتاء، وتتجنب العمل تحت المطر حين يبدأ هذا في التساقط، وأحياناً لأيام متتالية في الشتاء. أمّا السبب الثاني، فهو أن راتبها لم يزد عمّا كان عليه، عند نقلها إلى الحقل، إلّا بثلاثمائة وثمانين فرنك؛ لأن جَنْيَ الخضروات اليومي، وجني الفواكه الموسمي، ووضع الخضروات والثمار في الصناديق، لا يكلف عناءً كثيراً لوفرة العاملات اللائي يَقُمْن بهذه المهمة، ولأنه لم يعد عليها أن تشتغل من الحادية عشرة حتى آخر المساء مثلما كانت تفعل في الحظائر. حين سألت مدير المزرعة عن سبب عدم رفع راتبها بالنسبةِ نفسِها التي ارتفع بها راتبُ زوجها، عند نقله معها من الحظائر إلى الحقل، أجابها بهذه الدعوى، مضيفاً أن عمل زوجها تَزَايَدَ أكثر من مجرّد نقل الأعلاف إلى الحظائر، وتنظيفها من الرَّوْث، وغسل الأبقار، وإخراجها إلى الحقل للتشمس، إلى مهمات أخرى شاقة لا تترك له مجالاً للراحة التي ينعم بها، نسبيّاً، العاملون في الحظائر.

غير أن بعضاً من الارتياح دَاخَل الزوجين، بانتقال كريستين إلى العمل في الحقل بدلاً من الحظائر؛ فهو وحَّد توقيت عملهما في المزرعة، وتوقيت ذهابهما إليها وإيابهما منها، فأعفى ذلك الزوجَ من عناء الخروج بسيارته كلَّ مساءٍ إلى المزرعة لأخذها منها، كلما اشتد المطر، أو الخروج في الظروف العادية، إلى محطة نزولها من الحافلة، على بعد مائتي متر من بيتهما، حيث

تكون الظلمة قد أطبقت ـ حينها ـ في التاسعة ليلاً، لمرافقتها، مع احتمال انتظارٍ قد يطول قبل وصول الحافلة، وحيث لا سقيفةَ تحمي من بردٍ أو ريحٍ أو مطرٍ مفاجئ. على أن سبباً آخر للارتياح كان يُضْمِره زوجها، ولم يكن يستطيع أن يُفصح عنه لئلّا يجرح مشاعر كريستين، هو أن راتبها ارتفع، بعد هذه الزيادة، إلى الستة آلاف وأربعمائة فرنك، وباتَا معاً يتقاضيان ما مقداره أربعة عشر ألف فرنك. وهي زيادة محمودة بعد أن وُلدتْ لهما ابنة، في انتظار الاستفادة من زيادة أخرى يمنحها لهما إنجاب طفلة. ثم إن هذه الزيادة ستمكّنه من توفير ستة آلاف فرنك شهرياً إن هو نجح في إقناع كريستين بالتنازل له عن الراتب الإضافي لضمه إلى راتبه الإضافي، ورفع التوفير الشهري من أربعة آلاف إلى ستة. وحتى إذا تمنعت، مثلما فعلت سابقاً حين رفضت اقتسام التوفير، وأصرت على دفع ألف فرنك فقط حصةً لها، فإن مبلغ خمسة آلاف وخمسمائة فرنك شهريّاً ليس بالقليل لأنه يوفر، في نهاية العام، مبلغاً مقداره يزيد قليلاً على خمسة وستين ألف فرنك، أي على حوالى خمسة وتسعين ألف درهم مغربي. هكذا، دائماً، يصرّ على ترجمة الموفَّر بالفرنك إلى العملة المغربية ليقيس قيمته في المشروع الاستثماري الذي يفكر فيه. ولا ينسى أن يضيف إلى المبلغ حصته السنوية من دخْل الأرض التي يحوّلها أخوه إلى حسابه في البنك. وهي بلغت، منذ سفره إلى فرنسا، قبل ست سنوات، وبعد تراكمها، حوالى ثمانين ألف درهم.

منذ وصل إلى هذا المكان، واشتغل في المزرعة، وُلِدت في رأسه فكرة المشروع الاستثماري وعاشت معه. كان راتبه أقل: لا يتجاوز خمسة آلاف فرنك إلّا بقليل. لكنه أخذ نفسه، واستهلاكه، بالشدة المطلوبة لتوفير ما يستطيع منه. ولم يكن مصروفُه، حينها،

كثيراً مثلما هو اليوم؛ فهو استأجر غرفة مع ثلاثة عمال: جزائريَّيْن ومصري، في شقة بالضواحي الجنوبية لبوردو، ولم تكن حصته من إيجارها الشهري تتجاوز خمسمائة فرنك. أما استهلاكُه ونفقاتُ النقل فحَرِصَ على أن لا تأخذ منه أكثر من ألفٍ وخمسمائة فرنك. ولم تكن الأعوام الأولى، التي قضاها في العمل، قد انصرمت حتى كان في رصيده البنكي حوالى مائة ألف فرنك فرنسي. وحين تعرّف، في نهاية عامه الثالث، إلى كريستين؛ التي تعمل معه في حظيرة الأبقار حيث التحقت بها حديثاً، وامتدّ الودّ بينهما بعد أن أُعجِبت بشهامته وتفانيه في العمل وأخلاقه، واتفقا على الزواج، كان ما لديه من مال يكفيه للزواج ولاقتناء سيارة مستعملة، وفتْح بيتٍ وتجهيزه. ومع أن الزواج كلّفه التضحية بثلثَي الرصيد المالي الذي جمعه خلال أعوامه الثلاثة تلك، إلّا أنه ارتضى تلك التضحية لأنه عثر على الاستقرار العاطفي والاجتماعي الذي يبحث عنه، وعلى امرأةٍ جميلة لم يكن يتخيل أنه يمكن أن يقترن يوماً بمثلها. وإلى ذلك، فقد منَّى نفسَه بأن يجتمع راتباهما معاً على عبء التوفير لمشروعٍ سيكون لهما. وحين فاتحها في الأمر بعد عام من زواجهما، وكانتْ حينها في أوّل حمْلها، أجابته بأنها لا تستطيع أن تساهم معه في التوفير إلّا بألف فرنك، وبألفٍ آخر في نفقات البيت والجنين حين يولد، وستساعد بالباقي والدها المقعد، ووالدتها المريضة، ولن تستبقيَ من راتبها سوى بضع مئات من الفرنكات التي تحتاجها لأغراضها النسائية. رضيَ ذلك عن طيب خاطر، لأنه يحبّها، ولأنه رجل شرقيّ لا يتصوّر النفقة إلا واجبَ الزوجِ تجاه الزوجة، حتى إنه استغرب كيف تدفع من راتبها ربعه للإنفاق على البيت، على غير عادة النساء في المغرب، أو هكذا سمع على الأقل، لأنه لا واحدة من أهل بيته وأقاربه موظفة لكي يتأكد ممّا إذا كان الخبر صحيحاً.

البيت الذي يستأجرانه، منذ زواجهما، صغير ولا تتجاوز مساحته خمسين متراً، ومؤلف من غرفتين وحمام ومطبخ. لكن ثمنه زهيد نسبيّاً وقابل للتحمُّل. وهو ما كان ليعثر على بيت للإيجار بألفيْ فرنك فرنسي إلّا في الضواحي، أما في داخل بوردو فيكلّفه مثل هذا البيت خمسة آلاف فرنك وربما أكثر. ولذلك تَقَبَّل الأمر ممنّياً النفس بسكنٍ أفضل في المستقبل، خاصةً بعد أن تنجب له كريستين ابناً ثانياً يكون ذكراً، هذه المرة، ليساعده في تجارته ـ التي ينتويها ـ حين يكبر. والحيّ الذي يقطنه، في هذه الضاحية من بوردو، لم يختره عفواً، وإنما لأن باصَ المجموعة الاستثمارية الزراعية التي يعمل في مزرعتها، هو وزوجتُه، يمرّ به لوجود عمال مزارعين آخرين يقطنون فيه. يعرف اثنين منهم يعملان معه في المزرعة: واحداً في حقل الورود، والثاني في تشغيل المولّدات الأربعة التي تشتغل على آبار المزرعة. أمّا الثلاثة الآخرون، فيعرف عنهم أنهم يشتغلون في المزرعة المجاورة، التي تبعد عن مزرعتهم، قرابة كيلومتر، والتي تملكها المجموعة الاستثمارية نفسها. غير أن البيت يضيق أكثر حين يستقبل أهلَها: والدتَها التي تتردد عليهما لمراجعة طبيب الكلى في بوردو، في المستشفى القريب من الضاحية التي يقطنان فيها، أو برنار الأخ الأكبر لكريستين كلما أخذ إجازته من القوات المسلحة التي ينتسب إليها. أمّا والدُها فَمُقْعَدٌ في البيت لا يخرج منه إلا إلى المستشفى مرةً كل ثلاثة أشهر للمعاينة الطبية، بعد أن أصيب بكسْرٍ في فِقَرٍ من عموده أقعدتْه عن الحَرَاك. والدها وأخوها طيبان، أو هكذا يبدوان له. لكنه يستشعر بعض الجفاء في سلوك والدتها نحوه، على الرغم من أنه لا يدَّخر وسعاً لإرضائها. كان يخشى، في البداية، أن تكون عنصريةً تجاه الأجانب، لكنه تخلّص سريعاً من هذا الشعور حين رآها في غرفتها في المستشفى في غاية الودّ مع نزيلة جزائرية.

وحين سأل كريستين مرة عن سبب فتور مشاعر أمها نحوه، أجابته بأنها تبدو كذلك مع الجميع، وأن ذلك من طباعها.

*

نبّهه موريس، المراقب العام للمزرعة، إلى أنه لا يضع الأسمدة في أحواض الأشجار والخضروات بالكميات المطلوبة عينِها بالنسبة إلى كل نوع، وأن عليه أن لا يتهاون ثانيةً في الأمر لأنه سيدفع ثمن أخطائه من راتبه، وأن دفتر الإرشادات حول كميات السماد ينبغي أن يُطبَّق بحرفية من دون اجتهاد. شَفَعَ له ظنُّ موريس بأنه يجرّب أن يجتهد كفلّاح في شأن لا يُجْتَهد فيه أمام مقادير علمية صارمة، وإلا كان المراقب حسب الخطأ تخريباً يترتب عليه عقاب. ولم يكن ما به لِيَدَعَهُ يركِّز في العمل على جاري عادته، حيث إصرارُهُ الدائم على أن يَبْدُوَ متفانياً فيه أكثر من أقرانه؛ فلقد قلبت رسالة أخيه عبد الرحمن حساباته رأساً على عقب، وأحدثتْ في اطمئنانه هزةً لم يعرف لها نظيراً منذ أتى هذه البلاد قبل ثماني سنوات، بل حتى حين قال له طبيب كريستين إن حمْلها صعب، وقد يكون وضْعُها للمولود خطراً على الأم وجنينها. تضرّع إلى الله بحماية الأم والجنين، وحين خيَّر نفسه ـ ذات ليلةِ أرقٍ ـ بينهما، اختار حياة زوجه مستغفراً الله في داخله على التضحية بغيرها. الآن لا خيار له سوى شدّ الحزام أكثر، وإعادة الحسابات من جديد بعد اندفاع في الأمل من غير حدودٍ؛ فلن يكون هناك موردٌ جديد من دخْل الأرض ينتظره كي يضيفه على ما وفَّر، من عرقه، في بوردو. وهو إذا ما استطاع أن يتحمل هذه الخسارة بمزيدِ تَقَشُّفٍ، وإن كان لا يعرف سبيلاً إليه، فهو لا يستطيع أن يتحمل وضعاً يكون عليه فيه أن يساعد أهله في بن جرير بحوالة شهرية أو سنوية يرسلها إليهم. وهو في الوقت عينه،

لا يستطيع أن يتخلى عنهم في الضائقة التي ألمَّتْ بهم بينما هو ينعم بحياة مستقرة.

منذ وصلته رسالة عبد الرحمن وهو في حيرة من أمره، ودُوارٌ يأخذ برأسه؛ فترتْ حماستُه للعمل، للأكل، لاستقبال الصباح بالأمل، ولم يجد من ملاذٍ له سوى الصلاة والإكثار من الدعاء لتفريج كربته. حين وصلت الرسالة، وقبل أن يفُضَّها، شعر بالندم لأنه توقف عن الاتصال الهاتفي بأخيه، وغيّر رقم هاتف البيت، وكفّ عن كتابة الرسائل. مرَّ عام ونصف تقريباً على آخر زيارة له لبن جرير، ولآخر لقاء بالعائلة، وأقلّ من عام على آخر اتصالٍ هاتفي بعبد الرحمن لإخباره بميلاد يارا. كيف قَسَا قلبه، إلى هذه الدرجة، على أهله؟ كيف ارتضى أن يرميَ بأمّه في غياهب الشك في مصيره؟ وكيف هان عليه أن يضع أخاه عبد الرحمن في حرج شديد أمام العائلة كلما سألتْه عنه؟ لا شك أنه سيضطره للكذب والقول إنه على تواصل هاتفي معه. وهو لن يغفر لنفسه أنه أجبره على الكذب رأفةً بوالدةٍ لن تطيق سماع أن ابنها انقطعت أخباره؛ فهو يعرف إلى أي حدّ يمكن أخاه أن يتحمل الآثام في سبيل رفع الغمّة عن أمه. لكنه ما إنْ فضّ الرسالة وقرأها حتى سُقِطَ في يده. بدا له العالم وقد انقلب سافلُه على عاليه. لقد انتهى كل شيء: أحلامُه التي كنَّها ولم يُفْصِح عنها لغير كريستين، آمالُه التي علّقها على حصته من دخْل الأرض في تنمية وفره المالي، شعورُه الزائد بغَنَاءِ أهله عنه. هاهو عبد الرحمن يطلب منه أن يضخّ بعض ماله في الأرض من دون أن يدريَ أنه يخرّب كلَّ الذي بناه في ذهنه عن مشروع العمر، وقد كان يقدّر أنه لن يأخذ منه تحقيقُهُ سوى ثماني سنوات أخرى أو أكثر قليلًا. وماذا في وسعه أن يقول لأخيه: إنه لا يستطيع أن يغامر بمالِهِ في الأرض؟ إنه لم يعد يؤمن بأن الزراعة

مُدِرَّة للربح، ولو أنه يعمل فيها؟ إنه يفكر في مشروعٍ تجاريٍّ مُجْزٍ؟ لن يفهمه عبد الرحمن؛ لأنه فلّاحٌ محافظ لا يعرف من الدنيا غير الزراعة. ولكن، هل يستطيع في الوقت نفسِه أن يتجاهل رسالته وحاجته؟

مرّت أيام قبل أن يكتب له رسالة يقول فيها إن أوضاعه المالية صعبة، بعد ميلاد يارا، وإنه لا يستطيع أن يستجيب لاقتراحه بتجهيز الأرض لكلفة ذلك العالية على إمكانياته، وإنه يفضل أن يلجأ إلى الاقتراض من القرض الفلاحي، أو من الاتفاق مع ضيعة أخرى مجاورة نظير الاتفاق الذي كان مع العياشي. لم تكن أفكاره منظمة ولا اقتراحاته مفيدة. قال أيَّ شيء يرفع عنه عبء الشعور بالتجاهل والتقصير، وفضَّل أن يكون ذلك كتابةً لأنه لم يجرؤ على محادثته بعد الذي جرى.

انحسر شعور الذنب عنه بعد أيام كابد فيها وأمسك عينيه عن التعبير. بدأ يمنّي النفس بأنه سيعوّض يوماً، لعبد الرحمن والأهل، عن التقصير والخذلان. هو على يقين بأن التعويض سيكون مضاعفاً، فتصميمه على تحقيق ما يدور في رأسه حازم، وحرصه على إرضاء الأسرة لا لبس فيه. وهو ما غادر بن جرير إلى الدار البيضاء، بعد الاتفاق على ذلك مع عبد الرحمن، إلّا لمساعدة الأسرة على تحمّل أعباء الحياة. يتذكر أنه حين فاتح عبدالرحمن بِنِيَّتِهِ في الانتقال إلى الدار البيضاء للعمل في محطةٍ للبنزين، كعاملٍ يبيع الزيوت وبعض قطع الغيار، وأنَّ عرْض العمل، الذي عرضه عليه ابن عمهما الشريك في ملكية المحطة، لن ينتظر وقتاً طويلاً، لم يعترض أخوه وإنما سأله إن كان قد تعب من العمل في الأرض. ولما أجابه بأن العمل في الأرض ليس مرهقاً، ولكنه ليس جزيل الربح في الوقت نفسه، وأن عمله في محطة البنزين سيُدِرّ عليه، وعلى الأسرة، دخلاً

إضافياً، لم يزد عبد الرحمن عن أنه تمنى له التوفيق. وحين جرَّب أن يعتذر له عن تَرْكِهِ يعمل وحيداً في الأرض، ضحك وقال: «ليتها كانت ضعف مساحتها لِأُثْبِت لك أن ابن الرحماني فحْلٌ في الزراعة». لم يكن الاتفاقُ حصل ـ حينها ـ مع العياشي على اقتسام دخْل الأرض بضمانِ رَيِّها، ولذلك ما كان يجد في انتقال أخيه إلى العمل في الدار البيضاء إضراراً بالمصلحة العامة للأسرة، حتى إنه تخيَّل، فعلاً، أن عمله الجديد قد يوفّر للأسرة موردَ رزقٍ جديداً. لكنه، وبعد شهرين من سفر عبد الرحيم، وجَد سبيلاً إلى الاتفاق مع العياشي على ما اتفقا عليه. وحينها، فقط، أدرك فداحة ذهابه إلى التجارة وتَرْكِه وحيداً؛ فالعمل في الأرض لم يعد موسميّاً، مثلما كان: حرثاً، وزرعاً، ورَيّاً، وحصاداً، ودِرَاساً، بل صار يوميّاً وشاقّاً نَاءَ بحمله وحده. وكانت زيادةُ إنتاجية الأرض تقضي بزيادة معدّل العمل فيها. وحين هاتفه طالباً منه العودة إلى العمل معه، في الظروف الجديدة، أبى متمسكاً بشغله الجديد، فما كان منه سوى أن كفَّ عن الطلب والإلحاح فيه.

لم يكن عملُه في محطة البنزين يكفيه كي يضمن لنفسه الاستقرارَ الذي نَشَدَه، ناهيك بمساعدة الأهل على تحمّل أكلاف الحياة، فراتبُه بالكاد يغطي إيجار الأستوديو الذي استأجره في حيّ الأمل، ومتطلبات المعيشة في مدينةٍ عالية الأسعار. وما كان يستطيع أن يُبقيَ من الألفين والخمسمائة درهم، التي كان يتقاضاها شهريّاً، إلّا مائتي درهم يرسلها إلى والدته عبر حوالة بريدية، بعد أن اختصر إنفاقَه اليوميّ على الطعام إلى ثلاثين درهماً تغطي وجْباته الثلاث. تَذَوَّقَ طعم الفقر والحرمان والفشل، ولم يكن يدري أنه، من دون بيت، لا يتقاضى إلا نصفَ راتبه، وهو كان يستطيع أن يؤمّنه لنفسه في بن جرير. عضّ على جرحه وقصد ابن

عمه، في الشهر الخامس من التحاقه بالعمل في المحطة، طالباً منه زيادةً في الراتب. تذرّع الأخير بضَعف دخْل المحطة وكثرة العمال فيها، ولم يُقْنِعْه ما سمع منه لأنه يرى كيف تتكدس الأوراق النقدية كلّ يوم من تزويد مئات السيارات بالوقود. وحين لمَّح له بأنه قد يضطر إلى العودة إلى بن جرير للعمل مع أخيه، ردّ عليه بأن عمله في المحطة لن يتأثر كثيراً بذهابه لأن أيَّ عامل من العاملين فيها يمكنه القيام به. سدَّد له طعنة بقوله، أشعره كأنه أتى به فقط من باب الشفقة عليه، وعلى فقره، ما دام يَسَع غيره أن يقوم بما يقوم هو به من دون تكليفِ المحطةِ راتباً جديداً.

كان يتهيأ، في نهاية الشهر السادس، للعودة إلى الرحامنة حين طرأ طارئ صَرَفَهُ عن فكرة العودة. الصدفة وحدها ساقت إليه الحاج عبد السلام ليرميَ له بخشبة إنقاذ في لحظة اليأس. مساء ذات يوم من أيام الصيف، حيث يكْثُر تَقَاطُرُ سيارات العمال المهاجرين على المحطة للتزوّد بالوقود، دخل الحاج عبد السلام إلى الدكان الزجاجي، الذي يبيع فيه الزيوت وبعض قطع الغيار، ليبتاع له تَنَكَةَ زيتٍ احتياطي للسفر. وتَجَاذَباَ طرفاً من الحديث في انتظار أن ينتهي أحد العمال من غسْل السيارة. عرف عبد الرحيم منه أن الحاج عامل مهاجر قضى في هولندا زهاء خمسة وثلاثين عاماً، وكان هاجر إليها وهو في الخامسة والعشرين، واشتغل في ورشةِ خشبٍ كبيرة في ضواحي أمستردام، قبل أن ينتقل إلى مصنع للتجهيزات المكتبية. وعرف أنه ترك ولديْه هناك لاستكمال دراستهما في الجامعة، وعاد مع زوجته وابنته للإقامة الدائمة في المغرب، وفتح متجراً لقطع غيار السيارات في الحيّ المحمدي قبل شهرين، وهو الآن مسافر إلى أمستردام لإجراء بعض المعاملات الإدارية، ومنها تجديد جواز سفره كمواطن هولندي. سأله عن عمله في المحطة، وأخبره عبد

الرحيم بالتفاصيل: مهنته كفلّاح، واضطراره إلى البحث عن عمل إضافي لمساعدة الأهل، وظروفه الصعبة في الدار البيضاء، ومزاج الناس المختلف هنا عن مزاج الفلاحين، وغشهم في المعاملات. بَدَا بعض الارتياح على الحاج عبد السلام من سماع كلام فطريّ من شابٍّ لا تَنْضح ملامحُه بالغش في المشاعر، فَطَمْأَنَ الشابَّ بأن كربة المؤمن تنفرج إنْ تَمَسَّك بالدين والأمانة في العمل، لأن الله يكافئ المتّقين من عباده، وأخبره بأنه ـ هو نفسُه ـ تجرّع مرارة الحياة مثله قبل أن يهاجر، فهو من أسرة فلاحية في بوسكورة، ولم يكمل دراسته بسبب فقر الأهل، واضطراره إلى العمل مبكراً وقبل أن يبلغ سنّ الرشد. لكن الله أكرمه بعملٍ شريف جَمَعَ منه ثروة تكفيه للعودة إلى وطنه وقضاء بقية حياته قرب قَبَرَيْ والده ووالدته، وقرب مَنْ بقيَ من أهله في بوسكورة. ثم فوجئ عبد الرحيم بأنْ عَرَضَ عليه العمل، عنده، في المتجر مقابل راتب يزيد عن راتبه في المحطة بألف درهم. لم يتردد الأخير في القبول خصوصاً بعد أن وعده بأن يتحدث إلى صديق له ليوفر له مسكناً لا يزيد إيجاره عن الألف درهم: قريباً من العمل، وطلب منه أن يأتيه إلى المتجر حينما يعود من السفر بعد ثلاثة أسابيع.

لم يكن صيف ذلك العام قد انصرم حتى استقر عبد الرحيم في عمله الجديد في الحي المحمدي. كان إلى جانبه بائعٌ آخر في المتجر، أما عامل الحسابات في الصندوق فكان من قرابة الحاج. أذهله كثيراً إقبال الناس الشديد على اقتناء قطع غيار السيارات من الأنواع والطرازات كافة، على الرغم من الضائقة المالية الشديدة التي يشتكي منها الجميع بسبب موجة الجفاف الممتدة منذ أربع سنوات، وعلى غلاء قطع الغيار تلك. وأذهله أن هذه التجارة مربحة جدّاً، ولا تُضاهَى بتجارة أخرى؛ فالمبيع من قطع الغيار، كل يوم،

لا يقل عن راتبه الشهري. وهذا ما جعله يقدّر أن عامه ذاك لن ينصرم إلّا والحاج عبد السلام ينتقل من مسكنه في الحيّ المحمدي إلى فيلا في عين الذياب أو حيّ كاليفورنيا. حينها، نبعت في رأسه فكرة الهجرة إلى أوروبا بحثاً عن عملٍ يوفّر منه ثروةً مثلما فعل الحاج. ولكن كيف له أن يصل إلى هناك؟ سأل الحاج، يوماً، كيف تدبَّر أمْر السفر إلى هولندا، فأجابة الأخير بأن ذلك حصل قبل استقلال المغرب، ولم يكن السفر، في ذلك الحين، ولا العثور على العمل بالأمر العسير. أزعجه جوابُه، لكنه تمسَّك بشيءٍ من الأمل في أن يرى نفسه هناك يوماً ما. وحين سأله عن سبب اختياره تجارة قطع غيار السيارات، أجابه بأنها تجارة لا يصيبها كساد، وأنه رأى، هو نفسه، كيف تزدهر في هولندا وبلجيكا وألمانيا، وكيف انتقل إليها تجار كثر بدأوا تجارتهم في سلع أخرى.

قرّر أن يكون مشروعه التجاري، حين يعود ظافراً بالمال من أوروبا، فتْح متجر لقطع غيار السيارات، ورَكِبَهُ الحلم طويلاً وأخذ عليه كل التفكير والتصميم. وقرّر أن يختصر الطريق الذي قطعه الحاج عبد السلام من خمسةٍ وثلاثين عاماً إلى نصف هذه المدّة الزمنية أو أقلّ، بل كثيراً ما بدتْ له عشر سنوات كافية لجمع المال وتكوين ثروة؛ فهو لن يتزوّج خلال هذه المدّة حتى لا تَكْثُر نفقاتُه، وهو لن ينفق إلّا ما يسدّ به الرّمق وبأبخس التكاليف، ثم إن أهله لم يعودوا في حاجة إليه بعد أن فتح لهم الاتفاق مع العياشي أبوابَ رزقٍ كانت مقفلة. لم يبق له، إذاً، إلّا أن يبحث له عن سبيل إلى العمل في الخارج والهجرة إليه. ولم يطُل انتظاره كثيراً حتى أتَتْهُ الفرصة، ومن طريق الحاج نفسِه الذي وسَّط أحدَ معارفه في الأمر ممن يعرفون السُّبل إلى الحصول على عقود عمل للراغبين في الهجرة. حصل الأمرُ بسرعةٍ لم يتوقعها هو نفسُه، وبدأت بِبَوْحِهِ

للحاج برغبةٍ في الهجرة إلى بلدٍ في الخارج من أجل مساعدة الأهل. حين أسرَّ له بذلك ذات يوم وهما يخرجان من المسجد، بعد صلاة الجمعة، سأله الحاج إن كانً قد ضاق بالعمل معه، فنفى ذلك مستعيذاً بالله من إضمار الضِّيق من رجُلٍ كريم وشهم مدَّ له يد المساعدة، معلِّلاً رغبته في الهجرة برفع ضائقة العيش عن أسرته الفقيرة. وحين سأله عمّا إذا كانت فكرة الهجرة سَكَنَتْه حديثاً، وكان يقصد منذ تعرَّف إليه وعَلِمَ بأمره كعاملٍ مهاجر سابقاً، أجاب بأنها راودته منذ سنوات؛ منذ رأى بعض أبناء الرحامنة يشدّون الرحال إلى فرنسا وإسبانيا للعمل هناك، ويعودون في الصائفات ليَرْوُوا للأهالي نعيم الحياة في المهجر. وما إن قال إن أبواب الرزق مفتوحة في البلاد، وأن لا حاجة إلى التفكير في الاغتراب إلّا لمن ضاقت به السُّبل، حتى تذكّر محنته ـ هو ـ مع العمل واضطراره إلى الهجرة، فاستطرد قائلاً إنه يقصد أن فرص الشغل، اليوم، أضحت أكثر مما كانت بالأمس، حين كانت البلاد حديثةَ عهدٍ بالاستقلال، وفرصُ العمل فيها شحيحةً في الإدارة، والتجارة، والصناعة.

«لكن معظم الناس، مثلما سمعت، كان بدويّاً من الفلاحين، والفلاحة كانت موردَ رزقٍ عميماً، وما كان أحدٌ يشعر بخصاصة».

«لو كان الأمر، كما تقول، لما اضطرتْني الأحوال إلى الهجرة؛ فوالدي، يرحمه الله، كان خمَّاساً منذ ورث الحرفة عن جدّي إبّان دخول الفرنسيين إلى البلاد. وأنا نفسي ساعدتْهُ في زراعة الأرض وفي الرعي، في مطلع مراهقتي، قبل أن يتوفاه الله في اليوم نفسه الذي اجتمع فيه الملك محمد الخامس، رحمه الله، مع رؤساء أمريكا وإنكلترا وفرنسا في الدار البيضاء. وكان عليَّ، حينها وأنا ابن الثالثة عشرة، أن أغادر المدرسة الثانوية لأتفرغ للعمل في الأرض، وأن ألجأ بعدها إلى العمل في الدار

البيضاء كميكانيكي بعد استغناء صاحب الضيعة عن خِدْماتي بدعوى صغر سنّي، وحداثة عهدي بالزراعة».

«ولكن ما عشتَه، يا حاج، قبل أربعين عاماً، يعيشه اليوم ملايين الشباب الذين لا فرصَ عملٍ لديهم، ولا أفقَ للمستقبل يُفتح أمامهم، وخاصة في سنوات الجفاف العجاف هذه».

«قد تكون على حقٍّ، يا ابني، إنْ أنتَ قَصَدْتَ مَن هُمْ في عداد الفلاحين والمزارعين. لكنّ الأغلب من الناس نأى بنفسه عن الفلاحة وطلب غيرَها، وأنت واحدٌ منهم».

«حتى هؤلاء، يا حاج، لا يجدون في العمل في الصناعة والتجارة ضالّتهم، إن همُ حَظُوا بالعثور عليه من دون الناس جميعاً؛ فما يحصلون عليه بالكاد يوفّر لهم لقمةَ خبزٍ، لكنه لا يفتح لهم بيتاً ولا إمكاناً لتكوين أسرة».

شعر الحاج عبد السلام بقدرٍ من الحرج حَمَلَهُ عليه ما كان دفَعَهُ ـ هو نفسُه ـ إلى السفر خارج الديار، واكتفى بالقول بلهجةٍ أبوية:

«يبدو أن أبناء اليوم أقلّ قناعة من أبناءِ أمس، فلو كان في حوزة الأخيرين ما في حوزة الأولين، اليوم، لَمَا طلبوا المزيد».

«صدقني، يا حاج، إن نصف شباب المغرب اليوم، إن لم يكن أكثر، لا ينتظر أكثر من أن تُفتح أمامه أبواب الهجرة إلى الشمال: حتى لو ساقَ له الحظُّ عملاً في بلده».

«أعرف ذلك، يكفينا أن أولادنا يموتون في قوارب الموت سعياً منهم إلى الوصول إلى الشواطئ الإسبانية، ولا حول ولا قوة إلّا بالله».

لم يكن قد مرَّ على هذا الحديث أسبوعٌ حتى زفّ له خبر الحصول له على إمكانية عقدِ عملٍ في ليبيا بواسطة أحد معارفه. وحين استفسر منه عمّا يمكنه أن يفعله في ليبيا، وعن قيمة ما يستطيع تحصيله في بلدٍ فقير كالمغرب، أجابه بأن ليبيا بلدٌ غنيّ، وأن المغاربة يحظون فيه بمعاملة خاصة. لم يتحمّس للفكرة، فقد كان رأسه مسكوناً بأوروبا، وبهولندا التي حدثه عنها الحاج، ولذلك لم يُجِبْهُ إلى العرض، ولكنه لم يستطع رفضه، مكتفياً بأن التمَسَ منه بحثَ إمكانية أخرى غير ليبيا. ولم يَعِدْه الحاج بشيء، بل حذّره من إضاعة فرصة قد لا تسنح ثانيةً.

قضى أياماً يقلّب فكرة السفر إلى ليبيا في رأسه، وسأل كثيرين ممن يعرفهم عن ليبيا والعمل فيها، فلم يَجد جواباً يغريه بالذهاب. ثم قرّر أن يصرف النظر، وأبلغ الحاج بذلك. لكنه فوجئ، بعد شهر، بالأخير يقول له إن عرضاً بالعمل في مزرعة بفرنسا متوفّر، لكنه يحتاج منه إلى ثلاثين ألف درهم مصاريف للعقد وللوسيط، وأن إنجاز معاملة السفر، بما فيها التأشيرة وبطاقة الطائرة، من ضمن المبلغ المطلوب دفْعُه للوسيط. استبدت به الفرحة في بادئ الأمر؛ فهاهي أبواب أوروبا تُفْتَح أمامه أخيراً، لكن حماسته فترت سريعاً حين تذكّر أنه لا يستطيع أن يتدبر مبلغاً بهذا الحجم. لم يكن يملك أن يوفّر المبلغ من خلال أيّ مصدر؛ لا من طريق أخيه، الذي يعرف عسر ظروفه، ولا من طريق قريبٍ أو صديق أو قرضٍ ماليّ من بنك. بدأ يشعر أن الفرصة تتبخر كلّ يوم، وأن حظه العاثر يعاكسه. لَعَنَ الفقر ومَن سبّبه، واستسلم لليأس يُقَطِّع أوتار قلبه ويَعْزف مواجعه. خمدت جذوة حماسته للعمل، وتَحَطّم داخلُه إلى حدودٍ استبدّ به فيها السهومُ والشعور باللاجدوى، ولم يكن أمامه ـ لتفادي تكرار الخطإ في العمل ـ غير

طلب إجازة ثلاثة أيام للذهاب إلى بن جرير، بدعوى إجراء معاملات إدارية ـ طلبها منه أخوه ـ وتقتضي حضوره. لم يكن في ذهنه شيءٌ، من وراء هذا الهروب، سوى أن يقْذِف بنفسه في حضن أمّه ليبحث فيه عن دفءٍ يقيه من هذا العراء القاسي.

أسرَّ لأخيه بهمومه ويأسه من تحقيق حلمه بالهجرة وكسْب الرزق بعيداً، ولم يكن يستطيع أن يطلب منه مساعدةً لمعرفته بشدةِ ضائقته، لكنه أمل في أن يسمع منه نصيحةً ترشده إلى سبيلٍ ما إلى الحصول على المبلغ. وما كان لدى عبد الرحمن ما يقوله له، سوى أن يقاسمه همَّه والحسرةَ معه على ضياع فرصة. لكنه لم يملك أن يُخْفِيَ عن أخته الوسطى رُقيَّة حقيقةَ الحزنِ الذي لاحظَتْهُ على أخيهما عبد الرحيم، وأصرَّتْ على أن تعرف سببه. وما إن أخبرها، حتى بدأت تسحب أساورها الذهبية من يدها، وتنزع أقراطها، وتضعها بين يديه. ترقرقت عينا عبد الرحمن بالدموع، فردّ إليها حِلِيَّها، التي نعِمت بها بعد زواجها حديثاً، وقبَّل رأسها شاكراً شهامتها. أصرّت على أن يبيع الحِليّ لتأمين المبلغ إن كانت قيمتُها تكفي لتغطيه. قال لها إنه أَوْلى بالتضحية منها، وسألتْه ماذا يستطيع أن يضحِّيَ به كي يساعد أخاه؟ لم يكن لديه جواب، لكنه شعر في تلك اللحظة، بالذات، أن عليه أن يفعل شيئاً. كَأَنَّ لفتةَ أختِه حرَّكت فيه شيئاً راكداً، كأنها أشعرتْه بالمسؤولية عمّا يلْحق أفراد العائلة جميعاً من أذىً أو قَرْح. حَمَلَ نفسه وقصد الحاج العياشي ملتمساً منه سلفةً مالية يستقطعها من غلّة الأرض. قَبِل، بعد لأْيٍ، أن يدفع له عشرة آلاف درهم شرط استردادها كاملةً، من دون اقتساط، في الأشهر الثلاثة التالية وقبل حلول الصيف. وافق مرغماً، لكنه ظل مُغْتَمّاً لأنه لا يعرف طريقاً إلى الحصول على باقي المبلغ. أمّا حين لجأ إلى السّي محمد يسأله الرأيَ في ما

عليه أن يفعله في هذه النازلة ففوجئ به يُبدي الاستعداد، من جهته، بأن يُقرضه سبعة آلاف درهم من مبلغ الترقية المهنية الذي حصَّله قبل شهر، وأن يَشْرَعَ في اكتتابٍ لجمع مساعدات من الأصدقاء لتغطية الباقي. لم تكن أيام الإجازة الثلاثة قد انقضت، حتى ضَمِنَ عبد الرحمن لأخيه ستةً وعشرين ألف درهم.

غلبتْهُ دموعُه حين أخبره عبد الرحمن، وهو يتهيّأ لركوب الحافلة آيباً إلى الدار البيضاء، بأنه أمَّن له ما يقارب ثلاثة أرباع المبلغ المطلوب، وأنّ عليه أن يتدبّر الباقي، وأن المال سيصله بالبريد بعد أسبوع. ولم يَنْس أن يُطْلِعَه على مَن تبرّعوا بالقرض، أو تبرّعوا من دون إقراض، من رقيّة إلى الأستاذ السّي محمد ورفاقه من الأساتذة والموظفين من دون أن يأتيَ بشيءٍ من الإشارة إلى اقتراضه ـ هو ـ من العياشي. ولم يكن صعباً عليه، حين عاد إلى الدار البيضاء، أن يتوسَّل الحاج عبد السلام لإقراضه المتبقي من المبلغ، ولا كان عسيراً على الأخير أن يجيب طِلْبَتَهُ بالموافقة ما دام هو نفسه مَن عَرَضَ عليه فرصة السفر، وشجَّعه على عدم تفويتها. أمّا قرض عبد الرحمن من العياشي فلم يعرف عنه إلّا من العياشي نفسه، بعد سنوات ثلاث من هجرته إلى فرنسا، ممّا أخجله كثيراً تجاه أخيه، الذي دفع القرض من حقوق دخْله لا من حصة عبد الرحيم، وهو ما رفع لدى الأخير الشعور بالمديونية تجاه الأخ الأكبر.

يحاصره، اليوم، الشعورُ بالتقصير تجاه الرجل الذي لولاه ما كان وصل إلى فرنسا، والتحقَ بعملٍ، وكوَّن أسرة، وبنى أحلاماً بجمْعِ ثروة. لم يكن تقصيراً في حقّ فرد فحسب، بل في حق سائر الأهلِ ممّن تحملوا شظف العيش في غيابه. وهو لا يملك مساعدتهم ـ يقول في نفسه ـ لأنه لا يملك أن يقذف بماله في

مجهول اسمه الأرض بينما هو ينتظر أن تنموَ ثروتُه سريعاً لتُطْلِق مشروعه التجاري من مَحْبِسِه. على عبد الرحمن أن يفهمه، وأن يضحّي قليلاً قبل أن يتذوق طعم ثمار التضحية حين ينهمر المال عليه وعلى الأهل. لقد حاول أن يشرح له ذلك في الرسالة التي بعث بها إليه، وسيفعل ثانيةً في رسالة أخرى سيرسلها إلى مهدي علَّه يساعده في إقناع عبد الرحمن. وسينتظر قليلاً انحسار موجة الضغط قبل أن يقرر إن كان عليه أن يسافر إلى المغرب لزيارة الأهل. هذه المرة سيذهب وحيداً، من دون كريستين، حتى يتفادى أسئلةَ الأهل عن سلوكها غير المسلم. لن يفهم أحدٌ من أهله أن تكون زوجته نصرانية، ولذلك كان عليه أن يكذب عليهم قبل أن تكتشف صفيّة بعض القرائن على كذبه. هو لم يقترف ذنباً بزواجها على دينها؛ فلقد سأل الفقيه الجزائري مولود العروسي، الذي كان يؤمهم في صلاة الجمعة ببوردو، إن كان يجوز له نكاح مسيحية من دون أن تتحول عن دينها وتعتنق الإسلام، فأجابه بأن الوضع الأمثل هو أن تنعم باعتناق عقيدة الإسلام، فتربِّي أبناءها على قيم الإسلام، ولكن إن أبتْ، وظلت على دين آبائها وأجدادها، فلا حرج عليه في زواجها لأن زواج الكتابيات حلال في شريعة الإسلام، على أن يخرُج من صلبه مسلمون يجدون من يتعهدهم بالتنشئة على قواعد الدين الحنيف. ما كان أسعده حين سمع ذلك من الفقيه العروسي، ولكن ما كان أشقاه كلما تذكَّر أن عليه أن يُخفيَ الأمر على أهله لأنهم لن يفهموه.

V

لم يتوقع مهدي أن تصله رسالةٌ من عبد الرحيم، ولا أن يكون موضوعها مشكلة الأرض؛ فلقد حسب إمساك أخيه عن الاتصال بالأهل، منذ عام ونصف، إعلاناً عن انفصالٍ نهائي عن الأسرة، ونسياناً للبلد وذكراه. يعرف كثيرين فعلوا ذلك حين هاجروا إلى المغتَربات الأوروبية بعد فترةٍ قليلة من استقرارهم فيها. كانوا يعودون، في السنوات الأولى، محمولين على مشاعر الشوق لرؤية الأهل، فيصطحبون معهم من الهدايا والهبات ما يُرْضُون به المنتظِرين، ويُشْبِعون به نَهَمَهُم لمعرفة العالم الجديد الذي قُذف إليه أولادُهم وفلذات أكبادهم، ويؤكدون به أنهم عملوا وجَدّوا وحصَّلوا كي يبرروا لهم لماذا غامروا بالهجرة. ثم ما إن تتكرّر الزيارة السنوية مرَّة أو اثنتين، حتى يبدأوا في التباطؤ: تتباعد تواريخ الرسائل ومناسباتها، وتشحّ المكالمات الهاتفية، وتنقطع الزيارات، والمبرّراتُ هي نفسُها المبررات: الانشغالُ بالعمل، قلّةُ الإجازات، ووعودٌ بزيارات لا يَبَرُّون بها. هكذا أَمْرُ عبد الرحيم: هكذا بدأ، وهكذا انتهى. يتذكر أن رسائله ما انقطعت عنهم، في عامه الأول، في الأعياد الدينية وفي غيرها من المناسبات. ويتذكر كيف كان يأخذه عبد الرحمن معه، وهو تلميذ في الإعدادية، ليستقبلا مكالمته الهاتفية في بن جرير، وكيف

كانت زياراتُه السنوية منتظمة في أعوامه الثلاثة الأولى، حتى إنه ما شعر بأن أخاه على بعد آلاف الكيلومترات منهم. وحتى حين أمسك عن الزيارة الصيفية، في الأعوام الثلاثة اللاحقة لزياراته الأولى، لم يتوقف عن مكاتبة الأهل ومكالمة عبد الرحمن هاتفياً. وقد استبشر مهدي بزيارته الأخيرة مع زوجته، التي أرسل صورة لها للأسرة قبل مَقْدَمِهما، وحَسِبَها تصحيحاً لسلوكٍ أَتَاهُ خطأً في الفترة السابقة. ثم اختفى وجهاً وصوتاً حتى كاد أن ينساه.

هاهو يعود، ثانيةً، إلى الظهور. في رسالته شيءٌ من علامات الندم على الاختفاء لم يُفْصِح عنه صراحةً، لكنّ بعضَ مفرداته يوحي بها: «لم أكن أرغب في أن ينقطع الاتصال بيننا طوال هذه المدّة، ولو كنتُ أعلم أن الأمور ستصل إلى فقدان مورد الرزق، لَجِئْتُ إلى الرحامنة ووجدتُ سبيلاً إلى إقناع العياشي بعدم فسخ الاتفاق». فات أوان الندم، مثلما فات أوان إصلاح ما فسد. ما يطلبه منه عبد الرحيم شيءٌ آخر تماماً: أن يساعده في إقناع عبد الرحمن بالاقتراض من القرض الفلاحي، أو البحث عن صيغة تعاون مع مَلّاك كبير آخر شبيهة بالصيغة التي كانت مع العياشي. وهو لا ينسى في الرسالة أن يُشْعِر أخاهُ الصغير بأنه صاحب الرأي الحصيف في الأسرة كلِّها، لأنه متعلم وجامعي، وغداً سيكون محامياً أو قاضياً أو شخصية مرموقة في الدولة. هي رِشوةٌ، إذاً، كي يقوم نيابةً عنه بما عجز هو عن القيام به من إقناع عبد الرحمن. وما وراء الطلب والرِّشوة محاولةٌ سخيفة لتبرير التقاعس عن مساعدة الأهل في هذه المحنة. هو على حق، في نظر مهدي، حين يُبَرِّر عدم تجاوبه مع طلب عبد الرحمن بأنه يفضّل استثمار ماله القليل في التجارة بدل الزراعة، ولكن ذلك لا يمنعه من إرسال القليل منه لسدّ الأَوَد؛ على الأقل إلى حين إقناع عبد

الرحمن بتغيير رأيه، وصرْفِه عن التمسك بالزراعة، أو إلى حين اقتناعه هو نفسه بلا جدوى ذلك التمسك الذي لا طائل منه ولا فائدة.

قرّر أن لا يتجاهل رسالة أخيه؛ أن يردّ عليها برسالةٍ منه، ولكن ليحاول إقناعه ـ هو ـ بفكرته التي رفضها عبد الرحمن بشدّة. هكذا يصبح هو صاحب المبادرة لا عبد الرحيم، فيكون على الأخير أن يسانده هو لا العكس. تفادى، في الرسالة، عبارات العتاب أو المؤاخذة، ودخل توّاً في الموضوع. قال إنه جرَّب مع عبد الرحمن مراراً صَرْفَه عن أفكاره التقليدية من دون جدوى، بما في ذلك أن يقترض مبلغاً من القرض الفلاحي لتجهيز الأرض. لكنه، اليوم، لم يعد مقتنعاً بأن مثل هذا القرض يفيد، وأن الحلّ الأمثل هو بيع الأرض وتأسيس مشروع تجاريٍّ مِدْرَارِ الربح، وهو سعيد بأن يسمع من أخيه أنه يفضل التجارة على الزراعة، مثله، وأن في وسعهما معاً أن يتعاونا في الضغط على عبد الرحمن للقبول ببيع الأرض لهذا الغرض. لم يَنْس مهدي أن يفيد أخاه بأن لديه أفكاراً مثمرة عن نوع المشروعات التجارية المربحة اليوم، وهو مستعد لأن يتداولها معه إن هما نَجَحَا في المسعى مع عبد الرحمن. وطلب منه، في الأخير، تزويده برقم هاتفه لتأمين سرعة الاتصال به والتواصل معه، وزوَّده برقم هاتف صديقٍ له في مراكش يمكنه الاتصال به عن طريقه.

*

سأل عبد الصادق مراراً إن كان أخوه عبد الرحيم اتصل به عبر هاتف بيته الذي زوّده به قبل خمسة أسابيع في الرسالة التي كتبها له. أكد له صديقُه أن أحداً من أهله لم يتصل، وأن أمّه

وأخته القابعتين في البيت، أبداً، لم تتلقّيا أية مكالمة من أحد من أفراد أسرته، وأنه سألهما في هذا الشأن غيرَ مرّة. مهدي على يقينٍ بأن رسالته لم تُخْطِئ طريقَها، ولم تَضِع؛ لأنه أرسلها بالبريد المضمون، وهذا ـ في حال الخطإ أو في حال عدم استلام الشخص المعني بريدَهُ ـ يَعود توّاً إلى المرسِل، مع إشعار الأخير بعدم استلام المرسَل إليه خطابَه. هذا النظام يجري به العمل في المغرب، فكيف لا يكون أدقّ في فرنسا، علماً أنه نظام مستوردٌ منها مثل سائر النظم الإدارية والمالية والقضائية... الخ؟ إنه لا يجد سبباً لإحجام عبد الرحيم عن الردّ كتابةً، أو الاتصال هاتفيّاً، إلّا أن يكون خطأٌ ما في العنوان، أو بُطْءٌ ما في الإجراءات البريدية، قد أخَّر الرسالة عن أخيه، أو أخّر ردّ الأخير عنه؛ إذ ليس في اقتراحه الذي اقترحه على عبد الرحيم ما يُزْعِج هذا، لأنه مثله مقتنع بأن التجارة وحدها ما يُعَوَّل عليه. ثم إنه لم يعاتبه في الرسالة، ولا طلب منه مساعدة الأسرة ماديّاً، ولا أتى شيئاً مما كان عليه أن يفعله فأحجم عنه مخافةَ قَطْع حبل الوَصْل، فلماذا يعلّقه كل هذه الفترة الطويلة على صليب الانتظار؟!

فَضَّل أن يُحْسِن الظنَّ فيرجّح عدم توصُّل أخيه برسالته. أخذ بنصيحة عبد الصادق بإعادة إرسالها بالبريد العادي لأن البريد المضمون، والبريد السريع، في المغرب يتأخر ويضيع أكثر من غيره، مثلما قال له واثقاً. أعاد إرسال الرسالةَ عينَها التي احتفظ له بنسخة مصوَّرة منها، لكنه فوجئ، بعد أسبوعين، ببرقية من سطرٍ واحد يقول فيها عبد الرحيم «اصرف نظرك عن فكرة بيع الأرض، فأنا كعبد الرحمن أرفضها».

لا فائدة تُرجى من الأخ الثاني، الاثنان من عالم آخر غير عالمه. لم يستفد عبد الرحيم من إقامته في فرنسا؛ جسمه هناك

ورأسه في بن جرير، يؤمن بالتجارة ويتمسك بأرضٍ عاقر. لا يستطيع أن يفهم الاثنين، أن يفهم سرّ وَلَعِهما بالأرض إلى حدّ ارتضاء الفقر والحاجة على بيعها لتأمين موردِ رزق. لقد خسرا أفكاره الجهنمية، مشروعَه الذي كان سيُدرّ عليهم جميعاً أوفرَ ربح. لو أسعفه الاثنان لكان محلُّه التجاري الآن يعُجّ بالزبناء، والمداخيلُ تتراكم بين يديْه. حاول أن يشرح ذلك لعبد الرحمن، قبل أشهر، حين اقترح عليه شراء دكّان أو استئجارَه، قريباً من الجامعة، وتجهيزَه بآلتيْ تصوير (فوطوكوبي) وآلة كاتبة، وتشغيل كاتبة براتب شهري مقطوع أو بنسبة أرباح حسب العمل. أجابه الأخير بأنه لا يفهم في هذه الأمور،

«ولكني أفهم فيها جيّداً، وأعرف مقدار ما يكسبه العاملون في هذه المهنة».

«لن أبيع الأرض».

تجاهل ردّه فأضاف:

«هل تعرف أن الربح الصافي من المداخيل لا يقل عن ستة آلاف درهم في الشهر، أي مجموع ما يمكن أن تدره الأرض من مدخول الشعير؟».

«لن أبيع الأرض».

لن أبيع الأرض، لن أبيع الأرض... ظلت تتردَّد، تلك الأيام، في رأسه كمطرقة تتنزَّل على سندانٍ وتُحْدث في الرأس الهرج. وزاد من انسداد أفق الفرج أمامه، اليوم، أن الأخ الثاني قرينُ الأول في العناد. هاهو حلمه في الثروة ينهار، وها هو فقرُه إلى المال يزيد بعد أن كفَّتِ الأرض عن العطاء. المنحة الجامعية هزيلة، وهي لا تكفي سدَّ حاجةِ أسبوعين، فكيف بثلاثة أشهر؟ منذ

نهاية العام الدراسي الثاني، اصطنع لنفسه مهنةً مؤقتة أرادها تمريناً على العمل في مشروعه، ومصدرَ دخلٍ يسُدّ به الحاجة. أخذ يجمع أبحاث الإجازة مخطوطةً من الطلبة، ويتكلف برقْنها عند كاتباتٍ وتصحيحِها، وتغليفها، مقابل مبلغ مادي متفق عليه. وفّر على الطلبة بعض جَهْد مرهق، ووفّر لنفسه بعض المال. ثم لم تلبث «مهنته» أنْ تطورت في مطلع عامه الجامعي الثالث؛ فما إن يسمع أن أستاذاً من أساتذة القانون فرض كتاباً من كتبه مقرَّراً على طلابه ـ وما أكثر مَنْ كانوا يفعلون ذلك ليبيعوا كتبهم على حساب الطلبة! ـ حتى كان يخِفّ لتصوير عشرات النسخ من الكتاب، ويعلن في الطلبة أنها جاهزة تحت تصرّفهم بسعر أقل بكثير من سعر الكتاب في السوق. هامش الربح لديه في النسخة الواحدة محدود، لا يتجاوز خمسة أو سبعة دراهم، لكنه درّ عليه مالاً وفيراً بعد أن نجح في تصوير ما يزيد عن ثمانمائة نسخة من كتابين في شهرين. وأكثر الطلبة يفضل أن يقتني منه، هو، نسخة مصورة من الكتاب، لأن ذلك يعفيه مشقة استعارة الكتاب الأصل، وتصويره في محلات تضيق بزِحامٍ طلابي لا ينقطع سيْلُه.

أصبح مهدي معروفاً في كلية الحقوق كوسيط ناجح بين الأستاذ وكِتَابِه وبين الطلبة. لكن ذلك بدأ يَجُرُّ عليه متاعب كثيرة، وخاصة من أساتذة باتوا يرون فيه عدوّاً يخرِّب عليهم «تجارتهم»! أخبره عبد الصادق بأن أستاذ إحدى المواد القانونية سأل الطلبة، مرّةً، عن سبب عدم اقتنائهم كتابَه، فأجابه أحدٌ بأن نُسَخَهُ المصوَّرة متوفّرة، وأنهم اقتنوها، لرخْصِ سعرها، من طالبٍ وَفَّرها بكميات كبيرة. انزعج الأستاذ وسأل عن اسم الطالب، ولم يُجبه أحد. غير أن الأستاذ شوهد يتحدث، في نهاية الدرس، مع الطالب الذي أفاده بموضوع نُسَخِ الكتاب المصوَّرة، حيث لم يستبعد عبد

الصادق أن يكون قد أخبره باسم الطالب المعْني. لم يأبه مهدي للأمر في البداية؛ فالأستاذ هذا درَّسه في السنة الجامعية الأولى، وتعوَّد أن لا يدرِّس إلّا في السنة الجامعية الأولى حيث يكون الطلبة بأعداد تتجاوز الألف، وحيث فرصُ تسويق الكتب أوفر! لكن استهانته بالموضوع لم تَحْسِب حسبان نفوذ الأستاذ على بعض زملائه من المدرِّسين؛ إذْ لاحظ أن اثنين منهم لـمَّحَا له، في مناسبتين متباعدتين، بأن الشعبة لن تتساهل مع مَن يتاجرون بكتب الأساتذة، وأضاف أحدهم بأن أسماء مَن يقومون بالمتاجرة معروفة لدى أساتذة الشعبة. ومرة أخبره عبد الجليل أن ثُرَيَّا، زميلتهما في الدراسة، سمعتْ أستاذ القانون الإداري يتحدث إلى أستاذ آخر عنه متوعّداً بمعاقبته في الامتحان. كانت تقف قريباً من مدخل قاعة الأساتذة، في انتظار وصول أستاذةٍ تواعدت معها على اللقاء هناك، حين تناهى إليها بعضٌ من ذلك الحديث.

خرَّبوا تجارته ولمَّا تبدأ، منعوهُ المأكل والمشْرب مثلما فَعَل العياشي. كلُّهم تجّار شرِهون لا يَقْنعون بما بين أيديهم، فيتطاولون على حقوق الغير وإن كانت تافهة. لا ضميرَ مهْنيّاً لديهم ولا يحزنون، ومن الأحسن له أن يتقيَ شرّهم. قرّر أن يتوقف اجتناباً للمكاره والْتماساً للأمان. ولكن كيف سيُقنع مَن عَرَفوا بأمره من الأساتذة بأنه، فعلاً، توقف؟ هل يتقرب إليهم ويُدَاهِنُهم؟ هل يعترف لهم بأنه ما قصد بهم سوءاً حين نسخ مئات النسخ عن كتبهم وباعها، وإنما حاول تمكين الطلبة من الاطلاع على كتبهم المقررة؟ هل يخطو أكثر فيعتذر عن خطإٍ غير مقصود؟ في حَيْرةٍ من أمره يدير الأسئلَة في رأسه يميناً وشِمالاً، ويعرف أنه ما من وسيلةٍ أخرى غير المواجهة الشجاعة؛ فهو إن ترك الأمر من دون معالجة، لن يصدّق أحد منهم أنه توقف عن النسخ، وحين سيلجأ

الطلاب، من تلقاء أنفسهم، إلى تصوير كتب أساتذتهم، فلن يُزَحْزِحَ أحدٌ يقينَهم بأنه هو من يفعل ذلك. سأل عبد الصادق رأيه في ما الذي عليه أن يفعله لامتصاص غضب أساتذته، فأشار عليه بأن يعتذر لهم بدعوى أنه لم يكن يعلم أن كتبهم متوفرة في المكتبات، وأنه ما إن علم بذلك، من طريق بعض الطلبة، حتى توقَّف عن نسخها. استحسن الفكرة وقرر أن ينفذها مبتدئاً بالأستاذ (س) الذي يدرّسه مادة من مواد القانون، وفرض على الطلبة كتاباً له مقرّراً. لم ينسخ منه أكثر من مائة نسخة لأن عدد الطلبة لا يزيد عن المائتين، ولكن الحديث إليه «بروفة» للحديث إلى الأستاذ (ص) الذي سيلتقيه في السلك الثالث إنْ حصل على الإجازة في العام القادم، وقُبِل تسجيلُه في الدراسات العليا.

ضاعت منه فرصةٌ لاحت له بعد رسالة عبد الرحيم الأولى قبل أن تُخْمِدها برقيتُه. لاشيء الآن في الأفق سوى السراب؛ أغلق عليه الخوفُ من العقاب الجامعي موردَ دخلٍ كان سيضمن له سدّ حاجاته المتزايدة، وهي زادت منذ نهاية عامه الأوّل بعد أن ألِفَ عادات استهلاكية جديدة. لو حصل على المبلغ، الذي يمكّنه من فتح محلّ للتصوير، لما انسدَّتِ الأبواب في وجهه بالتخويف. هكذا قال لعبد الصادق وهو يشكو عوزه وحاجته. ردّ عليه الأخير قائلاً:

«لن ينفعك المال ولا المشروع إذا كانت النتيجة أن تكون متهماً بقرصنة حقوق الأساتذة».

«لن أقوم حينها بدور الوسيط؛ سيأتيني الطلبة من تلقاء أنفسهم لتصوير الكتب، ولن يسجّل عليَّ أحد أنني بعْتُ نسخة مصوّرة من كتابه».

«تعتقد ذلك، ولكن أحداً لن يصدّق أنك بريء. ثم لا تَنْسَ

أنك طالب في الحقوق، ولن يسمح لك أستاذ بأن تسرقه».

«أنا لا أسرق أحداً، هم من يسرقوننا، ويَضغطون على فقرنا فيفرضون علينا ما لا نستطيع أن نتحمّله من أجل إضافة مالٍ جديد إلى رواتبهم».

«ليس أمامك سوى أن تنقل عملك إلى ملعب آخر: كلية الآداب أو كلية العلوم، حيث لا سلطان لأحد عليك».

«ليس في الكليتين ما يغري، كلية الحقوق وحدها توفّر هذه الفرصة لأن أساتذتها يفرضون كتبَهم كمقررات، وأقصى ما تستفيده من طلبة الآداب والعلوم هو طباعة بحوث الإجازة، وهذه قليلة وغير مربحة».

*

ضاقت به السّبل، وتراكمت عليه الديون، ولم يكن عامُه الجامعي قد انصرم بعد. تخلّف عن حضور الدروس والمحاضرات منذ بداية مارس، لأنه لم يَعُد يجد في نفسه الحافز إلى ذلك، ثم لأن هذا يعفيه من مطالبات الدائنين بردّ ما عليه من مال. كتب إلى عبد الرحيم مضطراً يطلب منه سُلْفةً، مع وعدٍ بتسديدها خلال ثلاثة أشهر، ولم يأته جواب منه. انتظر شهراً بلا جدوى، ثم قرَّر أن يضغط بطريقة أخرى.

أخذ طريقه إلى الرحامنة وقد زوَّر في نفسه فكرةً جهنمية أدارها في رأسه وهو يتنقل في الحافلة التي أقلَّته إلى حدود القاعدة العسكرية. لا بدّ أن يكون لفكرته مفعولها، لأنه لن يلتمس فيها غيرَ حقٍّ شرعي لا أحد يملك أن يجحده. وهو على يقينٍ أنها ستحرّك ماءً آسناً في العلاقة بينه وبين عبد الرحيم، فتدفع الأخير

إلى أن يفعل شيئاً يُخرجه من غمته. شيئاً؟ نعم، أيّ شيء: بَيْع الأرض، أو إقراضه، أو تمتيعه بنصيبه من الأرض. وإذا اقتضى الأمر، سيلجأ إلى والدته لتشاركه الضغط على الابن الأكبر. أمّا إذا أُقْفِلتِ الأبواب جميعُها أمام محاولته الأخيرة، فقد يهدّد باللجوء إلى القضاء لتحصيل حقه. لن يفعل، لكنه سيلوّح عسى أن يكون للتلويح ما لم يكن لغيره من أثر، وعسى أن يشعر عبد الرحمن به وبمعاناته التي يتجاهلها.

لكن عبد الرحمن لم يشعر بشيء، نهره بشدّة حين فتح معه الموضوع ثانيةً، وردَّ طَلَبَهُ قسمةَ الميراث بأن دعاه إلى استحصال موافقة سائر أفراد العائلة. أطلق مهدي طلقته الأخيرة حين قال:

«سآخذ حقي منك ولو اضطرني ذلك إلى اللجوء إلى القضاء».

«اذهب إلى جهنم إن شئت يا عديم المروءة».

لم يذهب إلى قاض مثلما توعَّد، ذهب إلى جحيم الغضب والحقد. سريعاً تحوَّل عبد الرحمن من أخ، كان في مقام الوالد، إلى خصم يستنفر في النفس مشاعر الخصومة. أنساه حقدُه عليه شعورَهُ بنذالة سلوك عبد الرحيم. أمُّه لاحظت عصبيتَه الشديدة في التصرف، وعَزَتْها إلى ضغط الدراسة عليه، وحين طلبت منه ـ وهو يهُمُّ بالمغادرة إلى مراكش ـ أن يبقى مع الأسرة ليومين آخرين، أجابها عبد الرحمن بأنه مستعجل للذهاب من أجل أن يرفع دعوى قضائية ضدّ العائلة من أجل قسمة الأرض بين الورثة.

تساءلت الأم باستنكار:

«لماذا تسيء الظن بأخيك يا عبد الرحمن؟ من زرع في رأسك هذه الفكرة الخبيثة؟»

«اسألي ابنك المدلَّل إن كنتُ أتجنَّى عليه في ما أقول».

أطرق مهدي، كاظماً غيظه، وهو يتفادى نظرة استغرابٍ وتساؤلٍ ألْقَتْها أمُّهُ عليه.

«تكلم، أخْبر أمّك بما قُلْتَه لي أمس».

ظل صامتاً وكأنه ما سمع كلاماً. كسرتِ الأمّ الصمت وقالت:

«الأرض تركها والدُكم وديعةً في أعناقنا، وفي عنق عبد الرحمن، إنّ أردتم قسمة الميراث، فليكن ذلك بعد مماتي».

غادر غاضباً وقد أقسم بأن لا يرى أهله بعد اليوم؛ جميعُهم ضدّه، حتى أمّه التي خالها ستكون إلى جانبه تنحاز إلى غيره. لِيَنْعَمُوا بأرضهم، وسيتدبّر أمره بنفسه مثلما فَعَل، منذ عامين، بعد انقطاع الأمل من بطن الأرض. روى لعبد الصادق ما جرى، فعاتبه الأخير على تهوّره ومفاتحة أخيه في موضوع قسمة الأرض. لم يتوقع من صديقه، وهو الذي تَعَلَّم وإيَّاه الصعلكة، أن يلْبس جلد واعظ، فسأله سبب هذه الحكمة التي حلّت عليه فجأةً. ضحك عبد الصادق وقال:

«تبدو لك حكمة لأن عقلك صغير».

«شكراً للتقريع».

«لا تقريع ولا بطيخ، إنما هل سألتَ نفسَك ماذا تفيدك قسمةُ أرضٍ لن يزيد حقُّك فيها عن ثلاثةِ أرباعِ هكتار واحد؟ ما الذي ستفعله بقطعة الأرض هذه إن بِعْتَها، لن تحصل منها على أكثر من عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف درهم. هل هذه تكفيك لتبدأ تجارة؟ إن المبلغ هذا لن يغطي أكثر من إيجار ثلاثة أشهر لمحلّك التجاري الذي تحلم بإنشائه. وهل تعلم أن آلة نسخ واحدة تفوق

عشرين ألف درهم، أي ضِعْف ما ستحصل عليه من بيع حقك في الأرض؟».

«لهذا كنت آمل في بيع الأرض كلها، واستعملت موضوع القسمة حيلةً فقط».

«حتى لو بيعت الأرض بأفضل الأثمان، لن يزيد سعرها عن ستين ألف درهم، وهذه لا تعني شيئاً في التجارة». ثم إنها ليست أرضَك وحدك، ومن يَضمن أن يقبل أفراد الأسرة، جميعاً، بأن يسلموك مَالَهُم لتبنيَ تجارة؟».

«وما العمل؟».

«أكمل دراستك وابحث لك عن عملٍ كسائر الناس. هل تعتقد أن آلاف زملائك من الطلبة أحسن حالاً منك؟ كلهم فقيرٌ ابنُ فقير».

«نصيحة مستغربة من فاشل في الدراسة».

لم يعد أمامه إلّا أن يرْكَب الخطر فيتاجر بما صيَّرهُ مُفْلساً ومحتاجاً إلى المال. المراقبة شديدة على هذه التجارة، والمنافسون كُثرٌ وشرسون، خاصة من يحتكرونها ويمنعون غيرهم منها. وهؤلاء لهم عيون وسط الطلاب وتلاميذ المدارس وداخل الأحياء. وإذا أمكن الواحدَ أن يُفْلت من رقابتهم، فماذا عن المورِّدين الذين يزوّدون الباعة بالبضاعة؛ في وسع هؤلاء الوشاية به عند المتاجرين، وعندها لن ينفع «صابون تازة» في فض الاشتباك بينه وهؤلاء. أما إن أسعفه الحظ ونَجَا من ذلك كله، فأمامه خطر المراقبة الأمنية، وهذه ليست دائماً يقظة وكفوءة، لكن الثرثرة المجانية تدُلّ رجال الشرطة على طرائدها التي لم تتعرف عليها. وقليلون هم أولئك الذين يُفلتون من شِرَاك الأمن؛ التجار الكبار فقط من يشترون سلامتهم بالمال الذي يقدّمونه خوَّةً لمن

يلاحقونهم، وهو لا يملك المال لشراء سلامته، بل لا يملك المال الذي يكفيه لشراء القليل القليل من البضاعة قَصْدَ بيعه، بل حتى قصد استهلاكه.

لا مفرّ له من أن يمضيَ في هذه الطريق الوعرة ليؤمِّن المال الذي يُبْعِد عنه غائلة الحاجة وعواصف القلق. يَعِد نفسَه بأن لا يتوغل في المجهول كثيراً، وأن لا يوسّع دائرة المتاجرة والزبائن لئلَّا ينزلق إلى المخاطر. ويَعِد نفسَه بسياحةٍ قصيرة في عالم هذه التجارة يعود، بعدها، إلى ما كان عليه. إذ ماذا لو أمكنه أن يوفّر منها المال لمشروعه التجاري الذي اغتاله أخواهُ؟ سيكون ذلك شيئاً عظيماً حقّاً، بل سيكون مما تهُون المُخاطرةُ من أجله. وحتى إذا لم يستطع أن يحقق البُغْيَة من ذلك، سيوفّر المال الذي يكفيه ليتدبّر أموره إلى حين تخرُّجه من دون أن يمدّ يده إلى أحد. ولكن، أين المال الذي يبدأ به هذه المخاطرة؟ اللعنة على عبد الرحيم وبخله.

VI

في «مقهى المسافرين» جلس وحيداً. منذ فترة لم يعد يتردد، كالمعتاد، على المقهى اقتصاداً للنفقات. اكتفى من ارتياده اليومي له بجلسة واحدة أسبوعية مساء السبت؛ حيث يجتمع شمل الأصدقاء، وتدور أحاديث تتراوح بين النافع من المعلومات وبين المزح وتقطيع الوقت. لم يكن سهلاً عليه أن يغيِّر عادة اللقاء اليومي على فنجان قهوةٍ أو كأس شاي، لكن ذلك يكلّفه مصروفاً لم يعد يَقْوى عليه؛ ولم تكن مشكلته في أنّ عليه أن يدفع خمسة دراهم في كل جلسة، على ما بات في ذلك من إرهاق له، وإنما في أن عليه أن يستهلك نسبةً كبيرة من بنزين دراجته النارية جيئةً وذهاباً. وهو، بحسّ المسؤولية الذي يَسكُنُه، يشعر بأنه ينتزع من لقمة أهله، باستمراره في هذه العادة، ما قرابتُهُ ثلاثة آلاف درهم في العام الواحد، أي ثلث مدخول الأرض السنوي بعد إذْ أصيبت بالظمإ، وشحَّ عطاؤها؛ وهو لا يمكنه أن يسمح لنفسه بأن يتمتع بما لا يشاركه فيه أهلُه في البيت. ثم ماذا سيحصل إن هو كفَّ عن عادةٍ لا تكافئ متعتُها متعةَ الشعور بأداء الواجب؟ سَيَبَرّ بوعدٍ قَطَعَهُ لوالده بحماية الأسرة والحدْب عليها، وهذا عنده أعظم من متع الدنيا كلِّها، وممّا تتصاغر أمامه أيةُ تضحية. يُطْرِبه كثيراً وصفُ أمّه له بأنه «مَرْضيّ الوالدين». تسكنه النشوة كلما تَذَكَّره، وخاصة حين

تضيق به الدنيا ويَضيق بها، ويتقلَّب في جحيم النوائب. رضا الوالدين، عنده، من رضا الله، فماذا يبغي أكثر؟

لا يجلس، اليوم، في انتظار وصول أصدقائه؛ ليس لأنه يوم أربعاء، ولا لأنه في وقتٍ أبكر من أوقات اللقاء الاعتيادية، ولكن لأنه على موعدٍ مع السّي محمد. ليس غير هذا الرجل يمكنه أن يستشيره في عظيم أموره، ويطمئن إلى رأيه؛ أهل المنطقة جميعاً يحترمونه لعلمه وخبرته؛ فهو درَّس بعضهم، ودرَّس أولادهم وأحفادهم رغم أنه لم يجاوز الخمسين عاماً. وكان يَنْصَحُ لفقرائهم وينتصر لهم في وجه كبار الملّاكين حين تتصادم المصالح. ولم يكن يهاب رجال السلطة ولا يتملّقهم، حتى إنه اشتجر مع ضابطٍ في الدرك ودخل السجن. اتهموه في المنطقة، زوراً بأنه ملحد، وعبد الرحمن يشهد بأنها تهمة باطلة. ومع أنه لم يره يوماً، لا هو ولا أهل المنطقة، يصلي في الجُمَع ولا في أوقات أخرى في المسجد، إلّا أنه يعرف أنه يصوم رمضان بانتظام. وهو، إلى ذلك، كريم وعطوف على المحتاجين، ولا يكذب أو يفتري على أحدٍ كذباً، و«هذه كلُّها أخلاق لا يأتيها إلّا المؤمنون ممّن يتّقون الله،ويعملون بمكارم الأخلاق»؛ يقول في نفسه. حين اعتقل في قضية الشجار مع الدركي، وقضى محكوميته وخرج، تجنَّبه الناس جميعاً مخافةَ الشبهةِ إلّا هو؛ زاره في البيت، وجالسه في المقهى لمرّات عديدة، وأقرضه بعض المال نظيرَ الذي اقترضه منه حين كان عبد الرحيم ينتوي السفر. وحده من الفلاحين ومن التجار في بن جرير بقيَ قريباً منه، إلى جانب تلامذته، من دون أن يخشى عاقبة ذلك. وحين نبَّهه بوجمعة وحمّان، يوماً، إلى أنه يغامر بنفسه حين يلتقيه علناً، أو يزوره في بيته، وأن عيون المخزن لا تَغْمض، أجابهما بأنه لا يتعامل مع مجرم مشبوه، وإنما مع أستاذ محترم.

هو لا يتعاطف معه سياسيّاً، بل لا يفهم في السياسة، ولا يفهم لماذا يختلف الناس فيها فيتواجهون في الانتخابات، لكنه يحتفظ له بشعور المودّة لدماثة أخلاقه، وذلاقة لسانه، ومروءته العالية، وشهامته التي صارت مضْرب مثلٍ في بلاد الرحامنة.

يطيب له، كثيراً، أن يجالسه حين يكون عبد العزيز العثماني ثالثهما كلما زار أهله في بن جرير. يخامره الشعور أنه أمام أَسَدَيْن يتواجهان، ولكن من غيرِ مخالبَ وأنياب. يعرفان من أسرار السياسة أكثر مما يعرف هو من أسرار الفلاحة، والكلمات من لسانيْهما تتدفّق كما يتدفق العسل من قفير النحل. أكثر ما يقولانه غير مفهوم، بل يكاد أن يكون مغلقاً على رأسه، ربّما لأنهما يتحدثان لغةً فصحى أعلى من تلك التي تَعَلَّمها في المدرسة الابتدائية، وربّما لأن ما يتناقشان فيه غيرُ معلوم لديه ما خلا الأسماء والعناوين كالأحزاب وكبار القوم في البلاد. استغرب، في البدايات، لتنطُّع عبد العزيز وجَرَاءته على أستاذه السابق، في أوّل عهده بالجامعة، واستهجن سلوكه المماحِك في المناقشات، وإصرارَهُ على تَخْطِئَةِ آراء السّي محمد. لم يكن يتدخل في الحديث لترطيب الأجواء، أو لَثَنْيِ عبد العزيز عن أسلوب الاعتراض في كلامه؛ فهو سلَّم مع نفسه بأن هذا الولد أصبح رجلاً صاحب حجّة، وأن أستاذَهُ نفسَه يعترف له بذلك. ومرّة، وهو يتمشى في سوق اللحوم مع السّي محمد، بعد جلسة نقاشٍ للأخير عاصفة مع عبد العزيز، اغتنم الفرصة ليقول له إن عبد العزيز ولدٌ طيب، وإنه لا يقصد التَّعالُم عليه حين يعترض على آرائه، وإنما ذلك من طبيعته منذ كان طفلاً مشاكساً. ضحك السّي محمد وقال إنه لا يعجبه في عبد العزيز إلّا إيمانه برأيه وتمسّكه به، وروحه النقدية التي تبيح له أن يقول العبارة المحرَّمة «لا»، ولو لم يكن بهذه

الحيوية، وبهذا الاستقلال في الرأي، لما جالسه وبادله الحديث. أضاف، بعد برهة، أن وجود أمثال عبد العزيز هو عزاؤه الوحيد في هذه الحياة العجفاء، لأن ذلك يُقْنِعه بأنه لم يكن يصبّ الماء في الرمل، حين كان يدرِّس مَن يدرّس من التلامذة، ويزيد من إيمانه بأن كثيراً من الأمل يرقد كالكنز في هذا الجيل الجديد. التفت إليه متوقفاً وقال: «نحن لا نريد أبناءنا مثلنا، يا عبد الرحمن، نريدهم أفضل منا».

زادهُ ذلك إعجاباً به.

تمنى لو أن مهدي تمتع بقوة شخصية عبد العزيز وحِذْقِه وكفاءتِه العلمية. لقد صرف من أجل تأهيله كلَّ شيء: تعبَه والمالَ والمراقبةَ اليقظة، وأعفاه من شقاء الزراعة، وأمل في أن يرى فيه ما لم يستطع هو أن يَكُونَهُ. أين مهدي الآن من كلّ ذلك الجهد الشاق؟ عبد الصمد، زميله، صَارَحَهُ، في ما مضى، بأنه يتهاون في دروسه، وأن نجاحه في الامتحانات ليس مقياساً لجديته وتكوينه. وهو نفسه يَسْتَلُّ لسانَه على أخٍ كان له في مقام الأب، ويهدّده بمقاضاته؟ لو كان شاباً واعداً، مثل عبد العزيز، لكان السّي محمد أول من اتخذه جليساً، وبادله الحديث. يكفيه أن أستاذه لم يحدّثه عنه يوماً كتلميذ نجيب. وحين كان يسأله عنه، يجيبه قائلاً إنه يحتاج إلى بعض الصرامة في حَمْله على القراءة. لم يكن يفهم من العبارة سوى أن عليه أن يَعِظه أكثر، ما دام لا يتصور نفسه مشتدّاً عليه، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ قال ذلك وتنهّد في ما يشبه إنهاءه تيار التداعي، وعَوْدَه إلى ما يعتزم مفاتحة الأستاذ فيه حِين وصوله.

قلّما لجأ إليه يطلب رأيه. في المُلِمَّات فقط فَعَلَ ذلك، وهو الآن يشعر أن ما يُلِمّ به يحتاج إلى رأيٍ سديد. أمس ليلاً أتاه

الحريزي يجدّد عرض إيجار الأرض محسَّناً: ستّة عشَر ألف درهم في العام، سَوْمَةً كرائية تمتد لعشر سنوات، مع التزامٍ بغرس الأرض واحتفار بئر.ولا مانع، عند المكتري، من أن يعمل عبد الرحمن في الأرض ويحرسها بعد تحويطها. سيكون كاذباً إن زعم أن العرض غيرَ مُغْرٍ، بل لعله كان كذلك منذ عام ويزيد؛ منذ جرّب الرّد عليه آملاً في أن تسعفه السماء بمطرٍ يُخْرِج الخير من باطن الأرض. يدرك الآن أنه لن يستطيع تحصيل مثل هذا المبلغ، المعروض عليه، من شعيرها السنوي. والأهم أن الصفقة تَعِدُهُ بأرضٍ مجهَّزَة بعد بضع سنوات. عشر سنوات لا شيء في حياة البشر والأرض، إغماضةُ عينٍ هي. ويكفيه أنه ناضل عن الأرض ورَفَضَ بيعها، وليس لأحدٍ أن يلومه على ما فَعَل. ولكنها الوصية تحجُب عنه إمكانَ رؤيةِ الأفق. والوالد حين يوصي، وهو على أعتاب لقاء ربّه، يأمُر ويُلزِم، وما عصى له أمراً في يوم ما وهو حيّ، فكيف يعصيه الآن وقد وضَعَ على عاتقه واجب حمْل الأسرة؟ ماذا سيقول لوالده حين يلتقيه هناك: أجَّرْتُ الأرض ولم أَبِعْها؟ ماذا لو سأله أبوه إنْ نَسِيَ أنه لم يؤجّرها يوماً، وكان على أمرها قيّماً من دون بئرٍ وأشجار، وبرحمة السماء فقط؛ أي حالٍ من الحرج سيكون فيها؟

قطع عليه وصول السّي محمد حبل التداعي. بادره بالسؤال عن أخبار عبد الرحيم، فأفاده بما وصل إليه من رسائل منه، وما ورد فيها، وأضاف أنه لم يعد يطلب منه سوى إخباره عن أحواله، بين فينة وأخرى، وعدم قطع الاتصال بأهله، وأنه قطع الأمل في أن يعيده إلى سابق عهده من حميمِ صلةٍ بالأهل. ومن دون أن يسأله عن مهدي حدَّثه في أمره، وفي ما كان منه من جراءةٍ عليه في طلب قسمة الميراث، وتهديده إياه بمقاضاته إن تمسَّك برفض

القسمة. شدّ السّي محمد أزره ببعض العبارات التي نفثت في نفسه الثقةَ بالنفس، فانتقل إلى الموضوع الذي دعاه إلى أخذ رأيه فيه:

«فاتحني الحريزي، مرة أخرى، في عرض الإيجار، الذي كنتُ حدثتّك فيه، مشفوعاً ببعض التحسين في سَوْمته الكرائية، لكنه حاصرني بالوقت المتاح للتفكير في العرض بالتشديد على أنه يريد جواباً نهائيّاً هذه الليلة لأن المكتري، كما قال، وضع عينَه على أرض بلعيد لكرائها، والأخير مستعد للإيجار لأنه هو نفسُه طلب من الحريزي أن يبحث له عن مستأجر. وأنا في حيرةٍ من أمري، لا أدري ما أفعل».

«يبدو من سؤالك إيايَ أنك لم تعد ترفض فكرة استئجار الأرض، ولا أشك في أن ظروف الجفاف وضَعْف مدخول الأرض يدفعانك إلى قبول ما كنتَ تأباه».

«يعلم الله، يا أستاذ، كم كافحت من أجل الحفاظ عليها، وكم من جَهْد بذلتُ في زراعتها، ولكن «الله غالب»؛ لم يعد دخلها يسدّ الرمق. وأنا إذا نزلت مكرهاً أمام فكرة استئجارها، فيشفع لي أني ما بعتُها تحت أي ظرف، بارّاً بالوعد الذي قطعته للوالد يرحمه الله».

«أفهم، أفهم، ولست أخالفك، وكراؤها لا يُشينك أو يَتَّضِع به مقامُك بين الناس. وأنت، في النهاية، تَعُولُ أسرةً لا دخْل لها إلّا من الأرض، وإذا كان سعر كرائها سيحسّن الظروف نسبيّاً، فما المانع منه؟».

«إذاً أنت توافقني على كرائها يا أستاذ؟».

«أنت صاحب الشأن يا عبد الرحمن، وأنت من يَحق له تقدير الأمر».

بَدَا عليه ارتياح مفاجئ، فأضاف:

«والعرض يتضمن إمكانية أن أعمل فيها، أنا أيضاً، كمزارع وأتقاضى حقوقي عن العمل أُسوةً بالعمال الآخرين. وهذا يوفّر لي وللأهل دخلاً أضافيّاً».

«العمل فيها، ككرائها، شأنٌ شريف ومسلكٌ واقعي. وهما وسيلتك الوحيدة للمحافظة عليها. ولكن، هل أخذت موافقة إخوتك؟».

«الوالدة وأخواتي، أما عبد الرحيم ومهدي فلا يعنيهما ما أفعله؛ الأول يوافقني على عدم البيع، ولكنه لا يقترح عليَّ حلاًّ يوفّر للأهل لقمة العيش، والثاني يُصِرّ على البيع ويريد مقاضاتي. ثم إن عليَّ أن أعطي الحريزي جواباً نهائيّاً هذه الليلة».

«ماذا تنتظر، إذاً، إذا كنتَ قد حسمْتَ أمرك هكذا؟».

«كُنت أنتظر نصيحتك حتى لا أخطئ».

«أنت لم تخطئ، ولستَ في حاجةٍ إلى نصيحتي».

«لكني أحتاج إلى أن تكون معي أثناء تحرير عقد الكراء لئلا أتعرّض للغش».

«سأكون جاهزاً لذلك في أي وقت تشاء».

*

طمأنتْهُ مباركةُ عبد الرحيم لخطوته في رسالته الجوابية إليه. أمّا مهدي فلم يكلّف نفسه الردّ ولا زيارة أهله منذ خمسة شهور. ومنذ وقّع العقد، قبل ثلاثة أشهر، وهو يتردد على الأرض كل يوم ليراقب، مثلما اتفق مع المستأجر، عملية تسويرها بحائطٍ من

الطين والآجُرّ. وبعد الاستحصال على الموافقة على حفر البئر، ومجيء المهندس لمعاينة المكان المناسب للحفر، ثم وصول العمال المكلَّفين بذلك، زادت الفترة الزمنية التي يقضيها في الأرض من السابعة صباحاً إلى السابعة مساءً. أصبح يحُث العمال على الإسراع في العمل وإنجاز عملية الحفر في أقرب وقت، متلهفاً على أن يبدأ استغلال المياه الباطنية مع بداية الخريف والموسم الزراعي. وكثيراً ما دفعه إلحاحُه إلى الاصطدام بالعمال على الرغم ممّا كان يبديه من ودٍّ صادق تجاههم. وحين تأتيه صفية بوجبة الغداء ظهراً، كان عادةً ما يقتسمها معهم على بساطتها وقِلَّتها. يجلس متأمّلاً كيف تجري عملية الحفر، ويسبح في تخيُّلات لا تنتهي؛ الأرض مثل المرأة، ترقد الحياة في باطنها، وتحتاج فقط إلى من يستخرجها. العمل وحده لا يكفي لِتَقولَ الأرضُ أسرارَها، والأمطار ليست عادلة مع أهل الرحامنة كما هي عادلة مع غيرهم. غداً، حينما يخرج الماء الراقد في الأعماق، ستخْضرُّ هذه الأرض الصفراء، ويكسو الشعْرُ صلعتَها مثلما كساها قبل عامين. أما حين تُزرَع فسائل شجر البرتقال والحامض والزيتون، مثلما وعد السي مصطفى مستأجرُها، فسيرعاها كما كان يرعى صفية ومهدي وهما في طور الرضاعة، بل كما رعى الأغنام والماعز وشتْلات القَرْع والطماطم والباذنجان. سيَحْدب عليها وكأنها من صلبه خرجت، ويراقبها كل يوم واحدةً واحدةً؛ يمسح عنها الغبار، ويشذِّب منها ما لم يَقْوَ على الحياة.

ردّهُ صوت الحريزي إلى العالم الخارجي. قام يصافحه، فانتحى به الأخير جانباً ليقول له:

«اسمع يا ابن أخي؛ لا أريد أن يَعْلم أحدٌ أنني كنتُ وسيطاً في عقد الإيجار بينك وبين السّي مصطفى، لأن ذلك إن بلغَ

علمَ الحاج العياشي، سأخسر عملي عنده ويَخْرُبُ بيتي».

«لا، اطمئن، لا أحد سيأخذ علماً بذلك. الوحيد الذي يعرف هو السّي محمد، وهو ـ كما تعلم ـ لا يتحدث في أسرار الناس. وإن شئتَ أن أنبهه لهذا الأمر، فسأفعل».

«آمل أن تفعل ذلك على وجه السرعة: اليوم قبل الغد».

لاحظ من إلحاحه وتوتُّره أن وراء طلبه خَطْباً أو ما يشبه الخَطْب، فسأله مُحْرَجاً:

«خير، إن شاء الله، لا أراك مرتاحاً للأمر، هل ثمة ما لستُ أعرف عنه في هذا الموضوع؟».

«نعم، صباح هذا اليوم دعاني الحاج العياشي إلى بيته ليسألني معلومات دقيقة عن المستأجر، وعمن أقنعك بتأجير الأرض وكان وسيطاً.وكان يبدو عليه الانزعاج الشديد من التقدم في عملية حفر البئر؛ بعد أن عَلِمَ بذلك أمس حين عودته من أداء العمرة».

«وبم أجَبْتَهُ؟»

«قلتُ إنك كنتَ تفكّر في إيجارها منذ عام، وتوصي من تعرف من الناس بالبحث عن مستأجر، ولكني لا أعلم بمن أرشد السّي مصطفى إليك. وحين آخذني على عدم إخباره بأمر نيتك في إيجارها منذ عام، أجبت بأني ما علمتُ بالأمر إلّا بعد أن وقَّعْتُما عقد الإيجار».

«ما عليك، إذاً، أن تخشى شيئاً. قلتَ ما كان ينبغي لك أن تتقي به شكوكه».

«لكنه كان في غاية الغضب، وهدّد بأنه سيتحقق بنفسه من الأمر، وسيُخرج الوسيط من جُحره كما قال. ولا أخفيك أني

شعرت بأنه يشك في أنني أنا من توسَّط في العلاقة والعقد».

«ولماذا يشك فيك أنت بالذات؟»

«لأنه اتهمني يوماً بأني تهاونتُ في إقناعك ببيع الأرض له. وأعاد تذكيري اليوم بذلك حين قال لي: لو أنك نجحت في إقناعه ببيع الأرض ما كنّا وجدنا أنفسنا فجأةً مع جارٍ جديد لا نعرف عنه شيئاً، وسيعرِّض حصتنا من المياه الجوفية للأذى».

«لا يكفي اتهامُهُ إياك بالتقصير لأن يَشُكَّ في أنك الوسيط».

ضحك الحريزي وقال:

«وماذا لو قلتُ لك إنه سألني عن سبب دفاعي عنك في مناسبات كثيرة شكك فيها في أنك كنت تأخذ من غلال الخضروات إلى البيت خلسة؟».

«أنا؟»

«هكذا قال له ابنه يوسف. ثم ماذا لو أخبرتُك أنه سألني عن سبب مجالستي لك في المقهى بعد فسخ العقد؟ أنت لا تعرف العياشي؛ هذا رجل غليظ القلب، كفانا الله شره».

طمْأَن الحريزي إلى أن أحداً لن يذكر سيرته في موضوع كراء الأرض، فهو متأكد من أن السّي محمد لن يخبر أحداً، وهو سيقصده مساءً لهذا الغرض، لكنه لم يطمئن لسَوْرة غضب العياشي وحقده وجشعه، وهو الآن يخشى من أن يفتعل المشكلات مع المستأجر فيدفع الأخير إلى الكف عن مشروعه، خصوصاً وأن السّي مصطفى ليس من أبناء الرحامنة، وليس نافذاً لدى وجهائها ورجال السلطة كالعياشي، وقد يصطنع له الأخير مشكلات أو عراقيل تصدّه عما هو فيه. هو لن يستطيع، كمستأجِر، إلغاء عقد الإيجار لأنه عقد

على كراء الأرض لعشر سنوات، لكنه قد يتوقف عن إجراءات الحفر والغرس إن خاف على نفسه المكائد. حاول أن يطرد عنه شبح هذه الأسئلة وهو في طريقه إلى بيت السي محمد. لم يكن الأخير في البيت عندما وصل، فنزل ينتظره في المقهى المجاور للبناية التي يقطن فيها. كان لا يزال يدير في رأسه احتمالات الحماقات التي يمكن أن يُقْدِم عليها العياشي حين توقفت سيارة اللاندروفر، في الطوار المقابل للمقهى، وترجَّل منها يوسف، ابن العياشي، لِيَلِجَ عمارةً حديثةَ البناء. استغرب لوجوده في هذا المكان؛ فهو لا يعرف أن لعائلة العياشي أقارب في بن جرير، أو بيتاً للعائلة، ولا يعرف أن الحاج العياشي بَنَى، أو اشترى، عقاراً جديداً في بن جرير. وخمّن أن الابن أتى يزور أحد أصدقائه، ثم عاد إلى تدوير الأسئلة في رأسه وقد صرف ذهنه عنه. لم تكن قد مرت خمس دقائق على الحادثة حتى رأى حليمة تسير مسرعة، ثم تَلِجُ البناية نفسَها. أحسَّ بأن صدره يتهدم بضربات قلبه العنيفة، وتخيَّل أن الجالسين جميعاً يراقبون دمه المتدفق بغزارة إلى عنقه ووجهه. حاول أن يستعيد هدوءه بصعوبة، ثم قرّر أن يدخل إلى العمارة نفسها علّه يعرف شيئاً أو يفهم ما يجري. وقف لينقد النادل في الوقت الذي لمح فيه السي محمد يمرّ بباب المقهى في اتجاه بيته. خرج سريعاً يناديه وجلسا حول الطاولة عينِها.

ما كان السّي محمد في حاجة إلى وصيةٍ من عبد الرحمن بعدم ذكر اسم الحريزي، لأنه يعرف تبعات ذلك على الرجل. طلب منه أن يُطَمْئِنَ الحريزي بأن اسمه خارج الموضوع، وزاد على ذلك بالقول إنه سيقطع الطريق على تحقيق العياشي في الأمر بأن يعلن للناس، هو نفسه، أو عن طريق الحريزي، أنه هو من كان وسيطاً، وهو من كان شاهداً على توقيع العقد، وليشرب العياشي البحر.

«ولماذا تثير على نفسك هذا الثعبان، يا أستاذ؟ يكفيك أنك لن تحدّث أحداً بأمر علاقة الحريزي بالموضوع».

«أنا لا أخشاه ولا أقيم اعتباراً لِمَالِه وجاهِه ونفوذِه في البلد، ليذهب إلى الجحيم هو ومن يتعكّز بهم».

«الله يُبعد شرّ هذا الرجل عني وعن السّي مصطفى».

«لِمَ تخافه يا عبد الرحمن؟».

«أنا لا أخاف إلّا الله، لكني أخشى أن تؤثر دسائسُه في السّي مصطفى فيتراجع عما وعد به».

«لن يتراجع لأن حفر البئر وغرس الأرض من شروط العقد، ثم لأن من ينفق كل هذا المال لإحاطة الأرض بسور وحفرها لا يمكن أن يتوقف لأن تافهاً مثل العياشي يضايقه».

«ربنا يستر».

لم يزايله الارتباك لأن بَالَهُ مختطَف، يدور على البناية المقابلة وما قد يكون يحصل فيها. هل يسأل الأستاذ أم لا يسأله؟ لا يدري إن كان ذلك سينبّهه إلى وجود حليمة في ذلك المكان، فيتسبب لها في فضيحة ما أَعْسَرَ أمرها عليه. ولكنه وحده الذي يمكن أن يفسّر له لغز وجود ابن العياشي في هذا المكان. لمعت في ذهنه فكرة تبعد الشبهة عن السؤال المباشر.

«هل للحاج العياشي بيت في هذه البناية المقابلة لمسكنك؟»

«لا، لا أعلم ذلك. لماذا؟».

«لأني رأيت ابنه، قبل أيام، يدخل إليها».

«لعل أحد أصدقائه، الطائشين مثله، يسكن فيها».

غيَّر الموضوع سريعاً وسأله عن الأحوال الصحية لوالده ومعاناته مع البروستات، فأجابه بأن الفحوص أثبتت أنه لا يعاني من مرض خبيث فيه، وأنه يمكن أن يُجريَ عملية الاستئصال من دون خوف. تمنى له الشفاء، ورجاهُ أن يبلّغه سلامه إن زاره في قلعة السراغنة. ثم استأذنه السّي محمد في الذهاب إلى البيت.

لم يغادر المقهى. دعاه فضولُه إلى البقاء كي يراقب خاتمة مشهدٍ بدأ قبل نصف ساعة. طيلة حديثه مع السّي محمد، لم تبارح عيناه هدفاً محدَّداً: مدخل البناية المقابلة؛ فقد يخرج أيّ من المشتبه فيهما، وقد يخرجان معاً، وهو ـ في الحاليْن ـ لا بدّ أن يفعل شيئاً. وماذا عساه أن يفعل إن وقع المكروه؟ سيُغمِد الطعنةَ في داخله ويروِّض نفسَه على النسيان، مثلما يفعل كلما ألمَّ به خَطْبٌ وأرّقه. وأقصى ما يستطيع أن يفعله أن ينبّه حليمة إلى خطئها، لا لكي يقول لها إنه ضبطها، ولكن ليقطع عليها طريق الإمعان في الخطيئة، وما ستجرُّه عليها من مشكلات بين الأهل والناس. لم يَطُل به الانتظار ليرى حليمة تخرجِ من البناية وحيدة. انتظر قليلاً ليرى إن كان يوسف سينزل أيضاً، ثم غادر المقهى تاركاً دراجته النارية على مدخلها، وتَعَقَّبها من بعيد ليعرف أيَّ اتجاهٍ ستأخذ. ترك بينهما مسافة تكفي لكي لا تراه إنِ التفتت خلفاً، بينما هي أخذت طريقها إلى جنوب بن جرير، على مدخله في اتجاه مراكش. جَازَتِ الشارع الرئيس، الذي ينتهي بمركز الدرك ويأخذ نحو الطريق إلى القاعدة العسكرية، ثم توقفت عند مفترق بين الطريق الرئيس وطريق فرعي. اضطر إلى الوقوف وراء شجرة على بعد مائتيْ متر لئلّا تَلْمَحَه. بدت له وقفتُها مشتبهة؛ فهي لا يمكن أن تكون في انتظار حافلةٍ أو عربةِ أجْرة كبيرة، لأنها تخطَّتِ المكان الذي يمكنها فيه أن تنتظرها. بعد قليل لمح

اللاندروفر آتية من الجهة المقابلة لموقع رصده، فانحنى مفتعلاً جَمْع شيء ما مِنْ على الأرض حتى لاَ يثير وقوفُهُ انتباهَ ابن العياشي. مرّت السيارة فرفع رأسه مستطلعاً، فإذا بها تتوقف، ويفتح بابها، وتصعد حليمة.

لا يحتاج المشهد إلى شرح؛ كانا هنالك ـ في العمارة ـ يفعلان «ذلك الشيء»، والوغد رتَّب للأمر بحيث لا يثير انتباه أحد: خرجا من بن جرير بمثل ما دخلاهُ، لعله أنزلها عند مدخله وسبقها إلى البناية ولحقتْه، كما تسبقه الآن ويلحقها بعد أن وقعت الواقعة. الصدفة وحدها، أو عناية الله، ساقَتْه إلى معرفة الحقيقة. ترى: هل وحده يعرف الآن ما بين الاثنين أم إن عيوناً أخرى ترصَّدت وعرفت مثله؟ ما الفرق بين الأمريْن؟ الأجدر أن يسأل عما إذا كان هذا الذي بينهما قديم، هل يعود إلى عامين: حين ولع بها وسكنت روحه؟ لا، لا يمكن. كانت عاطفتها معه صادقة، بل هي ظلت كذلك حتى حينما ضاقت به السبل ولم يعد يراها بسبب القطيعة مع ضيعة العياشي. هل ينسى أنها أتت تبحث عنه في البيت لتبلغه رسالة والدها، وظلت تنتظره حتى يئست من وصوله؟ لا شك أن الذي بينها وبين ابن العياشي حصل بعد ذلك التاريخ. آه، ها هو يتذكر الآن ما فاتَه فهمُه في حينه؛ المستشفى؟ مجيئها، في اليوم الثاني، مع ابن العياشي، وإصرار الأخير على أخذ عائلة الحريزي معه إلى الضيعة. لا شك أن شيئاً كان بين الاثنين منذ ذلك الحين. لن يكون حبّاً هذا الذي بينهما قطعاً؛ كيف يمكن لابن إقطاعيٍّ ثريّ أن يحبّ فلاحة فقيرة تستخدمها العائلة في السُّخرة؟ وكيف يمكن هذه الفتاة الفقيرة أن تحب الشاب وهي تحمل، في الوقت عينه، مشاعر خاصة تجاهه هو؟ لا شك أن الذي بينهما علاقات متعة جسدية فحسب. وسيقضي منها الوغد

وطراً ويرميها مثلما يرمي ثيابه الوسخة. ومثلما رمى أبوه عهد الاستغلال المشترك للأرض في وجهه هو، رامياً بأسرته جميعِها إلى جحِيم الفقر. هؤلاء لا قلوب لهم تحمل المستضعفين، مثلَه ومثلَ حليمة، أو تحفظ لهم مكاناً فيها؛ يحبّون أنفسهم والمال فحسب، وبعدهم فَلْيَأْتِ الطوفان...

عاد إلى المقهى وسحب دراجته النارية ثم آبَ، كسير الفؤاد والخاطر، إلى البيت. لم يتحدث إلى أحد ولا استجاب لدعوة العشاء متذرعاً بأنه تناول شيئاً في بن جرير مع أصدقائه. جرّبَ أن يخفّف من الصدمة بوضع المسؤولية على العياشي؛ لو لم يقطع هذا رزقه، لكان تزوّج حليمة وما صارت الأمور إلى هذه النهاية المأسوية. لكن ذلك أهاجه أكثر. حوّل تفكيره نحو محمد الحريزي، المسكين الذي سيموت غمّاً إن أخبره أحدٌ من المتلصصين على أسرار الناس بأمر بنته. سيقتلها لا محالة، وقد يقتل نفسه أو يهاجر إلى مكان غير معلوم. خيّل إليه أنه يستطيع أن يتدارك الأمر قبل أن يستفحل، فينبه حليمة إلى خطورة الطريق التي تسير فيها، وإلى ما ينتظرها من فضيحة وعقابيل إن شاع خبر علاقتها بابن العياشي. ارتاح قليلاً لهذا الخاطر، ووجد فيه بلسماً لجرحه. يستطيع أن يَعُضَّ على ألمه هو فيحدّثها في الأمر إن كان في ذلك سبب لسلامتها وسلامة سمعة أهلها من ألسنة السوء. ولكن، هل يملك ما يكفيه من الشجاعة كي يحدّثها في الأمر؟ ماذا ستقول عنه: إنه كان يراقبها ويترصد حركاتها؟ هل ستصدّق أن الصدفة وحدها أرشدته إلى ما بينها وابن العياشي من علاقة؟ ثم هل يستطيع أن يفاتحها في أمرٍ يُشْعِرُها أنها سقطت تماماً في نظره، وافتضح فيه سرُّها، وباتت تعني لديه ما تعنيه أيةُ واحدة من بائعات الهوى في المنطقة؟ استصعب الأمر كثيراً وهو

يتلقى هذه الأسئلة المنهمرة، فقرّر أن يصمت، وأن ينسى.

حاول أن يبدأ، من تلك اللحظة، ممارسة رياضة النسيان. تصوَّر أن أفضل طريقة لذلك أن يستعيد لحْظات إنسانيةً أخرى جميلة، كَأَنْ يتذكر قصة حبّ عاشها ولذَّ له، في الماضي،أن يستعيد وقائعها. بدأت حارّةً، من جانب واحد،وانتهت ألماً وجرحاً، ثم محا عنها الدهر أذاها، فبات يستعيدها بشعورٍ من الحنين إلى براءة الصبا وحرارة صدق المراهقة. الآن، وبعد زمنٍ طويل كاد فيه أن ينساها، يخِفّ إليها ليعوِّض عن صدمةِ حبٍّ ببركةِ آخر. كان لا يزال طفلاً صغيراً حين عرف بديعة، ابنة الدفالي وزميلته في المدرسة الابتدائية. وشاءت الصّدف أن الدفالي، الذي طلب من والده خدمةً يقضيها له، كافأه بأن تعهَّد بإيصال سائقه لابنه يوميّاً إلى المدرسة بعد أن علم أنه يتابع فيها دراسته مع ابنته بديعة وابنه عبد القادر، وإعادته إليه، مساء كل يوم، عند عودة ابنيْه منها. وكانت مُجَاوَرَةُ بيت أهله لضيعة الدفالي، وحاجة الأخير إلى خدْمات الوالد، ممّا هيّأ لتلك الرفقة اليومية أسبابها، ورفع عنه ـ هو ـ عبء قطع مسافة كيلومترين ذهاباً، ومثلها إياباً، كل يوم للوصول إلى المدرسة والأَوْبة منها، ما خلا في حالات قليلة كان الوالد يأخذه فيها إليها على ظهر بغلته في الصباح الباكر، ويترك له العودة إلى البيت مساءً وحده، أو رفقة زملائه القليلين من أبناء الفقراء مثله.

طوال السنوات الأربع، التي تَرَافَقَ فيها مع بديعة وأخيها في السيارة والمدرسة، وإلى حين حصوله على الشهادة الابتدائية، وهو في الحادية عشرة، ثم انقطاعه عن التعليم والانقطاع للزراعة، نما لديه الشعور بالأخوة تجاهها. لم تكن تعني لديه أكثر من أخت أو بنت عمّ رغم الفارق بين الأسرتين في الوضع الاجتماعي. كان ذلك

بسبب صغر سنّه، حيث الحبّ بريء ومجرّد من نوازع الجسد. أكملت بديعة دراستها في ثانوية في مراكش، واستقرت وأخوها، الذي انتقل إلى المدينة قبلها، في بيت عمتهما، وكانت تأتي إلى بن جرير نهاية كل أسبوع. لكنه قليلاً ما رآها بسبب عمله اليومي في الأرض، وعودته متأخراً منها بعد الغروب. وحين يراها، وكان ذلك في النادر، تسأله لماذا ترك متابعة الدراسة، فيجيبها أنه اضطُرّ لذلك لمساعدة والده في العمل، فتعبّر له عن حزنها لانقطاعه. ومرةً قالت له إنها لم تجد في مراكش رفيقاً في الدراسة مثله. مرّت الملاحظة حينها ولم تستوقفه، لكنها طرقت رأسه وغَشَت لياليه في ما بعد؛ حين كبر قليلاً وداهمه طيف المرأة.

يتذكر أول يوم انتبه فيه إلى شيء فيها لم يكن يعنيه، في ما مضى، ولم ينتبه إليه، لأن حاسته لم تونع بعد. كان الوقت صيفاً والحرارة مرتفعة، وكان يتأهب لامتطاء البغلة حين وصلت سيارة أختها الكبرى عائشة، ونزلت منها بديعة وهي تحمل أكياساً وتتجه إلى الضيعة بينما ظلت الكبرى جالسة وراء المقود في انتظار أن توصل أختها الأغراض. هزّهُ مشهد بديعة، التي لم يكن قد رآها منذ أشهر، وهي تلبس تنورة قصيرة وقميصاً خفيفاً يتبيَّن منه طيف نهديْن متكوّريْن. كانا معاً في الثالثة عشرة من العمر، وإنْ بدتْ له حينها أكبر منه. ترك البغلة، وسارع لحمل الأكياس عنها، فشكرته. حين بلغا باب الضيعة سلّمها أغراضها وشيَّعها بنظرة طويلة وهي تمشي. ماذا تغير فيها يا إلهي؟ قال في نفسه؛ هل كانت هكذا ولم ينتبه؟ لا، كانت أصغر وأنحف، وها جسمها اليوم شهيّ كالموز الأخضر المتدلي من أشجار ضيعتها. تباطأ في العودة، وتباطأ في إعداد البغلة، ثم لمعت في ذهنه فكرة فنفذها على الفور؛ ذهب إلى السيارة وسلّم على عائشة سائلاً إياها إن كان ما زال لديها ما

ترغب في توصيله إلى الضيعة، فشكرته قائلة إن كل ما لديها أخذتْه بديعة إلى الضيعة. عاد متباطئاً وعينه على الضيعة من دون أن يرفع رأسه ويثير الشبهة. لم تعد بديعة بعد. فتح باب البيت الخشبي وتركه مواربًا وهو يطل من الشقوق. لكنه خشي أن يراه أحد من أهله ويسأله سبب وقوفه على هذه الحال، فغادر خارجاً، ثم اهتدى إلى حيلة أخرى؛ أنزل البَرْدَعَة من على ظهر البغلة وبدأ في نفضها، ثم أعادها بهدوء وبدأ في شد خيوطها على وسط الدابة. بانت بديعة، أخيراً، وهي تتهادى في مشيتها. ركز نظراته على الساقين والصدر وحين اقتربت رفع عينيه، فحيته بيدها وبابتسامة، واختفت في السيارة. كان شيءٌ ما ينتعش بين فخذيْه وينتفخ، وضربات قلبه تشتد وتتردد في سمعه.

صار، منذ ذلك الحين، متيقظاً عَشِيَّات السُّبوت؛ حين تعود من مراكش إلى بيت الأهل. يتعلل لوالده بأي شيء كي يذهب إلى البيت. وهو لم يكن يذهب إليه، وإنما يقف على مسافة تكفيه كي يترصد مَقْدَمها من بعيد، في سيارة الأسرة، قبل أن يطلق قدميْه ماشياً باتجاه بيته والضيعة. أمكنه، بذلك، أن يراها في غير مرّة. لكن ذلك جرَّ عليه متاعب مع الوالد بسبب تأخره في العودة إلى الأرض؛ فلقد كان عليه أن ينتظر، في بعض الأحيان، لأكثر من ساعتين قبل أن يَهلّ طيف السيارة من بعيد. وهو لم يكن يستطيع أن يبرّر لوالده التأخر كل ذلك الوقت عن العودة إلى أرضٍ لا تبعد عن البيت إلا بما يَقِلّ عن نصف ساعة مشياً. ثم ما لبث الوالد أن منعه من التخلف عن العمل بأية ذريعة، وأغلظ له في ذلك، فما كان منه إلا أن أطاع أمره، تاركاً رؤيتها للصدف، معوِّضاً عن الغياب باستحضارها ليلاً؛ عند كلّ منامة.

لم يكن قد مرَّ عام على هذا الترصّد الأسبوعي، ونَهْرِ الوالد

له على اختفاءاته المتكررة، حتى انقطعت كليةً عن المجيء. مرّ شهران، من بداية العام التالي، وهو في حيرةٍ من أمر هذا الاختفاء المفاجئ حتى انفلق السرّ في مساء يوم جمعةٍ وهو يَؤُوب إلى البيت من الحقل. سمع هدير سيارة من خلف، فَتَنَحَّى جانباً من دون أن يتبيَّن شيئاً في الظلمة وتحت تأثير ضوء السيارة، الذي غمر المكان،ثم ما لبثت السيارة أن توقفت، بعد أمتار، ليسمع صوتها تناديه. هرع إليها وهو يهلّل:

«ماذا تفعل هنا في هذا الوقت؟».

«عدتُ لتوّي من الحقل».

سلّم على عائشة وسأل بديعة أين كانت غائبة كل هذه الفترة:

«انتقلتُ إلى الدار البيضاء، وأنا الآن مقيمة عند أختي».

دعته عائشة إلى الصعود. ركب في المقعد الخلفي، وسارت بهم السيارة قرابة دقيقتين قبل أن تتوقف عند مدخل الضيعة. تمنى لو امتد بهم المسير وطال لساعات. نسي تعبه والجوع، عبّأ رأسه بكلامها اللذيذ عن الدار البيضاء والدراسة، وعبّأ أنفه وصدره برائحة عطرها المنبعثة منها،ومن حركاتها وهي تلتفت إليه وتتحدث. حين وصلوا ونزل من السيارة مودّعاً، قالت له عائشة:

«تعال بعد غدٍ مساءً لتشاركنا الاحتفال بعيد ميلاد بديعة».

آه: هي، إذاً، من مواليد نهاية نوفمبر، وهو من مواليد بداية يناير من العام نفسه. يكبرها بقرابة عام مع أنها تبدو أسنّ منه. وُلِدَ في زمهرير البرد والشتاء، وولدت حيث ما زال بعض الدفء يغمر المكان. لا شك أنها دافئة كفصلها الدافئ في بن جرير، وكصوتها الذي أحبَّ رنينه، وعينيها اللتين سدَّدتا السّهام إلى قلبه. وقف قرب

السيارة وصدرُه يعلو وينخفض من وقْع مفاجأتين: عودتها ودعوته إلى حضور عيد ميلادها. وقف ينتظر أن تطلبا منه مساعدة في حمل الحقائب، لكن حارس الضيعة سبقه إلى أداء المهمة، فاكتفى من وقفته بسماع صوتها يقول: «تصبح على خير»، وقبل أن يستدير عائداً، أردفت: «لا تَنْسَ موعد بعد غد».

لم يكن أحد في حفل عيد الميلاد غير والديْها وأخيها وأختها وابنة عمتها نفيسة. دخل محرَجاً، وجلس محرَجاً، في حضرة ناسٍ بدوا له من عالم آخر من فرط ما بَدَا عليهم من نعمةٍ في اللباس والأكل والفرْش. لا يتذكر أنه رأى بيتاً بمثل تلك الفخامة، وأشخاصاً بمثل تلك الأبهة. أما بديعة فبدت كالعروس بفستانها وعينيها المكحولتين وأحمر الشفاه الذي وضعته لها أختُها. عبد القادر، الذي يكبره، وأخته بعام، بَدَا بأناقته شابّاً وإن لم يتجاوز الخامسة عشرة. شعر بالضعف والخجل من لباسه المتواضع، فانكمش على نفسه كالقنفذ، وتحاشى النظر في العيون. وحين دعته بديعة إلى مشاركتها وأهلِها إطفاء الشموع الأربع عشرة المثبتة على الحلوى، قام يتعثر في مشيته ووقف بعيداً، فسحبته من يده، وقد سَرَتْ حرارتُها في جسمه. وحين تحلقوا حول المائدة لإطفاء الشموع، فوجئ بها تطوّق كتفه بذراعها الشمال، وكتف عبد القادر بذراعها اليمين، فغاض قلبه في داخله، وزَحَفَ الدّم إلى وجهه إلى حدّ الاحتقان، ولم ينقذه ظلام الغرفة، بعد إطفاء الشموع، من حرجه لأن ذراع بديعة كانت لا تزال تُمْسِك بكتفه، وتُلْهب مناطق مختلفة في جسمه؛ سارع إلى الجلوس ليُخفيَ ثورتها وهياجها قبل أن تمتد يدٌ إلى زرّ الكهرباء فتنير الغرفة.

لا يذكر أنه أكل حلوى في حياته ألذّ من التي أكل في بيت بديعة؛ كانت ألذّ حتى من الحلويات التقليدية التي تُعدّها زوجة

عمه، مثل «البرويوات»، المُعَدّة من اللوز، أو «كعب غزال»، والتي يلتهمها بشراهة كلما زار ضيعة عمّه مع والده. لا يدري الآن هل كانت ألذّ حقّاً، أم أنها لَذّت له لأنّ بديعة قدّمتْها له، وجلست بقربه وهما يتناولانها، وعطرها يفوح فيغمر صدره بألوانٍ من المشاعر لم يتبيّن معناها إلا في ما بعد! بقيَ طعم تلك الحلوى يلازمه، فيتلمّظ كلما تذكّره، كبقاء رائحة عطرها يغشى خياشيمه. أما صورتها، وهي ترفل في فستان العيد، فلم تبارح رأسه، ولا بارحتْه الرعشةُ كلما تذكّر دفء كفّها وهي تسحبه إلى مائدة الحلوى ليشاركها إطفاء الشموع، أو هي تضع ذراعها مطوِّقةً كتفه وهم ينحنون للنفخ على الشموع. مرَّ زمن طويل، بعدها، لم يرها في الضيعة إلّا من بعيد، ولا رآها في مناسبات عيد ميلادها الذي حفظ تاريخه جيّداً، فكان يُحييه وحده بفرح منقوص، فيشتري قطعة حلوى صغيرة من بن جرير، ويتخذ مكاناً بعيداً من عيون الأهل في الليل، فيزرع شمعة بيضاء، من الشموع العادية التي تباع في المنطقة، في قطعة الحلوى، ثم يوقدها ويطفئها وقد أغمض العينين ليتحسّس أثر ذراعها في فرائصه المرتعشة.

لم يكن يراها إلّا لماماً في الصائفات، حين تأتي مع أخيها وأختها لزيارة والديْها، ثم سرعان ما تختفي بعد يومين أو ثلاثة. لم يفهم كيف يمكن أبناء الدفالي أن ينقطعوا عن زيارة أهلهم كل هذه الفترة الطويلة، لكنه فَهِم من أخته زينب أن أمّهم تزورهم في الدار البيضاء بانتظام، وكذلك والدهم كلما سافر لقضاء غرضٍ ما في المدينة. وقد فعل الزمن فِعْله فيه، فمال إلى نسيانٍ مديد لم يكن يقطعه إلا ظهورُها، بغتةً، في الضيعة أو حلولُ ذكرى ميلادها التي ظل يُحييها داخليّاً بعد أن ألغى طقس الشموع. عرف، من أختيْه اللتين كانتا تترددان على والدتهما، أن ابنتها دخلت كلية

الطب في الدار البيضاء، وابنها دخل، قبل ذلك، مدرسة عليا للتجارة وإدارة المقاولات. ثم عرف منهما، في ما بعد وهو مشغول بمرض أبيه، أنها تخرجت وفتحت عيادة في مراكش، وتزوجت من رجل أعمال على قرابة بزوج أختها. وكانت مفاجأتُه كبيرة حين رآها تجالس أمّه وأخواته وقرائبهم في مجلس عزاء والده، وتصافحه معزّيةً إياه في ذلك الفقدان. ثم زادتِ المفاجأة حين دخل مرةً إلى البيت، فوجدها تفحص أمّه المريضة واضعةً السماعة الطبية على أذنيها، وحزام قياس الضغط على ذراع الوالدة. حيَّتْه بحرارة، وطمأنتْه إلى أن الوالدة لا تعاني شيئاً خطيراً، وأنها تعاني ضَعْفاً جسديّاً بسبب نقصٍ في بعض الفيتامينات، وكتبت له وصفةَ أدوية قبل أن تستأذن في المغادرة. رافقها إلى الباب شاكراً سعيها الحميد. وهي تصافحه مودّعة، سألته لِمَ لم يتزّوج بعد. هزَّه السؤال، وحرَّك الساكن المخبوء فيه، فابتسم مجيباً: «إلى أن أجد بنت الحلال». نظرت في عينيه عميقاً إلى أن خفض بصره وقالت «أنت تستحق كل خير يا عبد الرحمن».

عَلِم من صفية أن بديعة سمعت بمرض الوالدة منها، فأصرَّت على الذهاب إليها لمعاينتها، وأنها سألتْها عنه، وطلبت منها أن تذهب إلى الحقل لتخبره بأنها تريد أن تراه، لكنه عاد في الوقت المناسب قبل أن تخرج هي إلى الحقل. سألته صفية بفضول «ماذا كانت تريد منك؟ وماذا قالت لك عند الباب؟». أجابها باسما: «كانت توصيني بكِ خيراً».

لم يكن قد بدأ يسترجع شريط الذكريات، من جديد، حتى داهمه النوم واستسلم له.

*

بعد ثلاثة أيام، وبينما كان يجالس أصدقاءه في مقهى المسافرين مساءً، مرَّ السي محمد من أمام المقهى محيِّياً المتحلقين حول مائدة عبد الرحمن، ومشيراً إلى الأخير بأن يتبعه، تنحَّيا جانباً فقال السّي محمد:

«يبدو أن الخبر وصل العياشي بأنّي أنا من توسَّط لك في إيجار الأرض، وشهد على توقيع العقد».

«أقسم لك، يا أستاذ، بأني لم أنقل إلى الحريزي هذه الفكرة التي قلتَها لي، من أيام، لرفع الشبهة عنه».

«غريب، وكيف وصلت إلى العياشي؟»

«والله لا أعلم، وأنا مستعد أن أذهب إليه بنفسي لأنفيها».

«لا، لا أنا لا أخشاه، بل إني كنت أرغب في أن تصله هذه المعلومات لتُمْسِك يده عن إيذاء الحريزي. لكني أستغرب كيف تصله من دون أن تنقلها أنتَ إلى الحريزي. لعله اجتهد فاهتدى إليها ليتفادى الضغط عليه».

«سأسأله اليوم».

«لا داعي إلى ذلك. ليس إلى هذا دعوتُك، وإنما لأسألك عمّا تعلمه عن علاقة ابن العياشي ببنت الحريزي الصغيرة».

اهتز قفص صدره تحت وقع ضربات قلبه.

«ماذا؟ لا أعلم شيئاً».

«إذاً، نبِّهْها إلى أن مجيئها المتكرر إلى بن جرير للقاء ابن العياشي صار حديث فضوليين كثر».

«مجيئها المتكرر»، متكرر؟ هي علاقة قديمة إذاً؟ كيف خفيَ

عليه أمرُها؟ «حديث فضوليين»؛ انفضح أمرُها إذاً، ووقع ما كان يخشاه.

«أنت متأكد مما تقوله يا أستاذ؟».

«أنا شخصيا لم أَرَ شيئاً، ولكني سمعت، أمس وأول أمس، من يفيد بخبر تردّدها وابن العياشي على بن جرير. وتذكرتُ، حينها، سؤالكَ لي، قبل أيام، عمّا إذا كان لعائلة العياشي بيت في بن جرير. والأرجح أن ابنه يستأجر شقة، أو يستعمل شقة أحد أصدقائه».

«ستكون كارثة لو عَلِم الحريزي بالأمر؛ سيقتلها لا محالة».

«لذلك دعوتُك لتنبيهها لخطورة الأمر».

لا بدّ له من أن يفعل شيئاً؛ ضاعت حليمة منه إلى الأبد، وهو راضٍ بقضاء الله في هذا، ولكن ينبغي ألّا تضيع هي من نفسها فتُسَاق إلى الرذيلة. هي لا تستحق، ولعل الفقرَ ما دفعها إلى ذلك. وإلى الرذيلة ستفقد احترام والديْها وأهل المنطقة إن شاع خبرُها في الناس، وهو حتماً سيشاع؛ فالناس في هذه المنطقة لا يملكون إلّا الجلوس في المقاهي لساعات، ومراقبة الآخرين في حلّهم وترحالهم، ولَوْك أسرارهم بالألسنة. وهؤلاء فيهم من يريد بالحريزي شرّاً، وخاصة أنه ليس من أهالي المنطقة. وهل ينسى ما قيل في الرجل وهو طريح الفراش في المستشفى؟ وليس يَبْعد أن يوجد فيهم مَن سيسعى في إيصال الخبر إليه، ومن سيجتهد في اصطناع الخبر وتضخيمه إلى الحدّ الذي قد يدفع الرجل إلى ارتكاب حماقةٍ ما في بنته وفي نفسه. لا بدّ له، إذاً، من فعل شيءٍ ما، قبل أن تصل الأمور إلى ما لا تُحْمَد عقباه.

VII

تغيرت معالم أرض الرحماني على السّي محمد وعبد العزيز حين قصداها لزيارة عبد الرحمن. بدَتْ لهما ضيعةً حقيقية من خارجٍ؛ بسورها الطيني المحيط بها، وبوابتها الحديدية الحمراء الكبيرة. سُرَّا لرؤية هذا التغيُّر، وقدَّرا أنه سيُسْعِد عبد الرحمن، ويعوّضه عن الكثير من الحرمان والخيبة اللذين أصاباه في الأعوام الثلاثة الماضية. استقبلهما بحفاوة كبيرة، وفَرَشَ لهما سجّاداً للجلوس مستأذناً في الذهاب لإعداد الشاي. هي المرّة الأولى التي يزوره فيها السّي محمد منذ أجَّر الأرض، والمرة الأولى التي يزوره عبد العزيز بعد أن وعده بالزيارة حين التقاه، قبل أيام، في المقهى برفقة السّي محمد، فدعاهما إلى زيارته لرؤية الأرض بعد أن أغاثها ربّ العباد بالسّي مصطفى، الذي فجَّر أسرارها الدفينة؛ مثلما قال. سارع إلى إعداد الشاي في البيت الطيني الصغير، الذي ابتناه له المستأجر، ليقيم فيه حارساً للأرض، وترك ضيْفيْه ليستريحا قليلاً من رياضة المشي التي يُصِرّ السّي محمد على ممارستها يوميّاً رغم نحافة جسمه، والتي بَدَت آثارها على عبد العزيز في العَرَق الغزير الذي يتصبب منه.

منذ بداية فصل الربيع، أصبح يقيم في «الفيرمة»؛ هكذا يحلو

له أن يسميها مزهوّاً. لم يخْتر ذلك وإن كان يطيب له، وإنما المستأجرُ من أشار عليه به، واقترح أن يبني له بيتاً طينيّاً صغيراً، لا تتجاوز مساحته العشرين متراً مربعاً، للإقامة فيه، كي يحرس الأرض بنفسه بدلاً من استقدام حارس لها من خارج. وافق على الفور من دون أن يستطيع إخفاء ارتياحه؛ سيلتصق بالأرض أكثر، ولن يشعر أنها منزوعة منه إلى حينٍ من الزمن، وسيطمئن إلى أمنها وأمن محتوياتها، من ثمار الأحواض ومن شتلات شجيرات، من عاديات العياشي وأبنائه، ومن أي سوء يحتمل أن يصيبها وهي من غير حراسة، أو هي في عهدة حارس آخر غيره. تذكر أنه كان يشارك والده المبيت فيها، أحياناً، عند الحصاد والدِّراس، لحماية المنتوج، على الرغم من أن الناس ـ حينها ـ كانوا يحرسون بعضهم بعضاً إلّا في النادر من الحالات: حيث تحول دُون ذلك خصومات، ولم يكن أكثرهم عندها قد رفع سوراً في وجه جاره؛ فالحدود بين الأراضي والمتاعات معروفة، والقِيَمُ لا تسمح لأحدٍ بالتطاول على ثمار أحد. ولكن، حين يكثر المال، يكثر الخوف وتقِلّ الثقة؛ كما يقول عبد الرحمن. فما هي إلا سنوات، حتى تحوّلت الأراضي إلى سجون مقفَلة على بعضها، ومحروسة بعناية من أهالٍ تحوّلوا ـ فجأة ـ إلى لصوص محتملين! في المنطقة مَن يفسّر الأمر بأن ذلك جرى مخافةَ عيونِ الحسّاد المتلصّصة على الخير المتدفق من باطن الأرض؛ ذلك ما كان يردّده حمّان وبوجمعة وآخرون. أمّا السّي محمد وعبد العزيز فيصرّان على أن ليس للأمر علاقة بالعين الحسود، وإنما بحماية الأملاك من فقراء المنطقة. اقتنع، تدريجيّاً، برأيهما بعد أن بلَّغه العياشي أنه سيعهد للحريزي بحراسة الأرض، التي تعاقد معه على استثمارها المشترك. وحين ردَّ عبد الرحمن قائلاً إن أحداً من الأهالي لن يمسّها، ضحك العياشي وعلّق: «لن يمسّها أحد فعلاً إن كانت فيها أسوار

تحمي، أو عيون تراقب، أو كلاب تحرس. إن كان لا يضيرك أن يُسْرَق منك شيء، فأنا أخشى أن تُسْرَق ثمار مائي ومالي». وحين أخبره السّي مصطفى بأنه يعتزم أن يحيطها بسورٍ طيني، كان في غاية الاقتناع أن قراره حكيم، لأن اللصّ الأكبر، وهو العياشي، على الأبواب، لكنه لصّ من نوع آخر غير لصوص الفقراء. وهاهو، اليوم، يستخدم معه كلبين للحراسة يطلقهما ليلاً في الضيعة، من معقلهما الذي يرابطان فيه طوال النهار، مثلما كان يفعل الحريزي حين كانت حراستها في عهدته وعهدة الحريزي.

أبدى السّي محمد إعجابه بالأرض الخصيب، متمنياً لمغروساتها من الشجر أن تشتد وتسمق سريعاً لكي تثمر. ردّ عبد الرحمن بأنه يَعُدّ الأيام والليالي في انتظار تلك اللحظة. أما عبد العزيز فمازحه بالقول إنه بات اليوم مشروعَ إقطاعيّ. ضحك وقال إنه يكافح من أجل أن يعيل أسرته من الأرض، وإنه لا يعرف حرفة أخرى غير الزراعة، وإذا أصبح غنيّاً منها يوماً ما، فسيتصدَّق على الفقراء، وهم كثر في المنطقة، بل هم الكثرة الكاثرة.

«كيف يعاملك المستأجِر؟» سأله السّي محمد.

«هذا رجل أكرمني الله به، يعطيني حقي في العمل المياوم في الأرض، فضلاً عن الإيجار السنوي، وأضاف لي راتبَ حراستها منذ شهرين، فصار دخلي الشهري ألفاً وثمانمائة درهم، وهو أعلى من إيجار الأرض بنسبته الشهرية. ثم إنه يثق بي كثيراً، فيترك لي حرية التصرف في نوع زراعات الخضر والأشجار قائلاً لي إنني أَعْرَف بالأرض وما تُثْمر أكثر من غيري. لكني أعْجَب لإصراره على إفراد مساحة هكتارين ونصف منها لزراعة نبتة رِعْي الحمام(اللويزة)، وقد حاولتُ أن أشرح له أن غِلَالها ليست مجزية كثيراً، وأن تسويقها صعب لأنها غير مطلوبة من الناس كما هو

الشأن بالنسبة إلى النعنع الذي يستهلكونه أكثر في الشاي. لكنه أبى إلّا أن يأخذ كل هذه المساحة الشاسعة لزراعتها».

قال عبد العزيز:

«لعلك لا تعرف بأن مدخول الهكتار الواحد من اللويزة لا يَقل عن الخمسين مليون سنتيم»

«ماذا؟».

«نعم، فهي تدخل في صناعة العطور، كما إن تعبئتها في أكياس صغيرة مزدهر، واليوم لا تكاد تجد في مقاهي المدن اللويزة اليابسة في البراريد على الطريقة التقليدية، وإنما الأكياس الصغيرة التي تُدسّ في فناجين الماء الساخن. ويقال إنها دخلت في الصناعات الصيدلية على نطاق واسع. ولا شك أن صاحبك يعرف ذلك جيداً وإلا ما اختار التركيز على هذه الزراعة».

«الله وحده يعلم ما في الصدور يا السّي عبد العزيز. وأنا ليس لي، بعد أن اكتريتُ له الأرض واستأمنني على زراعته، غير أن أُؤدّيَ أمانتي بإخلاص من دون أن أجادله في مزروعاته. يكفي أن الرجل أنفق مالاً غزيراً في تحويط الأرض، واحتفار البئر وتجهيزه، وفي غرسها، وهو الأمر الذي أبى العياشي، بشدّة ولؤم، أن يفعله حتى نظل، أنا والأرض، رهينتين له».

«بمدخول هكتارٍ واحد، في عام واحد، يستردّ صاحبُك كلّ الذي أنفقه في تجهيز الأرض، ولن تمرّ السنوات التسع الباقية إلّا وقد أصبح مليونيراً من الأثرياء الجدد».

«زادهُ الله من خيره ما دام كسبُه حلالاً يا السّي عبد العزيز».

قال السّي محمد كمن تذكّر أمراً نسيه:

«بلغني أنه يستثمر أمواله في العقارات، وأنه يملك عمارتين ومقهًى في مراكش، هل تعرف شيئاً عن هذا يا عبد الرحمن؟».

«ما الذي يدفعه، إذاً، وهو يملك هذا كلّه إلى استئجار أرضٍ من أربعة هكتارات؟ لعلّ ما يقال عن أملاكه تخاريف ليس أكثر. فمن يستطيع أن يشيّد عمارتين ومقهى لا يعْسُر عليه أن يشتريَ ضيعةً. والمائة وستّون ألف درهم التي سيدفعها على مدى عشر سنوات مقسَّطةً، وقد دفع مثلها في تسوير الأرض وحفر البئر وتجهيزه، ناهيك باقتناء مئات الشجيرات وغرسها، لن يصعب عليه توفيرُها لشراء ضيعة أوسع مساحة من هذه الأرض».

ردّ عبد العزيز على عبد الرحمن:

«هل تعرف أنك نبَّهتنا إلى أمر لم نَحْفَل به: لِمَ يستأجر أرضَك إن كان يملك كلّ هذه الثروة؟».

«هذا إذا كان صحيحاً أنه ثريّ إلى هذا الحدّ كما تفيد معلومات الأستاذ».

قال الأخير:

«ما أذكُرهُ، أثناء توقيع العقد بينكما، أنني انتبهت إلى مهنته وسنه؛ فقد أثبتَ في بطاقته الوطنية أن مهنته التجارة، وقدّرتُ أنه يملك متجراً، أو يقوم بأعمال الوساطة التجارية، ولا أخفيك أنني استغربتُ، حينها، أن يهتم بالزراعة من باب الاستثمار. ما كان أمرُهُ ليريبني لو أنه اشترى الأرض، فملكية ضيعةٍ مما يخامر أيَّ إنسان، ولكن أن يستأجرها للاستغلال الزراعي، وهو ليس من أهل هذه الحرفة، شأنٌ يدعو إلى الاستغراب إن لم أقل إلى الشك. ثمَّ قدَّرتُ، في الوقت نفسه، أن صِغَر سنِّه، وهي لا تتجاوز الثلاثين، لا تسمح له أن يتاجر، وأن يستأجر أرضاً ويتعهّد، في عقد

الإيجار، بتسويرها، وتجهيزها مائيّاً، وغرسها، إلّا إذا كان قد ورث ثروةً كبيرة من أهله. لكن ما فاجأني، في المعلومات التي وردتْني، أنه كان قبل سبعة أعوام خَلَت يبيع البضائع المهرّبة من سجائر، وكحول، ومواد للاستعمال المنزلي، يأتي بها من الشمال؛ من تطوان والناضور، ليوزّعها في مراكش على زبائنه من دكاكين وأفراد. ولقد تملّكني الاستغراب من قدرة تاجرٍ صغير من هذا النوع، الذي يوجد لدينا الآلاف مثله، على التحوُّل إلى رجلِ أعمالٍ كبير في سنواتٍ معدودات».

«ارتيابُك في أمره مشروع ـ قال عبد العزيز ـ والأدْعَى إلى الشك اختياره إيجار أرضٍ في منطقةٍ شبه قاحلة مثل بن جرير، حيث لا يمكن أحداً ـ غيرَ أبناء المنطقة ـ أن يفكّر في ذلك، بَلْهَ أن يُقْدِم عليه؟ ألم يكن من الأفضل له أن يستأجر أرضاً في تَمَصْلُوحْت، أو تَحَنَّاوْت، أو طريق أُورِيكة، أو مسفيوة، أو تَانْسِيفْت... قريباً من مراكش ومن مصادر المياه السطحية؟؟ من ذا الذي حبَّب إليه منطقةً لا حظوظ للزراعة فيها مثل الرحامنة؟ حتى الذين كانوا مثله فقراء واغتنوا، مثل الحاج «نصّ بلاصة»، وفوا لمهنتهم وما فارقوها، وبعضهم انتقل إلى مهنة أخرى، ولكن دخلها من الباب الواسع لا من النوافذ».

شيَّع الضيفين إلى باب الضيعة وهو في غاية الامتنان لزيارتهما. هما الأنقى في كل المنطقة، وإن كان السّي محمد الكبّوري، أو السّرغيني كما يحلو للناس أن يسمّوه، ليس من أهلها. تُشعِره علاقتُه بهما بشعور الرضا والصفاء مع النفس؛ فالرجلان لا ينظران بعين الارتياح إلى أحدٍ من أهل البلد، ولا يجالس أحدٌ منهما أحداً آخر غيرهما إلّا هو. وهُمَا، إلى ذلك، الأوسعُ ثقافةً في كل البلد حتى أن مرشحي المنطقة يتوددون إليهما

ويتقربون. وكما لا يخشى السّي محمد أحداً من رجال المال والنفوذ والسلطة في البلد، فيطلق لسانه في الجميع، لا يخشى عبد العزيز ـ تلميذه القديم ـ أحداً من هؤلاء. الشيء الوحيد الذي يزعجه في سلوك عبد العزيز أنه يتطاول على مقام أبيه وأعمامه فيصفهم بالإقطاعيين، ويتناولهم بالنقد اللاذع متهماً إياهم باستغلال الفلاحين والعمال الزراعيين. يرى في ذلك عقوقاً وعدم برّ بالوالد لا يليق بابنٍ متعلّم تلقَّى من ذويه أحسن تربية. وكثيراً ما تَعَوَّذ بالله من شرّ أفعاله، حيث مرضاة الوالدين، عنده، من مرضاة الله. لكنه ظل معجباً، شديدَ الإعجاب، بسلوكه الإنساني مع الفلاحين والمزارعين الفقراء، وعطفه عليهم، فكان يرى فيه تعويضاً رمزياً ـ ولو قليلاً ـ عن نقصان الإحسان بالوالد.

كان يمكنه أن يقضيَ بقية آخر مسائه وليله سعيداً بهذه الزيارة، التي ضخَّت في نفسه مزيدَ صلابةٍ في المعنويات، لولا أن السؤال عن السّي مصطفى، والمُبْهَم في سلوكه، ملأ رأسَهُ، وسدَّ عليه طريق التأمّل الحرّ. ما قاله الضيفان، وما أثاراه من استفهامات عن المستأجِر، ليس ضرباً من التشكيك الطائش؛ إذ له ما يبرّره في سلوك الرجل! كيف أمكنه ـ فعلاً ـ أن يتحول من بائع متجوّل إلى رجل أعمال في بحر سنوات معدودات؟ وكيف ينتقل من التجارة والعقارات إلى الزراعة؟ وكيف يكتفي من الزراعة بالإيجار فيما هو يملك أن يقتنيَ أضعافَ أضعافِ أرضه؟ وكيف وكيف. . .؟ لا بدّ أن سرّاً ما يخفيه الرجل بإحكام خلْفَ وداعةِ نظراته وذلاقة لسانه! قد يعرفه يوماً وقد لا يعرفه. لكنه، في الأحوال جميعاً، لن يسأله سرَّهُ أو يسأل غيرَه عنه. ولماذا يفعل؟ وما شأنه وأسرار الرجل مادام يتصرّف معه بمروءةٍ وإقساط؟ الله وحده أعلم بالسرائر، ولم يَبْدر منه ما يجعله يستريب أو يَقْلق، ولولا وساوس الضيْفين ـ وقد

تكون مبنية على معلومات خاطئة ـ لَمَا فكّر يوماً في أن يشك فيه.

ارتاح إلى نتيجة تفكيره وهدأ خاطرُه المضطرب بالشك. أفضل طريقة أن يُحْسِن الإنسانُ الظنّ بغيره ما لم يصدر من الغير ما يسوؤه؛ هكذا كان يقول والدُه كلما بَلَغَه أمْرٌ فيه اشتباهٌ تأباه نفسُه. سيفعل ما كان يفعل والدُه في مثل هذه الحال، تاركاً أمْر المجهول إلى العارف وحده بالغيب. لكن هواجسه، التي انحسرت بهذا الاطمئنان، أخْلَتْ مكانها لسؤالٍ واحدٍ وحيد: هل مدخول الهكتار الواحد من «اللويزة» بذلك المقدار من المال الذي ذكره عبد العزيز حقّاً؟

لماذا يلحّ عليه السؤال، إلى هذه الدرجة من الحدة، مع أنه سَلَّم، أمام ضيفيْه، بحقّ المستأجر في أن يزرع في أرضه ما يشاء ما دام وَفَى بوعوده لصاحب الأرض؟ هل دَاخَلَهُ بعضٌ من الطمع في الحصول على التعويض المالي المناسب؟ حين اعترض على عبد العزيز قائلاً إن للمستأجر حقّاً في استغلال الأرض على النحو الذي شاء، ردّ عليه الأخير بأن حقوق المالك تمتد إلى الماء الذي يملكه في باطن الأرض، وبأن المستأجر لا يكتفي باستغلال الأرض، كما كان يفعل العياشي الذي يأتي بالماء من أرضه، وإنما يضيف إليه استغلال المياه، وهي ـ في المنطقة ـ أشبه ما تكون بالذهب. حجّة الشاب وجيهة، وقد فَاتَهُ أن ينتبه إليها. ماذا لو نفد الماء من باطن الأرض؟ بِمَ تنفعه البئر والمولّد غداً بعد انتهاء عقد الإيجار؟ لقد اختلف السّي محمد وعبد العزيز، منذ زمن، في أسباب شحّ المياه الجوفية، واضطرار المُلّاك لحفر ما يزيد عن المائة وخمسين متراً، وأكثر، للوصول إليها بعد أن كانت في المتناول بأمتار، وهل سبب ذلك استغلالها الكثيف من القاعدة العسكرية، أم استغلال كبار الملّاك لها. ولكنهما لم يختلفا في أنها

شحَّتْ بسبب كميات السَّحب العالية أيّاً يكن المسؤول عن ذلك. لا شك، إذاً، في أن مياهه ستنزف كثيراً في السنوات القادمة، وقد لا يجد غداً ما يروي به عطشها، فيدب الموت إلى الأشجار، وتَصْفَرُّ التربة من جديد.

انقبض لهذا الخاطر المكدِّر، وضاقَ صدرُه الذي كان منشرحاً قبل حين. فكّر في الأمر مليّاً وهو يستلقي في غرفته، بعد إطلاق الكلبين المقيَّديْن، وقرَّر أن يفعل شيئاً ينقذ به الأرض من مصير كالح.

*

عاد عبد الرحيم بعد سنوات أربع من الغياب، والانقطاع عن التواصل. أتى، هذه المرة، وحده من دون زوجته. برّر ذلك للأهل بأن صهره مريض، مما اضطر زوجته لملازمته رفعاً للأعباء عن أمّها. أمّا ابنته، التي تمنت أمُّه أن تكحّل عينيها برؤيتها، والتي تذرّع بحاجتها اليومية إلى أمّها بحكم صغرها، فحمل صورتها إليها، وتركها تقبّلها آملةً أن ترى حفيدتها قريباً بعد أن يصير في وسع زوجته السفر. سألته صفية إن كانت يارا تعلّمت العربية، فأجاب بأنه لا يتحدث معها إلا بالدارجة، وأنه سيسجلها، في بداية العام الدراسي، في مدرسةٍ للمهاجرين لتعلّم العربية وحفظ القرآن.

لم يكذب، هذه المرة، مثلما كذب في السابقة حين ادَّعى بأن كريستين أسلمت قبل أن يعقدا عقد النكاح؛ فهو قرر، فعلاً، أن يعلّم ابنته العربية، وأن يرسلها ـ لهذا الغرض ـ إلى مدرسةٍ للأطفال العربْ والمسلمين من مدارس العربية وتحفيظ القرآن المنتشرة في أوساط المهاجرين. وهو خاض صراعاً مبكّراً كي يربّيَ ابنته على

الأصول الإسلامية، وصارح زوجته بأن صغيرتهما ستنشأ على دين الإسلام. لم تُبْدِ، في الأول، اعتراضاً مكتفيةً بالقول إن من الأفضل تَرْكَها هي تختار دينها حين تكبر، لكنه رأى في جوابها تحدياً لِحقِّه في أن تكون البنت على دين أبيها، فأفهمها بأنه لن يقبل منها جدلاً في المسألة، فأمسكت عن الكلام. وحصل ذات أحدٍ أن عاد إلى البيت في نهاية الصباح، ليأخذ غرضاً ما، فلم يجد يارا مع جدّتها. وحين سأل الأخيرة عنها، أجابت بأن أمّها أخذتها معها إلى الكنيسة. ثارت ثائرته، وكتم غيظه أمام حماته في انتظار عودة كريستين التي كلّفته التخلفَ عن العمل ذلك اليوم. حين عادت، سَحَبها إلى غرفة النوم وسألها تفسير فعلها. أجابت إنها لم تقصد شيئا سوى التسلية عن صغيرتها، وأنها لم تأخذها ـ في النهاية ـ إلى مكان حرام أو مرذول، وأن كثيراً من صديقاتها أو جاراتها المسيحيات المتزوجات من مسلمين يأخذن أولادهن إلى الكنيسة. وإذْ رأتِ الشرر يتطاير من عينيه، والغضب يفور في وجهه، أردفت أنها تَعِدُه بأن لا تفعل ثانيةً ما دام ذلك يزعجه. مدّ يدهُ إلى الدولاب، وسحب نسخةً من الإنجيل، تقرأ فيها كريستين كل ليلة قبل النوم، ووضعها أمامها طالباً منها أن تقسم على الكتاب أنها لن تفعل ثانيةً، فاستجابت وقد زحفت الدموع على مقلتيها.

حاول عبد الرحمن أن يتحدث إلى أخيه، بأريحية وتلقائية، لئلّا يُشعِرهُ بأنه ارتكب ذنباً تجاه أسرته بغيابه الطويل، وقطْع أخباره عنها، وعدم تقديم أية مساعدة لها في ضرّائها. وحتى حينما عاتبتْه أمُّه وأخواتُه، تَصَدّى لهنّ مدافعاً عنه، أو ملتمساً لغيابه الأعذار. لكنّ الاثنين تَحَاشَيَا الحديث في شأن الأرض، وفَضَّلَا الكلام على مسائل أخرى مثل شؤون مهدي ومقاطعته للأسرة، وكيفية إعادة ترميم علاقته بها. وقد وعد عبد الرحيم بأن يذهب إليه، بعد

يومين، إلى مراكش، ويحاول ترضيته، وربما يأتي به إلى بن جرير. وفي نهاية الليل، بعد تناول وجبة العشاء، استأذنهم عبد الرحمن في الخروج، أمام استغراب عبد الرحيم الذي لم يسأله وجهة ذهابه، ثم التفت إلى أخيه طالباً منه أن يلتقيا في أرض العائلة صباح الغد.

فوجئ عبد الرحيم عند وصوله إلى مدخل أرض العائلة؛ ظن أنه أخطأ الهدف. كيف يخطئ هدفاً قصده آلاف المرات؟ كيف تضيع منه الآثار وهو يرى ضيعة العياشي جاثمة في مكانها لم تتزحزح، وهي التي تُجاوِر الأرض من شِمالها؟ وهذه الأسوار المحيطة بالأرض، والباب الحديدي الضخم، مَن وضعها؟ لم يحدّثه عبد الرحمن أمس عن شيء مما يراه الآن، لأنه لم يشأ تعكير مزاجه، أو ربما هو شاء أن يترك الأمر للمفاجأة. وحين غادر البيت ليلاً، لم تحدثه أمّه وأخته عن هذا التغيّر الذي طرأ، بل أسهبْن في سؤاله عن حياته وأهله في فرنسا حتى نسي سؤالَهُنّ عن الأرض، أو عن وجهة ذهاب أخيه في تلك الساعة من الليل على غير العادة. ولولا أنه تذكّر أن أمّه تمنّت أن لا تموت قبل رؤية حفيدتها، وقبل رؤية عبد الرحمن متزوجاً، لظنَّ أن الأخير ذهب إلى بيت الزوجية.

طرق الباب ففتح عبد الرحمن، مستقبلاً إياه بترحاب. أخذه في جولةٍ في أبهاء «الضيعة». بهت عبد الرحيم وهو يرى صفوف الأشجار المرصوفة، وأحواض الخضروات و«اللويزة»، والبئر والمولِّد وحوض الماء الإسمنتي. كل شيء في الأرض تغيَّر عن ما عَهِدَه؛ حتى حينما كانت تُسْقى من قبل العياشي وتستثمَر بشكل مشترك، لم تكن بهذا الاخضرار والبهاء اللذين تبدو بهما اليوم. أثنى على قرار عبد الرحمن بتأجيرها، لكنه أردف قائلاً:

«ليت مدة الإيجار كانت أقل؛ خمس سنوات مثلاً».

«لو كانت كذلك، لما أمكن المستأجر تجهيزها؛ بماذا تنفعه إن لم يستفد من غلالها؟ والأشجار لا تثمر قبل خمسة أعوام من استنباتها».

«لكنها فترة طويلة قبل أن نسترد الأرض ونستفيد منها».

كان يريد أن يقول له إن ذلك كان ممكناً لو أنه قام هو نفسه باحتفار البئر وتجهيز الأرض، مثلما طلب منه بعد إلغاء العياشي اتفاق الاستغلال المشترك، لكنه أحجم عن ذلك مخافة تعكير صفْوِ خاطره، واكتفى بأن قال إن الزمن يمرّ بسرعة، وما هي إلّا فترة وجيزة حتى تينع الأشجار وتثمر، وفترة أقلّ منها حتى تنتهي مدّة عقد الإيجار، وتعود الأرض إلى أهلها.

«كم يبلغ مدخول الأرض على العائلة سنويّاً»

«حواليْ خمسة وثلاثين ألف درهم».

«لا بأس به، وهل يمنحك المستأجر حقّاً في بعض ثمارها كالخضروات؟».

«لا آخذ منها إلّا القليل بموافقته، وقد سمح لي ـ منذ أصبحت حارساً لها ـ بتربية الدجاج والأرانب للعائلة فيها».

«ولماذا لم يفكر بابتناء حظيرة وتربية الأبقار؟»

«لا أدري، ولم أسأله السبب، لكنني ألاحظ أنه مهتم كثيراً بزراعة اللويزة أكثر من أيّ شيء آخر».

«يفعلون ذلك في بعض مزارع إسبانيا والجنوب الفرنسي، فهي تستخدم في صناعة العطور».

«ذلك ما سمعت أنه يحصل في المغرب أيضاً. والغريب أن مدخول الهكتار الواحد منها لا يقل عن الخمسين مليون سنتيم».

«ماذا تقول؟».

«هذا ما أخبروني به، ولم أسأل صاحب الشأن في صحة الخبر والمبلغ».

رفع بصره إلى البعيد، وخَطَا نحو هدف لا محدّد، حين اتجه عبد الرحمن نحو «البيت» لإعداد الشاي. ماذا لو استثمر هو ما لديه من مالٍ في تجهيز الأرض بأسباب استخراج المياه الجوفية وتشجيرها وتحويطها؟ لم يكن ذلك ليكلّفه مدخول هكتار واحد يزرعه في العام الأول ويستردّ بأرباحه ما أنفقه في التجهيز. هل أخطأ في التقدير، وفي احتقار الزراعة؟ لا، مستحيل؛ مستحيل أن تبلغ مداخيل الهكتار الواحد ما يقوله عبد الرحمن. لو كان الأمر كذلك، لتحوّل المَلّاكون الكبار إلى أثرياء من صنف الميلياردية. اللويزة ليست هي الورود؛ هذه مربحة كثيراً، أما الأولى فليست بالقيمة نفسها. ولكن، حتى لو كان الهكتار بنصف هذا المبلغ، فإن زرع نصف الأرض، أو ثلاثة أرباعها، باللويزة مُدِرّ للربح. وهو، بعد عامين أو ثلاثة، يسمح بشراء أراضٍ جديدة وزرعها بالنبتة عينِها.

حين جلسا لتناول الشاي سأل أخاه:

«كم يبلغ سعر الهكتار الواحد من الأرض اليوم في المنطقة؟».

أجاب عبد الرحمن:

«لا يتجاوز خمسة عشر ألف درهم في الأراضي البور، وهو قد يزيد عن المائة ألف في الأراضي المسقية. أما ضيعة مشجَّرة

ومثمرة، وبها حظيرة ومولِّد بحجم أرضنا فلا يقل سعرها، اليوم، عن الستين مليون سنتيم».

*

استيقظت حاستُه الزراعية بعد خمول طويل، وبعد غيرِ قليلٍ من الإهمال والاحتقار منذ ركبتْ رأسَه أحلامُ التجارة قبيل هجرته إلى الشمال. والحقّ أن قليلاً من دبيب الحياة في هذه الحاسّة كان ينبعث في عقله ووجدانه في بوردو، والمزرعة التي يعمل فيها. كثيراً ما تخيَّل نفسه يملك ضيعة إمبراطورية مثل التي هو فيها، أو يملك قطعةً صغيرةً منها. حين يختار بين بقاع تلك الضيعة، يختار بقعة الورود وحظيرة الأبقار. هاتان مساحتان تَلِدان الذهب، يقول في نفسه، وتحوِّل مالكَها إلى أحد أثرياء العصر. تخيَّل دائماً أن دَخْل الضيعة من الحليب والورود يفوق دخل منطقة الرحامنة كلها: بحبوبها، وضيعاتها، وسوقها، وحوانيتها. الحليب في الضيعة أغزر من الماء في الرحامنة، وما يُستخرج من ضرع بقرةٍ أو بقرتين يضاهي مقدار الماء المستخرج من بئر. الطبيعة مجحفة، بل شديدة الإجحاف، تعطي هناك وتحجُب هنا: تربة سوداء في مقابل تربة صفراء، وماء غزير في مقابل ماء شحيح، ونبات كثيف في مقابل عراء مطلق، وأبقار سمينة معطاء في مقابل أبقار عجفاء، والناس هناك غير الناس هنا: في العقول والأبدان والطبائع. لا يعرف لِمَ حَبَاهم الله بكل ذلك النعيم مع أن المسلمين أشدُّ تمسُّكاً بتعاليم الدين منهم؟؟

الآن تستيقظ فيه حاسة المزارع من جديد. مشهد الأرض وهي مكسوة بالاشجار، وترفل في الاخضرار، وكلام عبد الرحمن على مداخيل اللويزة، تشدّ جميعُها انتباهه، وتُحْيِي مَوات الزراعيِّ فيه.

لا يعرف، على وجه التحقيق، إن كان أضاع على نفسه فرصةَ أن يكون هُوَ مَن صَنَع هذا الخصب في الأرض القرعاء. حين سأل أخاه عن المبلغ الذي صرفه المستأجِر في احتفار البئر وتجهيزها، وتحويط الأرض وزراعتها بالأشجار، لم يجد جواباً شافياً عنده؛ رجَّح أن يكون المبلغ متراوحاً بين عشرين وخمسة وعشرين مليون سنتيم. لا بأس، حتى الحدّ الأعلى من المبلغ هيِّن إنْ كان مدخول عام واحد يسدّده. ماذا يريد؟ لماذا يفكر في الأمر الآن بعد فوات الأوان؟ ولكن، هل فات حقّاً؟ ماذا لو اقترح على عبد الرحمن أن يطلب من المستأجر إنهاء عقد الكراء في عامه الثاني ذاك، مقابل التعويض له ماليّاً عن كلّ ما صرفه؟ فكرة سخيفة؛ فالرجل لن يقبل أن يفرّط بأرضٍ أجَّرها قصد استغلالها، وغِلال أشجارها لم تينع بعد؟ سيكون، في هذه الحال، أشبه بمن أقرض عبد الرحمن قرضاً، وسهر بنفسه على إدارة ذلك القرض في تجهيز الأرض زراعيّاً! ما الذي سيربحه من ذلك كلّه؟ لا شيء بالتأكيد، وهو ـ قطعاً ـ لن يغريه حتى الاتفاق معه بحصّة من الأرباح في غلال الأشجار، بعد أن تثمر، لفترةٍ تمتد حتى نهاية عقد الإيجار في حال فسخه والقبول بالتعويض المالي. لابد، إذاً، من البحث عن سبيلٍ آخر لتدارُكِ الخطإ.

أدار السؤال في رأسه وهو يسلك طريقه إلى مراكش للبحث عن مهدي وترضيته، وإقناعه بإصلاح ذات البيْن مع أخيه وأهله. هو لم يجمع الكثير من المال، حتى الآن، على الرغم من أنه قضى في فرنسا ما يزيد قليلاً على تسع سنوات. ورصيده البنكي في فرنسا والمغرب لا يتجاوز خمسين مليون سنتيم، وهذه ـ بحسب معلومات عبد الرحمن ـ من دون سعر ضيعة صغيرة مجهّزة بوسائل السقي ومشجَّرة بحجم أرض العائلة. نعم إن الأرض البور

رخيصة، ويمكنه أن يقتني منها ضعف مساحة أرض العائلة، لكن تجهيزها وتشجيرها يكلفه الكثير من الإنفاق، و- الأهمّ من ذلك - الانتظار. وهو إذا كان يستطيع أن يقنع عبد الرحمن بالتفرغ لزراعتها، فلا يستطيع أن يقنع نفسه بجدوى انتظار ستّ سنوات أو سبع حتى يرى ثمارها تُعوِّضه عمّا خسره من إنفاق عليها. آه، لماذا نسي «اللويزة»: هذه النبتة الذهبية التي لم يكن يطيق شربها؟ فتح اسمها أفقاً أغلقه عليه نسيانُها. هذه لا تحتاج إلى سنوات. يكفي تشغيل المولّد، وسحب الماء من باطن الأرض، حتى تينع في الحقل. إنها مثل غيرها من المزروعات غير البطيئة النموّ مثل الذرة والحمص والسمسم، بل والخضروات.

حاول تنظيم أفكاره، وتوفير المبررات لهذا الانقلاب المفاجئ في خياراته حين يفاتح فيه أخاه عبد الرحمن. ينبغي أن لا يُشْعِرَه بأنه جَمَعَ مالاً، وأنه خذله في السابق حين احتاجت العائلة إلى ماله. يمكنه أن يكتفي بالقول إنه يعتمد على ما كان وفّره من رصيد في حسابه البنكي المغربي، وقد يلجأ إلى الاقتراض من بنكه الفرنسي لتوفير المبلغ المطلوب. سيضيف أنه بهذه الطريقة يفي بوصية أبيه وحرفته مثلما وَفَى بها عبد الرحمن ولم يَبعِ الأرضَ، ولَا تَرَكَ الزراعة إلى حرفة أخرى. لن يرفض أخوه التعاون معه والاهتمام بأرضه لأن المصلحة مشتركة؛ موردُ رزقٍ إضافي، ثم لأن الأُخُوّة وازع آخر، ناهيك بأن عبد الرحمن شهم، ويتمنى الخير لأفراد العائلة جميعاً.

استطرد في تداعي أفكاره؛ بعد خمس سنوات أو ستّ من اقتناء الأرض وتجهيزها وتشجيرها، سيكون قد جمع مالاً إضافيّاً من عمله في فرنسا، وسيغذّيه بأرباح الأرض وعائداتها. وحينها سيعود إلى بن جرير للاستقرار فيها، لن يحتاج إلى أن يشقى

ويعمل بنفسه؛ سيتحول إلى مالك يستأجر عمالاً زراعيين، ويكلف عبد الرحمن، إن شاء، بإدارة أمور المزرعة. هذه حسنة أخرى للزراعة لا توفرها التجارة؛ في المتجر عليه أن يعمل بنفسه ويمسك الحسابات، كما كان يفعل الحاج عبد السلام، في معظم الأحيان، على الرغم من وجود محاسب لديه من قرابته. أما في المزرعة فيكفيه أنه مقيم في بيته داخلها حتى يكون مراقباً لما يجري. ثم إن البيع والشراء في المنتوجات الزراعية ليس يوميّاً، وفي كل لحظةٍ وحين، كما هو في المواد والسلع وقطع الغيار. ثم من يدري، إن أفلحت زراعتُه ودرَّت عليه أرباحاً، إن كان ذلك سيشجعه على الاستثمار في التجارة أو في العقار. سيعوّض يارا وكريستين ـ وربَّما طفلاً آخر غداً منها ـ عن بعض الحرمان الذي أصابهما من سياسيات التقشف في الإنفاق التي فرضها على البيت من أجل جمْع المال. سترفل كريستين في النعيم، ويتوقف جلْد يديْها عن التشقق، وتتمتع بالراحة، وتتفرغ لتربية الأولاد، وللتمتع بالشمس التي تعشقها، وستتفرغ لتتعلم العربية من. . .

آه، كريستين، ستُفْسِد عليه كلّ شيء، كيف يستقران معاً في بن جرير وهي على دين آخر؟ ما هذا الغمّ الذي باغته بعد أن بنى في رأسه خطة المستقبل؟ شعر بمغص داخلي، وشعر أن عليه أن يفكّر في سبيل أخرى غير اقتناء أرضٍ في بن جرير.

لم تكن الساعة قد جاوزت الخامسة حين وصل إلى مراكش. قدَّر أنّ مهدي سيكون في الجامعة الآن، والأهم أن زميله عبد الصادق لن يكون في بيته في هذا الوقت، وهو وحده الذي يعرف عنوانه، ويعوّل عليه ليرشده إلى مكان مهدي، ولعل أخاه يكون مقيماً عنده ما دام قد زوّدهُ بعنوانه ورقم هاتفه في العام الماضي. ندم لأنه لم يحتفظ برقم هاتف صديقه مع عنوانه، وإلّا كان اكتفى

بالاتصال التليفوني من دون تكليف نفسه عناء البحث عن مسكنه. قرّر أن يعثر على منزل عبد الصادق أوّلاً قبل أن ينتظر، في مقهًى مجاور، عودته إلى البيت. لم يجد صعوبة في العثور على العنوان. رَكَنَ السيارة قريباً من البيت وترجَّل إلى مقهًى قريب؛ مستمتعاً بشرب قدح من القهوة بالحليب، التي عوّدتْه كريستين على تناولها، بعد أن لم يكن يطيق الجمع بينهما. نهض عند السادسة والربع متوقعاً أن يكون صديقُ مهدي عاد إلى البيت من الجامعة. ضغط على زرّ جرس الباب ضغطاً خفيفاً، وانتظر أحداً يفتح له. أعاد الضغط على الزرّ حين فتحت له صبية. سلّم وسألها عن عبد الصادق أجابته، ونظرة استغراب تتملكها، أنه ليس موجوداً، وسألته من يكون. قال إنه أخٌ لصديقه أتى يسأل عنه. ردّت بأن عبد الصادق لا يعود إلى البيت عادةً قبل التاسعة مساءً.

سيطول انتظارُه، إذاً، وقد يتأخر ليلاً. فكّر، على الفور، في أن يقيم ليلته في فندق. أخذ وجهة جامع الفِناء للبحث عن فندق متواضع رخيص. بعد حجز الغرفة قرّر أن يتمشى قليلاً في فضاء الساحة؛ التي لم يَرَهَا منذ زارها هو وكريستين قبل أربعة أعوام. تذكّر، وهو يتجول، صديقه القديم، وابن منطقته، عمر الذي ترك بن جرير للاستقرار في مراكش قبل عشر سنوات بعد أن باع والدهُ الأرض التي يملك، واقتنى دكاناً لبيع الثياب في السمّارين، وأمسك هو تجارة والده حين تقدَّم الأخير في الشيخوخة وتناقَصَ بصرُه. مرّت سنوات عديدة لم يره، سبع سنوات أو أكثر: لا يذكر. التقاهُ صدفةً في الصيف حين عاد من فرنسا لزيارة أهله وهو يتجول في جامع الفناء. فأصرّ عمر على أن يأخذه إلى الدكان ليرى تجارته الجديدة. لا ينسى أنه سأله إن كانت تجارة الملابس الجاهزة مُدِرَّة للربح، وجادله في تمسُّكِه ووالده بها ناصحاً إياه باستثمار

رأسمالهما في تجارةٍ أخرى أدعى إلى تعظيم الفوائد. ولا ينسى بأن عمر، زميلَه القديم في المدرسة وجاره القريب إلى نفسه، دافع عن تجارة والده قائلاً إن عائدها السنويّ على العائلة يناهز،على تواضعه، ثلاثة أضعاف عائدات الأرض التي كانوا يملكون في بن جرير. وهو وإن لم يكن مقتنعاً بجدوى فتح دكان لبيع الملبوسات الجاهزة، أمام ممكناتٍ أخرى للربح التجاري أجزل، إلّا أن دفاع صديقه عن تجارة والده وعوائدها أقنعهُ، في ذلك الحين، بسلامة اختياره التجارةَ كموردِ رزقٍ مأمون، بعد جَمْع ثروةٍ من العمل في فرنسا، والعودة إلى البلد قصد استثمارها. سيكون عليه اليوم، إنِ التقاه، أن يلبس جبّة فلّاح فيحدّثه عن حسنات الزراعة، وامتيازات الاستثمار فيها،ولعله يستغل معرفته لتقنيات الزراعة الحديثة، التي تلقَّنها في فرنسا، ليقنعه بوجاهة حجته. لن يسعى إلى صرْف نظر عمر عن التجارة، طبعاً، وإنما سيسْعى في تبرير حماسته هو للزراعة بعد إذْ قال فيها، قبل أعوامٍ خَلَت، ما لم يَقُل مالكٌ في الخمرة.

على مقربة من «دَقَّة ورُبْع»، على تقاطُع السمَّارين والعطّارين، وحيث كؤوس الشاي «المُشَحَّر» تُحْيي في القلب الحنين إلى ليالي السَّمَر على أكوام الحصاد في أراضي الرحامنة، لم يُخْفِ عمر استغرابه للانقلاب المفاجئ في مزاج عبد الرحيم وشدّةِ حماسته لِمَا كان شيَّعَه قبل سنين إلى دار البقاء. لم يكن صعباً عليه أن يُدرِك أن ذلك التحوُّل في النظرة إلى الفلاحة من آثار ثقافةٍ زراعية تشرَّبها في فرنسا، أثناء السنوات الماضية التي اشتغل فيها في مزرعة، ولكن كان من العسير عليه أن يدرك أن تحوُّلَه ذاك لم يَجْرِ في خضمّ ذلك العالم الزراعي الآخر؛ حيث الأرض الخصبة، والمياه الوافرة، والتقنيات المتطورة في الفَلْح والاغتراس وتربية

الأبقار... الخ، وإنما هو جرى في بن جرير؛ حيث مشهدُ الأرض القرعاء وقد كُسِيَتْ صلعتُها بالأشجار والنباتات والخضروات، وحيث إغراءُ المال الوفير الخارج من حقول اللويزة. لم يكن يدرك أن ما خالج عبد الرحمن من أحلام، لم يستطع إلى تحقيقها سبيلاً، هو عينُه ما يستبدّ بعبد الرحيم، الذي يملك أن يحققه، ويأخذ عليه تفكيرهُ والتصميم.

سأله إن كان ينتوي الاستثمار في الزراعة، حين العودة إلى البلاد، أجابه عبد الرحيم أنه يفكّر في ذلك منذ الآن، وحتى قبل العودة، وأنه يعوّل على أخيه الأكبر في إمساك أمور زراعته إلى حين عودته. وافقه على حسن اختياره، لكنه حذّره من مغبَّة رمْي ماله في بلاد الرحامنة. استفسره عبد الرحيم عن سبب موقفه السلبي من الاستثمار في الرحامنة، أجابه ببساطة:

«لأن أرض الرحمانة عاقر، لا تنجب، وإذا أنجبت، فلأن عليك، قبل ذلك، أن تنفق كثيراً من أجل أن تُنْجب. وليس لك من ضمانة في أن لا يكون المولود مشوَّهاً».

«لم أفهم قصدك».

«مشكلة الزراعة في الرحامنة هي ندرة المياه بسبب شحّة الأمطار، ولم يكن الأمر كذلك حين كنا صغاراً، لكن اللعنة نزلت على المنطقة فأقحلتها. وحتى من يملكون المال الكافي لاستخراج المياه من باطن الأرض، عليهم أن يحفروا الآبار لعشرات الأمتار قبل أن يصلوا إلى الماء. وبعد فترة وجيزة عليهم أن يحفروا مجدداً كي يلاحقوا ماءً يغور في الأعماق ويدفن فيها سرّه. العَرَق، يا صديقي، أغزر من الماء في الرحامنة».

«ولكن الرحامنة ليست وحدها مَن تضرّر من ندرة الماء،

وأهلها ليسوا وحدهم مَن أُجبروا علي بيع أراضيهم، أو على حفر الآبار؛ فالجفاف ضرب البلاد كلّها ودمَّر حياة الفلاحين الفقراء».

«ومع ذلك، فالفلاحة أحسن حالاً في مناطق أخرى غير الرحامنة التي ما زلتَ تَحِن إليها».

«مثل ماذا؟».

«خذ، مثلاً، مناطق الحوز المحيطة بمراكش؛ إنها تتوفر على كميات هائلة من المياه الجوفية يتراوح سطحها تحت الأرض بين عشرين مترا والستين متراً لا مائتيْ متر ويزيد. وأنا أنصحك باقتناء أرض في منطقة من هذه المناطق إنْ كنتَ ترغب في العودة إلى مهنتك».

ابتسم قائلاً:

«لم أغادر مهنتي حتى أعود إليها».

«لكنك أخبرتني، حين التقينا في مراكش قبل سنوات، أنك تعتزم العمل في التجارة حين تعود إلى البلد».

«لم أَحِدْ عن فكرتي، لكن ذلك لا يمنعني من الاستثمار في الزراعة خصوصاً أن سنوات عدّة تفصلني عن العودة من المهجر نهائيّاً».

«لا بأس أن تفعل، وفي الأحوال جميعاً أنت لن تخسر شيئاً بشراء قطعة أرض في «تمصلوحت» أو «تحناوت»، أو على مشارف سدّ تاكركوست، أو في محيط المدينة الأقرب إن كانت إمكانياتُك تسمح بذلك. وحتى إذا لم تجهّزها مائياً وزراعيّاً، فأنت توفّر بشرائها اليوم رأسمالك التجاري غداً؛ فالذي تشتريه اليوم بدرهم تبيعه، بعد عشر سنوات، بخمسة».

راقت له الفكرة؛ لماذا يدفن ماله في بنك فائدتُه السنوية زهيدة؟ لماذا لا «يحرّكه» في مشروع ولو كان راكداً مثل العقار: قطعة أرض أو شقة؟

«كم سعر الهكتار في أرضٍ بور في هذه الأحواز؟»

«يختلف من مكان إلى آخر؛ قبل ثلاثة أشهر اشترى صديقٌ لي، يقطن بجواري في حي باب أيلان، قطعة أرض من ست هكتارات على سفح جبال «أوريكة» بعشرين مليون سنتيم، لكن أحد تجار البازار اقتنى أرضاً من ثلاثة هكتارات قرب السدّ بنفس سعر الأولى».

«هل لي أن أطلب منك أن تسأل معارفك عن قطعة أرض للبيع في حدود خمسة أو ستة هكتارات؟».

«سأسأل لك مَن أعرف من أصحابي. هل ستقيم لفترة طويلة عند الأهل؟».

«لا، لفترة أسبوع فقط».

«خلال يومين أو ثلاثة أكون استعلمتُ لك في الموضوع».

«أشكرك، وسأزورك بعد خمسة أيام من اليوم».

انتبه إلى الساعة، وهما يغادران الدكان ليبدأ عمر في إقفاله؛ كانت تشير إلى الثامنة والنصف. يكفيه نصف ساعة ليصل إلى بيت صديق أخيه مهدي.

*

كان عبد الصادق واقفاً أمام باب البيت حين وصل عبد الرحيم. بادرهُ بالسلام متلفظاً اسمه. سأله عبد الرحيم كيف عرفه،

فأجابه بأنه رأى صورته مع مهدي وعبد الرحمن في صورة عائلية. تذكَّر أن كريستين التقطت لهم تلك الصورة في أرض العائلة ذات صباح من أيام زيارتهما قبل سنوات. سأله عن مهدي، فطلب منه عبد الصادق أن يتمشيا قليلاً ليتحدثا «لأن العيون تترصد» كما قال. استغرب جوابه، وتملكه بعض القلق. أعاد السؤال عن مهدي، فقال:

«لا أدري ما أقول لك يا السّي عبد الرحيم؛ فقد حسبتك تعرف ما حصل له».

«ماذا حصل؟».

بعد تردّد قال:

«قبض عليه البوليس قبل أربعة أيام وهو يغادر الحيّ الجامعي الذي كان يختفي فيه».

«ماذا فعل ليقبضوا عليه؟ وأين هو الآن؟».

«لا أدري أين هو، والمؤكد أنه ما زال عند البوليس في التحقيق الأمني، ولم يُحَل إلى التحقيق القضائي».

«ماذا فعل؟».

«كان ملاحَقاً، منذ مدة، من قبل فرقة مكافحة المخدرات».

«مخدرات؟ هل يتعاطى المخدرات؟».

«ليته كان يتعاطاها فحسب؛ كان يتاجر فيها أيضاً».

كالصاعقة نزل عليه الخبر؛ أحسّ أن رجليْه لم تعودا تَقْوَيان على حمل جسمه. بدا له جسمُه أثقل من أن يحافظ له على توازن الوقوف. طلب من عبد الصادق أن يجلسا في مقهًى للتحدث.

ولتوضيح صورة ما حصل لأخيه. بعد تردُّد، لم يدرك عبد الرحيم سببَه؛ اقترح عليه صديق أخيه أن يأتي بسيارته، ويستقلاها للحديث، وفعل ذلك على الفور. في الطريق إلى لا هدفٍ، استمع، بقلبٍ مكسور، إليه وهو يتحدث عن مهدي بتفصيل:

«منذ نهاية العام الدراسي الأول، قبل سنتين ونصف، ابْتُلِيَ مهدي بتعاطي المخدرات. حذّرتُه من ذلك، لكنه لم يكن يصغي لأحد ولا يرعوي. تفاقم إدمانُه في العام الثاني حتى إنه لم يكن يستطيع زيارة الأهل لأكثر من يوم واحد. وحين يذهب إلى بن جرير، لا يقيم في بيتكم وإنما في بيت أحد أصدقائه لئلا ينكشف سرُّه. وقد تاجر في نسخ مطبوعات الأساتذة، ابتداءً، ليوفر المال الذي يكفيه لاقتناء المخدرات، ثم ما لبث ـ بعد انكشاف أمر تجارته في كتب الأساتذة ـ أن اتجه إلى تجارة المخدرات؛ فكان يبيع للطلبة وغيرهم ما يحصل عليه من كميات من موزّعين أكبر منه. ومع أن ذلك جرَّ عليه متاعب مع مافيات أخرى تحتكر شبكاتُها التابعة لها البيعَ بالتقسيط، وتعرَّض للضرب والأذى من كثيرين منهم، إلّا أنه أصرّ على الاستمرار في تجارته غير المشروعة، إلى أن أفلت، قبل شهرين وبأعجوبة، من مطاردة أمنية ولجأ إلى الحي الجامعي معتصماً ومختفياً. ولا أشك في أنه وقع نتيجة وشاية من أحد التجار المتعاملين مع أجهزة الأمن؛ فقد اختُطِف من أمام الحيّ الجامعي في الحادية عشرة ليلاً وهو يخرج منه لأول مرة منذ شهرين، ليتسلم مبلغاً من المال وعدهُ أحد أصدقائه بتأمينه له مساء ذلك اليوم، ولا أدري إن كان صديقه ذاك مرتبطاً بالشبكات تلك. ولا أعلم أنا، ولا يعلم أيّ من أصدقائه وزملائه، أين هو الآن. وكنت أعتقد أن عبد الصمد، صديقه القديم منذ الطفولة، أخبر الأهل بأمره إلى أن فاجأتني بأنكم لا تعلمون،

مع أنه ذهب إلى بن جرير أمس كما سمعت. وحين أخبرتني الخادمة، قبل نصف ساعة، بأنك أتيتَ تسأل عني، ظننت أن خبر مهدي وصلكم من عبد الصمد، فجئتَ ـ والحق أني ظننت أن الذي جاء هو عبد الرحمن ـ للسؤال عن مكان اعتقاله. وقد قصدتُ الوقوف أمام الباب لئلّا يرى أحد عبد الرحمن يطرقه ويبحث عني، وكنت أنتوي حين أراه من بعيد أن أذهب إليه وأدعوه إلى أن يَتبعني بعيداً من باب الاحتراز. ولكن ما إنْ رأيتُك وتذكرتُ صورتك حتى خفّت خشيتي؛ لأنك، على الأقل، لستَ معروفاً. وقد تسألني لِمَ كل هذه الحيطة، وهذا الحذر، فأجيبك بأنني خشيت أن يردَ اسمي على لسان مهدي في التحقيق. أنا لا علاقة لي بإدمانه وتجارته، مثلما قلت لك، لكن إقامته عندي لفترة طويلة يُخيفني إفادتُه بها في التحقيق، مما قد يجرّ عليَّ وعلى الأهل متاعب نحن في غنًى عنها، وخاصة أنه كان يأتيني إلى البيت حتى عهد قريب؛ قبيل فراره من المطاردة والتجائه إلى الحيّ الجامعي احتماءً».

أصغى بذهول وهو يُطرِق رأسه شِبْه خجِلٍ، وشبه يائس، وحرَّك السيارة، بعد توقف لدقائق قرب حدائق المنارة، على طريق المطار، عائداً بعبد الصادق إلى حيّه. ودَّعه وقفل راجعاً. لا أحد غير عبد الرحمن يعرف كيف يتصرف في مثل هذه الحال. سيذهب إليه توّاً ليبلغه الخبر السيئ. قد يساعده السّي محمد في البحث عن مكان وجود مهدي في مراكش. لو لم يأت ـ هو ـ إلى هذه المدينة باحثاً عن أخيه الأصغر لَمَا عَلِم أحدٌ من الأهل بمصيره. لعلّ نداءً خفيّاً وصله إلى فرنسا وجاء به إلى المغرب. صديقُه يقول إنه اعتُقِل من أربعة أيام، أي في اليوم الذي غادر فيه بوردو متجهاً إلى الرحامنة. هل هي محض مصادفة؟ عليه، الآن، أن يسرع للوصول

إلى بن جرير. ولكن، ماذا يفيده الذهاب في هذا الوقت من الليل إلى بن جرير؟ ومَن يُدريه إن كان عبد الرحمن يبيت الليلةَ في الضيعة أو في بيت الأسرة؟ وهو إذا كان في البيت، فلا يستطيع إخباره وإلّا حوَّل الجوَّ فيه إلى مناحة. أما إذا كان في الضيعة فعودتهما إلى مراكش فجراً لن تفيد. ليتريث حتى أول الصباح، وحينها يذهب إليه. سيعود إلى الفندق الآن، لا لينام، فالنوم لن يزور نفسه المكسورة، ولكن لينظمّ أفكاره، ليعرف كيف يتصرف أمام نازلة لم يحسب لها حساباً. وهو يستلقي على الفراش، منهمكاً محزوناً، تذكَّر أمَّه وانقبض صدره: كان الله في عونها حين يبلغها الخبر. لا، ينبغي أن لا تعلم. كريستين، أيضاً، ينبغي أن لا تعلم.

VIII

لو كان السّي محمد يكتب أدباً، وهو أستاذ التاريخ والجغرافيا، لكتب رواية عن عبد الرحمن. بَدَت له شخصيتُه روائية أو سينمائية بامتياز؛ انعقدت فيها الخيوط والتناقضات حدّاً يخيَّل إليه أن فكّ تشابكها عبثٌ مثل طبخ الحصى أو طحن الماء! رجلٌ لم يُكمل دراسته لأن نداء العمل في الأرض أعلى صوتاً، فاكتفى منها باليسير الذي يفك به لغز الحروف والأرقام. وحُمِّل مسؤوليةً ينوء بها جَمْعٌ من الرجال: الحفاظ على الأرض في زمن الجدب، وحيث لم يَقْوَ إلّا القليل من فقراء الفلاحين ـ وحتى متوسِّطيهم ـ على جبْه قسوة الجفاف، وإعالة أسرةٍ من سبعة أفواه بالقليل الشحيح مما تُدِرُّه الأرض، وتربية طفلٍ على الاعتماد على عقله، لا اليديْن، لتحصيل قُوتِه، ومساعدة الأخ الثاني على اكتساب رزقه، في بلاد الله الواسعة، ولو على حساب خسارة جَهده، والتمسّك بوصية الوالد باقتسام استغلال الأرض مع جَشِعٍ متربص، أو بتأجيرها لمن يُحيي مواتَها ولو طال انتظار الفرج. اثنان استثمر فيهما منذ رحيل والده: الأرض والأخ الأصغر؛ لم يكسب من الاستثمار في الأولى إلّا ما يسُدُّ الرمق، وها هي اليوم في ملك غيره لسنوات سبع أخرى قادمة. أما الثاني، فيقبع في سجنه منذ عام، بعد أن حُكم عليه بخمس سنوات، وينهار كل ما بناهُ من آمال عليه في أن يتعلم

وينجح ويصير ذا شأنٍ يعلو به مقامُ الأسرة في البلد المحيط. وهاهو مستقبل مهدي، الذي تعثرت دراسته في الجامعة، ولم يُكْمِلها، يقضي تحت ركام حماقاته. أكثر ما يثيرهُ في هذه الشخصية الروائية صبرها الذي لا ينفد على المكاره. غيرُه كان، قطعاً، سيستسلم ويفُتّ اليأس في عزيمته، وربّما سيذهب إلى المجهول. أمّا هو فيتحمل الصدمات والمشاق كجملٍ أَلِفَ ما تعوَّد عليه، ويستأنف المسير في النهر وكأنه لم يَحْمل حملته الهوجاء قبل قليل! هاهو اليوم يثابر على عاداته التي لم يبرحها؛ يستفيق بعد الفجر، ويبدأ عمله كأنه يؤدي واجباً دينيّاً أو مدرسيّاً لا سبيل إلى الاعتذار عن عدم أدائه. كأن الأرض ليست تحت تصرُّف غيره؛ كأن أخاه الأصغر ليس رهينَ محبسه؛ كأن عبد الرحيم لم يَعُد إلى عادته في الهروب والاختفاء؛ كأن أمَّه لا تُمْطره يوميّاً بالأسئلة عن مهدي، الذي هاجر إلى إيطاليا، كما ادَّعى أمام أمّه وأخواته؛ ؛ كأنه لم يدخل في يومياته السفر كل أسبوع إلى مراكش لزيارة الأخ السجين...؟

كلما زاره في الضيعة مواسياً، يكبر في نفسه السؤال عن سرّ تلك العلاقة التي تشدُّهُ إلى أرضٍ لم يبرح وجدانَه أنها لم تخرج من بين يديه ولو على ذمَّة إيجار. يغرق في استكداد اليديْن، وفي استحثاث العمال على إتيان الأكثر من الجهد، وكأنه يسرّع، بذلك، خَطْو الإيجار للرحيل. يَعْرَق كي يستثمر غيرُهُ عرقه. الأرضُ أرضُه، وثمارُها من بين يديه تَخرُج، لكنها اليوم ليست ممّا تملكانها. لا يدري طريقاً إلى تفسير أمره في هذا الوفاء الشديد؛ أَوَفَاءٌ هو للأرض، أم لمستأجرها، أم للعمل؟ لعّله لهذا كلّه؛ وإلّا فحقوقُه كمؤجِّرٍ للأرض مأمونة، وحقوقه كعاملٍ فيها تساوي حقوق غيره من العاملين فيها ممّن لا يَكْدح الواحدُ منهم نصفَ كدحه. هل كان سيفعل الشيء نفسَه لو عمِل في أرض غيره؟ «قطعاً سيفعل»؛ يقول

السّي محمد فالعمل، عند هذا الرحماني، في مقام العبادة، ولو كان أكثر فلاحي المغرب من طينته، لانتصرت إرادتُهم على الطبيعة القاسية وذلَّلتها، ولحقَّق البلدُ الوفرة التي يتحدث عنها الآباء والأجداد في «أيام العزّ»؛ أيام كانت المياه تجري على سطح الأرض جريانها في الأنهار، والخضرة لا تبارح الأرض من أكتوبر حتى ماي. هكذا قالوا، على الأقل، وهو لم يشهد في طفولته في السراغنة شيئاً من الذي رَوَوْهُ عن «أيام العزّ» تلك.

انتزع منه هذا الفلاح احترامه، بل هو غيَّر رأيه في أهل الرحامنة، الذين أتاهم من القلعة محمَّلاً بما حُمِّل من مشاعر جماعية عنهم. لا يهمه إنِ استقبلوه بجفاء، وأحياناً بعدوان فصيح؛ فهو نفسُه لم يُقصّر في مبادلة كبار مُلّاكيهم مشاعر الازدراء، وفي الضَّغن على سلطات محلية تُحَابِيهم. ولكنه لم يُسِئ معاملةَ الفقراء والبسطاء، وهم الكثرة الكاثرة من السكان، ولا نسيَ لهم ـ رغم جبنهم ـ عطفهم عليه في محنته في السجن. لكن عبد الرحمن مختلف عنهم جميعاً؛ لم يشعر بالمودّة نحوه لقاءَ وقفته الرجولية معه حين رُزئ في حريته بعد حادثة الدرك، وإنما تولدت لديه من معاينة خصاله الفريدة في التعامل مع الناس، والأهل، والأرض. من أين أتى بهذه السجايا؟ من الأب؟ ربّما؛ هو لا يعرفه كثيراً كما يعرف عبد الرحمن، وسيرته في الناس ليست كبيرة إلى الحد الذي يسمح له بتفسير المسألة بأن «هذا الشبل من ذاك الأسد»، أو بأن «ابن الوزّ عوَّام»: كما يقول أهل المشرق. وإذا كان الأب ذلك الأصلَ الذي أخذ منه الفرعُ، فلماذا تَفَرّد عبد الرحمن ـ خلافاً لعبد الرحيم ومهدي ـ بوراثة خصاله الكبيرة؟ كأن الرجل ما وُلِدَ في هذا المكان، وبين أهله. كأنه فلتة من فلتات عصرٍ يضيق بوجود أمثاله.

لم يكن يرغب في أن يزور مهدي في سجنه، لئلّا يزكّيَ

انحرافه، وربما ليرفع عن السجين حرجه من لقاء أستاذه في الظروف التي هو فيها؛ فلقد كان يشعر بالخيبة الشديدة منه، لأنه خذله وخذل أخاه، وأساء إلى صورة أهله. لم يسبق لتلميذٍ من تلامذته أن بلغ هذا المدى من التدهور والسقوط الذي بلغه مهدي. نعم، خُذِل في اثنين آخريْن انْضمَّا إلى حزب من أحزاب الأعيان في البلد، فيما كان قد توسَّم فيهما خيْراً لنباهتهما، وتفوُّقهما في الدراسة أثناء المرحلتين الثانوية والجامعية، ولانتمائهما إلى وسط اجتماعي متواضع ظنَّ ـ مخطئاً ـ أنه يحصّنهما من مرض الانتهازية: الأوّل منهما، عبد الله، ابن فلّاح خمّاس، كان يقطع ثمانية كيلومترات يوميّاً، ذهاباً وإياباً، بين الدوّار والمدرسة، بهمَّةِ من يعشق العلم، من دون أن يتخلّف يوماً عن الدرس ـ والثاني، أحمد، ابن جزّار في سوق بن جرير، كان يساعد والده في حمل اللحوم وتقطيعها، في أوقات الفراغ والعطل الأسبوعية، ويثابر على الدرس في المدرسة بحماسة شديدة، ويوفّر بعض ما يكسبه من دريهمات في اليوم لشراء الكتب من مراكش حين ينزل بها، عند أخيه الأكبر، في العطل الفصلية. وحين ذهب الاثنان للدراسة في الجامعة؛ أولهما إلى كلية الطب في الدار البيضاء، والثاني إلى كلية الحقوق في مراكش، ظلّا يزوران البلدةَ والأهل في العُطل، ويزورانه، طيلة سنتين من إقامتهما الجامعية. ثم لم يلبثا أن توقفا عن زيارته من دون أن يتوقفا عن زيارة الأهل، إلى أن علم، من طريق عبد العزيز، أنهما انضمَّا إلى حزب الأعيان ذاك!

أحْبَطَه سقوطهما إحباطا شديداً، ولم يعرف إلى أيّ سببٍ يعزوه: إلى الفقر، أم إلى القيم الجديدة الزاحفة على النفوس قضماً، أم إلى قوَّةٍ ما في أساليب الدعاية لدى أحزاب السلطة والمال. لكنه لم يوفّر نفسَه من الحساب العسير؛ فقد رأى نفسَه

مسؤولاً، بمعنًى ما، عمّا آل إليه تلميذاه القديمان؛ فلو كان أفعل أثراً فيهما، ما أخذتْهما أقدامُهُما إلى المجهول.

غير أن مآل مهدي أحزنه أكثر؛ فهو لم يسقط في حبائل أحزاب الأعيان كسابقيْه، بل سقط في الرذيلة: تعاطي المخدرات، والاتجار فيها! أيّ سقوطٍ يمكن أن يشبه هذا السقوط؟ وممّن؟ من شابٍّ أنفق فيه أخوه كل ما يملك من أجل أن يصير رجلاً مسلّحاً بأدوات عصره! أي مصير بائس اختار لنفسه؟ ليته اختار مصيراً ذاتيّاً فحسب، المشكلة في أنه غرَّم أهلَه، وأخاه خاصةً، بهذا المصير السيئ الذي أضحى مصيرهم جميعاً! وما ذنب تلك الأمّ التي تبكي ابنَها الذي هاجر ـ كما صدّقتْ ـ من دون أن يراها؟ وهل تكفيها رسائله الوهمية، التي يقرأها لها عبد الرحمن، لإشباع غليل الأمومة تجاه فلذة كبد اختفى، عن ناظريها، فجأة من دون إعلام؟ شعر بالخجل لأنه كان، يوماً، أستاذه. ويشعر بالخجل، أكثر، حين يزوره، كتاجر مخدرات، في سجنه! لولا مكانة عبد الرحمن في نفسه، وشعوره بواجب مواساته وإسناده في محنته، لما اضطرّ إلى الاطمئنان على مجرم. نعم، مجرم: أَلَم ينشر وباء المخدرات في مئات الشباب ممن كان يبيعهم بضاعته؟ هكذا يقول في نفسه كي يبرّر وصفه بالمجرم. لو كان مجرَّدَ متعاطٍ لِمَا ابتلاه رفاقُ السوء به، لَتَعَاطَفَ معه، وقدَّم له ما يملك من مساعدة كي يتحرّر من بلواه. سيفسّر الأمر بأنه تعاطفٌ مشروع مع ضحيةٍ ليس الانحراف من قيم بيته الذي نشأ فيه. لكن مهدي ليس ضحية، بل مجرم يتعيَّش من بلاءٍ أصاب به ضحاياه.

كان يعرف، منذ عامين ونصف، أنه يتعاطى المخدرات. أخبره بذلك عبد الصمد: تلميذه السابق وزميل مهدي في المدرسة. ولم يجد في نفسه الشجاعة في إخبار عبد الرحمن، خشية أن يسبّب له

كآبةً جديدة يضيفها إلى ما في نفسه من كآبة. فضّل أن يُلمِّح له بأن أمور أخيه الدراسية لا تسير على ما يرام في الجامعة. لعلّه ظن أن ذلك يكفي ليرفع انتباهه إلى شؤون أخيه، أو هو تقصَّد التخفيف لئلّا يدفع عبد الرحمن إلى إبداء الشدّة على مهدي، فينتهي به الأمر إلى الإيقاع بين الأخويْن. يسأل نفسه، اليوم، إن كان أخطأ بعدم إبلاغه بأمر ابتلاء مهدي بالمخدرات، إلى أن كبرت المسألة على السيطرة، ووقع المحذور. لكنه يستدرك قائلاً إنّ عِلْم عبد الرحمن بالأمر، في حينه، ما كان ليغيّر شيئاً من أمر الأخ الأصغر؛ فقد فات أوان تربيته، وكان الأخير قد أوغل في عاداته القبيحة. وحين وقعتِ الواقعة، وبعد أن بدأ عبد الرحمن يتعافى من الصّدمة، اضطُرّ لإخباره بأنه كان يعلم بإدمان مهدي على المخدّرات، وأنه لم يستطع إبلاغه ذلك لئلّا يزيد من أعبائه النفسية، من جهة، ولأنه لم يكن متأكداً من أن الضغط على مهدي سيصرفه عمّا هو غارق فيه، من جهة أخرى. وقد لاحظ أن عبد الرحمن لم يعاتبه على إخفاء الأمر عنه، واكتفى بأن قال له: «ليتك، حينها، قمتَ مقامي فنصحته بالكفّ عن تعاطيها. كنتَ ستؤثر فيه أكثر مني».قذف كلام عبد الرحمن السؤال في نفسه عن سبب إحجامه عن الحديث مع مهدي في هذا الأمر: هل فَاتَه ذلك؟ لا، لم يَفُته؛ فقد خامرته فكرة مواجهته بحقيقة أمره. لكنه صرف الفكرة عن ذهنه فوراً، مكتفياً بإبداء شعور الاحتقار والرثاء تجاهه.

سيكون عليه غداً أن يزوره مع أخيه؛ هكذا وعد عبد الرحمن حين التقاهُ في المقهى قبل يومين. هي رابعُ زيارة يقوم بها من دون رغبةٍ عدا الرغبة في مواساة عبد الرحمن؛ وهذه، عنده، يهون معها دوْسُ تحفظاته.

*

في طريقهما إلى بن جرير في القطار، آيِبَيْن من زيارة مهدي، اشتكى عبد الرحمن من تزايد مطالب أخيه، وإلحاحه على تلبيتها سريعاً. لم يكن قد تابع، أثناء الزيارة، شطراً من الحديث بين الأخويْن. تقصّد أن يتراجع خلفاً فيتركهما يتحدثان بحرية، والأرجح أن عبد الرحمن يشتكي مما سمعه من أخيه حين كانا يتحدثان منفردَيْن.

«ماذا يريد منك أكثر ممّا تفعله؛ تأتيه بالطعام والملابس، وتَنْقُدُهُ كلّ أسبوع مبلغاً، ناهيك باقتناء السجائر له؟».

«يريد المزيد؛ يقول إن مبلغ المائة درهم كل أسبوع لا يكفيه، فهو لا يتناول، كما قال، طعام السجن، وإنما يُؤْتَى له به من خارج بواسطة الحراس، ولذلك هو يحتاج إلى ثلاثمائة درهم في الأسبوع. من أين لي أن أوفّر له ألفاً ومائتي درهم كل شهر، ناهيك بسجائره وما أقتني له من حاجات في كل زيارة؟!».

«وهل ستستجيب له؟».

«لا أدري، والله، ما أفعل؛ إنني لا أستطيع تلبيتها. ولكنني لا أملك، أيضاً، أن أتركه تحت ضغط الحاجة، فهو أخي في النهاية، وهو في وضعٍ صعب كسجين».

«وما العمل؟».

«سيكون عليّ ـ كما يبدو ـ أن أقتطع المبلغ من مصروفي، وأقتصد في الإنفاق أكثر».

«وماذا بقي لك من «بحبوحة» حتى تقتصد؟».

صمت عبد الرحمن قليلاً ثم قال:

«سأطلب من السّي مصطفى سلفةً من مبلغ الإيجار السنوي».

«ولِمَ كل هذا؟ ألم يكن أحرى بك أن تَصْرِفه عن فكرة الامتناع عن تناول وجبات مطعم السجن؟».

«حاولت، لكنه أصرّ على أنه يفضل أن يظل جائعاً على أن يتناولها».

«وهل تتناول أنت أفضل منها؟ نعم، هي سيئة، وأنا جرَّبْتُها بنفسي حين كنت نزيل السجن نفسه، ولكن علب السردين وشرائح الكاشير، التي سيُؤتى له بها من خارج، ليست أفضل منها».

«ليتك سمعتَ ما دار بيننا وتدخلتَ في الموضوع كي تقنعه».

«وهل تعتقد أنه كان سيفتح معك الموضوع وأنا حاضر؟».

توقف السّي محمد لحظةً وكأنه تذكّر شيئاً نسيَه. لاحظ عبد الرحمن ذلك على صفحة وجهه، وعينيه، وانتظر أن يعرف ما الذي يفكر فيه. بعد هنيهة قال:

«مَن يضمن لك أنه لا يريد بهذه النقود، التي يطلب، سوى شراء المخدرات؟».

«مخدرات؟! في السجن؟».

«نعم، في السجن، هل تحسب السجن معصوماً من الرذائل؟ السجن، يا صديقي، سوق كبير فيه كل السلع التي تخطر على بالك والتي لا تخْطر. وهو أكبر مكان لتعاطي المخدرات. كنتُ فيه وأعلم، جيداً، تفاصيل ما يجري في أجنحته كافة. هل تعلم أن الزنازن تؤجَّر أيضاً لمن يستطيع أن يدفع؟».

«ماذا تقول!».

«نعم، إذا كنت ترغب في أن لا تنام في غرفة جماعية حصتك

منها لا تزيد عن مساحة جسدك الممدَّد، فليس عليك سوى أن تستأجر مساحةً أوسع في زنزانات أخرى يملك السيطرة عليها دهاقين أقوياء بالتفاهم مع حراس يأخذون، هم أيضاً، حصصهم و«حقوقهم» من الإيجار».

«ومن يأتي بالمخدرات إلى السجن؟».

«كثيرون؛ من الزوار حتى الحرّاس».

«لا أصدّق أن مهدي يمكن أن يفعل ذلك بعد الذي تعرض له».

«ولماذا لا تصدّق؟ أخوك في سجن لا في مصحّةٍ للمعالجة من الإدمان».

شعر في لحظةٍ من الحديث أنه ضغط بكلامه، ضغطاً شديداً، على معنويات عبد الرحمن، فجرّب التهوين عليه بالقول إنه يبالغ في التجاوب مع طلبات مهدي وكأنه طفل صغير، وإن عليه أن يتجاهلها الآن ويستمر في أداء واجبه معه بإمكانياته المحدودة من دون أن يضيِّق عليه وعلى أهله. وحين أعاد عبد الرحمن التعبير عن خشيته من أن يمتنع مهدي عن تناول طعام السجن فعلاً، أجابه:

«لا أعتقد أنك فقدت البصر حتى أنك لم تلحظ بدانة أخيك المفرطة، حيث زاد وزنُه عما كان بأكثر من عشرة كيلوغرامات. ولا أعتقد أن شخصاً يَعَافُ طعام السجن ولا يتناوله يفيض جسمُه إلى هذا الحدّ. تأكد من أن أخاك لن ينفّذ تهديده بمقاطعة طعام السجن، ولن يُؤْثِّر الجوعَ عليه كما ادَّعى، وسيُقْبل عليه، بنهم، مثل سائر السجناء».

«لكني سأشعر بالذنب إنْ لَمْ أُرْضِ طلباته. أعرف نفسي جيداً؛ فأنا ما عدتُ أستطيع أن أتناول طعاماً جيّداً وهو هناك قابع في

سجنه يعاني من سوء التغذية، وضميري يؤنّبني كلما اشتهت نفسي طعاماً وتذكرت أن مهدي لا يملك أن يتناول مثله».

«وهل كان يتناول في الحي الجامعي، بعيداً عنك، أفخر الطعام؟ إنك تُفْسِد طباع أخيك بهذا الدلال الزائد، يكفيك ما تَحْمله إليه، كل أسبوع، من طعام وفواكه تكفيه لأيام. ثم دعني أقول لك إنّك بامتناعك عن استجابة طلبه، ستكون قد طمأنْتَ نفسَك إلى أنه لن يستعمل النقود لشراء المخدرات».

«لكن هذا مستحيل، لن يفعل. نعم؛ أنا متأكد».

«أنتَ لستَ متأكداً من شيء يا عزيزي. اسمع نصيحتي: مشكلة أخيك ليست في أنه في السجن، وإنما في أنه مدمن. لقد رأيتُ علامات الإدمان في عينيه وحركاته وكلامه. إذا رغبتَ في أن تساعدَهُ في التخلّص من المخدرات، فلا تمنحه وسائل الحصول عليها، بل أنا أدعوك إلى أن تكُفَّ عن نَفْحِهِ بالمائة درهم كل أسبوع، وإلّا فأنت تشجّعه ـ حتى من دون أن تقصد أو ترغب ـ على الاستمرار مدمناً».

أنزل عليه أثقالَ كلامه القاسي، متقصّداً ذلك هذه المرة؛ فليس من طريقةٍ أخرى، لإعادة عبد الرحمن إلى رشده، أنسب من وضعه عارياً أمام الحقيقة: حقيقة أن أخاه ما زال يتناول المخدرات، ولم يَبْرأ من إدمانها بعد، وحقيقة أنه سيساعده في الذهاب في إدمانه بما قد يقدّمه له من مال. لم يستغرب كيف أن عبد الرحمن فاته أن مهدي لا يزال مدمناً، وإنما استغرب سَهْوه، هو نفسُه، عن هذه الحقيقة. كأنه اكتشفها، فجأةً، أثناء الحديث معه وهما يعودان من السجن. كان ينبغي أن يعرف أن مهدي ليس في مصحة للعلاج وإنما في سجن مثلما قال لعبد الرحمن قبل قليل، وكان عليه أن ينبّهه إلى

ذلك منذ أُخِذَ أخوه إلى السجن؛ لأنه يعرف السجون وما يجري فيها، وخصوصاً في أجنحة نزلاء قضايا «الحق العام». هل حقاً لاحظ على وجه مهدي علامات الإدمان؟ قال ذلك لعبد الرحمن عفواً، وسعياً منه في حَمْله على تصديق أن أخاه مدمن. لكنه، الآن، على يقينٍ شديد من أن نظرة السهوم، التي تنضح بها عينا مهدي، لم تكن بسبب شعوره بالحزن والإحباط نتيجة ما آل إليه أمْرُه، كما فسَّر ـ هو ـ الأمر، ولا بسبب خَصَاصٍ في النوم لديه، وإنما بسبب تعاطيه المخدرات. يتذكر الآن، الآن فقط، أنه رأى مثل هذه النظرات الساهمة في عيون مدمنين التقاهم في السجن حين كان يقبع فيه قبل سنوات. وتذكَّر، بأسًى ممزوج بالاستنكار، كيف كانوا يعانون ويَألَمُون حين لا يجدون شرائح الحشيش، التي يخلطونها بالتبغ، ليدخنوها، ولا العقاقير، الشديدة المفعول، التي يتناولونها فتُخْرِجهم عن أطوارهم، وتنقل سلوكهم من الذّلّة والمسكنة إلى الجسارة والتطاول.

حين افترقا في محطة القطار، وأخذ كلٌّ وجهته. سرى بعضُ الندم، في نفس السّي محمد، ممّا أحدثه من ألمٍ لهذا الفلاّح الطيب. قرَّر أن يزوره في مساء الغد لمواساته، وتطييب خاطره. لكنه عزَّى نفسه بأنه أدّى واجب النصيحة له لئلاّ يظل مغفَّلاً، ومخدوعاً من ولدٍ غرّ لم يُرِدْ أن يكبر ليُناسب عقلُه سِنَّه. وقد يقترح على عبد العزيز، بعد أن يلتقيه مساء، أن يزوراه سويّاً في الضيعة.

*

مرّت ساعتان من حديثٍ بَدَا له شبهَ عبثي في موضوع التعديلات على الدستور. كلام عبد العزيز تبريريّ ويفتقر إلى التماسك، وليس في جعبته حجج تُقنع.وتلك لم تكن عادته حين

يتحدث في أمْرٍ سياسي يُقْنِعُه فيه، دائماً، بتماسُك تفكيره وقوة حجّته، وينتزع منه الاحترام وإن خالَفه الرأي. الأدعى إلى الاستغراب أن انقلاباً ملحوظاً لاحظه في موقفه السياسي إجمالاً؛ فمن المعارضة الحازمة للنظام، وقد بلغت، أحياناً، حدود التطرُّف، إلى تلميع صورة الإصلاح السياسي والدستوري «الذي انخرط فيه بصدق»، مثلما قال، بَدَا له هذا الشاب، المتخرج من كلية الحقوق، المتابع في الرباط دراساته العليا منذ نيّف وعام، وكأنه يقطع مع عقيدةٍ كاملة ويتهيأ لأمر ليس يَعْلَمُه هو، ولا أفصح عنه صاحبُه! انقبض صدرُه حين تذكّر عبد الله وأحمد، تلميذيه القديميْن اللذيْن انتهى بهما الأمر إلى أحزاب الأعيان. لا، عبد العزيز مختلف، ما زال في كلامه بعضٌ من مفردات المعارضة وموقفها. بل هو استشهد، كثيراً، بمواقفها السياسية مستنداً إليها لقول ما قال. حتى إنه التمس لتردّدها ومهادنتها الأعذار، وآخَذَ منتقديها ـ وهو كان منهم ـ على عدم حسبان الظروف الصعبة التي عملت فيها، والهوامش الضيقة التي كانت متاحة لها في البلد، وفي ظل مراقبة رسمية مشدّدة ما كانت تشجع أحداً على اجتياز الخطوط الحمراء التي رسمتها القوانين وأعراف السياسة.

أشدّ ما يخشاه أن يكون هذا الانتقال المفاجئ متتاليَ الحلَقات نحو مزيد من الابتعاد عن ضفة الماضي، وأن يكون هذا الرسوُّ على ضفة المعارضة رخواً بحيث يَهوي به سريعاً إلى القاع! من الأفضل له أن يُحْسِن الظن بتلميذه القديم، ولو أن هاتفاً في داخله يهتف له بأنه على طريق تائبين آخرين ذاهب؛ إذ من الأخطاء الصغيرة تُولَد الأخطاء الكبيرة! سيكون ذلك، إن حصل، نكسةً جديدة له، بل إدانة لكل ما سعى في زرعه في نفوس أولئك الصبية والمراهقين الذين درّسهم. حين سأل عبد العزيز سببَ

حماسته لتعديلات الدستور، التي لم تستجِب حتى لما طالبت به «الكتلة الديمقراطية»، التي كان الأخير يعارضها، أجابه بأن مطالب الكتلة ليست واقعية، ولا تتحمّلها ظروف البلاد.

«وما الذي تتحمله ظروف البلاد إذاً؟».

«الإصلاحات المتدرجة».

«وهل تريد «الكتلة» تغيير النظام؟».

«لا، ولكن مطالبها، اليوم، متشددة».

«لم يكن هذا رأيك حين قامت «الكتلة»: كنتَ تعتبرها خَلْطة غير موفَّقة بين اليمين ويمين اليسار».

«كنتُ مخطئاً، ومن حقي أن أراجع أخطائي».

«من حقك طبعاً، ولكن ليس من حقك أن تنصف المخزن أكثر من «الكتلة»».

«لولا الإرادة الرسمية بتعديل الدستور، ما كان في وسع «الكتلة» ولا غيرها أن تفرض ذلك».

«آه، يتعلق الأمر بمنحة إذاً».

«ليست منحة، يا السّي محمد، وإنما هي سياسة متفاعلة مع الظروف، ومتجاوبة مع المطالب، ومتنبهة لعواقب تجاهل الأمرين معاً. ولذلك بدت مبادِرة واستباقية».

«أظنك لا تبحث للسلطة عن أعذار في عدم التجاوب مع مطالب الإصلاح، بل أنت تسعى في تلميع سياستها؛ فهي متفاعلة، ومتجاوبة، ولا أعلم غداً ماذا ستكون صورتها عندك».

«أنا لم أعْدُ الحقيقة في ما قلتُ؛ هل تُنكر أن احتمال تعرُّض

البلاد لـ «السكتة القلبية»، قبل عام، كان سبباً في فتح الباب على المصراعين أمام تعديلات الدستور؟ وهل تُنكِر أن كثيراً من مقترحات «الكتلة» أُخِذَ به في تلك التعديلات؟».

«لا أنْكِر، إلّا أنني أعرفك حقّ المعرفة مثلما خُيِّل إليَّ في السابق».

«كن واقعيّاً يا صديقي، فالرفض موقف سهل».

«ربما، ولذلك سأرفض الحديث معك في السياسة».

قالها لينهيَ الجدل. ولكنه ما قصد بها، فعلاً، أن ينتهيَ ما بينهما؛ فما بينهما ليس سهلاً أن ينتهي لمجرّد خلافٍ في الرأي، وإن كان خلافاً في الأساسات. وهو ما وجَد أحداً، في المنطقة كلِّها، يحدّثه في السياسة والشؤون العامّة غيره، منذ غادر زميلُهُ في الثانوية، وأستاذ اللغة الفرنسية جواد، المدرسة والمنطقة ليلتحق بكلية الآداب في الدار البيضاء للتدريس فيها، بعد مناقشته أطروحته الجامعية. كان ذلك قبل تسع سنوات، حين كان عبد العزيز لا يزال في الإعدادية. وجواد، مثله، يساريُّ الهوى؛ لم يَنْتمِ إلى أيّ حزب، لكنه كان قريباً من خطّ تنظيمٍ يساري حديث العهد بالعمل القانوني، في سنوات الثمانينيّات، بعد فترةٍ من العمل السرّي قضاها التنظيم طوال سنوات السبعينيات. وقد اعتُقل جواد في أحداث العام ١٩٨٤، وأفرِج عنه بعد أسبوعين من التحقيق الأمني. ولم يؤثر الاعتقال في معنوياته سلباً، واستمرّ يلتقيه في المقهى، بعد نهاية العمل في المدرسة، ليتجاذبا أطراف الحديث. وكم شعر بالفراغ حين غادره جواد إلى الالتحاق بعمله الجديد، حتى إنه أضرب أيّاماً عن الذهاب إلى المقهى. وها هو لا يكاد أن يصدّق أنه عثر في عبد العزيز على جليسه في أحاديث السياسة ـ ولو أنهما قليلاً ما يلتقيان ـ حتى بدأت

وساوسُه تنخر رأسه، وشكوكُه في أن «ينحرف»، فكريّاً وسياسياً، تزداد. ما بالُ هذه المنطقة المنحوسة تضُجّ بالمفاجآت السيئة: تلامذتُه النجباء يتساقطون ما إن يكبروا ويغادروا الأهل، وعزلتُه تزداد مع الشعور بالفراغ، وقيمُ أهلها تتغيّر، سريعاً، فتتحوّل من الطيبوبة الفطرية إلى التحفظ، ومن الثقة إلى التوجّس، ومن إحسان الظن بالغير إلى إساءته؟ وما بال النشء الجديد متراخ في الدراسة، لاهٍ عنها، غير مبال، والمعلّمين والأساتذة يَبْدُون ضعيفي التكوين، وقليلي الهمّة والحماسة؟ ثمة خطأ ما، في مكان ما، من هذه المنطقة، بل من البلاد جميعها؛ أليس كثيراً ممّا يصيب الرحامنة إنما هو من خارجها لا من داخلها؟ من القيم الجديدة التي تأتيها من المدن؛ من المعلمين والأساتذة والموظفين الذين يشدون إليها الرِّحال، من أماكن بعيدة، ويحِلّون فيها. حتى الذين تتغير طباعهم من أبنائها، يحصل لهم ذلك، في الغالب، حين يستقرون في غيرها من الأماكن؛ في الدار البيضاء أو الرباط أو مراكش، أو خارج المغرب. هو نفسه اقتحم هذه المنطقة بقيم جديدة ليست مألوفة فيها، مثلما اقتحم بها قلعة السراغنة قبل ذلك. وهو تشرَّب القيم تلك من مدن كبرى؛ من الرباط خاصةً حيث دَرَسَ في جامعتها. ولكن، شتّان ما بين قيمه الجديدة، التي تشبّع بها وأدخلها إلى السراغنة والرحامنة، والقيم الجديدة التي يتشبع بها أبناء اليوم؛ يقول في نفسه.

يبدو أنه لم يَبْقَ له من جليسٍ أو رفيق، في هذه المنطقة، سوى عبد الرحمن. لن يحدّثه في السياسة، وهو لن يستفيد منه فيها، لكنه ـ قطعاً ـ سيغتني بطيبته ودفقه الإنساني الذي لا ينضب.

IX

عاد عبد الرحيم إلى المغرب، فجأةً، من دون إشعار أخيه بأمر مجيئه. قَصَدَ الضيعةَ، قبل البيت، في وقت الظهر حيث عبد الرحمن يتهيّأ للذهاب لإحضار الطعام لعمّال رش المبيدات؛ وقد أرسلهم إليه مستأجرُ الضيعة، بطلبٍ منه، بعد أن لاحظ إتلاف الحشرات لبعض الخضروات. سُرَّ لزيارة أخيه المفاجئة. وسُرَّ أكثر لرؤية ابنته يارا لأول مرّة. بَسْمَل كثيراً وهو يتأمل وجهها الصّبوح الجميل. لا شيء فيها يشبه والدها غير العينين؛ لعلها إلى ملامح أمها أقرب. «هذا عمُّك عبد الرحمن»؛ قالها عبد الرحيم بالعربية، مردفاً: «وستريْن، بعد قليل جدتك وخالاتك. وعليك أن تنسيْ الفرنسية هنا». ابتسمت وتطلعت في عينيْ عمّها كأنها تنتظر منه أن يقول شيئاً، فهزّ الأخير رأسه باسماً وكأنه يثنّي على ما قال والدُها. وسألها هل تعرف العربية، فهزّت رأسها بالإيجاب. ثم انحنى فحملها على كتفه وبدأ يجول بها في أنحاء الضيعة، فيما مدّ عبد الرحيم سجّادته ليصلي.

خطف منه التوجُّس بعضَ سروره الذي شعر به وهو يرى أخاه وابنَتَه. لا شك أن أمراً غير عادي دعاه إلى هذا المجئ المفاجئ، وإلّا كان، في الأحوال الطبيعية، أعْلَمَهُ به مثلما كان يفعل في

الماضي. حاول أن يطرد من رأسه وساوس السؤال، ووجد ما يبرّر له ذلك: لو كان في الأمر طارئٌ ما، غيرُ عاديّ، ما كان أتى بابنته معه. سيعرف من أخيه، بعد قليل، عن أمر زيارته. سيسأله سبَبَها إمّا مباشرةً، أو مواربةً. ولن يجد صعوبة في اكتشاف الحقيقة. يعرف عبد الرحيم كما يعرف نفسَه؛ يعرف متى يُكِنّ ويُضمِر ومتى يُفْصِح ويعبّر. ويعرف كيف يستدرجه للبَوْح بالمخبوء إنْ أبَى الإفصاح. يكفيه، مثلاً، أن يعرف إن كانت زيارتُه للبلد تصادف إجازته السنوية أم لا، حتى يقدّر إن كانت الزيارة عادية أم أن وراءها ما وراءها. لن يستطيع سؤالَهُ عن الفترة التي سيقضي معهم في البلاد، لأن السؤال عنها يُضْمِر معنًى غيرَ طيب، ولكنه يستطيع أن يعرف مقدارها إن هو حدّثه، مثلاً، عمّا عليهما أن يقولاه لمهدي في الزيارات الأسبوعية القادمة؛ فإن كان عبد الرحيم سيبقى شهراً، أو قريباً من شهر، فليس من غبارٍ على أنّ زيارته عادية. كما يمكنه أن يعرف منه الأمر بسؤاله عن سبب عدم مجيء زوجته معه. في كل حال، سيأخذ علماً بأمر زيارته بعد قليل، فلا داعي للعجلة.

يشعر بمشاعر أبوّة مباغتة، وهو يحمل يارا على ذراعه، هي عينُها المشاعر التي كان يختلج بها صدرُه، قبل عشرين عاماً، وهو يحمل مهدي في البيت، رضيعاً، أو يأخذه إلى المدرسة على كتفه بعد أن صار طفلاً. حُرِم من هذه المشاعر منذ صار الزواج مستحيلاً؛ مُذ نُكِب في حليمة، التي أحبَّها وأرادها شريكة، إلى أن بلغ الأربعين ويَأْسَ الأربعين. قبَّل خدّ الصغيرة كثيراً وهو يُريها الأشجار والدجاج والأرانب، ويلمح الْتماعةَ الفرح في عينيْها من رؤية ما تراه. أنزلها بالقرب من حوض البطيخ، ثم انتقى منه حبّةً ناضجة وسحب سكيناً مطوية من جيبه ليقطعها من جذورها. ولم

ينس أن يأخذ بعض البَيْض للصغيرة كي يسلقوه لها في البيت. عاد إلى حملها على ذراعه، بعد أن لاحظ خوفها من الدجاج، وتمسّكها برجله، آيباً بها إلى والدها الذي كان قد أنهى صلاته واقتعد الأرض.

تغيَّر شيءٌ ما في عبد الرحيم، على ما لاحظ أخوه؛ اللحية الكثة المنسدلة ليست وحدها من أمائر التغيُّر فيه. نظرةُ عينيه، أيضاً، تغيّرت عمّا كانته. بدت له أكثر هدوءاً مما كانت، وإنْ لم يُزايلها التحفز الذي وسمها. كيف حصل ذلك كلُّه في عام وبضعة أشهر؟ حين صعدوا، ثلاثتُهم، السيارة قاصدين البيت، سأله عن سبب عدم المجيء بزوجته معه، فأجابه أنها تعمل، ولم تحصل على إجازة مثله. شعر أنه لا يرغب في الحديث، حين فتح آلة التسجيل في السيارة على صوتِ مُقرئٍ، فأمسك عن الكلام. وقبل أن يترجلوا، التفت عبد الرحمن إلى أخيه قائلاً:

«أفْهمتُ الوالدة والأخوات أن مهدي سافر إلى إيطاليا كي يعمل هناك. هذا أفضل من أن ينزل عليها خبر سجنه كالصاعقة. وأفهمتُهنّ أنكما تتزاوران، من حين إلى آخر، لقرب المسافة بينكما. أرجو أن لا تنسى هذا وأنت تتحدث».

«ما كان ينبغي أن تكذب عليهن؛ كان عليك مصارحتهنّ بالحقيقة».

بهت عبد الرحمن وحدّق في أخيه ليتأكد من أنه لا يمزح. لا شيء في ملامحه يدل على المزاح. تجاهل الأخير نظراته وأردف:

«كان على الوالدة أن تعلم أن ابنها انغمس في الرذيلة. ربما كانت دعواتُها بالهداية له أنفع من دعواتها بالسلامة والفَلاح في العمل».

«هل تدرك ما تقول يا عبد الرحيم؟ هل ترغب في أن ترى أمَّك مُقعَدة كي يرتاح ضميرُك؟».

«لن يقع لها إلّا ما قدَّرهُ الله».

«لم يكن هذا رأيك، قبل عام ونصف، حين كان معتَقَلاً لدى البوليس، واتفقنا على أن تخبر أمّك أنك لم تُفْلح في ثنيه عن مقاطعتي، وأنك وعدْتَه بأن تبحث له عن عملٍ خارج المغرب».

«ندمت على التورط معك في الكذب، واستغفرتُ ربّي من كل ذنبٍ عظيم».

«لم أكذب ولم أقترف ذنباً لأستغفر؛ هذه أمُّنا التي نخشى عليها عواقب العلم بالأمر. إن كنتَ لا تخشى على صحتها وحياتها، فهذا أمر آخر».

قال ذلك في غضب لم يستطع إخفاءَهُ. وحين همَّ عبد الرحيم بالتحرك ناحية البيت، أمسك أخوه بذراعه بشدّة قائلاً:

«أناشدك الله أن لا تقول شيئاً للوالدة، أو لصفيّة، عن أمر مهدي».

سحب ذراعه من يده، وبعد تردّدٍ قال:

«اطمئن؛ لن أقول شيئاً».

*

أحيطت الطفلة برعاية جدّتها، وعمّتها صفيّة، وحنانهما على نحوٍ لم تفعلاه مع أحفادٍ وحفيداتٍ غيرها. لم يكن عبد الرحمن أقلّ منهما اهتماماً وعنايةً بابنة أخيه؛ كان يلاعبها في البيت، ويأخذها خارجاً ليُركبها على الدواب، ويشجعها على التخلص من

الخوف من الدواجن، بدفعها إلى إلقاء حبات القمح، وهو يحملها على ذراعه، إلى الدجاج الذي يتزاحم على التقاطها. وقد أخذها معه إلى الضيعة مرتين، وأعادها إلى البيت حين شعر بضجرها. كان شيء ما يولد فيه من جديد وهو يَحْضُنها، ويجري معها في الخلاء، أو حين يسمعها تناديه «عميّ؛ كأنها المرة الأولى التي يحبّ فيها طفلاً. حتى إنه كان يترك الضيعة، في الصباح الباكر، ويذهب إلى البيت ليراها. أما أمّه فعادت إليها ابتسامتُها وإشراقةُ وجهها بعد أن انكمشت على نفسها، في غرفتها، ولاذت بصمتٍ طويل منذ غاب عنها مهدي، و«سافر إلى إيطاليا» من دون أن يراها؛ فلقد أطلقت حفيدتُها دفئاً في البيت افتقده منذ زمن، وكان مجيؤها مع أبيها سبباً في لزوم بنتيْها البيت إلى جانبها، بعد فشل محاولاتهما في إقناع أمهما بأخذ الطفلة معهما ليومٍ واحد فقط. قالت لهما بحزم تسلّحت فيه بتمسُّك صفيّة بيارا: «منْ تريد منكما رؤية البنت، فأهلاً بها وسهلاً في بيت جدّتها، وليس لكما عندي من شيء سوى حسن الترحاب والضيافة».

صَمَتَ الثلاثة، عبد الرحمن وصفيّة والوالدة، عن خاطرٍ مكدِّر رجَوْا، جميعاً، طَرْدَه من رؤوسهم: أن يعود عبد الرحيم من الدار البيضاء، في أية لحظة، ويأخذ الصغيرة ويرحل آيباً إلى فرنسا. فلقد قال لهم إنه جاء ليقضي أياماً معدودات، وهاهي خمسة منها تنصرم، قضى أربعة منها في الدار البيضاء، وقد يعود بعد يومين أو ثلاثة؛ فقد سمعوه يقول ليارا «سأعود بعد أسبوع أو ثمانية أيام. لديَّ ما أقضيه هناك، وعليك أن تكوني طيّعة لما تقوله لك جدَّتُك؛ فهي مثل أمّك لأنها أمّي». أيُّ فراغٍ في البيت وفي النفوس سيخلّفه رحيلُها عنه إلى فرنسا. صفيّة، التي لم تكن تحجب بصرها عن الصغيرة لحظةً، إلّا حينما تكون هي نائمة أو تُعِدّ

الطعام، أو حينما تكون يارا خارج البيت مع عمها، تقول إنها مستعدة لتذهب مع عبد الرحيم إلى فرنسا لتتعهدها بالتربية ما دام والداها يقضيان معظم اليوم في العمل. تنهرها أمها قائلة إنها هي نفسها لا تزال في حاجة إلى التربية. تقول ذلك لأنها كلُّ مَن بقيَ لديها من أبنائها في البيت. حتى عبد الرحمن، الذي عاش معهم، وتمنّتْ أن تراه في بيت الزوجية قبل أن تموت، أصبح يقطن في الضيعة، فلا تراه إلّا سويعات قليلة. لكن الأم مكلومة، كابنتها، من الشعور بالفراغ الذي سيتركه ذهاب حفيدتها. أمّا أكثر أهل الأسرة خوفاً من ذلك الشعور فعبد الرحمن، الذي سكنه حب الصغيرة وملأت عليه فراغه القاتل، وأحيَتْ مَوَاتاً في النفس كاد أن يستقر استقرار الدفين في المدفن. لن يستطيع أن يفعل أكثر من أن يرجُوَ أخاه، حين يعود، بالبقاء لأسبوع آخر، علّ ذلك يشفي غليلاً، ويُشبع جوعاً. ولكن، حتى هذا لن يفيد؛ فسيأخذ ابنتَه، بعد ذلك، ويرحل. ويعلم الله كم من الوقت سيغيب، مرةً أخرى، كي يظهر ثانية.

عاد مساءً إلى البيت للاطمئنان على الأهل، ولرؤيةِ الصغيرة، متوقعاً أن يجد أخاه في اليوم السابع من سفره. كان مسكوناً بمشاعر الحزن لاقتراب موعد انتهاء تلك اللحظة الجميلة التي منحته إياها يارا، حتى إنه تمنى أن يتأخر عبد الرحيم في العودة يوماً آخر أو يومين. فوجئ، حين دخل البيت، ببكاء يارا الحاد إلى حد الصراخ. حملها بين ذراعيْه وسأل عن السبب. أجابت صفية بأن مزاج الصغيرة تغيَّر، منذ بداية المساء، وبدأت تنادي «بَابَا، بابا»، وأنها حاولت تهدئتها بكل الوسائل من دون جدوى. قبّلها عبد الرحمن وقال بذكاء: «تحدثتُ مع بابا في التلفون قبل قليل، وقال لي إنه سيعود غداً، فلماذا تبكين يا صغيرتي؟». هدأت قليلاً حين

سمعت كلام عمّها، لكنها رفضت إنزالها من بين ذراعيه، فما كان منه إلّا أن ظل واقفاً لما يزيد عن نصف الساعة، إلى أن مدّت يديْها إلى صفيّة طالبةً منها أن تحملها. وحين استأذن أمَّه في المغادرة، وانحنى يقبل يارا، صرخت محتجةً على خروجه، ممّا اضطره إلى البقاء في البيت ليلاً بعد زمنٍ طويل.

خرج مبكّراً مع الفجر، متحاشياً أن يُحدث أيّ ضجيج لئلّا يوقظ الصغيرة، وأخذ طريقه إلى الضيعة. تمنى، هذه المرة، أن يصل عبد الرحيم صباحاً حتى يُنقذ يارا من كابوس غيابه عنها. فهو يخشى إنْ هي أفاقت ولم تجد والدها أن تعاود البكاء ثانية. إنه يدرك ثقل الشعور بالحرمان عند الأطفال الصغار. عرفه، هو شخصيّاً، حين كان صغيراً؛ حين كان يعود إلى البيت من الكُتَّاب القرآني فلا يجد أمّه. ولاحظه على صفيّة ومهدي حين كانا صغيريْن. ويكفي يارا أنها تعانيه تجاه أمها، التي غابت عنها منذ أسبوع أو يزيد. لو عرف، الآن، أين يوجد عبد الرحيم، لذهب إليه بنفسه ولو كلّفه ذلك سفراً إلى الدار البيضاء ذهاباً وإياباً، ولأجْبَرهُ على العودة إلى الرحامنة رأفةً بالصغيرة التي تئن تحت وطأة الشعور بغياب والدها عنها. لو أنه ترك له، فقط، رقم هاتفٍ للاتصال به، لهاتَفَه طالباً منه العودة سريعاً. أين يكون عبد الرحيم الآن؟ وماذا يفعل في البيضاء؟ وأيّ شغل هذا الذي يأخذ منه سبعة أيام حتى الآن؟ هل جاء من أجل زيارة العائلة، مثلما ادّعى، أم من أجل قضاء غرضه الذي لا يعلم عنه شيئاً، ولم يَرْض إخبارَهُ به؟ ولماذا يأتي بابنته معه، إذاً، إن كان مَقْصِدُه قضاء أغراضه؟ ولماذا يستعجل العودة إلى فرنسا إذا كان يقصد فعلاً، زيارة العائلة؟ ثم ما ذنب يارا ليعرّضها لكلّ هذا الخوف؟

ظل القلق يساوره وهو يشتغل طوال الصباح، حتى إنه كان

يهبّ إلى الاستطلاع كلما سمع هدير مركبة تمر قرب الضيعة، عساها أن تكون سيارة عبد الرحيم. لم يعد يستطيع، عند العصر، أن يبقى في الضيعة أكثر؛ فستكون يارا ـ قطعاً ـ في غاية السوء من غياب أبيها. حَمَل نفسَه ومضى، بعد أن أحكم إقفال بوابة الضيعة. وما إن دخل البيت حتى فوجئ بعدم وجود يارا فيه. خال والدَها أتى وأخذها، وقبل أن يسأل صفيّة، وهو في حالٍ من الدهشة والذهول، سارعت تقول له: «يارا تلعب مع كريم ولبنى، ابنيْ بديعة، في ضيعة والدها». شرحت له أنها كانت تعتزم حَمْلَ الصغيرة إليه، بعد أن بدأت صباحها بالنداء: «فين بابا؟ فين عمُّو؟». وبينما هي تغادر البيت، توقفت سيارة بديعة وزوجها ومعهما الصغيران. «وحين عرفت بديعة أنني أحمل بنتَ عبد الرحيم، أصرَّت على أن تأخذها مع ابنيْها إلى الضيعة، وأن أكون معها. أعطتْها شوكولاته ولُعَباً، ثم انسجمت مع الطفلين، وبدأ الصغار الثلاثة يتحدثون بالفرنسية، ويلعبون حتى كادت يارا أن تنساني وتتجاهل وجودي».

سُرَّ عبد الرحمن للأخبار؛ لقد وجدت يارا، أخيراً، من تلعب معهم من أقرانها الصغار، فتنسى قليلاً غياب والدها عنها. لكن بديعة ستعود مساء بعد غد، يوم الأحد، إلى مراكش، كما تقول صفية، فكيف ستكون حال يارا عندما تجد نفسَها وحيدةً، مرَّة أخرى، ونهباً للانتظار والشعور بالغياب؟ انقبض للخاطرة التي داهمته. هل يعقل أن يظل عبد الرحيم غائباً إلى مساء الأحد؟ مساء بعد الغد هو اليوم العاشر لسفره؟ أيّ أبٍ هذا الذي يترك بنته بعيدة عنه كل هذه المدة؟! نعم، تركها في أيدٍ أمينة؛ عند جدّتها وعمّها وخالاتها. ولكن، ألم يَشْتَق إليها هو كل هذه الأيام؟ كيف لا يطمئن عليها حتى بالهاتف. لقد ذهب إلى بن جرير، صباح أول

أمس، وطلب من صاحب المقهى، الذي يهاتفه عبد الرحيم عن طريقه، أن يخبره إنِ اتصل به أو سأل عنه، ووعده الأخير، لكن شيئا من الاتصال لم يقع! ما الذي كان سيخسره عبد الرحيم من مهاتفته، وطلبه استقدام بنته معه لسماع صوتها؟ آباءُ اليوم لم يعودوا آباء، لماذا يُنجبون إذاً؟!

تذكّر، أيضاً، أن الواجب الأبويّ والزوجي يقتضي عبد الرحيم أن يُسْمِع زوجَه صوتَ ابنتهما في الهاتف، وأن تتحدث الأم لابنتها لتطمئن عليها أكثر، وهذا ما لم يفعله منذ جاء قبل عشرة أيام! هل يكون حَادَثَهَا بالهاتف من الدار البيضاء؟ كيف يفعل وابنتهما ليست معه؟ وكيف يسأل عن أحوال زوجته ولا يسأل عن أحوال ابنته؟ إنه لأمرٌ محيّر.

استأذن للدخول إلى ضيعة الدفالي للسلام على الدكتورة بديعة، ولو بمبرّر الاطمئنان على الصغيرة. اقْتَبَلَتْهُ بديعة وأمُّها بترحاب كبير، وعاتَبَتْهُ الأخيرة على عدم زيارتها وزوجِها. لم يجد ما يدافع به عن نفسه سوى أنه يُحجم عن أداء هذا الواجب خشية الإزعاج، مؤكداً لها أن أفضال العائلة عليه ديْنٌ على عاتقه إلى يوم القيامة. حين نادت الدكتورة على الأولاد وقَدِمُوا، تطلعت يارا في عمّها في ما يشبه الشعور بالمفاجأة، ثم لم تلبث أن نسيته وعادت إلى الاندماج في جوّ اللعب وكأنَّ مقْدَمه لا يعنيها. استغلت بديعة ذلك لتطلب منه أن يترك يارا تقضي الليلةَ مع طفليها، لأن الثلاثة في غاية الانسجام، مثلما قالت، وكأنهم يعرفون بعضهم منذ زمن، وأضافت إن ذلك يذكّرها بما كان من انسجام بينها وأخيها وبينه هو. خفض رأسه خجلاً وقد غمرت ابتسامة الرضا وجهه. ما زالت بديعة تتذكر تلك الأيام الجميلة الدافئة، تلك المودة البريئة التي كانت تكسر الحواجز بين ابنة الملّاك الكبير وابن

الفلّاح الفقير. لو لم تكن أصيلة لنسيَت سريعاً ذلك الماضي مثلما يفعل كل من يرغبون في نسيان ماضٍ أقلّ شأناً من حاضرهم، أو من المقام الذين يفترضون أنه مقامُهُم الخليقُ بهم. من يكون هو حتى تهتمّ به اليوم، وتجالسه في صالون البيت، وتذكّرُه بِعِشْرة الطفولة والصّبا؟ إنْ هو إلّا فلّاح فاشل أجَّر أرضه واشتغل فيها، ولم يُحَصِّل من التعليم إلّا ما يسمح له بجمع الحسابات وكتابة اسمه! أما هي فطبيبة ناجحة، تعلّمت في المدارس والجامعات، واقترنت بواحدٍ من أثرياء البلد. أصيلةٌ وكبيرةُ النفس هي كي تنزل من عليائها الاجتماعية لتجالسه وتجاذبه حديث الذكريات. هكذا بدت له وهي تتحدث، وفي عينيْها بريقُ صدقٍ لا يُخطئه مُبْصِر. ترى؛ هل أحبَّته يوماً مثلما أحبَّها؟ ضحك داخلُه للسؤال، فاستكثره على نفسه. وبينما خواطره تتداعى، وَقَع عليه سؤالٌ من أمّها موقعَ استغراب:

«أليس مفروضاً، يا عبد الرحمن، أن تكون ابنة أخيك على دين والدها؟».

انزعجت بديعة لسؤال أمّها، وحاولت مداراة ما فيه من فضول بالقول إن هذا من الأمور الخاصة التي لا يَحْسُن بأحدٍ التدخّل فيها. صمتتِ الأم، فيما جَلَتِ البغتة عن عبد الرحمن فقال مجيباً بتلقائية:

«هي كذلك، يا لَلّا الحاجَّة؛ على دين أبيها وأمّها: مسلمة».

اتسعت عيناها عجباً وصمتت. أما هو فاستأذن في المغادرة معتذراً عن عدم قدرته على تلبية إلحاح سيّدة البيت والضيعة على البقاء للعشاء، مبرّراً اعتذاره بحاجته إلى المبيت في المزرعة لحراستها. رغب في أن يتأكد من أنّ يارا ترغب في البقاء مع

الأولاد، لحراستها، وتبيتَ الليلةَ معهم؛ إذْ كان يخشى أن ينقلب مزاجُها في أي لحظة فتبكي، وتطلب منهم العودة، ممّا قد يسبب لهم في البيت الكبير ارتباكاً هم في غنًى عنه. ناداها فأتت متثاقلةً وكأنها تعلن احتجاجها على إنهائه فصولَ متعتها التي بدأت منذ الصباح. تطلعت إليه بعينين غائمتين بشعور الخيبة الذي زحف على نظرتها. سألها باسماً إن كانت ترغب في قضاء الليل مع لبنى وكريم، أو الذهاب معه إلى البيت. أجابت، على الفور، وعلائم البِشْر تغمر محيّاها، إنها تبغي البقاء. فردّ بأنه سيسمح لها بذلك شرط أن تَعِدُه بأنها لن تبكي، أو تطلب إعادتها إلى البيت، فوافقت بتحريك رأسها، ولم تنتظر منه مزيد كلام، فانطلقت تعدو فرحة.

أوصلته بديعة إلى باب الضيعة، وهو في حرجٍ شديد من سلوكها الوديع نحوه، وفي الطريق من البيت إلى مدخَل الضيعة، قالت له إن يارا دخلتْ قلبها سريعاً وكأنها خرجتْ من أحشائها، وطَمْأَنَتْه إلى أنها ستعتني بها كثيراً، وأن لا موجب للقلق عليها. فردّ بأنه لا يخشى على الصغيرة لأنها في أكثر الأماكن أماناً، وإنما يخشى عليهم من مزاجها إنْ تذكرت والدها الغائب منذ أيام. توقفت بديعة، وكأنها تذكرت شيئا، وسألتْه:

«ألم يقل والدها متى سيأتي؟».

«قال إنه لن يتأخر أكثر من أسبوع، وهاهو اليوم العاشر ينصرم من دون أن يعود!».

«ألم يترك لك عنواناً أو هاتفاً للاتصال به؟».

«لا، لم يزد عن أن قال إنه ذاهب إلى الدار البيضاء لقضاء أغراض».

«أرجو أن يتذكر ابنته فيعود سريعاً».

قالت ذلك بقدر من اللوم والعتب لم يخْفيا عليه.

حين ودّعها، ذهب توّاً إلى البيت لإخبار أمه وأخته بأن يارا ستقضي الليلة مع طفليْ بديعة، وأن ذلك أفضل لمزاجها حتى تنسى غياب والديها عنها. ثنَّتْ أمّه على ذلك حين علِمتْ أن يارا هي من رغب في البقاء. لكن صفيّة أعلنت أنها لا تستطيع الاطمئنان على يارا إلّا إذا كانت ـ هي ـ بقربها. ابتسم عبد الرحمن ومازحها قائلاً: «توجّهين الدعوة إلى نفسك نيابةً عن أصحاب البيت»، فردّت بخبثٍ أدرك أخوها، على الفور، وجاهته: «ماذا سيقول عبدالرحيم لو عاد الليلة، أو في الصباح الباكر، فوجد أن ابنته في بيتٍ غيرِ بيت أهله؟». أجابها بأن رأيها سديد، وبأن عليها أن تذهب إلى بيت الدفالي للمبيت مع يارا، ولا بأس من أن تبرّر ذلك بأنها تخشى من أن ينقلب مزاج يارا في أية لحظة. وحين قالت له، مرحّبة بالفكرة، إن المشكلة هي من يقضي الليلة مع الوالدة، تفكَّر قليلاً ثم أجاب: «سأذهب الآن إلى الضيعة وأطلق الكلاب هناك، ثم أعود للمبيت مع أمي على أن تعودي إلى البيت في الصباح الباكر».

*

لم تُخف بديعة شعور خيبتها من سؤال أمِّها عبد الرحمن عما إذا كانت يارا على دين أبيها، فقد أبْدَت ندمَها لإخبارها بأنها سمعت يارا تتحدث لابنيْها عن حياتها في البيت والمدرسة، وكيف أن جدّتها إيديث تأخذها إلى الكنيسة أيام الأحد، حين يكون والدُها في العمل. أخبرتْها باستغراب وفي ظنّها أنها ستكتم الأمر حتى لا يتسرب خارج البيت، وقد يصل إلى والدها. كانت تعرف أن والدها لا يعلم بأمرِ ذلك، لأن الصغيرة قالت لِلُبنى ببراءة إن

جدّتها أوصتْها مراراً بألا تُخبره بأنها تأخذها إلى الكنيسة، وبأن تقول له إنها ترافقها إلى السوق إن سألها. لكنها لا تعرف إن كانت يارا أخبرت جدّتها وعمّها بذلك. وهي، في النهاية، لا يهمّها من الأمر سوى أن لا يتسرب الخبر من بيت عائلتها. لكن أمها أخطأت حين سألت عبد الرحمن وإن كان بَدَا لها أن السؤال لم يستوقفه لحسن الحظ على ما دلّ على ذلك سلوكه حين رافقته إلى مدخل الضيعة مشيِّعةً. هل كان عبد الرحمن نفسه على علمٍ بالأمر من يارا، ولذلك لم يَبْدُ عليه كبيرُ استغرابٍ لسؤال أمها! ربما، ولكن الذي يهمّها أن لا تحشر عائلتها نفسها في أمرٍ لا يعنيها، وأن لا تجد نفسها في وضع محرِجٍ كالذي وضعتها فيه أمها حين سألت عبد الرحمن في الأمر.

حين عادت إلى البيت، عاتبت أمّها برفق على ما فاهت به، فما كان من الأخيرة، وقد اعتذرت عمّا بدر منها، سوى أن قالت: «لم يدفعني إلى السؤال سوى غيرتي على ديني ونقمتي على جدّتها التي تخدع أباها».

«وماذا ستغيرين من المسألة إن سألْتِ عبد الرحمن؟ ما علاقته هو بالموضوع؟».

«عبد الرحمن رجل مؤمن يخشى الله، ولا يرضى أن يكون أخوه مخدوعاً في أهل بيته.ولعلّه ينبهه إلى الأمر كي يتصرّف قبل فوات الأوان»

«ألم تفكري في ما قد يحصل لو أخبر عبد الرحمن أخاه بالأمر؟ ماذا لو فقد عبد الرحمن رشده وتَصَرَّف بتهوّرٍ تجاه حماته أو زوجته».

«ذلك أهون من أن تستغفلاه».

«ومن أدراك أن أمّ يارا تَعْلَم بما تفعله جدّتها، ألم يقُل أهل عبد الرحيم أنها أسلمت حين تزوّجها؟ «

«أشك في أنها أسلمت وإلّا ما جَرُؤت أمُّها على تنصير الصغيرة. ثم هل نسيتِ أن الصبية قالت إن جدّتها أوصتها بعدم إخبار أبيها بأمر الكنيسة لا أمّها؟».

وَقَعَ السؤال في نفس بديعة موقع الاستحسان. فاتَها أن تفكر في الأمر، وتنتبه إلى هذه الجزئية، لو كانت الأم مسلمة حقاً لأوصت الجدةُ حفيدتها بكتم الأمر عن أبويْها. لا بدّ أنها ضالعة في ما تفعله الجدّة. لم ترغب في الإفصاح عما دار في خاطرها لئلّا تزيد من تدخّل أمّها في الموضوع. اكتفت بأن طلبت منها عدم فتحه مجدداً مع أيّ أحد، حتى مع والدها الحاج الدفالي، لأنه موضوع حسّاس جدّاً، ومجْلبة لمشكلات لا حصر لها.

كانت بديعة وأمها تتحدثان في صالون البيت حين دخلتِ الخادم لتخبرها أن صفيّة، بنت الرحماني، تستأذن في الدخول. طلبت منها بديعة إدخالها، والتفتت إلى أمّها فوراً تطلب منها طيّ الموضوع نهائياً، وعدم الإشارة إليه ولو بالتلميح. شرحت صفيّة، خجلةً، رغبتها في أن تبقى قريبةً من يارا لئلّا ينقلب مزاج الصغيرة إذا تذكرت والدها، فتبدأ في البكاء. رحبت بديعة بمبيتها عندهم، في أي وقت تشاء، من دون حاجة إلى مبرّر. لكن أمّها سرعان ما علّقت بالقول إنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الخشية على يارا في بيتها، وبين حفيديْها. وحين رمقتْها بديعة بنظرة عتاب، استطردت قائلة إنها سعيدة بمبيت صفيّة عندها في البيت. أطرقت الأخيرة، في خجلٍ، وشكرتها على لطفها.

أمسى همُّ بديعة أن تبعد صفيّة عن الأطفال حتى لا يتفوّه أحدٌ

منهم أمامها بكلامٍ عن الكنيسة.فكرت في أن تأخذ كريم ولبنى جانباً، فتوصيهما بعدم فتح سيرة الكنيسة في حضور صفيّةِ. لكنها خشيت من أن تنبِّههما إلى ذلك أكثر من أن تنبِّههما عليه؛ فقد يكونان نسيَا الموضوع تماماً. لذلك آثرت، أن تبقى صفية معها طوال الليل وأن لا تختلط بالأطفال، وطلبت منها أن تدع الأطفال يلعبون وحدهم، مضيفةً أن وجودها معهم قد يذكّر يارا بوالدها، كما لم تَنْسَ أن تنبِّهها إلى أنهم، طوال الوقت، لا يتحدثون إلا بالفرنسية.

*

حين خلد عبد الرحمن إلى النوم، داهمه سؤالُ والدةِ بديعة فَطَيَّر التعبَ من بَدنه، والنومَ من جفونه. لماذا سألتْه ذلك السؤال؟ ولماذا احتجت عليها ابنتُها بالقول إن ذلك من الأمور الخاصة التي ينبغي ألا يتدخل أحد فيها؟ هل سمعتَا شيئاً من يارا يُفيد أنها غير مسلمة؟ أم أن ذلك اجتهاد من الحاجّة الدفالي؟ ليس متأكداً من أن عائلته أخبرتها أن زوجة عبد الرحيم أسلمت. سيعرف ذلك غداً من أمّه أو من أخواته، لكنه شبه متأكد من أن السؤال ليس فضوليّاً وإلّا ما انزعجت بديعة منه كل ذلك الانزعاج الذي لم تستطع إخفاءه. لا شك لديه في أن أمها لم تكن تسأل سؤالاً بريئاً، يستدعي من بديعة الاعتذار والارتباك. السؤال البريء يُجاب عنه بتلقائية، لا بعتابٍ وعصبية. ثم إن بديعة لم تقل إن كلام أمّها مغلوط، أو غير ذي موضوع، وإنما حسبته تدخلاً غيرَ لائق في شؤون الآخرين. وليس من معنًى لذلك سوى أنها، هي نفسها، تشك في أن يارا على دين أبيها. سيعرف غداً كل شيء من أمّه وصفيّة، وربما من الصغيرة نفسها. يشعر الآن ببعض الارتياح لأن ردّه على سؤال الحاجّة بَدَا مقنعاً لها، بدليل أنها لم تعد إلى فتح الموضوع.

ولقد كان يسعه أن يشعر بارتياح مضاعف لأن الصغيرة الْتَهَتْ قليلاً عن غياب والدها باللعب مع طِفليْ بديعة، لولا أنه تذكّر أن عودةَ عبد الرحيم، غداً أو بعد غد، في حكم الغيب. تنهَّد عميقاً وهو يتجرَّع هذه الخاطرة السوداء وتَخَيَّل ما ينتظر يارا والعائلة جميعاً، بعد انصرام عطلة نهاية الأسبوع، وعودة بديعة وابنيها إلى مراكش. لن يبقى مكتوف اليديْن غداً إن استمر غياب عبد الرحيم، سيضطر إلى الذهاب بنفسه للبحث عنه، ولكن أين؟ ليس يدري سيسأل السّي محمد غداً عساه أن يظفر منه بجواب، بنصيحة ترشده إلى التصرف السليم.

حين استيقظ في الصباح الباكر، نسي أن يسأل أمّه إن كانت قد أخبرت الحاجّة الدفالي باعتناق زوجة عبد الرحيم الإسلامَ قبل زواجهما، مثلما نسيَ سؤالَ صفيّة عن ذلك حين عادت إلى البيت، وأخبرتهما عن الأجواء السعيدة التي ترفل فيها يارا مع رفيقيْها الصغيرين. كان همّه الأوّل والأخير أن يعود أخوه عبد الرحيم هذا اليوم. وكان ينتظر أن يزور السّي محمد عصراً ليرى رأيه في أمر ذهابه للبحث عنه، حتى أن بعض الاطمئنان عاد إلى نفسه فخال أن أخاه سيصل صباحاً أو ظهراً ولن يكون في حاجة إلى استشارة الأستاذ.

بلغ به اليأس مبلغاً عصر ذلك اليوم حينما لم يصل أخوه مثلما حدّثتْه نفسه. توقّف عن العمل وعافتْه نفسُه على غير عادتها في مثل هذه الأوقات. وبدلاً من أن يأخذ طريقه نحو بن جرير إلى السّي محمد، اتجه صوب البيت بخطًى ثقيلة يحُفّ بها الحُبوط. حتى صباح ذلك اليوم، كان يخاف على الصغيرة من غياب أبيها، من أن تصحوَ فجأةً على غيابه بعد رحيل الطفلين عن عالمها الذي ملآهُ عليها. أما الآن فأمسى يخاف على عبد الرحيم نفسه، لا يُعقَل

أن يغيب كل هذه المدة من دون أن يسأل عن بنته إن لم يكن في وسعه أن يراها! أما كان حريّاً به، وهو الذي يملك سيارة، أن يقطع سفرته ليوم واحد، كي يرى ابنتَه ويطمئنّ عليها ويُطَمئنَها ويعود إلى الدار البيضاء لاستكمال ما هو فيه؟! كان يمكنه أن يأتي صباحاً ويعود مساءً لو شاء. لو شاء؟ «ترى هل هو في الوضع الذي يسمح له، فعلاً،أن يشاء»؟ قال ذلك وهو منقبض الصدر، يُحوْقل، وطريق الأوْبة إلى البيت يبدو له بعيداً كما لم يكن يوماً.

لم يكن يعرف ما الذي عليه أن يفعله في ما تبقّى من يومه المبتور؛ أن يخلد إلى البيت فيتجاذب الحديثَ وأمَّه أم يسأل عن الصغيرة لدى أهل بديعة، أم يستقل دراجته النارية ويبحث عند السّي محمد عمّا يبدّد ضياعه وحيرته. أدار في رأسه الأسئلة فقرَّر بحسم تأجيل الذهاب إلى بن جرير حتى يوم الغد مانحاً انتظاره وصبرَهُ يوماً آخر. أمّا السؤال عن يارا فأمسكه عنه خجلُه من أن يُشْعِر بديعة أنه غير مطمئن، بما يكفي، على الصغيرة. لم تكن صفيّة في البيت حين دخل إليه، وأمّه كانت لا تزال تَغِطّ في قيلولتها. ألقى بجسمه المنهك على حصير الغرفة، التي كان يتقاسمها منذ الصغر مع عبد الرحيم ثم مع مهدي في ما بعد، وبدأ يفكر كيف يخرج من هذه الورطة التي أوقعه فيها أخوه. خيّل إليه أن عبد الرحيم يفتقر إلى حسّ المسؤولية: يَعِد ولا يفي بوعوده. هكذا فَعَل معه، مراراً، منذ سافر إلى فرنسا قبل سنوات، وخاصة منذ بدأ مزاجه ينقلب في السنوات الخمس الماضية. وعَدَهُ بمساعدته ومساعدة عائلته، بالمال إن استقرّ في فرنسا وفي عمله، ولم يفعل. وحتى حينما نُكِبت الأرض والعائلة بقرار العياشي فضَّ اتفاقِ الاستغلال المشترك، والتجأ إليه ليُقْرِضه المال الذي يجهّز به الأرض، خذله. وكاَن يَعد بالمجيء، فيُخْلِف؛ وكم مرة انتظره ولم

يأت، بل لم يكلّف نفسه حتى عناء الإخبار بعدم المجيء. وتوقّف عن وعوده فجأةً، وأمسك عن الاتصال به؛ فهان عليه أن لا يطمئن على أحوال أمِّه وإخوته وأخواته. ودخل أخوه السجن، ومرَّ عام لم يسأل عنه، وحين أتى لم يَرْضَ أن يزوره. وها هو يترك ابنته لأسبوع من دون أن يسأل عنها أو يدع أمّها تطمئن عليها! أيّ نوع من الرجال هو؟ لم يكن هكذا حين كان في الرحامنة ثم في الدار البيضاء. هل أفسَدَت فرنسا طباعَه؟ لا يدري، لكن أحداً من أهل البلد لا يمكنه أن يصدّق أنه ابن الرحماني إن عَلِم بانقلاب أحواله هذا النحو من الانقلاب.

باغتتْه سِنَةٌ من نوم حين أفاق على صوت باب البيت يُفْتح.خال صفية عادت من بيت الدفالي، فناداها. لم يُجِبْه أحد، فقام إلى غرفة الوالدة ليستطلع إن كانت هي مَن دخل البيت، أم أن الوالدة خرجت إلى إحدى جاراتها. فوجئ برؤية عبد الرحيم مُقَرْفصاً قرب أمّه وهي تمسح رأسه بيديْها وتدعو له. هلّل وعانقه مهنّئاً بالسلامة، ونسيَ ـ على الفور ـ عذابات الانتظار.

X

بعد ثلاثة أيام من وصوله إلى بن جرير، قرّر عبد الرحيم العودة إلى فرنسا مع ابنته. استقبلت العائلة قراره بالوجوم والحزن، لأن أفرادها جميعاً عزَّ عليهم رحيل يارا عنهم بهذه السرعة. تَحَجَّجَ بأن عطلتها المدرسية توشك على أن تنتهي، وأنه ملتزم بالعودة إلى عمله بعد نفاد إجازته السنوية، واعداً إياهم بالمجيء بعد ثلاثة أشهر. أخذه عبد الرحمن جانباً، وطلب منه أن يرافقه في الغد لزيارة مهدي، فرفض بشدّة أن يرى عاقّاً ومنحرفاً لم يعد يشعر نحوه بأية مشاعر عطف. هكذا قال له بحزم طالباً منه أن لا يعود ثانيةً إلى فتح سيرته معه، وأن ينسى تماماً أنَّ رابطةً ما تجمعه به. فوجئ عبد الرحمن ببغضه الشديد لمهدي، وتخيَّل أن مشاعره المفاجئة هذه لا تنسجم ومظهره الديني الجديد، كما لم تنسجم مع شخصيته المتسامحة، مستغرباً كيف حصل هذا التحوُّل الغريب في طباع أخيه في فترة قصيرة لا تتجاوز عاماً ونصف!

حين كان عبد الرحيم يحمل الحقائب إلى السيارة في الصباح الباكر، بمساعدة صفية وأخيه، التفت فجأةً إلى أخته وقال:

«لو كان لديك جواز سفر، لهيّأتُ لك الأوراق الإدارية في فرنسا وأخذتُكِ معي إلى هناك لتربّي يارا؛ لتعلّميها، على الأقل،

فروض الدين وتتحدثي معها بالعربية، لأنني أخشى عليها من مجتمع كافر نعيش فيه». أجابته صفية بأن منتهى سعادتها أن تكون خادمة ليارا. شكرها على العبارة وأردف: « أنت عمّتها لا خادمتها».

استغرب عبد الرحمن، الذي ظل صامتاً، كلام أخيه وحرّك في نفسه سؤال والدة بديعة. ثمة شيء ما يحدس أنه غير طبيعي في حياة عبد الرحيم وعلاقته بأهل بيته في فرنسا، وكلامه لصفية يلمّح إلى شيء من ذلك. وهو لا يستطيع أن يسأل أخاه عنه، لأنه يقدّر أنه سيكون سؤالاً محرِجاً.

خرجت الأمُّ تتوكّأ عكّازها لتودّع ابنها، مغدقةً عليه الدعوات الصالحات بسلامة العودة، والصّون من شرور العين الحسود، فيما ظلت صفية حاملةً يارا، تعانقها وتقبلها. سحبها عبد الرحمن منها بصعوبة كي يقبّلها مودّعاً، ثم أعادها إليها ليطلب منها عبد الرحيم إدخالها إلى السيارة. تمسكت بها الصغيرة فنهرها والدها، بينما أجهشت صفية بالبكاء، أما عبد الرحمن فلم يستطع أن يحبس دموعاً داهمت عينيه. حين عانق عبد الرحيم، توسّل إليه أن لا ينقطع عن الاتصال به مثلما فعل في السنوات الأخيرة، فوعده بالوفاء لوعده. وكانت السيارة قد ابتعدت عشرات الأمتار حين كانت صفية لا تزال تودع الذاهبين بيديْها حتى كَلَّتَا.

طغى الحزن والوجوم على البيت والوجوه. وزاد الجوَّ شحوباً وكآبةً بكاءُ صفية الحادّ الذي تقْطعه، بين فينة وأخرى، تنهيدةٌ تطلع من صدرها عميقة وكأنها من قعر بئرٍ أو بُركان. تأثّر لبكائها كثيراً حتى أن قلبه انفطر، ولم يعد يقوى على البقاء تحت وطأة الحزن الشديدة، فودّعها منصرفاً إلى الضيعة، بعد أن أخبر أمّه أنه لن يعود مساءً، وأن لا حاجة لانتظارهم إياه على العشاء لأنه سيتعشى مع الحريزي في الضيعة، واعداً بالمجيء مساء الغد. أخذ طريقه

إلى بن جرير، توّاً، لشراء اللحم والفواكه لتحضير الأكل لمهدي عند زيارته صباح اليوم التالي. كان رأسه يضجّ بصور يارا وهي تلعب، تجري في البيت، تمتطي الحمار، تضحك، تبكي لافتقاد والدها، تعانقه، تتمسك بذراعيْ صفية وهي تجلسها على المقعد الأمامي في السيارة. يارا التي وهَبها الله لأخيه، لآلِ الرحماني، الذين تحْمل اسمهم، يارا التي سكنتْ قلبَه، وكأنها ابنتُه، تدغدغ خياله، تنفث الروح في شعور أبوّةٍ مستعارٍ دَاهَمَهُ مذ حَمَل صفية بين ذراعيه وهي رضيع، وتَجَدَّدَ فيه، على قدرٍ من العنف، مُذْ رَعَى مهدي وحَدَبَ عليه. لم يسعفه الحظ في أن يكون أباً، مثلما اشتهت نفسُه حين أحبّ في الماضي البعيد، وفي الماضي القريب، لكن مشاعر الأبوّة لم تبرح صدره، كما هي لا تبرح صدور أزواجٍ لا ينجبون وزوجاتٍ لا يُنْجبن، وآنسات كابدن مرارة العنوسة حتى يَئِسْن من الفَرَج، لكنهن تَلَبَّثن للخارجين من أرحام ذوي الرحم كي ينهضْن بواجب أمومةٍ فائضةٍ على أمومةٍ أصلٍ جَارَتْها في العذوبة والسخاء. . . وفي أكثر الأحيان تفوّقت عليها.

تذكَّر أن حاله مع هذه المشاعر الجامحة لـ «أبوَّةٍ» مُتَقَمَّصَة تشبه حال صفية وهي ترفل في مشاعر « أمومتها» النازفة دمعاً؛ فهُمَا ـ معاً ـ أعزبان لَقِيَهُمَا الحظُّ العاثر عند منتصف الطريق. تزوّج أخوه الذي يصغره وأنجب، وهو ما زال عازباً، وتزوجت أختاه بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من عمريْهما، بينما تزحف صفية نحو السابعة والعشرين من دون أن يتقدم لها عريس. لا عجب إنْ كانا معاً الأكثرَ عاطفيةً في الأسرة، والأشدَّ ولعاً بالأطفال. . . وبالوالدة.

قطع مرور حليمة من أمام الضيعة حبل أفكاره. لم يهتز قلبُه هذه المرة، مثلما كان يحدث كلما رآها مصادفةً، على الرغم من أنه لم يَرَها منذ شهريْن. هل ماتت في داخله؟ لا يدري، لكنه على

يقين من أن ذكراها تذبل في نفسه مع الزمن، بل تكاد أن تتلاشى. والغريب أن ذكرى بديعة تتجدد فيه، بين فينةٍ وأخرى، كلما رآها. وقد قضى الليل كلّه، قبل يومين، يفكر فيها وفي الطريقة الوديعة التي حدثتْهُ بها وهي تودّعه آيبةً، مع ابنيْها، إلى مراكش. قالت له إنها تعتز بشهامته ووفائه وإخلاصه في العمل، وإن هذه من خصال الرجولة. ووجد نفسه أعزل من اللسان بحيث أعْجَزَتْهُ اللحظة حتى عن النطق بعبارات الشكر، فاكتفى بإحناءةٍ من رأسه، ممزوجةٍ بشديدِ الخجل، تعبيراً عن الامتنان. وحين صافحته بحرارةٍ، سَرَت في جسمه، تمنّتْ له أن يخرج سريعاً من العزوبة، وتوقعت أن تكون زوجته سعيدة به.

عاد من زيارة مهدي في السجن ليلتقي السّي محمد. كان بعضُ الهدوء والسكينة في النفس قد حَلَّا به، بعد يوم من عذاب الفراق الذي أحدثته الصغيرة يارا. رؤية مهدي في حالٍ جيّدة طَمْأَنَتْهُ، وطَمْأَنَهُ أكثر أنه طلب منه أن يشتري له روايات يقرأها، ومدّه بعناوينها في ورقة. لكن بعض ما يشعر به من ارتياح مردّه إلى أن عبد الرحيم نَفَحَهُ خمسة آلاف درهم قبل أن يسافر. هذه أول مرّة يفعل ذلك، ويطلب منه أن لا يخبر أمّه أو أخواته أنه أعطاه نقوداً. وهذه أول مرّة يوصيه بأمّه خيراً، ولم يكن يفعل في السابق. وحين اعتذر منه عن عدم قبول استلام المبلغ، أبدى الانزعاج وردّ: «خيرك سابق يا عبد الرحمن، وأنت من يصرف على الأسرة، فاعتبره مصروفاً للأسرة». روى للسّي محمد ما جرى منذ مجيء عبد الرحيم. استمع الأخير باهتمام شديد، مع قليلٍ من الأسئلة الاستفهامية. حدَّثه عمَّا بَدَا عليه من تَغَيُّرٍ سريع في الطِّباع؛ كيف أصرَّ على أن تعْلم أمّه بمكان وجود مهدي، وكيف رفض زيارة الأخير في سجنه، وكيف اختفى أسبوعاً كاملاً في الدار

البيضاء من دون أن يسأل عن ابنته، وكيف نَقَده خمسة آلاف درهم. وحدَّثه عن وَرَعِه المفاجئ، وكيف يقضي شطراً من الليل في الصلاة وقراءة الأدعية، وكيف امتنع عن مصافحة زوجة الدفالي وابنتها مكتفياً بوضع كفّه على الصدر، وكيف طلب من صفية أن تضع الحجاب وأن لا تصافح أحداً من الرجال غير إخوتها، وكيف لم يفتح معه سيرة الأرض ولا مداخيلها. سأله السّي محمد إن كان قد لاحظ عليه اهتماماً بالسياسة، فنفى أن يكون قد سمع في كلامه معه ما يفيد بذلك.

توقّع السّي محمد أن يكون عبد الرحيم قد انضمّ إلى إحدى الجماعات الدينية، الناشطة في أوساط المهاجرين العرب والمسلمين، في المَهْجر الفرنسي وسائر المَهَاجر، لكنه أحجم عن الإفصاح عن شعوره بذلك لعبد الرحمن مخافةَ زيادة الأعباء النفسية عليه. اكتفى بأن قال له إنه كان يتمنى لو رآه وجالسَهُ، حتى يعرف أسباب هذه التغيرات التي طرأت على طباعه. أجابه عبد الرحمن بأنه سأل عنه فعلاً، لكن زيارته القصيرة للأهل ـ وقد قطعتها سفرتُه إلى الدار البيضاء ـ لم تسمح له برؤيته، وأنه تمنى لو أنه التقاه ليقنعه بالتخفيف من تشدده الديني مع الأهل. ابتسم السّي محمد وعلَّق بأن ذلك ما يحدث عادةً لمن يعيشون في الغربة؛ إذ يصبحون متمسكين بالدين أكثر مما كانوا عليه في مَواطنهم، لأن ذلك يعيد إليهم بعض التوازن الذي فقدوه بوجودهم في بيئات اجتماعية وثقافية مختلفة، ثم أضاف أن عبد الرحيم لن يلبث أن يستعيد طباعه ومزاجه في المستقبل القريب لأن طباع الناس لا تتبدل.

عاد إلى البيت لرؤية الوالدة وصفية. شعر بشيء من الفراغ الذي خلّفه ذهاب يارا عنه، وكان الحزن والوجوم ما زالا يخيّمان

على البيت وساكنتيْه. حين ذهبت صفية لتحضير العشاء له، لَحِقَها ليعطيها مصروف البيت ممّا نَقَدهُ إياه عبد الرحيم، لكنه فوجئ بها تقول إن أخاها أعطاها ـ هي والوالدة ـ أربعة آلاف درهم لمصروف البيت. بهت فجأة وازدرد دهشته، مدارياً المفاجأة بالدعاء لأخيه بالخير والسلامة. وقبل أن يؤوب إلى الوالدة، تذكّر أمراً فالتفت إلى صفية يسألها:

«هل كنتِ، حقّاً، ترغبين في الذهاب مع عبد الرحيم ويارا إلى فرنسا لو كان لديك جواز وتأشيرة؟».

«نعم، ولِمَ لا؟».

«والوالدة؟».

«تمكث معها أنتَ في البيت، وتبحث عمَّن يحرس الأرض». تملّكه الاستغراب لاستسهالها الأمر، فسألها:

«ومن يعتني بها في البيت، ويهيئ لها الطعام، حين أكون في الحقل طيلة النهار؟».

«تتزوج، فتقوم زوجتُك بهذا كله».

ضحك من الأعماق، فيما بَدَا على ملامحها الجدّ، وقال:

«لم أتخيل أنك مشتاقة للعيش في فرنسا إلى هذا الحد».

«لا تهمني فرنسا ولا غيرها، أريد أن أعيش مع يارا أينما كانت».

قالت ذلك وانهمرت الدموع من عينيها. ضمّها إلى صدره، وحاول أن يطيّب خاطرها قائلاً:

«أعرف، يا أختي، كم تحبين يارا، ومقدار ما سبّبه لك

ذهابها من ألم، ولكن عبد الرحيم وعدني بأن يستقدمها معه قريباً، فعسى أن يَبَرَّ بوعده».

«لن تكفيني زيارتها لأيام. إذا كان أخي لا يستطيع أن يأخذني معه لفرنسا، فليته يتركها هنا لنربيها».

«أليس لديها أمّ تربّيها؟ وكيف تتخلى عنها وأبوها؟».

«أمّها لا تعلّمها الصلاة وفروض الدين، ولا تحدّثها بالعربية، وجدّتها تأخذها إلى الكنيسة أيام الآحاد».

صفعتْهُ جملتها الأخيرة؛ تذكّر سؤال أمّ بديعة، فاصطنع اللامبالاة متسائلاً:

«وما أدراك أنتِ بأن جدّتها تأخذها إلى الكنيسة؟»

«هي من قال لي ذلك، حين اشتكت لي ـ قبل يومين من سفرها ـ من لبنى التي تقول لها: أنت لستِ مسلمة لأنك تذهبين إلى الكنيسة؛ فقد سألتني يارا إن كانت حقّاً غيرَ مسلمة بسبب ذهابها إلى الكنيسة مع جدتها».

شعر بمغَصٍ شديد، حاول أن يتكتّم عليه، وقال:

«هل يعلم والدُها بهذا الأمر؟».

«لا؛ فقد أوصتُها جدتُها بعدم إخبار والدها، وهي لم تخبره بذلك كما قالت لي».

«وأمّها؟ هل تعلم».

«لا أدري، ولكنها ـ هي الأخرى ـ لا تصلّي، وقد لا تكون مسلمة: أستغفر الله العظيم».

«من قال لكِ ذلك؟».

«أعرف ذلك منذ كانت هنا، في الرحامنة، قبل أربع سنوات؛ إذ لمْ أرها تصلّي يوماً. وحين سألت أخي عبد الرحيم إن كان عليّ أن أعلمها الوضوء والصلاة، انزعج مني وقال إنها مريضة. وقد سألت يارا إن كانت تصلي معها فنفت، بل قالت لي إنها لا تصوم رمضان مع عبد الرحيم».

لم يعد لدى عبد الرحمن شك ـ بعد الذي سمعه من صفية ـ في أن عبد الرحيم يعاني في بيته مع زوجته وحماته، وفَهِمَ الآن تماماً لماذا أبى أن يأخذ أخته معه، ولماذا فكّر بالذات في تعليم ابنته فروض الدين؛ فلولا خشيته عليها من التنصير ما قال لصفية ما قاله. يارا لم تخبره بأمر اصطحاب جدّتها لها إلى الكنيسة، كما تقول صفية. بل هو على يقين أن أخاه لا يعلم بالأمر وإلّا كان ارتكب حماقة في حق نسيبته. وهذه الأخيرة لو لم تكن تعرف حساسيته لما أوصت حفيدتها بكتمان الأمر عنه. أما أمها فلا شك في أنها لا تعرف شيئاً من فروض الدين، ليس لأن يارا أخبرت صفية بأنها لم ترها تصلي أو تصوم، بل لأنها لو كانت تعرف تلك الفروض لعلَّمتها لابنتها. هل هي نصرانية حقّاً كما تقول صفية؟ علْمُ ذلك عند الله؛ قال في نفسه. ولكنه استدرك مُخَمِّناً أنها لو كانت نصرانية لما تزوَّجَها أخوه، وهو قدَّمها لهم بوصفها أسلمتْ. ثم إنها لو كانت كذلك، لكانت هي نفسُها من يأخذ يارا إلى الكنيسة. تزاحمت الأسئلة في رأسه وتضاربتِ الحدوس، فقرر أن يصرف ذهنه عن التفكير في موضوع لا يعلم عنه شيئاً. قبل أن يغادر البيت ليلاً إلى الضيعة، نادى على صفية، وأوصاها بأن لا تفتح سيرة هذا الموضوع مع أحد: لا الوالدة ولا الأختين، فطمأنَتْه إلى أن أحداً لن يعرف شيئاً عن هذا.

*

لم يذهب عبد الرحيم إلى الدار البيضاء، ولا قضى فيها أسبوعاً، كما ادَّعى، ولا حتى مرَّ بها؛ ركب سيارته واتجه، رأساً، إلى مطار المنارة في مراكش، ومنه إلى فرنسا، حيث كانت سيارة تنتظره في مرسيليا لتُقِلّه إلى البوسنة. كان عليه في هذه الرحلة، وقد جرّبها لمرات ثلاث، في الأشهر السبعة عشر الماضية، منذ نهاية العام ١٩٩٤، أن يُوصِل أموالاً إلى بعض المؤسسات الإسلامية في سراييفو، كلّفه الشيخ « أبو عبيدة» بإيصالها إلى أشخاص محددين زوّده بأسمائهم وعناوينهم، وأن يقنع السيدة إسلام أرملة الشيخ عليّ أورلوفيتش بأن تترك ابنتها فاطمة، ذات الستة عشر ربيعاً، تسافر إلى فرنسا لتشتغل مربيّة لابنته، حسب توصية «أبي عبيدة» لها بذلك، كي تساعد أمها على حمْل أعباء الحياة، في البوسنة، بعد انتهاء الحرب.

لم يكن عسيراً عليه أن يصل إلى البوسنة، عبر تورنتو وميلانو بإيطاليا، ثم عبر سلوفاكيا وكرواتيا، خصوصاً بعد أن انتهت الحرب قبل سبعة أشهر. وهو ما كان يَعْسُر عليه أن يصل إليها، حتى أثناء الحرب، في قوافل المساعدات الغذائية التي كان يشارك فيها، والمسيَّرَة من قبل جمعيات أهلية: عربية وإسلامية مقيمة في أوروبا. وكان عمله ـ كما رتَّبه له أبو عبيدة ـ يقضي بأن يكون سائقاً يقود شاحنة من الشاحنات الكبرى التي تنقل المساعدات، كما يفعل ذلك غيره من السائقين العرب والأوروبيين. وقد زوّده أبو عبيدة، لهذا الغرض، ببطاقةِ سائقٍ مستخرجة من السلطات الخاصة في مدينة بوردو، بمساعدة موظفٍ نافذٍ في الإدارة من أصل جزائري، ومن مريدي الشيخ «أبو عبيدة». لكن المطلوب منه كان أمراً آخر: نقل الأموال إلى «أمراء الجهاد» في البوسنة والهرسك لتدبير شراء الأسلحة من طريق التجار والوسطاء، وأحياناً حتى من

الجنود الصرب. وقد نجح في سفرتين، في إيصال مبالغ كبيرة لم يكن يصعب عليه إخفاؤها عن التفتيش عبر الحدود بعد أن تلقّى تدريباً على ذلك من أحد خبراء التهريب سبق أن نقل أموالاً وأسلحة إلى الشيشان وداغستان. أما في سفرةٍ ثالثة فتعذر عليه ذلك لأن معلومات وردت لأبي عبيدة، وعبد الرحيم ما زال يقود شاحنته داخل التراب الفرنسي، بأن أجهزةً لرصد الأموال، أثناء التفتيش، دخلت إلى الخدمة في الحدود الفرنسية والسويسرية والنمساوية، التي كان يأخذ طريقه منها، وأصبح سفره بالأموال ـ بالتالي ـ مخاطرة غير محمودة العواقب عليه وعلى المال المحمول، وكان في حدود خمسة ملايين فرنك فرنسي، فما كان منه سوى أن عاد من حيث أتى، وقبل أن يَتبين أبو عبيدة أن المعلومات التي نقلت إليه زائفة.

لم يكن المبلغ المطلوب منه نقلُه، هذه المرة، كبيراً إذا قيسَ بسابقَيْه من المبالغ التي نقلها؛ كان في حدود مائة ألف فرنك نقداً، وحوالى العشرين شيكاً بأسماء مختلفة لسحبها على حسابات مختلفة في الكريدي ليوني وبنك باريس الوطني، تصل مبالغُها ـ مجتمعةً ـ إلى حدود المليون فرنك. والأهمّ من ذلك أنّ الانتقال بهذه الأمانات أصبح في حكم الميسور بعد أن وضعت حرب البوسنة أوزارها، وخفّ الحصار المضروب عليها. لهذا السبب ما كان في حاجةٍ إلى انتحال صفة السائق، مثلما فعل في المرات السابقة، فكان السفر كسائحٍ يكفيه كي يصل إلى مبتغاه. هكذا، على الأقل، قدَّر أبو عبيدة حين رتّب له أمر السفر، وكلّف سليمان بأن يأخذه بالسيارة عبر إيطاليا، وسلوفاكيا، وكرواتيا. غير أن الأمور لم تجر كما قُدِّر لها أو اشتهى الشيخُ ومرسولهُ؛ فقد أوقفهما حاجز للقوات الدولية على الحدود بين كرواتيا والبوسنة

والهرسك، وبعد تفتيش دقيق لم يعثروا فيه على شيء، اشتبهوا في السائق الذي بَدَا مرتبكاً وشبه عصبيّ، فأوقفوا الاثنين معاً قبل التحقيق معهما في الأسباب التي دعتهما إلى زيارة البوسنة في مثل هذه الظروف. أصيبَ السائق التركي بنوبةٍ من الخوف الشديد، ولم يكن أمامه سوى اصطناع البراءة والجهل بالقول إنه ليس أكثر من سائقٍ طلب منه السائح إيصاله إلى سراييفو، وأنه فعل ما هو مطلوب منه لأنه يعرف البلاد، وعمل فيها سابقاً قبل الحرب. أما عبد الرحيم فلم يعوزه الذكاء ولا الحيلة لكي يخرج من الورطة؛ فمع أنه اضطُر إلى المبيت في مركزٍ للقوات الدولية تحت تهديد السلاح، وظل عرضة لغاراتٍ من الهواجس، إلّا أنه تمسَّك بروايته التي أفاد بها المحققين؛ وهي أنه أتى لخِطبة فتاةٍ بوسنية تعرَّف عليها وعلى أهلها حين كان يتردّد على البوسنة كسائقٍ في قوافل المساعدات. وزاد طمأنةً لهم، على صدق أقواله، بأن أعطاهم اسم العائلة، وعنوان سكنها في سراييفو.

فوجئ في الصباح أن الجنود سمحوا له بالدخول إلى البوسنة. وهو توقَّع أنهم فعلوا لعلمهم أن عرباً ومسلمين كثراً، في أوروبا، تزوجوا من بوسنيات كثيرات في الأشهر الأخيرة التي أعقبتِ الحرب، وخاصة من شابات تعرضن للاغتصاب من جنودٍ وضباط صرب. ولم يستبعد أن يكونوا قد تأكدوا ـ بطرقهم الخاصة ـ من صحة المعلومات التي أفاد بها عن العائلة ومكان سكناها. لكنه كان على يقين بأن اضطراب سائقه التركي هو ما أوقعهم في هذه الورطة، ولذلك ما إن سمحوا لهما بالعبور حتى عاتبه على تصرّفه الذي أثار الشكوك في أمرهما، ولكن من دون أن يتلقى منه تفسيراً لسبب خوفه.

لم يكن قد رأى سراييفو من قبل، رغم أنه زار البوسنة؛ فقد

كانت محاصرة ـ حينذاك ـ من القوات الصربية، أما الذين سبق له أن نقل إليهم أموالاً، فالتقاهم في زغرب، لكن الفضول دفعه إلى التوغل ـ مع آخرين ـ إلى أراضي البوسنة والهرسك على الحدود الشمالية والغربية لسراييفو؛ التي كان يسيطر عليها الكروات نسبيّاً. أذهله جمال الطبيعة في محيط سارايفو، وجمال المدينة التي بدت له وديعة وحزينة وهي تنتشر بين الجبال، وتنشر قرميدها الأحمر في كل الجهات. آثارُ الدمار لا تزال باديةً على كثير من بناياتها، المزروعة وسط الخضرة، والمآذن فيها شامخة تتحدى البرابرة الذين عاثوا فيها فساداً. لم يَقْوَ على إخفاء إعجابه بالمدينة، فأفصح عنه لسائقه سليمان. انشرح الأخير وقال:

«لا تَنْسَ أن أجدادنا العثمانيين هُمْ مَن نشروا الإسلام في هذه الأرض، وابتنوا المساجد وأقاموا المآذن».

تذكَّر ما سمعه من أبي عبيدة عن تاريخ البوسنة والهرسك، وكيف خضعت للحكم العثماني بين منتصف القرن الخامس عشر ونهاية القرن التاسع عشر، وكيف كان تأثير الإمبراطورية النمساوية كبيراً في معمارها، فقال:

«ما أعْلَمه عن البوسنة أنها ابْتُنِيَت متأثرةً بالثقافة المعمارية لأجدادكم العثمانيين وللنمساويين».

ردّ سليمان، في ما يشبه الانزعاج، قائلاً:

«هذه رواية النصارى التي يردّدها حلفاؤهم الصرب، أمّا الحقيقة، فهي أن الأتراك هم وحدهم من عمّروا البوسنة وحموا أهلها من الغزو الصليبي. ولا تَنْسَ أنه في سبيل الدفاع عن البلقان ونشر الإسلام، وحماية البوسنة، رابطت الجيوش التركية، لسنوات عدة، على أبواب فيينا محاصِرةً لها».

«ولماذا لم يدافع الأتراك عن أهل البوسنة المسلمين حين فَتَكَ بهم الصرب بوحشية؟».

سكت سليمان قليلاً ثم أردف:

«إذا عاد العثمانيون قريباً سيختلف الأمر، والناس يتحدثون اليوم، في تركيا، عن نجم الدين أربكان كواحدٍ من أحفادهم...».

لم يكن عبد الرحيم قد سمع بأربكان، فآثر الصمت تجنُّباً لإحراجٍ قد يجد نفسَه عرضةً له، فيما استطرد سليمان قائلاً:

«وإذا ما استقرّ الأمرُ لأهل الإسلام في تركيا، فإن وضع المسلمين في العالم سيتغيّر».

«قال لي أبو عبيدة إنكم كنتم في الماضي أعظم دولةٍ إسلامية».

«هذا صحيح، وسنكون في المستقبل أعظم دولة إسلامية».

«أعظم من أفغانستان؟».

«وماذا تكون أفغانستان، يا سيدي، أمام تركيا؟ إنها أقل من مدينة صغيرة في بلدنا؟».

«كيف لك أن تقول هذا وهي التي هزمت ثاني أقوى دولة فيٍ العالم؟».

«الأفغان هزموا السوفييت لأن الأخيرين كفّار».

«ولماذا لم يحصل ذلك للمسلمين مع اليهود في فلسطين؟».

تردّد سليمان قليلاً ثم أجاب:

«سيحصل ذلك قريباً، إن شاء الله، إذا دخلت تركيا الحرب ضدّ إسرائيل».

«أراكَ تربط كل شيء بتركيا، وكأنْ لا حوْل للمسلمين ولا قوَّة إلّا بها».

«أنت لا تعرف بَلَدَنا، يا سيّد عبد الرحيم؛ وحين تزوره وتصلّي في جوامعه ومساجده، سترى ما فيه من قوّة إيمانٍ لم تَرَها ـ ولن تراها ـ في غيره».

حين دَخَلَا المدينة، لاحظ عبد الرحيم أن مظاهر التسلّح منعدمة تماماً، والأوضاع مختلفة عمّا كانت عليه الحال في ضواحيها الشرقية والشمالية قبل عام، مثلما لاحظ مرور عدد من النساء بلباس الراهبات من دون أن يعترض أحدٌ طريقهن. اختلط عليه الأمر، أمام هذا المشهد الذي يراه؛ كان يعتقد أن على المسلمين في المدينة أن يظلوا متمسكين بسلاحهم لردّ عادية الصرب، بعد أن لاقوا منهم ما يشيب لهوله الولدان، ويتصوّر أن الحاجة تدعو إلى وضع مسلحين منهم عند مدخل كل شارع، وعند مفترقات الطرق، حتى لا يداهمهم هؤلاء، ويأخذوهم بغتة. ثم كان يعتقد أن النصارى جلوا عن بلاد البوسنة والهرسك، بعد انتهاء الحرب، واختفت آثارهم، بل تصوَّر أن كنائسهم تحولت إلى مساجد أو أقفرت في أقل تقدير. سأل سليمانَ تفسير الأمر، فأجاب الأخير مزهوّاً بشعور العارف الخبير:

«اتفق البوسنيون، بعد انتهاء الحرب، على تقاسم السلطة مناصفةً، كما يتقاسم المساهمون الحصص في الشركات؛ فقضى اتفاق السلام بينهم قبل أشهر ـ ويُسمّونه «اتفاق دايتون» ـ بأن يكون للمسلمين والكروات نسبة ٥١ في المائة من السلطة وللصرب ٤٩ في المائة. ولذلك ترى الكنائس قائمة والمسيحيين يتجولون أحراراً في البلد. كما إن هذا الاتفاق جرَّد البوسنة من السلاح، لذلك ترى البوسنيين غير مسلحين، لأن الدول الكبرى التي فرضت اتفاق

السلام عليهم تضمن أمنهم جميعاً من دون حاجة أيٍّ منهم إلى حمل السلاح».

استغرب عبد الرحيم للأمر؛ فهو ظنّ أن البلاد عادت جميعُها إلى المسلمين، وها هو يسمع من سليمان أن الصرب يقاسمونهم نصفها. سأله تفسير الأمر، فأجاب سليمان بأن الصرب جزء كبير من سكان البوسنة والهرسك، وأنهم يتمركزون في المناطق الشرقية من الجمهورية، وحين أُعلن استقلال البوسنة والهرسك، قبل ست سنوات، اعتبر الصرب أنفسَهم متضررين من حركات الانفصال عن يوغوسلافيا، ولذلك حملوا السلاح ـ مدعومين من صربيا ومن رئيسها سلوبودان ميلوسوفيتش ـ لكي يدافعوا عما اعتبروه حقوقاً لهم يخشون عليها من المسلمين.

لم يفهم عبد الرحيم شيئاً مما قاله سليمان عن الاستقلال وصربيا ورئيسها، وخامره الاعتقاد بأنه يكذب، أو أن الأمور اختلطت عليه، فتساءل:

«إذا كان للصرب دولة ورئيس، كما تقول، فلماذا يزاحمون المسلمين في أرضهم؟».

«ولكن البوسنة والهرسك، يا سيّد عبد الرحيم، للمسلمين وللصرب على السواء».

«ولماذا لا يذهب الصرب إلى بلادهم؛ أليست لديهم دولة كما تقول؟».

«نعم لديهم جمهورية؛ ولكن صرب البوسنة من غير مواطنيها، كما إن كروات البوسنة من غير مواطني جمهورية كرواتيا. لقد كان هؤلاء جميعاً مواطنين في دولةٍ واحدة جامعة هي يوغوسلافيا، ولكن بعد أن حدث الانفصال فيها، تعدّدت الدول المستقلة من صربيا

وكرواتيا والبوسنة والهرسك والجبل الأسود... ولم يَعُد من جامعٍ يجمع بين هؤلاء».

اختلط عليه الأمر، وتعقَّد عليه فكُّ خيوط هذا اللغز. لا بدَّ من أن يكون سليمان على مستوًى من المعرفة والعلم بالأمور في هذه البلاد يفوق مداركه، أو أن يكون مدّعياً يتقصّد إيهامه بحُسن المعرفة بشؤونها. خشي أن يُفصح عن جهله، لكنه تساءل، بقدرٍ من الاستنكار، لم يستطع إخفاءه:

«كيف يمكن أن يقدّم المسلمون البوسنيون كلّ هذه التضحيات، ولا يحصلون سوى على نصف السيادة على وطنهم؟».

«هُمْ، بالمناسبة، لم يحصلوا على نصف السلطة في البوسنة وحدهم، وإنما هُمْ والكروات معهم يتقاسمون حصة النصف».

«ولكن الكروات مسيحيون؛ فلقد رأيتُهم في زغرب يدخلون إلى الكنائس».

«طبعاً، وحصة مسلمي البوسنة لا تتجاوز الثلث».

«كيف للمسلمين أن يخوضوا هذه الحرب القاسية، ويتحملوا ثمن إبادات جماعية، وقتلى بعشرات الآلاف، كي يحصلوا على هذه الحصّة الهزيلة من وطنهم؟».

«عليك أن لا تنسى، يا سيدي، أنهم لم يكسبوا الحرب ضد الصرب،وأنه لولا المساعدة الدولية، وخاصة تدخُّل أمريكا وتركيا والسعودية والمجاهدين العرب، ما كان في وسعهم أن يردوا عنهم غائلة الصرب. ولذلك، فالذي حصلوا عليه ما كان مَن عرق تضحياتهم، بل من فضل من وقفوا يسندونهم».

أزعجه ما سَمِع من سليمان، وهَزَّ اطمئنانه، لكنه وجد نفسَه

مُضطراً إلى تصديقه؛ فالشواهد العيانية تقوم مقامَ الدليل عليه: على الأقل في ما يراه من استعراضٍ فاقعٍ للرموز المسيحية في الشوارع، من معمارٍ كنسي، ومن ملبَسٍ رهباني، وما شاكلَ ذلك. شعر بمغصٍ نفسي عميق داراهُ بعباراتِ إعجابٍ بَلهاء بالمدينة. وشجّع ذلك رفيقَه بأن يُفيض في بيان محاسنها ووصفها. توقّف لحظةً، بموازاة مجرى النهر الذي يمرّ بمدينة سراييفو، وقال:

«نحن نقف على ضفة نهر ميلجانا، وهو أحد روافد نهر الدانوب الذي أَلْهَم كبار الموسيقيين في العالم، ولا أشك في أنك سمعت بسمفونية «الدانوب الأزرق»».

لم يجب عبد الرحيم عن السؤال، وهرباً منه تساءل:

«وما اسم هذه الجبال التي تحيط بسراييفو؟».

«إنها جبال الألب».

«تشبه جبال الأطلس، عندنا في المغرب، وإن كانت أشجارُها أكثر كثافة».

«لو تعرف أنهار الدماء التي سقت هذه الأشجار، وانداحت في الشوارع والأحياء أثناء الحرب؛ كان ذلك مرعباً».

«هل كنت هنا خلال الحرب؟».

«في الأشهر الأولى منها وقبل أن يُحْكِم الصربُ الحصار على سرايفو».

«وكم عدد من قُتِلوا من المسلمين؟».

«قُتِل منهم ومن الكروات حوالى مائتيْ ألف».

«وقيل إن الجنود الصرب اغتصبوا عشرات الآلاف من المسلمات».

«الأرقام تختلف بين رواية وأخرى؛ بعضهم يقول إن عدد من اغْتُصِبن بلغ عشرين ألفاً، وبعضهم يقول إنه يصل إلى خمسين ألفاً. لكن معظم المغتصبات في شرق البوسنة».

«ولماذا؟».

«لأن مناطق الشرق يسيطر عليها الصرب».

جال به سليمان بين الأحياء، وكان يسميها له حيّاً حيّاً. أثار انتباهه حي جربافيتسا أكثر من غيره لأن البيت الذي سيقصده يوجد فيه كما سجَّل له أبو عبيدة عنوانه ورسم خريطة الوصول إليه. رَكَن السيارة في ساحة خلفية صغيرة، ودعاه إلى التفسح قليلاً في شارع للمشاة.

«ما اسم هذا الشارع؟».

«شارع فرهاديا، وهو شهير جدّاً، ومَقْصِدٌ للسواح».

تجوّلا قليلاً في الشارع. شرح له سليمان أسباب خلوّه إلّا من أعداد قليلة من المارين، فيما كان يغصّ بالمشاة قبل الحرب؛ قال إن تجربة الموت الرهيبة التي عاشها البوسنيون، وفرضت عليهم الاختفاء في بيوتهم لسنوات، ما زالت تسكنهم وتمنعهم من العودة إلى الحياة الطبيعية، كأنهم لا يصدقون أن الحرب انتهت. يعرف عبد الرحيم بعض تفاصيل تلك الحرب ومجازر سربرنيتشا، ممّا رواه له كثيرون ممّن شاركوا فيها من المقاتلين العرب والمسلمين المقيمين في فرنسا. أبو عبيدة أكثر هؤلاء الذين رووا له أهوالها التي عاشها بنفسه في بداياتها، كمحارب متطوع، وكقائد كتيبة عسكرية من المسلمين المتطوعين، قبل أن يفقد رجله اليسرى فيها

ويعود إلى فرنسا، ليستقر في عمله إماماً بمسجد في بوردو. قال له يوماً إنه خبر الحروب وأهوالها، في السنوات الماضية، ومنذ كان شابّاً يافعاً؛ فقد قاتل اليهود في جنوب لبنان، والروس في أفغانستان، وقاتل في الجزائر سنة ١٩٩٢ قبل أن يغادرها عائداً إلى فرنسا، ثم تطوّع للقتال في البوسنة. وطوال هذه الحروب المتلاحقة لم يَرَ جنوداً أعداء أشدّ شراسةً من الصرب، ولا أكثر وحشيةً منهم في إبادة المدنيين. لا شك أن أنهاراً من الدماء جرت في هذه الأرض، مثلما يقول سليمان، فعدد الذين قضوا فيها أكبر من سكان مدينة متوسطة الحجم.

يَمَّما صوب المسجد لأداء صلاة الظهر، ثم بعد الصلاة استقلَّا السيارة متوجّهيْن إلى بيت الشيخ عليّ أورلوفيتش للقاءِ أرملته السيدة إسلام وابنتها فاطمة؛ التي تبقت لها من نسلها الذي حصدتْهُ الحرب. لم يجدا صعوبةً في العثور على العنوان، ولا وَجَدَا صعوبةً في طَمْأنةِ ربةِ البيت إلى أنهما موفديْن من الشيخ أبي عبيدة؛ فقد كان يكفي عبد الرحيم أن يُطْلِعها على صورة مشتركة له مع الشيخ، وأن يُرِيها مسبحة نحاسية صغيرة الحبّات كان زوجُها قد أهداها لأبي عبيدة في بداية الحرب. وكم كان عبد الرحيم مسروراً حين حدثتْه السيدة إسلام باللغة العربية، ولو أنها كانت تنطقها بعسر وعلى طريقة المشارقة، وقد تذكّر أن أبا عبيدة أخبره بأن الشيخ عليّ أولوفيتش دَرَسَ في سورية إبان شبابه، فقدَّر أن زوجَه تعلمت منه لهجة أهل الشام.

*

لم يَقْض ليلةً واحدة في سراييفو كما قدَّر؛ فقد امتدّ المقام فيها، به وبسليمان رفيقه، إلى ثلاث ليالٍ وأربعة أيام. لم يكن

السبب في ذلك أنه وجد صعوبةً في العثور عمّن كان مكلّفاً بإيصال الأمانات إليهم؛ فهؤلاء التقاهم في مساء اليوم نفسِه وأدّى لهم الأمانات، وإنما السبب كان في ما وجدهُ في بيت الشيخ الفقيد من حسن استقبالٍ ودفءٍ في المعاملة جعله يستجيب، فوراً، لدعوة أرملته السيدة إسلام بقضاء ثلاثة أيام ضيفاً: على عادةِ زوجها في استضافة زواره من المسلمين القادمين إليه من خارج البوسنة والهرسك؛ مثلما قالت وشدّدت على إنها ستلتزمها سنَّةً بعده .والحقُّ أن موافقته على الإقامة وراءها إغراءاً آخر خضع له، منذ اللحظة الأولى للزيارة، ولم يستطع مقاومته، هو إغراء الانجذاب الشديد إلى فاطمة، ابنة الستة عشر ربيعاً، وأصغر من أنجبت عائلة أورلوفيتش؛ فلقد أُخِذَ بجمالها، وتهذيبها الشديد، ومسحة الخجل التي تكسو ملامحها حين تلتقي الأعين، أو حين يجري حديث الأمّ عنها. وحين ودّعه سليمان، في الليلة الأولى، مستأذناً في الذهاب إلى بعض أقربائه في سراييفو لقضاء يومين عندهم، قال له كلمة ظلت ترِنّ في أذنه وهما عند باب البيت: «حرام أن تشتغل مثل هذه الفتاة الرائعة الجمال خادمةً في بيتك؛ مكانها الطبيعي أن تكون زوجةً حلالاً لك بإذن الله». ضحِك حين سمع تعليقه، ولكنه سرعان ما تذكّره حين عاد إلى مجلس الأمّ وابنتها، ليجد نفسَه يختلس نظرات خاطفةً إلى الفتاة، فيرتوي داخلُه بماء الجمال الرقراق. أيّ شيطان تركي هذا الذي وسوس له بما لم يكن يتخيل؛ أيُعْقَل أن يأتي طالباً خدمة البنت لبيته، ليجد نفسَه طالباً يدها؟! استعاذ بالله من وساوس سليمان، ثم نهض مستأذناً في الذهاب إلى المسجد لصلاة العشاء تاركاً الأمّ وابنتها لإعداد الطعام.

امتد الحديث بين الثلاثة، حين أَوْبَتِه من المسجد، حتى

منتصف الليل؛ روتْ له السيدة إسلام تفاصيل عدّة عن الحرب وأهوالها على المسلمين البوسنة، ودور زوجها الفقيد في تحريض الناس على الجهاد، وتقديم المساعدات المالية التي كانت تصل إليه، إما من خلال الوقف الإسلامي، الذي كان عضواً في مجلسه، أو من خلال أصحابه من المجاهدين المتطوعين من العرب والمسلمين، خاصة ممن كانوا يعرفونه منذ الجهاد في أفغانستان.

سألها عبد الرحيم:

«هل اشترك المرحوم في الجهاد الأفغاني؟».

«لم يقاتل في أفغانستان؛ قاتل هنا في البوسنة رغم سنّه التي جاوزت الثامنة والخمسين. أمّا في أفغانستان، فكان يقدم الدعم إلى المجاهدين العرب المتمركزين في مدينة بيشاور بباكستان. كان يعرف أحد قادتهم هناك، وهو فلسطيني اسمه الشيخ عبد الله عزام. كان صديقه منذ التقيا في دمشق قبل ثلاثين عاماً. وظل يتردد عليه في بيشاور، في نهاية سنوات الثمانينيات، حاملاً له ما جمع من أموال وهبات من يوغوسلافيا وبلغاريا وألبانيا».

«وكيف استُشهد.».

«استُشهِد أثناء القتال؛ أصيب بقذيفة مدفعية وهو يقاوم مع جمهرة من الشباب. وقد نجح مَن بقي حيّاً منهم في سحب جثته من ميدان المعركة. كانت جنازته، رحمه الله، حاشدة ومهيبة».

قالت ذلك واغرورقت عيناها بالدموع. تأثر كثيراً، وحاول أن يخفف عنها ثقل الذكرى قائلاً:

«قال الله تعالى: **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون﴾**».

«صدق الله العظيم».

«أين دُفن رحمة الله عليه؟».

«في المقبرة القريبة من الحي».

«أريد زيارة قبره للترحم عليه».

«بارك الله فيك، ستأخذك فاطمة غداً صباحاً إلى المقبرة».

التفت صوب فاطمة، فوجدها غارقة في بكاء صامت. شقّ عليه أن يسأل الأم عن استشهاد ولديْها، كما علم من أبي عبيدة، حتى لا يزيدها حَزَناً وغمّاً. لكنه وجدها تحدّثه عنهما قائلة:

«نجا إبراهيم وأحمد، ابناي، من الموت في المعارك التي شاركا فيها مع والدهما، لكن القدر أخذهما معاً في الأيام الأخيرة من الحرب؛ حين أصابتهما وثلاثة من رفاقهما، شظية قذيفة زاغت بسيارتهم عن الطريق، فهوت من الحافة إلى منحدرٍ صخري. قَضَى ابناي ورفيقان لهما، أما خامسهم فكُتبت له الحياة، لكنه مشلول عن الحركة».

ارتفع صوت بكاء فاطمة قليلاً فغادرتِ الغرفة، أمّا أمها فأكملت:

«استُشهدا بعد استشهاد والدهما بعام وبضعة أشهر ودُفنا بالمقبرة عينها».

«كم كان عمرهما عند رحيلهما؟».

«إبراهيم هو الابن البكر، كان في الثامنة والعشرين عندما

قضى، وكان يشتغل أستاذاً في مدرسة ثانوية ويتهيّأ للزواج. وأحمد يصغره بخمس سنوات؛ طالب في الجامعة قَطَعَ دراسته مضطرّاً وتجنَّد للقتال مع المجاهدين منذ العام ١٩٩٣، وكان يعتزم العودة إلى استكمال الدراسة ما إن تنتهي الحرب. لكن قضاء الله لا يرد».

«سأزور قبريْهما غداً، وأقرأ على روحيْهما الطاهرتيْن فاتحة الكتاب المبين. رحمهما الله، ورحم والدهما الكبير وسائر المجاهدين، والعزاء لك ولفاطمة في أنهم أدّوا واجبهم الديني، وذهبوا إلى ربّهم ظافرين بوعده الذي لا يُخْلِفه».

«الحمد لله على كل حال، لكن لوعتي من أن الكفار قطعوا نسْل الشيخ بقتلهم ابْنيَّ؛ فلا أعمام لهم ليبقى اسم العائلة».

«سيبقى في قلوب المؤمنين ياسيدتي».

شعر بتعاطفٍ شديد مع بقايا هذه الأسرة المنكوبة، وبتقديرٍ كبير لإيمانها الثابت بقدر الله، وشقَّ عليه أن يسأل المرأة عن ظروف حياتها وابنتها بعد رحيل مُعيلها. قدَّر أنها ستعيش من الراتب التقاعدي لزوجها ولم يحسم في ما إذا كان الأمر كذلك. تذكّر أنه لم يسألها عن فاطمة فسأل:

«وهل تتابع فاطمة دراستها؟».

«لا؛ فقد رأى الشيخ أن تكتفي بشهادتها الابتدائية، التي حصلت عليها قبل خمس سنوات، وأن تبقى معي في البيت تساعدني. لكنه كان يحرص على تعليمها بنفسه كل يوم؛ فقد حفظت القرآن الكريم على يديْه واستظهرته، وتعلّمت اللغة العربية. وهي تساعدني في الخياطة التي علّمتُها إياها منذ الصغر».

هي، إذاً، مثله؛ لم تملك من العلم غير الشهادة الابتدائية. لكنها تفوقه علماً لأنها حفظت القرآن كلّه، أما هو فما حفظ منه سوى السور القصار. حتى إنه لم يبدأ في تلاوة سوره الطوال إلّا قبل عام فقط، بتأثيرٍ من أبي عبيدة الذي لازمه منذ أصبح إماماً للمسجد في بوردو.

أخذته فاطمة، في صباح اليوم التالي، إلى المقبرة. قرأ الفاتحة على أرواح الثلاثة، ثم أخذته مساءً إلى الأسواق للتبضع، وعرَّفته على بعض معالم سراييفو الإسلامية. لم تفارقه خلال الأيام الثلاثة التي قضاها عندهم، فكانت خير دليلٍ له إلى المدينة وأسرارها. عربيتُها أفصح من أمّها، وقلّما استوقفه شيء من العُجمة فيها. وصوتها بالكاد يُسْمَع، حين تتحدث، من فرط تأدُّبها وخجلها. انجذب إليها أكثر فأكثر، وشعر بمغص شديد، في اليوم الأخير، حين تذكّر أن عليه أن يسافر في الغد. كان مضطراً إلى العودة سريعاً؛ فلقد مرَّت أيام ستة على مغادرته المغرب، ولا شك أن يارا ستكون في أسوإ حالاتها النفسية بسبب غيابه عنها، ثم عليه أن يعود سريعاً إلى فرنسا لأن موعد مدرستها التهيئية على الأبواب.

في صباح اليوم التالي، كان قد هيّأ حقيبته في انتظار وصول سليمان، وأخذ كلّ الأغراض والهدايا، التي اشتراها، إلى السيدة إسلام وابنتها. اقتنى أشياء كثيرة، من الملبوسات خاصة، وبعضُها ثمين، بمعايير القدرة الشرائية في البوسنة كما قالت له فاطمة، وإن بدت له رخيصة السعر قياساً بما هي عليه حال الأسعار في فرنسا. اقتنى ما اقتناه بذوقها، وكان يوهمها بأنه سيأخذ الأغراض المقتناة إلى أمّه وأخته زاعماً أن مقاسهما على مقاسها ومقاس أمها. قَصَد أن يشتري ما اشتراه ليهديه إلى الأم وابنتها؛ فضَّل ذلك على

أن يترك لهما نقوداً لأنه متأكد من أن السيدة إسلام لن تقبل استلامها منه. وحين قدّم الهدايا للأم وابنتها، مَانَعَتَا بشدّة قبل أن ترضخا تحت وابل عبارات القَسَم التي أمطرهما بها، مهدِّداً بأن يمتنع عن زيارتهما، مرةً أخرى، إن رفضتا قبول هداياه. تأثّرتا لكرمه، لكن فاطمة سألته، على نحوٍ فاجأه، عمّا إذا كان قد اقتنى الهدايا، أصلاً، لأهله أم لهما؟ فسألها عن الفارق بين الأمرين، فأجابت:

«لأني لا أريدك أن تكذب».

«وهل كذبت عليك؟».

شعرتْ بالحرج، وربما بالندم، لخروج العبارة منها على غير قصد:

«قلتَ لي، ونحن في السوق، إنك تريد أن تقتني هدايا للأهل».

«وهل كذبت في ذلك؟».

لم تفهم قصده، أما هو فاستطرد قائلاً بذكاءٍ لا يخلو من لؤم:

«ألستُما من أهلي؟ أم إني لم أحْظَ منكما بهذا الشرف بعد؟».

توردت وجنتاها وغضّت البصر، فيما أفاضت الأم في التعبير عن مشاعر الامتنان له، وعن حزنها لفراقه، طالبةً منه أن يزورهما ثانيةً إن سنحت ظروفه. حين وصول سليمان ودّعهما واعداً بأن يزورهما قريباً. انحنى محيّياً، من دون أن يصافح، وحين رفع رأسه لَمَحَ عينيْ فاطمة محتقنتين كأنهما على أهبة الإمطار. تأثَّر للمشهد وتماسك لئلّا يضعف أمام عينين تتكلّمان.

في الطريق إلى زغرب، سأله سليمان إن كان فاتَح المرأتين في أمْر اشتغال فاطمة في بيته، أجابه باقتضاب إنه لم يفعل. ابتسم سليمان وأردف:

«حسناً ما فعلت». وبعد تردّدٍ أضاف: «لعلك أخذْتَ بنصيحتي، فتَبَيَّنْتَ أن مكانها الطبيعي في بيتك هو مكان الزوجة لا الخادمة».

«لا، لم آخذ بنصيحتك، ولكني تركتُ أمر عرْض العمل عليها إلى أبي عبيدة ليقدّمه لهما في رسالة، وحين تبديان موافقة أعود، حينها، إلى البوسنة لآخذ فاطمة».

«زوجة أم شغالة؟»

«ماذا دهاك يا رجل؛ أنا متزوج، ولي بنت».

«وما يمنعك من الزواج ثانيةً؛ دينُك يُبيح لك ذلك، حتى الشيخ مولود (= أبو عبيدة) في ذمته امرأتان، وأنا أعرف الكثير من المجاهدين العرب، المتزوجين سلفاً، اقترنوا ببوسنيات بعد أن انتهت الحرب».

«أنا غير هؤلاء».

«وبِمَ تختلف عنهم؛ ألستَ مسلماً مثلهم؟».

«مسلم والحمد لِله، لكن ذلك ليس من عاداتنا».

«ليس من عادتكم في المغرب أن تتزوجوا أكثر من امرأة؟».

ضحك بصوتٍ عالٍ وعلّق:

«أصبحت عادتنا في المغرب أن لا نتزوّج أصلاً».

*

طيلة الساعتين اللتين قضاهما في الطائرة، عائداً من فرنسا إلى المغرب، تزاحمت الصور والأسئلة في رأسه حتى لم يعد يملك أن يرتّب أفكاره. زخّات من صور الأيام الأربعة التي قضاها في سراييفو، في بيتٍ دافئٍ بالعواطف وحرارة الإيمان، وتحت رحمة عينين زرقاوين كسماءِ صيفٍ صافية، وصوتٍ رخيمٍ خفيض، يقارب الهمس، يرافقه في البيت والسوق وفي المنامات. . .، تنهمر عليه، فيراها ويسمعها وكأنها تتجدد على المرأى والمسْمَع؛ وكلمات سليمان عن فاطمة التي تصلح زوجة ترنّ في داخلٍ يكاد أن يستسلم لها ويسْلس القياد؛ يحسبها ينبوع الحكمة ونداء القدر. هل ستصير فاطمة حلالَه حقّاً؟ هل قرَّر ذلك في داخله على نحوٍ لا رجعة عنه؟ كل شيء فيه يقول ذلك؛ إحجامُهُ عن مفاتحة أمّها في أمْر عملها مربّيةً لابنته خيرُ دليلٍ على أن كلمات سليمان، التي ألقاها في روعه، سَقَتْ حقلاً في نفسه ظمِئاً؛ قَبولُه السريع للإقامة ضيفاً على الأسرة ثلاثة أيام يشهد بذلك؛ مناماتُه التي استوطنتْها فاطمة لِلَيَالٍ ثلاث تفضحه؛ شعوره بالانجذاب الشديد إلى فاطمة، منذ اللحظة الأولى، ثم بدخولها في شغاف قلبه سريعاً يدل على ذلك؛ ثم. . . هل ينسى السحب الداكنة التي تجمعت في مقلتيها، لحظة التوديع، وآذنت بالانهمار: ما الذي تعنيه غير أنها بادلتْهُ الشعورَ إياه؟ يكابر حين يقول لرفيقه سليمان إنه أرجأ مفاتحةَ الأمّ في عمل ابنتها عنده إلى حين طلبِ الأمرِ من أبي عبيدة القيامَ بذلك نيابةً عنه. لن ينطلي الأمر على سليمان: ما الذي أتى به إلى سراييفو إذاً؟ إيصال الأمانات؟ كان يسع سليمان أن يقوم بذلك وحده؛ وقد استعمله أبو عبيدة لهذا الغرض مرات عدة. ألم يكن يعلم رفيقُه أنّ ما أتى به هو أن يتأكد من أن ابنة الشيخ عليّ أهلٌ للقيام بتربية ابنته، وتحصيل موافقتها وموافقة أمّها على ذلك؟ ألم يُمْطر مَسْمَع سليمان، طوال

الطريق من فرنسا إلى البوسنة، وقد أخذ منها يوميْن، بالسؤال عمّا إذا كانت ابنة الشيخ ترضى بأن تترك أمّها وحيدةً في البيت للانتقال إلى العمل في فرنسا؟

صورٌ شتّى وأسئلة كثيرة احتلت رأسه طوال طريق الإياب إلى المغرب. وحين كانت الطائرة تتهيأ لأن تحط على أرض المطار، كان يخيَّل إليه أن صفية، أخته، هي مفتاح مشكلة تربية ابنته... لو يستطيع أن يأخذها معه إلى فرنسا.

XI

طوال طريقهما، في السيارة، إلى ميناء طنجة، روت له يارا كيف قضت أيامها في بيت الجدّة أثناء غيابه، وكيف استمتعت باللعب مع ابنتيْ بديعة، وكيف كانت عمتها صفية تهتم بها، وتنام إلى جانبها فتروي لها الحكايات أثناء النوم. وسألته إن كانا حقّاً سيعودان، في عطلة نهاية العام، كما قال لعمها. أجابها بأنه سيفعل إن هي امتثلت لنصائحه وعملت بها، وإن تقدّمت في حفظ القرآن في المدرسة العربية للمهاجرين. ثم أردف سائلاً:

«هل تحبين عمتك صفية؟».

«جدّاً جدّاً».

«ما رأيك إن أتت لتعيش معنا في بوردو؟».

«صحيح ما تقوله؟».

«أنا أسألك».

«سأكون سعيدة جدّاً لأن عمتي طيبة وتحبني، وتلعب معي كثيراً».

«وهل تحدثك في الدين؟».

«نعم، وحدثتني عن جدي وكيف كان يحفّظها القرآن ويعلّمها الصلاة، وعلمتني كثيراً من الكلمات العربية التي لم أكن أعرفها».

«وبمَ كنت تتحدثين مع ابنتيْ بديعة؛ بالعربية أم بالفرنسية؟».

«بالفرنسية».

«ولِمَ؟».

«لأنهما لا تتحدثان معي إلّا بها».

«وبأية لغة تحدثتْ معك أمهُما؟».

«بالفرنسية، لكنها لا تحدّث ولديْها بها».

فسدت أخلاق الأسر المغربية، قال في نفسه، ووصل الفساد إلى الرحامنة! ها هو يستميت، في فرنسا، ليعلّم ابنته العربيّة بينما يضيّعُها أهلُها في بلادها! ألا تكفيهم المدرسة ليتعلم أولادهم فيها هذه اللغة حتى يتداولوها معهم في البيت أيضاً؟! حوقل متنهداً، والتفت إلى يارا يسألها إن كان بها جوع، فأجابت بالنفي، ثم لم تلبث أن استسلمت للنوم.

حين صعدا إلى الباخرة، في مساء اليوم نفسه، أجَّل التفكير في أمْر فاطمة إلى أن يصل إلى إسبانيا، وانصرف همّه إلى ترتيب برنامج السفر بعد أن يبلغ برّ إسبانيا خلال ساعة. كان موزعاً بين الرغبة في الوصول السريع إلى فرنسا للقاء أبي عبيدة، وشكوى حاله وحيرته إليه، عساه أن يجد عنده الجواب الشافي لِمَا ألمَّ به، وبين الرغبة في تمكين يارا من القسط الضروري من الراحة. لقد قطع بها ثماني ساعات بين بن جرير وطنجة لم يتوقف فيها إلّا مرة واحدة في الرباط؛ وهي طفلة صغيرة لا يمكن أن تتحمل المزيد. قرر فوراً أن يبيتا ليلةً في مالقة، وثانيةً في مدريد، وأن يستأنف

المسير في اليوم الأخير إلى بوردو من دون توقف. في الطريق إلى مالقة مرَّ بمدن الساحل الجنوبي الإسباني، التي يُؤخذ بها؛ تعجبه منها طوري مولينوس وماربيا أكثر، على الرغم من أن الباخرة حطت بهم في الجزيرة الخضراء غروباً، ولم يصلَا «بِلْمِدينا» حتى كان الظلام قد بدأ يحُلّ، فيمنع من التمتع بجمال هذه المدن المترامية على أطراف البحر.

أخذه التداعي في الفندق، حين خَلَد ويارا إلى النوم في الغرفة، فاستعصى عليه ترتيب أفكاره؛ فكّر قليلاً في ما عليه أن يبدأ به الحديث مع أبي عبيدة، حين يراه، في شأن التغيير الذي طرأ على مسعاه في سراييفو، وما عساه أن يكون رأي الشيخ في الموضوع. وفكّر في كيف يستقدم أخته صفية إلى فرنسا، وكيف يهيئ لها طلب السفر ووثائقه، وكيف يُقنع أمَّه وأخاه بحاجته إليها. وفكّر في الذي يمكن أن يحصل له لو تسَّرب خبر زواجه إلى كريستين في ما لو تزوّج من فاطمة. وفكّر في أين يُسكنها في فرنسا، وكيف يوزّع وقته ولياليه بينها وبين كريستين، وكيف يبرِر لها غياباته المتكررة عن البيت. وفكّر في كيف يعرّف طفله، إن أنجب من فاطمة، إلى أخته يارا. وفكّر في كيف يستقبل أهله فكرة زواجٍ ثان ليست مألوفة في العائلة ولا عند الجيران والأهالي. ذهنه مشتتٌ، وحِمْل رأسه ثقيل، ولا يدري بدايةً للبداية. قبل أسبوع فقط، كان في غنىً عن هذا كله. لو لم يرافقه سليمان، في رحلته إلى سراييفو، ولم يوسوس كالشيطان في رأسه، لكان في غَنَاءٍ عن كل هذا الهمّ، لكفاه همُّه الذي أَلْجَأَهُ إلى البحث عن مربّية مسلمة لابنته، وهداهُ إلى فاطمة بنصيحةٍ من أبي عبيدة، كي يطمئن إلى بقاء ابنته على دينه.

لم يَجْر حديثهُ في هذا الموضوع مع أبي عبيدة، قبل شهرين، اتفاقاً أو بمحضِ الصدفة، وإنما هو من لجأ إليه يستفتيه رأيه في

مشكلة ألمَّت به وكادت أن تعصف ببيته، بعد أن عصفت بتوازنه وأخرجته عن طوره. عاد إلى البيت صبيحة يومِ أحدٍ ليحْمِل إلى المزرعة غرضاً نسيَه، بعد أن حصل على إذنٍ من المراقب الإداري بالخروج، ففوجئ وهو يهمّ بالدخول إلى الشارع المفضي إلى البيت بحماته تدخل إلى الكنيسة وهي تصطحب يارا. لم يكن يستطيع إيقاف السيارة قرب الكنيسة، أو في مكان قريب، فركنها في مرآب العمارة التي يقطنها، وانطلق راجلاً، مهرولاً، إلى الكنيسة. وقف عند البوابة، منتظراً خروج حماته، وكأنه يقف على الجمر. تأخر خروجها لأكثر من ساعةٍ ونصف نسيَ فيها ما جاء إلى البيت من أجله، وما ينتظره في المزرعة من توبيخٍ واقتطاعٍ مالي من الراتب. لم يعد يهمّه سوى انتشال ابنته من هذه المرأة «الكافرة» الشريرة. تذكَّر أن مثل هذا حدث لابنته مع أمها، وأقسمت له الأخيرة على كتابها بأن الأمر لن يتكرر. تصوَّر أنها قد ضحكت عليه، وكلّفت أمّها الشمطاء بأن تقوم مقامها في تنصير ابنته. داخِلُه يغلي كالمرجل، وأطرافُه ترتعش من شدّة الانفعال. حاول، جاهداً، أن يهدأ لئلّا يرتكب حماقة، وساعده على بعض الهدوء تأخُّر حماته في الخروج.

تفاجأت بوقوفه على مدخل الكنيسة، حين خرجت من الصحن ووقفت على أول الدَّرَج، وبَدَا عليها الاضطراب الشديد. أدركت، للتّو، أنه كان يراقبها أو كلّف أحد أصحابه بمراقبتها فأخبره. تظاهرت بأنها لم تَرَهُ وانحنت تسأل يارا إن كانت أخبرت والدها بأنها تذهب معها إلى الكنيسة، فنفت الصغيرة ثم أشارت بأصبعها إلى أبيها، فطلبت منها جدّتها بأن لا تقول شيئاً. ابتسمت بربارا لعبد الرحيم ابتسامةً بلهاء وكأن وجوده أمامها في ذلك المكان لا يعني لها شيئاً، ولا يرميها بتهمة. لم يردّ التحية، وسألها

تفسير وجود يارا معها في الكنيسة. أجابت بأن نفسَها تاقَتْ لحضور الصلاة، ولم تكن تستطيع أن تترك يارا وحدها في البيت، فأخذتها معها. ثم أضافت، ظنّاً منها أنها تُطَمْئِنُه، أنها أجلستها، مع أطفال آخرين كانوا هناك، في الصفوف الخلفية. حدَّق فيها بقسوة أرادها أن تكون ظاهرة في عينيه، وأمسك يد الصغيرة وراح تاركاً إياها تتخبط في حيرتها.

كانت بربارا تعرف أن ما فعلته سيفجِّر مشكلات لا حصر لها في الأسرة؛ بين ابنتها وزوجها خاصة؛ فقد حذّرتها كريستين من مغبة علم زوجها بأمر ذهابها ويارا إلى الكنيسة، وحاولت ثنيها عن الأمر إيماناً منها بأنه لن ينفع في صرف البنت عن دين والدها، وبأنه مجْلبة للمتاعب. ونأت بنفسها عن الموضوع بَرّاً بقسمها على الإنجيل الذي أقسمتْه أمام عبد الرحيم، حتى إنها لم تطلب من يارا أن تكتم السّر عن أبيها لئلّا ينكشف، يوماً، فتصبح نصيحتُها للبنت حجَّةً عليها، ودليلَ إثبات على ضلوعها في المسألة. هكذا شرحتِ الموضوع لأمّها، وطلبت منها إبعادها عما تفعله، والاحتياط لأية مفاجأة. ها هو يقع ما حذرتها كريستين منه قبل عام، وها إن أبواب المتاعب فُتِحت عليها وعلى ابنتها. شيء واحد لم تفهمه ولم تَدْر له جواباً: كيف جاء عبد الرحيم من عمله بغتة ودَهَمها متلبسة؟ كيف لم تنتبه كريستين لخروجه من المزرعة فتنبّهها بالهاتف؟ لقد اقتنت لهما معاً هاتفيْن محموليْن، من الهواتف الجديدة التي بدأت تنتشر منذ عاميْن في فرنسا، واتفقتا على استعماله في مثل هذه الطوارئ؛ فما الذي حدث حتى سهت كريستين عن تنبيهها، في الوقت المناسب، لئلا تقع في ما وقعت فيه الآن؟! لم تجد بدّاً، وهي في خضمّ دهشتها والحَيْرة، من أن تهاتف كريستين لتخبرها بما حصل، عسى أن تجد سبيلاً إلى

التصرّف الحكيم مع زوجها، أو عسى أن تكون، على الأقل، على علمٍ بما جرى حتى لا تتفاجأ. بعد محاولات عدّة للاتصال بهاتفها المقفَل، يئستْ وأخذت طريقها إلى البيت، وقد وطنت نفسَها على أن لا ترُدّ على أسئلة عبد الرحيم إلّا بعد مَقْدم ابنتها.

لم تجد أحداً في البيت، فزاد قلقُها استفحالاً. أين يكون عبد الرحيم أَخَذَ البنت؟ وماذا لو عادت كريستين ولم تجدها؟ جرّبت للمَّرة العاشرة، أن تتصل بابنتها من دون جدوى. مرت ساعتان قبل أن يصل عبد الرحيم ويارا. تنفست الصعداء حينما رأت الصغيرة. لكنها لم تتلق من والدها سؤالاً، مثلما توقعت؛ إذ ما لبث الأخير أن أدخل الصغيرة إلى المنزل وغادر. وحين التقى كريستين في المزرعة لم يحدّثها في الموضوع، ولم يُثِر شكوكها لأنه بَدَا لها عادياً في كلامه وتصرّفاته.

حين وصل إلى المزرعة، كان قد قرَّر تأجيل المواجهة إلى المساء؛ حين العودة من العمل إلى البيت، ونجح في أن يخفيَ غضبه ساعةَ رَأَتْهُ وسألته عن سبب غيابه لثلاث ساعات. اكتفى بأن أجابها أنه نسي الدواء في البيت، وذهب لإحضاره، ففوجئ بأن العلبة فارغة، فذهب يبحث عنه في صيدليات المداومة، لذلك تأخّر. كان يُضمِر غير ما يعلن، وخُيّل إليه أن المعلومات التي استدَرَّها من يارا استدراراً تكفي لإدانة أهل بيته جميعاً، وأولهم كريستين. قَرّر أن يكون حاسماً معها هذه المرّة، أن يجعلها تعرف وجهه الآخر الذي تجهله: الرجل الشرقي المسلم الذي لا يسمح لنفسه بأن تضحك عليه امرأةٌ وتستغفله، مستغلةً ثقَته بها؛ هكذا قال في نفسه. سيكون عليها أن تفهم أنها ارتكبت جريمة لا يشفع لها فيها حبُّه لها. ينبغي أن يعاقبها؛ هكذا قرر، أن يهجرها ويقاطعها، أن يطلب منها أن تغادر أمُّها البيت. هو لا يستطيع أن يغادر البيت ويأخذ

بنته؛ القانون الفرنسي لا يسمح له بأن يأخذ البنت من أمّها. ثم ماذا يفعل بها وحده حتى إن أمكنه ذلك؛ هل عليه أن يترك عمله ليتفرّغ لتربيتها؟! لأول مرة يشعر بأنه أخطأ حين تزوج امرأةً بقيت على دينها. لو نجح في أن يقنعها بدينه فتعتنقه، مثل ما فعل مسلمون كثر مع فرنسيات، لعاش عيشة رضية. هي امرأة طيبة، وصادقة المشاعر، ومخلصة له، وهي إلى ذلك كلّه جميلة، ومنَحَتْه طفلةً كالقمر. لكنها على غير دينه. وهو قَبِل بأن تظل على عقيدتها حين قيل له، من أهل العلم، إن ذلك لا ينافي مبادئ دينه. لكنه يدفع ثمن ذلك، اليوم، من ابنته: أغلى ما لديه في الدنيا. في سبيل يارا، في سبيل أن تظل مسلمةً ولا تُصْرَف عن دين أبيها، مستعدّ أن يموت، أن يرتكب أية حماقة.سوف ترى كريستين إصراره حين يعودان إلى البيت، فيفتح الحديث في ما جرى.

ما قالته يارا له يدين جدَّتها أكثر من أمّها. ولكن، هل يعقل أن لا تكون أمُّها على علمٍ بما تفعله الجدّة مع حفيدتها؟ حسناً فعل حين أخذ يارا من الكنيسة وجلسا في مقهى. طلب لها عصيراً وطلب لنفسه فنجان قهوة، وبدأ يسألها. شعر أن الصغيرة خائفة، أدرك من خوفها أن وراءه سراً تخفيه. أفلح في جعلها تشعر بالأمان، وقال لها إنه سيأخذها معه إلى المغرب إن أطاعتْه، واستمعت إلى نصائحه، وحفظت القرآن جيداً في مدرسة أبناء المهاجرين. حدَّثها عن أمّه وإخوته وأخواته وأبنائهم، عن البحر الذي سيقطعانه بالباخرة للوصول إلى المغرب، والذي سيظلان يريانه على امتداد الطريق بالسيارة إلى الدار البيضاء. وحدثها عن أنواع الحيوانات التي ستراها في بلدته، وستستمتع بركوبها. ثم ما لبث أن غيَّر الموضوع، بعد أن لاحظ أثر إغراء السفر عليها، فَذَكَر أن أكثر ما يرضي الله هو أن يكون المرءُ صادقاً ولا يكذب؛ فالذين يكذبون يعاقبهم الله، ولا

ينجحون في الدنيا. توقف قليلاً ليقيس أثر كلماته فيها، فلاحظ أنها هادئة وقد جلا عنها الوجل، فسألها:

«كم من مرة ذهبتِ إلى الكنيسة مع جدّتك؟».

نظرت إليه بعينين داهمهما الخوف، فجأةً، ولم تجب.

«ألم أطلب منك أن تكوني صريحةً معي، كي تكوني جديرةً بثقتي بك، وآخذك معي إلى المغرب؛ لماذا لم تجيبيني عن سؤالي؟».

«طلبتْ مني جدتي أن لا أخبرك بأنني أرافقها إلى الكنيسة».

«جدّتك فقط أم الجدّة والماما؟».

«جدتي فقط».

«لا تكذبي، يابنتي، فالكذب حرام».

«لا، لا أكذب».

«منذ متى وأنت تذهبين معها إلى الكنيسة؟».

لم تجبه، . .

«إن لم تقولي سأسأل الماما وأعرف منها كل شيء».

«ماما لا تعرف شيئاً عن ذهابنا».

«ومن أدراك أنها لا تعرف؟».

«لأن جدتي طلبت مني أن لا أخبرها هي الأخرى».

أربكه جوابُها؛ برَّأَ ساحة كريستين من مواطأةِ أمّها على الأمر. لم يستسلم لخاطر البراءة، فسألها للتوّ:

«وأمّك ألم تسألْكِ يوماً أين تأخذك جدّتك يوم الأحد؟».

«لا لم تسألني».

«وفي الأيام الأخرى، التي تكونين فيها في المدرسة، ألا تسألك ماذا فعلتِ خلال اليوم؟».

«بلى، تسألني كلّ يوم».

وَجَدَ دليلاً على صحّة شكوكه. ما معنى أن تعزف عن سؤالها أيام الأحد فحسب؟ لا بدَّ أن ترتيباً بين كريستين وأمّها جرى، وقضى بأن تتجاهل الأولى سؤال الصغيرة عن أيام الآحاد حتى لا تخبرها يارا بأنها تذهب إلى الكنيسة، فيصبح ذلك حجةً عليها إن تسرَّب الخبر إليه، هو، فسأل البنت عن علم أمّها بمرافقة الجدّة إلى الكنيسة. دارت هذه الخواطر في رأسه، واستبقاها كأنها من اليقين، وإلى اليقين أقرب. واكتفى بأن قال ليارا:

«سوف أخاصمك للأبد إن ذهبْتِ، مرةً أخرى، إلى الكنيسة. أنت مسلمةٌ يا ابنتي ولستِ مسيحية».

«وما الفرق يا بابا؟».

«ستعرفين الفرق حين تكبرين. المهم الآن أن لا تذهبي، ثانيةً، إلى الكنيسة وإلّا لن تريْ وجهي بعدها. وعليكِ أن لا تخبري أحداً من زميلاتك المسلمات، ومن زملائك المسلمين، بأنك ذهبْتِ يوماً إلى الكنيسة».

«ولكنك قلتَ لي، قبل قليل، إنّ الكذب حرام!.»

«اسمعي ما أقوله لكِ ولا تجادليني؛ لا أريد أن أسمع أنّ أحداً عَلِم بذهابك إلى الكنيسة، مفهوم؟».

«مفهوم».

حين عادا متجهيْن نحو البيت، في نهاية المساء، لاحظت كريستين أنه تجنَّب الحديث معها في السيارة طوال الطريق. سألته إن كان يشعر بالتعب، فأجابها أنه يشعر بالرغبة في الموت. أدهشها كلامه وسألت ما الأمر، فطلب منها تأجيل الحديث إلى حين الوصول إلى البيت. أدركت، على الفور، وهما يَهمّان بدخول المدينة، أن شيئاً ما حصل صباحاً أثناء ذهابه من المزرعة إلى البيت، وقد يكون اكتشف ذهاب يارا مع أمها إلى الكنيسة. انتبهت إلى أنه فاتها تذكّر أن اليوم يوم أحد، وأنها نسيت سؤال أمّها، بالهاتف، إن كان ذهابهما إلى الكنيسة مرَّ بسلام.

بدا شديدَ الانفعال في البيت وهو يسأل حماتَه في شأن ما جرى صباح ذلك اليوم. كانت الأخيرة قد عرفت من حفيدتها أن والدها عَلِم بالتفاصيل، وجرّبتْ، لمرات عدة، أن تحادث كريستين بالهاتف، لكن لم تفتحه طوال اليوم. اضطرت باربارا أن تكرّر ما قالتْهُ له صباحاً عن اضطرارها لأخذ يارا معها إلى الكنيسة، حتى لا تتركها في البيت وحدها. وهي كررت ذلك بعد أن تأكدت من أن حفيدتَها لم تَرْوِ كلّ شيء لأبيها؛ ولم ترْو له، مثلاً أنها كانت تلقّنها في البيت تربية دينية، وتعلّمها قراءة الإنجيل، وتحدّثها عن ماريا ويسوع. . .، ربّما لأن الصغيرة خشيت من أن تروي كل شيء عن جدتها حين لاحظت انفعال أبيها. أمّا كريستين فلاذت بصمتٍ لم يَقْطعه غيرُ بكاءٍ مكتوم. وحين التفت إليها يسألها تفسيرَ ما فعلتْه أمّها، نهضت إلى غرفة النوم مفضلةً حديثاً على انفراد على مواجهةٍ أمام أمّها لم تكن تطيقها، ولا كانت تَأْمَنْ مما يمكن أن تنتهيَ إليه.

حين اختلى بها في الغرفة، لم يُعِد طرح السؤال عليها من جديد، مثلما توقّعت، بل سألها إن كانت متفقة ـ من ورائه ـ مع أمّها على أن تقوم هي مقامها في تنصير البنت. بهتت كريستين

للسؤال المفاجئ، لكنها تماسكت وأجابت بالنفي، وأضافت أن في وسعه أن يسأل أمّها، أو يارا حتى، إن كانت هي تعلم شيئاً مما اكتشفتْهُ معه اليوم.

«هل يُعْقل أن تفعل أمُّك شيئاً لابنتك من ورائك، من دون علمٍ منك به؟».

«اسألها هي ولا تسألني».

«أنا لا يعنيني أمرُها، ولا علاقة لي بها، أسألك أنتِ التي وعدْتِني أن لا تفعلي ثانيةً ما فعلتِه قبلاً».

«وهل وجدْتَني آخذ البنت إلى الكنيسة؟».

«وجدْتُ أمَّك تفعل ذلك نيابةً عنك».

«ولماذا تتهمني، ظِنَّةً، بشيء لم أرتكبه؟».

«سأصدّقك فقط إن أقسمتِ على كتابِك بأنه لا عِلم لك بما جرى».

«لا، لن أفعل».

«إذن، فأنت تثبتين لي تورُّطك معها في المؤامرة».

أجهشت بكاءً، وهو صامت، ثم تماسكت قليلاً ورفعت رأسها قائلة:

«تتصرف معي بقسوةٍ لا أدري لها سبباً؛ هل أساتُ إليك؟».

«ماذا تسمّين هذا الذي جرى؟».

«لستُ مسؤولة عنه، وأنت تعرف هذا جيداً، لكنك تَلْتَذُّ بإهانتي، خصوصاً أمام أمّي وابنتي».

«أنا الذي أهنْتُ نفسي يوم تزوجت. . .».

لم يكمل جملته، أوقفها في اللحظة المناسبة؛ كان ينبغي أن يقول «يوم تزوجت امراةً على غير ديني». حسناً فعلَ بلجْم لسانه وعقْلِه عن الكلام الطائش الجارح. حدقت فيه عميقاً، وفي عينيها مزيج من العتاب واليأس والغضب. أهانها، نعم، لكنها نصفُ إهانةٍ يحمد الله أنها لم تكتمل. أما كريستين فسرعان ما توثبت فيها روح التحدي الإيجابي، فعلّقت:

«أنا لست نادمة على الزواج».

غلبته وأخجلتْه. فعلتْ به ما يأمرُها به دينُها؛ قالت له يوماً إنّ من تعاليم المسيح أن « مَن صَفَعك على خدِّك الأيمن، فأدِرْ له خدَّك الأيسر». هو لن يدير لها خدّهُ الأيسر؛ سيردُّ لها الصاع صاعيْن في يومٍ ما.

خفَّ إلى أبي عبيدة، مساء اليوم الثاني، ليروي له ما حصل، ويطلب منه أن ينصَح له بما عليه أن يفعل. التقاهُ في المسجد، وجلس إليه بعد صلاة العشاء. استمع إليه الأخير باهتمام وأجابه على الفور:

«عليك أن تسلك أمريْن: أن تُبعد حماتَك عن بنتك لأنها صوتُ الشيطان في بيتك، وأن تعثُر لك على مربّية مسلمة وعربية، من بنات المهاجرين، لتلقّن ابنتَك أصول الدين وتعلّمها العربية».

«بارك الله في رأيك الذي رأيتَ يا شيخ؛ ولكن كيف لي أن أجدَ مسلمة أثق بها وأعهد إليها بتربية صغيرتي؟».

«أترك هذا الأمر لي، سأتدبّره بإذن الله».

«جزاك الله عنّا كلّ خير. وبمَ تشير عليَّ في شأن التصرف مع زوجتي في شأن ما جرى؟».

«أنت لم تُقِم عليها الحجّة بعد، فلا تأخذها بالظِّنة. وإذا أنت أفلحْت في صرف أمّها عن البيت، تكون قطعت رأس الأفعى».

أعجبه كلام أبي عبيدة، أراح كاهله وصدره من حِمْلٍ ثقيل. كان يخشى أن يقول له « طلِّق زوجتك» وأن هذا هو الموقف الشرعي؛ وهو لا يستطيع عنها فراقاً رغم ما في نفسه من بقيةِ شكٍّ في تواطئها مع امها لتنصير ابنته. برَّأها الشيخ والتمس لها العذر في غياب القرينة على مشاركتها فعْلة أمّها وأفتى بإخراج هذه من البيت. تنهّد عميقاً حين تذكر أن عليه أن يطلب من كريستين عودة أمّها إلى بيتها؛ فهو لا يستطيع ذلك من دون أن يثير حفيظة زوجته، ولن يكفيه تبريره بأنه سيستقدم لها مربّية تقوم مقام جدّتها في العناية بها في البيت، وأخْذها إلى المدرسة، والعودة بها منها. أجَّل التفكير في المسألة لئلا تعكّر عليه صَفْو مزاجٍ صَنَعَتْهُ نصائح أبي عبيدة: الإتيان بمربّية مسلمة وتبرئة ساح كريستين.

مرَّت أيام، لم يعد يذكر كم هي: أربعة أو خمسة، قبل أن يقترح عليه أبو عبيدة ابنة الشيخ البوسني فاطمة مربيّةً، وأن يدعوَه إلى الذهاب بنفسه إلى سرايبفو لهذا الغرض، ويعرج - في الوقت عينه - على أشخاص بعينهم، سمَّاهم له، لإيصال مبالغ دعمٍ للمؤسسات الإسلامية التي يشرفون عليها. وقع الاقتراح في نفسه موقعاً حسناً، وزاد من وقعه الحَسَن أن حماته تركتِ البيت، في اليوم التالي للواقعة، من دون أن يضطر لأن يطلب من كريستين ذلك. وقد رتَّب أن يأخذ إجازته الصيفية بحيث لا توافق إجازة كريستين حتى يتأتى له السفر إلى البوسنة بداعي العمل مع الجمعيات التضامنية - التي كانت زوجتُه تعرف عنها ولا تتدخل في نشاطه فيها - لكنه تذكر أن عليه أن لا يترك يارا بعيدة عن ناظريْه، وتحت رحمة خطر التنصير في غيابه. فزوَّر في نفسه فكرةَ السفر

بها إلى المغرب للتعرّف إلى أهل أبيها، وهو يعلم أن الفكرة لا تغري كريستين، وأن يترك الصغيرة عند أهله ويسافر إلى البوسنة لقضاء أغراضه، ثم يعود إلى المغرب ثانيةً لأخذها معه إلى فرنسا. وهو ما فعله بترتيب دقيق لم يُخِلّ به سوى في سراييفو؛ حين مدَّد إقامته فيها، لثلاث ليالٍ، نزولاً عند إلحاح أرملة الشيخ عليّ. . . وتحت وقْع جاذبية عينيْ فاطمة.

أمامه يومان قبل أن يلتقي أبا عبيدة ويحدثه في ما جَدَّ عليه من هموم لبَّدَت بعضَ ما صَفَا في نفسه حين ألقى إليه الأخيرُ بحبْل النجاة، وهداهُ إلى فكرة المربّية، وطمأنه إلى فائدة أن تكون ابنةُ الشيخ عليّ مَن يقوم على أمور ابنته. عليه أن يرتّب أفكاره، في ما تبقّى له من وقت، حتى يكون مقنعاً. وأخشى ما يخشاه أن لا يَرضى له أبو عبيدة بزواج فاطمة؛ فهو، مثلاً، لم ينصحه ـ في محنته ـ بالزواج من مسلمة لتصحيح خطأ الاقتران بكريستين، وقد يكون اختار لها زوجاً آخر من مئات الشباب المجاهدين الذين يعرفهم في فرنسا وغيرها من بلاد أوروبا، ولا ينتظر سوى مجيئها إلى فرنسا ليعقد لأحد منهم عليها. كدَّرتِ الخاطرةُ مزاجه، وطيّرتْ دبيب النوم الذي سرى إلى رأسه.

XII

سُرَّ، أيما سرور، لمباركة الشيخ أبي عبيدة له فكرة الزواج من فاطمة، ووعده بأن يفاتح أمّها في ذلك في رسالة يبعثها لها لهذا الغرض، وقد يهاتفها إذا قَضتِ الضرورة. بدَّد مخاوفَه من أن يتسرب خبر زواجهما إلى بيته ـ وأبو عبيدة يعرف مصاعب ذلك قانونيّاً عند من يقترن بفرنسية ـ بأن نصحه بأن يعقد قرانها في سراييفو، ويأتي بها إلى فرنسا فيستأجر لها بيتاً تقيم فيه، ويأتيها إلى البيت متى يشاء بداعي العمل في الدعوة، إلى أن يقضي الله أمراً فيعود إلى المغرب بزوجتيْه، وحينها تُخَيَّر الزوجة الفرنسية بين وضع تعيش فيهه مع ضرّة، أحلَّه الإسلام لأتباعه، وبين أن تنفصل عنه وتعود إلى فرنسا. قال ذلك لعبد الرحيم بعد أن استشعر أنّ حبَّه لفاطمة مَلَك عليه نفسَه إلى الحدّ الذي استصغر فيه شأن مشاعر كريستين، وأنّ مخاوفه من تنصير ابنته هزّت ثقته بزوجه، ورفعت في نفسه درجة الرغبة في الاقتران بمسلمة، فكيف إذا كانت هذه بمثل جمال فاطمة: التي رآها هو نفسُه في بيت والدها، قبل ثلاث سنوات، وهي تخطو خطواتها الأولى في المراهقة وآيات البهاء تَحُفّ بها. بقيَ في نفس عبد الرحيم بعضُ شكٍّ في قبول فاطمة وأمّها به عريساً إن عَلِمَتا بأنه متزوج. لكن أبا عبيدة نبَّهه إلى أن المرأتيْن تعرفان شرع الله، ولا تُحَرِّمان ما أحَلّ، وأن الأم لا

تطلب لابنتها أكثر من أن تراها في عهدة زوج يرعاها، وخاصة في مثل ظروفها التي فقدت فيها أفراد أسرتها كافة.

لا يمكن عبد الرحيم أن ينسى ذلك اليوم الذي وعدهُ فيه شيخُه بالزواج؛ كان يوم الجمعة المصادف للثلاثين من الشهر الثامن. لا تشبهه إلّا الأيام الأربعة التي كانت فيها فاطمة تحت ناظريْه بين السادس عشر والتاسع عشر من الشهر نفسه. وهو - قطعاً لا يمكنه أن ينسى أفضال أبي عبيدة عليه منذ تعرَّف إليه قبل عام ونصف. نعم، إنه يكلفه بمهمات خطرة قد تكلفه حياته، ولكنه يكافئه بما لم يكن يخطر له أن يحصل عليه مقابل ما يفعل، حتى إنه جَمَع من هباته وعطاياه أضعافَ أضعافِ ما كان يتقشف في حياته ليوفّره من راتب عمله. ساقَه إليه القدر لأنه يحظى برضا الوالديْن؛ هكذا كان يقول في نفسه كلّما فكَر في باب الرزق الوسيع الذي فتحتْه له الدعوة. لقد أخذ أبو عبيدة لُبَّه مذ عرفه، ولَازَمَهُ ملازمة المريد للشيخ. وحين كان الأخير ينتقي الشباب العرب في فرنسا للقتال في البوسنة، كان مستعداً للذهاب معهم لو طلب منه ذلك شيخه.غير أن هذا آثر تكليفه بمهمات أخرى لوجيستية لم تكن تقل خطورة عن المشاركة في قتال الصرب.

تعرَّف إليه، في ربيع العام ١٩٩٥، حين عاد أبو عبيدة من البوسنة جريحاً، وأجريت له عملية بتْرٍ لساقه اليسرى في باريس، ولينتهي به المطاف إلى المرابطة في مسجد بوردو الذي التقاه فيه أوّل مرة، وهو يعطي درساً دينياً. أبو عبيدة، واسمه الحقيقي سعيد بو زيد، جزائري الجنسية، مقيم في فرنسا منذ عام ١٩٧٢؛ حين ذهب إليها لمتابعة دراساته العليا في الاقتصاد وإدارة الأعمال. وجدَ نفسه يخرج، فجأة، من عالم الانغماس في ملاذّ الحياة لينْضمّ إلى خلية سياسية من خلايا مناصري حركة «فتح» والثورة الفلسطينية،

كان يشرف عليه طلبة فلسطينيون في فرنسا. وقد رُشِّح لتلقي تدريب عسكري في معسكرٍ لـ «فتح» في جنوب لبنان، في نهاية صيف ١٩٧٦، وقضى في الدورة التدريبية شهراً ثم عاد إلى فرنسا في بداية أكتوبر من العام نفسه. وبعد أقل من عامين، وعقب الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان، في ما سمّي بـ «عملية الليطاني» (١٩٧٨)، قرر أن ينتقل إلى لبنان ويتفرغ للثورة. وظل مقاتلاً فيها إلى أن حصل الاجتياح الإسرائيلي للبنان، في صيف ١٩٨٢، وحوصِرت المقاومة الفلسطينية في بيروت لثلاثة أشهر. وحين غادرها مقاتلو الثورة بالبواخر إلى تونس والجزائر واليمن، لم يغادر مع المغادرين، وإنما انتقل مع مَن بقي منهم في لبنان إلى البقاع والهرمل، تحت إمرة القائد خليل الوزير («أبو جهاد»). وحين بدأ الانقسام في «فتح» والاقتتال الداخلي فيها، لم يلتحق بمجموعة «أبو موسى» و«أبو صالح» بل ظل ملازماً لـ «أبو جهاد» وعاملاً في فريقه الأمني المباشر. اشتد عليهم الخناق، فانتقلوا إلى مخيمات البدّاوي ونهر البارد في طرابلس. وظلوا يقاتلون المجموعات الفتحاوية المعارضة، والمدعومة من الجيش السوري، واشتد القتال والحصار بعد وصول ياسر عرفات، من طريق البحر، إلى طرابلس. وحين غادر ياسر عرفات وأبو جهاد والمقاتلون طرابلس اللبنانية، بحماية البحرية الفرنسية، لم يكن يستطيع المغادرة معهم لأنه يحمل الجنسية الفرنسية، ويخشى المتابعة القانونية بسبب اشتراكه في الثورة. آثر أن يبقى في لبنان، وهناك انضم إلى «حركة التوحيد الإسلامي»، التي يقودها الشيخ سعيد شعبان، حليف « فتح»، ثم ما لبث أنِ اختلف مع الحركة، فغادر إلى فرنسا.

لم يعد يستطيع متابعة دروسه في فرنسا بسبب الانقطاع الطويل. توسطت له إحدى الشخصيات الفلسطينية للعمل، فاشتغل ـ مؤقتاً ـ

في السفارة اليمنية في باريس، ثم لم يلبث أن انضم إلى جمعية من جمعيات الدعوة الدينية، مقرّها في بلجيكا ولها فروع في فرنسا. وحين بدأت وفود المقاتلين المسلمين تتقاطر على باكستان، للمشاركة في الحرب على الجيش السوفييتي في أفغانستان، التحق ببيشاور، وهناك تعرَّف إلى الشيخ عبد الله عزام والشيخ علي أورلوفيتش وآخرين، ثم ما لبث أن دخل أفغانستان، وقاتل في صفوف «الحزب الإسلامي» الذي يقوده حكمتيار. ثم انضمّ، بعد سنوات، إلى المقاتلين العرب الذين استقلوا بكتائبهم عن الفصائل الأفغانية، وظل متنقلاً بين بيشاور وقندهار، وبين القتال والأعمال اللوجيستية التموينية في القواعد الخلفية الباكستانية، إلى أن جَلَا السوفييت عن أفغانستان وسقط النظام الموالي لهم، ليعود إلى فرنسا.

ما استقر به المقام طويلاً بفرنسا حتى شد الرحال إلى الجزائر بعد أن أمسك عسكرُها السلطة، وأزاحوا الرئيس، وقطعوا طريق الصعود على الإسلاميين. حمل سعيد بوزيد السلاح، أسوة بآلاف شباب «جيش الإنقاذ الإسلامي»، وشارك في عمليات هجوم عدّة على وحدات الجيش والدّرك، ثم ما لبث أن التحق بـ «الجماعة الإسلامية المسلحة». لكنه اضطر إلى الفرار إلى تونس، عقب مطاردة كاد أن يقع فيها، ومنها إلى فرنسا حيث قرَّر الذهاب إلى القتال في الشيشان. غير أن مبعوثاً من الحاج علي أورلوفيتش أفهمه بأن المجاهدين في البوسنة يَحتاجون إليه، وإلى قيامه بتجنيد متطوعين عرب ومسلمين، وأن عليه أن ينهض بهذه المهمة نصرةً لإخوانهم المسلمين في البوسنة. لم يكن يملك ترف ردّ الطلب؛ فهو وهب نفسَه للدعوة والجهاد منذ غادر إلى أفغانستان، في أوائل الثمانينيات، غير أنه يعرف ـ في الوقت نفسه ـ أن تجنيد الشباب وتسفيرهم يتطلب أموالاً لا يملكها. ولم يَطُل به التفكير حتى عثر

على ضالته في جمعية إسلامية أنشأها متمولون عرب ومسلمون لهذا الغرض. أُغْدِق عليه المال بغير حساب، وجاءه من يُسِرّ له بأن شخصية عربية استخباراتية مرموقة في انتظاره في سفارة بلدها في باريس للبحث معه في برنامج عملٍ لنصرة أهل البوسنة. توجَّه إلى السفارة والتقى مسؤولاً كبيراً بحث معه في التفاصيل: الأعداد المطلوبة من المتطوعين، طرق ووسائل نقلهم، المبالغ المالية المطلوبة لتغطية العملية، أموال المساعدات المدنية للأهالي والنازحين واللاجئين... إلخ. خرج من الاجتماع منتشياً؛ ظفر بما لم يكن يحسبه في حكم الإمكان. لكنه ما رضيَ لنفسه أن يظل في فرنسا يدير العمليات اللوجيستية بينما نداء الجهاد يتردد صدىً في نفسه. قرَّر أن يترك مساعداً له يقوم مقامه في تدبير التجنيد والإرسال، وشدَّ الرحال إلى البوسنة.

تحوّل هناك إلى أمير من أمراء الجهاد، وقاد مجموعات مسلحة من المتطوعين العرب والمسلمين تجاوزَ عدد مقاتليها مائتين. ومع أنه تخطى الخامسة والأربعين، ظل يقاتل ويقود جنوده في المعارك غير مهتاب أو متردّد. وحينما كان يُنْصَح بالتخلف عن المشاركة في العمليات الخاصة، على الأقل، لانطوائها على مخاطر، وللحاجة إلى أعداد قليلة من المقاتلين فيها، من ذوي اللياقات البدنية من الشباب، كان يضحك ويردّ أنه يتأسى بالنبي الذي ظل يقاتل وقد جاوز سنُّه الخمسين بكثير. في مطلع فبراير من العام ١٩٩٥، وقبل أحد عشر شهراً من انتهاء الحرب، شارك في عملية لتحرير ستة أسرى من المقاتلين البوسنيين والمتطوعين سقطوا في فخّ نصبته لهم القوى الصربية. كان يتمركز بمقاتليه في منطقة جبلية في الضواحي الغربية لمدينة سراييفو، وأرسل من يستطلع معلومات عن موقع احتجاز الأسرى. كانت المعلومات مضطربة وغير مؤكدة، ولم يكن

يستطيع أن يبنيَ عليها خطة. فكَّر في أن السبيل الوحيدة للتحقق منها أن يذهب بنفسه إلى سراييفو المحاصَرة، ويلتقي ضباط الاستخبارات للمساعدة. أخذ معه ثلاثة من الشباب المقاتلين وانحدروا راجلين، ولمسافة طويلة، نحو المطار. القذائف تتساقط والثلوج تزحف وتكسو الفضاء. بعد مسيرة عشر ساعات، دخلوا النفق الرابط بين المطار والمدينة، الذي احتفره البوسنيون بإشراف علي عزّت بيغوفيتش، وترك الشباب إلى وجهة ـ يعلَمُها ـ قَصَدَها وحده. تأكد من أن المعلومات، التي لديه عن موقع احتجاز الأسرى، ليست مؤكدة، ووُعِدَ بأن يزوَّد بما توفّر منها. عاد مع الشباب الثلاثة في اليوم التالي فجراً. قبل أن يصلوا إلى موقع وحدتهم القتالية بقليل، اشتد القصف المدْفعي على المنطقة الجبلية التي هم فيها، على بعد أربعة كيلومترات من هدفهم. تواروا خلف الصخور والأشجار، وتأكدوا من أن مواجهةً شرسة تحدث الآن بين مجموعتهم المسلحة والقوات الصربية، وأن مجموعتهم تفرقت على مواقع متعددة لتشتيت أهداف العدوّ، وأن إحداها قريبة منهم. لا بدَّ أن الصرب يحاولون تمشيط المنطقة برمّتها بالمدفعية، لأنه أدرك من أصوات القصف أن دائرة أهدافها موسَّعة. اضطرَّهم وابلُ القذائف المنهمرة إلى البقاء حيث هم لساعات. لم يكونوا يحملون غير بنادق الكلاشنكوف وجهاز اتصال تَعَطَّل فجأة وهم يحاولون استخدامه. هدأ القصف حين اتخذ قراراً باستئناف السير نحو موقع وحدتهم، لكنه تجدد بعد دقائق من مبارحتهم مخبأهم الصخري. انبطحوا أرضاً، لئلا تصيبهم شظايا القذائف، وزحفوا مسرعين ليدركوا الشطر الكثيف من الغابة الذي لا يبعد عنهم إلّا بعشرات الأمتار. وفجأة تنفجر قذيفة ويطير جسمه في الأعلى ويهبط كمن يَهوي من قمة جبل. لم يعد يذكر شيئاً غير طنين الأذنين، وخدراً كخدر النوم.

حين أفاق من غيبوبته، بعد يوم كامل، وجد نفسه في خيمة المعسكر، محاطاً بالمقاتلين وطبيب الوحدة يغيّر ضمادات جراحاته في أنحاء مختلفة من الجسم. ألمٌ حادّ في ساقه اليسرى ورأسِه والظهرِ، والإحساسُ بالضَّعف الشديد يسري فيه. استبشر المقاتلون باستفاقته من الغيبوبة، وتقاطرت عليه عبارات التهنئة بالسلامة. سأل عمّا يحدث فأخبروه بأن شظايا القذيفة أصابته إصابة مباشرة في رجله، وأصابت المقاتل عبد الودود المصري معه. سأل أين هو، فبادر الطبيب بالقول إنه يخضع للعلاج في خيمة أخرى. قال ذلك حتى لا يخبره أحدٌ بأنه قضى. رووا له كيف سحبوه من الميدان، بصعوبة، وهو ينزف، وكيف أجبرهم القصف على البقاء في الغابة إلى حلول الظلام.

عَلِم، في اليوم التالي، باستشهاد عبد الودود. بكى بكاءً حارّاً وهو يتلو الفاتحة على روحه، ثم عاودته غيبوبة الحمّى. لم يكن في حوزة طبيب الوحدة غير أدوية عادية للجروح؛ ضمادات وكحول، ومَرَاهِمَ للحروق، وحبوبٍ للحمّى، بينما حالة أبي عبيدة أصعب وتحتاج إلى تشخيصٍ دقيق لتقدير مدى التخريب الذي أحدثَتْهُ الشظية في الأنسجة والأوردة والعظم. نقلوه، بواسطة إسعاف القوى الكرواتية، إلى مستشفى ميداني لهذه القوات على الحدود البوسنية ـ الكرواتية. ثم ما لبث أطباء المستشفى أن نقلوه إلى زغرب، وهناك قرّر الأطباء بتر ساقه. لكنه أصرّ على نقله إلى فرنسا عساه يظفر بعلاج يوفّر ساقه من البتر. لم يستطيعوا في المستشفى الباريسي إنقاذه، فكان لا بدّ من عملية البتر. ظل يبكي أمام زواره رِجْلَه التي ستُخْرِجه من الجهاد، وتمنى في أكثر من مرة لو أنه استُشْهد في المعركة على أن يرى نفسه مقعداً، عاجزاً عن الحركة. ومنذ ذلك الحين، لازم مسجد بوردو لا يبرحه؛ يلقي الدروس فيه، ويجيب

أسئلةَ المؤمنين وحاجاتهم، ويدير جمهرةً من الشباب يأتمرون بأمره، بل يجنّد ـ من خلالهم ـ شباباً آخرين للقتال في البوسنة.

❊

منذ أخبره الشيخ أبو عبيدة بموافقة أرملة الشيخ علي أورلوفيتش على الاقتران بابنتها فاطمة ـ وكان ذلك قبل أسبوعين ـ وعبد الرحيم في حالٍ من الذهول والحيرة لم تبرحاه. ذهل لأنه لم يكن يصدّق أو يتوقع أن توافق المرأة على زواج ابنتها من رجلٍ لا يشك في أنّ أبا عبيدة أعلمها بأنه متزوج، وقد يكون أعلمها بأن زوجه على غير دينه. وذهل لأن فكرة الاقتران بامرأة ثانية كبرت على نفسه، بعد ان استسهلها في البداية، وعَظُم شأنُها في حساب حياته. واحتار لأنه لا يعرف من أين يبدأ، ولا كيف يبدأ. يعرف أن عليه، بعد شهر، أن يسافر إلى سراييفو لإنجاز معاملات عقد النكاح كما اتفق مع أبي عبيدة. ولكن، ماذا بعد؟ هل سيأتي بفاطمة إلى فرنسا؟ هل سيستأجر شقة في بوردو لإقامتها؟ كيف يوزّع وقته بين البيتين من دون أن يثير شبهةً عند كريستين؟

لم يَنْجَلِ غبارُ حَيْرته حتى بعد أن أضاف أبو عبيدة إلى نفسه بواعث اطمئنانٍ أخرى. زفّ له خبر العثور على مربّيةٍ تونسية لابنته. فرِحَ فرحاً شديداً لذلك، فهو ـ على الأقل ـ سيعفي نفسَه من مشاق استقدام أخته صفية، ومن عبء الشعور بحرمان أمّه منها، وهي التي تساعدها وتملأ عليها يومَها والبيت، أو بإلجاء أمّه إلى العيش مع إحدى بنتيها خارج بيتها. ولكن بقيَ في نفسه شيء من الشعور بأن وجود مربية تونسية مسلمة ومتعلمة لن يُشبع حاجته إلى تعلُّم ابنته لسان أهلها في الرحامنة؛ اللهجة «العْروُبية الحَرْشة» كما كان يقول. ثم زفّ له أبو عبيدة خبراً آخر فتح أبواباً لم يتخيّلها: التجارة. قال له إن الأوان آن ليتحرر من شقاء الزراعة،

واقترح عليه أن يزوّده بالمال اللازم ليفتح متجراً كبيراً لبيع الملبوسات الشرعية في بوردو. سُرَّ لفكرة فتح متجر، لكنه، لم يجد في فكرة بيع الملبوسات ما يغريه. حاول أن يثنيَ الشيخ عن فكرته، لكن الأخير أبى إلّا ذلك وتمسّك به. قال له، كي يبرّر دواعي اقتراحه، إن المسلمين في فرنسا، ونساءَهم، أصبحوا يُقبلون على اللباس الشرعي أكثر من ذي قبل؛ على الجلاليب والحجاب والشادور. وأغنياؤهم يقتنون الأجواخ الثمينة المستوردة من باكستان، مثل الكشمير الذي تُصنع منه البرانس الفاخرة، ناهيك بأن الشباب المسلم أصبح شغوفاً بارتداء الملابس الأفغانية الطراز، وهذه جميعُها يمكن استيرادها من باكستان وأفغانستان، ويمكنه هو ـ بصفته ـ تاجراً ـ أن يسافر إلى هذين البلديْن لأغراض الاستيراد من دون شبهة. صمت عبد الرحيم قليلاً ثم سأله عمّا إذا كانت تجارته الجديدة سترتب عليه مهمات جهادية في هذين البلدين، فلم يزد أبو عبيدة عن أن قال له إنّ الأمور بمواقيتها، وإن عليه أن لا يتعجَّل معرفة كل شيء، فأحنى رأسه دليل الطاعة.

كان همّه أن يعرف ما إذا كانت حصّته من الأرباح مجزية، لكنه خجل من سؤال أبي عبيدة. يعرف أن الشيخ صاحب رأس المال، وهو لا يملك أن يكون شريكاً فيه، لأن الأمر يتعلق بملايين الفرنكات الفرنسية. ولكنه يعرف أنه لن يعامله معاملة أجير فقط. فكّر في وسيلة لاستدراجه إلى الإفصاح عمَّا يؤرقه، فقصده ـ في إحدى العشايا ـ إلى بيته بعد أن طلب منه موعداً بالهاتف. بعد أن أدَّيَا صلاة المغرب، انتحى به أبو عبيدة جانباً، وسأله ما إذا كان قد تهيَّأ نفسياً لاستقبال عمله الجديد، حتى يكلّف أحد أصحابه بالبحث عن عقارٍ للاستخدام التجاري. وجد عبد الرحيم الفرصة لبثِّ مطلبه خِلسةً فقال:

«أشعر، يا شيخ، بالخوف من الفشل في مهنةٍ لا أعرفها».

«لكنك حدثتني، منذ أكثر من عام، بأنك كنت تحلم بتكوين مشروع تجاري، وأنك كنتَ تجمع المال لهذا الغرض».

«هذا صحيح، لكني قلتُ لفضيلتك إنّي صرفتُ النظر عن الموضوع، وفكرتُ، أخيراً، في اقتناء أرضٍ في المغرب لتكوين ضيعة».

«وما يمنعك من العمل في التجارة، هنا، لتوفير المال الذي يسمح لك باقتناء ضيعة؟».

«لا شيء يمنعني سوى أنني أجد عملي في المزرعة مجزياً يُدرُّ عليَّ دخلاً محترماً».

ابتسم أبو عبيدة إذْ أدرك قصده وقال:

«سيكون راتبك في المتجر ضِعْف راتبك في المزرعة وأكثر؛ هل يكفيك مبلغ أربعين ألف فرنك في الشهر؟».

هزَّهُ رقم المبلغ؛ لم يكن يحلم به أو يتخيله. استطرد أبو عبيدة قائلاً:

«ولك مكافآت أخرى على كلّ مهمّة أكلفك بها في باكستان وبلاد الأفغان كلما ذهبت هناك إلى تجارك».

«أطال الله عمرك، يا مولانا الشيخ، وأبقاك لنا ذُخراً وملاذاً. أنا تحت أمرك في ما تراه وترضاه».

طلب من شيخه تزويده بمعلومات عن باكستان وأفغانستان، لعميق معرفته لهما، فاستمهله إلى الغد حيث سيلقي درساً في المسجد حول الجهاد الإسلامي في أفغانستان بعد صلاة العشاء.

*

غصّ المسجد بالأتباع وبغير الأتباع. أتوا جميعاً لحضور درس أبي عبيدة في موضوع «الفريضة الغائبة» (الجهاد). لاحظ عبد الرحيم أن كثيراً ممن حضروا ليسوا ممن يختلفون إلى المسجد، لعلهم أتوا من مدن أخرى، ربما من بواتييه أو تولوز. لكنه لاحظ، أيضاً، أن الشيخ يعرفهم واحداً واحداً بالاسم، فلعلّهم ـ إذاً ـ من جند الدعوة ومن مريديه. خيِّل إلى عبد الرحيم أنه وحده يعلم بموضوع الدرس، وأنه سيتناول الجهاد الأفغاني وليس الجهاد بعامّة، وهو يعرف أن درس «الفريضة الغائبة» تكرّر كثيراً في أحاديث الشيخ في العام الأخير؛ فقد حدثهم عن الجهاد في فقه الجهاد، وكان كلامه صعب الفهم عليه؛ خاصة حين أتى على سرد مواقف علماء الإسلام منه، مثل الإمام الأوزاعي وابن تيمية وآخرين لا يذكر، اليوم، أسماءهم. لكن كلامَه يصبح مبسَّطاً ومفهوماً حين يأتي فيه على ذكر حركات الجهاد وتجاربها المعاصرة في أفغانستان، إبان الاحتلال السوفييتي، وفي الشيشان، والجزائر، والبوسنة والهرسك، وفي فلسطين ولبنان. وهو، اليوم، مغمور بالأمل في أن يستمع إلى درسٍ عن حركات الجهاد الجديدة في أفغانستان، لا عن مواقف الفقهاء حيث تعجز مداركهُ عن التسَقّط والخَزْن. وهو إلى ذلك مدفوع بدافعٍ آخر: سيصبح، عمّا قريب، مرتبطاً ببلاد الأفغان عبر التجارة، ومِن خلال ما سيكلفه به الشيخ من مهمات لا يعرف عنها شيئاً حتى الآن، ولا يخالها إلّا على مثال ما كان يَكِلُه إليه من مهمات في حرب البوسنة.

بدأ الشيخ حديثه بسرد أحاديث الرسول وكبار صحابته الحاضّة على الجهاد، والتشنيع على من لم يأخذوا به ماضياً وحاضراً. استمع، كغيره، من دون أن يفوتَه أنه سَمِع مثل هذا الكلام في دروس عدة سابقة. ثم ما لبث أن أصيبَ بخيبة حين عرج الشيخ

على فقه الجهاد وفتاواه الأولى في بداية القرن الثاني للهجرة. لم يكن يستطيع أن يتابع الدرس بتركيز شديد؛ لصعوبة حديثٍ يتطلب مستمعاً خاصّاً على قدْرٍ من الإلمام بالأصول، ثم لأن أبا عبيدة يتحدث بعربيةٍ فصحى تفوق مداركه، ولا يكاد أن يتنازل عن تعقدها إلى المبسَّط المفهوم إلّا حين يقدّم أمثلةً من التاريخ، أو حين يجنح للكلام في السياسة. تشتَّت ذهنُه، وانزاح عن جوّ الإصغاء العام، داهمتْهُ صور أفغانستان وباكستان؛ هذا العالم الجديد الذي سيُقْذَف إليه من دون سابقِ معرفة. ولكن، هكذا بَدَا له الأمر، أول مرة، حين كلّفه أبو عبيدة بالذهاب إلى البوسنة، ثم لم يلبث قلقُه أن تبدَّد بعد أول سفرةٍ إلى الحدود البوسنيّة ـ الكرواتية. سيحصل الشيء نفسه هناك، حينما يشُدّ الرحال، كتاجرٍ، إلى ذلك العالم. يتذكر أن المسافة بين الوجهتين مختلفة: البوسنة أقرب إلى فرنسا، حتى وإن أخذت بالبرّ يومين أو ثلاثة. هكذا، على الأقل، يشعر من دون أن يلقي بالاً إلى أن الطائرة تختصر المسافة. لكنه سيذهب، هذه المرة، إلى مكانٍ لا حرب فيه، ومعنى ذلك أن المهمات الجهادية، التي سيكلفه بها أبو عبيدة، لن تكون قتالية. وهي في البوسنة لم تكن قتالية، على الرغم من أنه كان جاهزاً للمشاركة في القتال لو طلب منه شيخُه ذلك.

ردّهُ اسم «طالبان» إلى الدّرس؛ ركز الانتباه حتى لا يضيع منه تفصيل. فَهِمَ من حديث الشيخ أن «طالبان»، في لغة الباشتون، جمعٌ لمفردة طالب، وهم طلبة المدارس الدينية الذين تلقوا دراستهم خارج أفغانستان؛ في باكستان والهند. وأن حركتهم قامت احتجاجاً على الفوضى التي مزقت بلدهم بعد سيطرة المجاهدين عليها، واندلاع الصراعات المسلحة بينهم. سمع كلاماً كثيراً عن قيادات وأشخاص لعبوا أدواراً كبيرة، في ذلك الصراع، مثل حكمتيار،

وبرهان الدين رباني، وصبغة الله مجدّدي، وأحزاب مثل «الحزب الإسلامي»، و«الجمعية الإسلامية»، وجماعات أفغانية مثل الباشتون، والهازار، والطاجيك، والأوزبك، . . .، لكنه لم يفهم شيئاً منها، مُمَنِّياً نفسه بسؤال شيخه الإيضاحَ والبيان في شأنها في ما بعد. حدّثهم أبو عبيدة، أيضاً، عن النجاح المذهل لحركة «طالبان» في بسط سيطرتها على البلاد، وإنهاء حال الفوضى، في معظم بلاد الأفغان، وحدّثهم عن «أمير المؤمنين» المُلّا محمد عمر، وتمسكه برسوم الدين، وأخلاق الأوّلين في التقشف، وبساطة العيش، ونبذ المظاهر الكسروية وظواهر التحلّل من تعاليم الدين التي شاعت، في عالم المسلمين، باسم المدنية. وبشَّرهم بأن عهد الخلافة بدأ من بلاد الأفغان، ولن يلبث أن يعُمَّ ديار المسلمين كافة، إن قام في كل قطرٍ من أقطارها عصابةٌ من المؤمنين على شاكلة «طالبان».

حين أنهى الحديث، سأله أحد المريدين إن كانت «طالبان» جاهدت ضدّ السوفييت في مرحلة الاحتلال، فأجابه بأن بعضاً قليلاً من قادتها كان ضمن المجاهدين، أما معظم أفرادها فكانوا تلامذة صغاراً في مرحلة الجهاد الأفغاني. فردّ السائل ثانيةً، مستفسراً عن كيف تعلّموا الحرب وأتقنوا فنونها إلى حدِّ هزيمة المجاهدين، بينما هم لم يشاركوا فيها أثناء الاحتلال، فأجابه الشيخ بأنهم تلقوا تدريبا عسكرياً في باكستان. ثم أردف بالقول إن سرَّ نجاحهم لا يعود إلى كفاءتهم الحربية، وإنما إلى الإيمان والعزم والتصميم، وإلى التفاف الشعب الأفغاني حولهم لإنقاذه من الاقتتال الأهلي. ثم سأله شخص ثان أن يفيدهم، أكثر، بمعلومات عن نشوء الحركة وتطورها ونجاحاتها المتلاحقة، فطفِق أبو عبيدة يسْرد الوقائع بإسرافٍ ودقة، وكأنه يقرأ من كتاب.

تفاصيل كثيرة أوردها الشيخ عن مراحل تأسيس الجماعة

وحروبها وانتصاراتها، لم يتذكر منها عبد الرحيم سوى أنها نشأت في ١٩٩٤ في مدينة قندهار، وأنها نجحت سريعاً، بُعَيْد النشأة، في السيطرة على هذه المدينة في خريف العام نفسه الذي نشأت فيه، وانتقلت منها إلى السيطرة على المدن والبلدات التي كانت معقلاً لحكمتيار، وأنها ظفرت ـ بعد عامٍ واحد من بداية انتصاراتها العسكرية ـ بمعركة العاصمة كابُل التي سقطت في أيديها في نهاية سبتمبر ١٩٩٦ بعد إعدامها، عشية الهجوم، الشيوعي نجيب الله. تذكر أن الحدث هذا حديث جداً، ولا يتجاوز الشهرين. في لحظةٍ من حديثِ أبي عبيدة، لاحظ أن أحد المستمعين إليه رفع إصبعه طلباً للكلام، فاستمهله الشيخ إلى حين انتهائه. وبعد أن ختم بالدعاء لـ «طالبان» بالنصر والتمكين ولـ «أمير المؤمنين» المُلّا عُمَر بالتوفيق والسداد، أشار إلى طالب الكلام بالحديث، فقال الأخير:

ما أعرفه عن شيخنا المجاهد أنك كنتَ تعمل، في أوّل أمركَ في الجهاد الأفغاني، مع «الحزب الإسلامي» وقائده المجاهد حكمتيار، وحتى حينما تركتَ الحزب والتحقت بكتائب المجاهدين العرب، ظلت علاقتك طيبة بالحزب وقائده، وكنت تذكره بخير ـ دوماً ـ كلما حدثتنا عن تلك الفترة من الجهاد الأفغاني. لكني فوجئت، اليوم، بأنك أبديْتَ حماسةً لانتصار مقاتلي «طالبان» في معاركهم ضدّ قوات حكمتيار. وأريد أن أستبين من فضيلتك أسباب هذا الموقف الجديد».

بوركتَ يا بنيّ؛ ما قلتَه صحيح، ويشهد الله أنني بقيت على عهدي في نصرة «الحزب الإسلامي» وزعيمه حتى بداية العام الماضي؛ وحين سقطت غزني في يد «طالبان»، مطلع العام الماضي، وجُرِّدَ مقاتلو «الحزب الإسلامي» من أسلحتهم، ثم سيطرت الحركة ـ في فبراير ٩٥ على معاقل حكمتيار، في «ميدان شهر» بولاية وردك،

لم أنتصر للحركة على الحزب، بل ساءني أن يحصل لمقاتلي حكمتيار ما حصل لهم من قهرٍ وغلبة على يد الحركة. ولكن مشيئة الله قضت بأن يكون الحق في ركاب «طالبان» لا في حروب حكمتيار؛ فلقد أرادت هي بأفغانستان خيراً واستقراراً واتحاداً، وأراد بها هو، وقادةُ الجهاد معه، الاضطراب والاقتتال والتنازع على السلطة. وكم تمنيت لو وضع يده في أيادي قادة الحركة، فاجتمعوا على العمل الصالح، وعلى البناء الصحيح لأركان دولة الإسلام، لكنه آثَرَ ـ من أَسَفٍ ـ أن يخالف خصومه الذين قاتلهم، طوال سنوات، لمواجهة «طالبان» وكأنها عدوٌّ للشعب أو غازٍ جديد يغزو البلد! بينما هو يعلم، أكثر من غيره، أنها حركة إنقاذ وطني بعثها الله تعالى لانتشال بلاد الأفغان من وباء الفوضى واقتتال الأمراء الذي ألَمّ بها، وكاد أن يذهب بريح الجهاد والمجاهدين فيها».

ظل عبد الرحيم يتابع الحوار بين الشيخ وسائِلِهِ إلى أن تشعّب ودخل في مسائل فقهية لا يفهمها، مثل المذهب الحنفي في أفغانستان، وعلاقة «طالبان» بالمذهب وبالحنابلة، ومعنى إمارة المؤمنين التي أقاموها، والفروق بينها وبين ما كان قائماً في البلاد بعد جلاء السوفييت وسيطرة الجماعات الإسلامية على السلطة فيها. حين انتهى الدرس وانفضَّ الجمع، وجد في نفسه حاجةً إلى الاختلاء للتفكير بهدوء في ما سيكون على موعد معه من تغيرات كبيرة في الحياة: عمل جديد، الزواج ثانيةً، مهمات غامضة في بلاد الأفغان. استعظم أمرَ ذلك على ما في داخله من رغبةٍ في الاقتران بفاطمة، وفي تعاطي التجارة. لولا قصة أفغانستان، والسَّفْرات التي سيكون عليه القيام بها متى أَمَرَ الشيخ، لكان في أحسن حال؛ هذا ما خامره وهو يضاهي بين ما يأخذ وما يعطي. فما سيأخذه كثير: فاطمة والربح الوفير، غير أن ما سيعطيه قد يكون أكثر، وربما إلى حدّ ليس يدريه.

وخَزَهُ طَيْف الشيخ، ونظرةُ عينيْه المتوثبة التي تنضح بالذكاء، فتوقف عن قياس الأجر العظيم بالأجر الصغير، الآخرة بالدنيا، واستغفر الله من كل ذنب عظيم. تكفيه ذكرى الشيخ كي تكفّ جماح غريزة الدنيا في نفسه. صورتُه تُطَيِّر من الرأس الخيالات، تجعله طائعاً لصوته المتردّد في أرجائه كالصدى، بين جنبات الدار. يحضُر في الخاطر فيرتفع الشيطان وتكُفّ وساوسُه، كأنه ملاك أو من أولياء الله الصالحين؛ أمثال أولئك الذين تُحْمَل إليهم النذور، ويقف الواقفون على أعتابهم ينتظرون تفريج كربَةٍ، أو البوح بسرّ، أو رفع شكوى ومظْلمة. يتذكر كم من وليّ زاره، وهو طفل صغير، مع أبيه وأخيه عبد الرحمن، كم تخشّع وتضَّرع، وتملّكته هيبة المكان والمقيم تحت ترابه. ها هو الشيخ أبو عبيدة يذكّره بذلك كلّه، بل إن طيفه وصوته يسكنانه ويرافقانه إلى غرفة الاختلاء الزوجي! وها هو يتذكره الآن ويستغفر ربَّه من نزوةِ حساب الدنيا وطلبها. إن طاعة شيخه واجبة عليه، وطاعتُه من طاعة الله، هكذا فسَّر له، مرة، آيةً من الكتاب، وشرحَ له كيف يتنزل أمراء الجهاد والعلم منزلة الأنبياء من الناس، فتكون لهم الإمرة عليهم، ويكون للآخرين واجب الطاعة العمياء على مَنْ وضع الله مقاليد الناس في أيديهم.

لم يستطع أن يفكّر بحرّيةٍ في البيت؛ في عينيْ كريستين أسئلة تنتظر تفريجاً، ومقدارٌ من الشك أو من الحيْرة يتخللها: ليس يدري على التحقيق أيُّهما الأرجح؛ وفي نفسه تردُّدٌ في الإفصاح عن نيته في تبديل عمله من الزراعة إلى التجارة، وفي السفر إلى البوسنة لأداء «مهمة إنسانية». أجَّل ذلك إلى أن يستقيم له الأمران. لا يريد أن يشتري السمك في البحر كما قال في نفسه!

XIII

أصيبت صفية بخيبةٍ شديدة، وأجهشت بكاءً، حين أخبرها عبد الرحمان بأنّ عبد الرحيم لن يستطيع الوفاء بوعده، والمجيء إلى المغرب مصطحباً يارا. اضطرته نوبةُ نشيجها أن يختلق له عذراً مفاده أن عطلة يارا المدرسية، في نهاية العام وأعياد الميلاد، قصيرة ولا تتجاوز أسبوعاً، وهي مدة زمنية لا تكفيه لقطع المسافة بالسيارة من فرنسا إلى المغرب ذهاباً وإياباً. ثم زاد على ذلك، مختلقاً، بأن قال إنه وعده بالمجيء في عطلة فصل الربيع لأن مدّتها أطول. لم يطيّب ذلك خاطرها، ولا أوقف نزيف مقليتها. وحين أمسكت عن البكاء مساء اليوم التالي، دخلت في ما يشبه حالة اكتئاب؛ امتنعت عن الأكل، وأضربت عن العمل في المطبخ، ولاذت بغرفتها لا تحدِّث أحداً ولا تجيب سؤال أحد.

لم يكن عبد الرحمن أحسن حالاً منها، إن قويَ على التجشُّم؛ شعر هو الآخر بالخيبة، وبالحرمان من رؤية الصغيرة بين ذراعيْه. لكن خيبته الأكبر كانت من وعود أخيه التي ما نجح يوماً في الوفاء بها، وما أفلح هو يوماً في استيفائها كديْنٍ للأسرة على ابنها المهاجر. لا يعرف كيف خدعتْهُ هيئة عبد الرحيم المشيخية، وأوحت إليه باستقامة سلوكه تجاه أهله، وخاصة حينما يَعِد ويترك

الموعودين ينتظرون الذي يأتي ولا يأتي. حَسِبَه، هذه المرة، على قَدْر لسانه. وزاد من إقناعه بأن وعدهُ صادق، هذه المرة، أنه حدّثه على الهاتف في مناسبات مختلفة، وقال له في المكالمة ما قبل الأخيرة إنه يَعُدّ الأيام الفاصلة عن عطلة يارا المدرسية حتى يأتيا إلى المغرب، وأن يارا نفسها تسأله، في كلّ مرة، متى يسافران. فاجأه أمس باعتذاره عن عدم المجيء لسببٍ طارئ لم يرغب في أن يفصح عنه. حاول أن يستفهم أمْرَ ذلك الطارئ، غير أن أخاه وعده بأن يخبره بشأنه حين يأذن الله؛ مثلما قال له. لم يلحّ عليه في الطلب، لكنه توجَّس خيفةً من كتمانه السّرّ عنه، على غير عادته، ومن عبارة «حتى يأذن الله» التي فاه بها على سبيل إنهاء الكلام في الموضوع.

حرَّك اعتذارُ عبد الرحيم، وغموضُ أسباب اعتذاره، هواجسَ نائمة في نفس عبد الرحمن. أيقظتها من جديد مكالمتُه الهاتفية المُريبة. لم تكن هواجسُه خيالات أغارت عليه فجأةً، وهو يفكر في أمر أخيه، وإنما هي وُلِدتْ من أسئلةٍ طرحها عليه، قبل شهرين، السي محمد وهما يتحدثاَن ذات مساءٍ في المقهى. سأله الأخير، وهو يستمع إليه راوياً ما دار من حديث بينه وعبد الرحيم على الهاتف، وما اكتنف كلام عبد الرحيم من نصحٍ له في بعض أمور الدين، ومن حثٍّ له على ارتياد المسجد وعدم الدعاء، مع الإمام، لأولي الأمر على جاري العادة في خطب الجمعة. . . :

«هل حدثك، أثناء مجيئه في الصيف، عن جماعة دينية ما في المغرب؟».

«لا، لم يحدّثني في شيء من هذا، لكنه أقلقني بقوله إنّ الكفر يَعُمُّ المغرب، وإن المغاربة ما زالوا يعيشون في الجاهلية، ولم تبْلُغْهُم الدعوةُ بعد».

«هذا كلام خطير، يا عبد الرحمن، ويجدر بك أن لا ترويه لأحدٍ حفاظاً على سلامة أخيك».

«ماذا تقصد يا السي محمد؟».

«أقصد أن الذين يحملون هذه الأفكار ينتمون، عادةً، إلى الجماعات الدينية المتطرفة التي يأخذ أتباعُها بأفكار الغُلاة».

«لم أفهم معنى متطرفة ومعنى غُلاة».

«التطرف هو نفسُه الغُلُوّ، وهو التشدُّد في الالتزام الحرْفي بتعاليم بعض رجال الدين. سأعطيك أمثلة: أنتَ مسلم مؤمن، وكذلك كان والدُك، وحين يأتي من يكفّرك أو يكفّر والدك بدعوى أنكما لا تمارسان «الدين الصحيح»، أي الدين كما يفهمه من يكفّرك، فذلك هو التطرّف والغلُوّ. وعندما يطلب أخوك من أختك الصغرى أن تتحجَّب، بينما لم يفعل ذلك والدُك مع أمِّك، فذلك هو الغلوّ».

«هل أفهم من هذا أن عبد الرحيم مصاب بالتطرف والغلوّ؟».

«وهل لديك شكّ في ذلك؟ عليك أن تسأل إن كان قد انتسب إلى جماعة ما من الجماعات الدينية المتطرفة».

اضطرب لسماع ذلك، فسأل:

«ما الذي يدعوك إلى الظنّ بأنه انتسب إلى جماعةٍ من تلك الجماعات؟».

«لأن حَمْل هذه الأفكار، والإيمان بها، لا يمكن أن يحصل إلّا من طريقيْن: إمّا قراءة كتب هؤلاء الغُلاة، أو التعرُّف عليها في حلقات التكوين التي تنظمها تلك الجماعات للمنتمين إليها. وأعتقد أن عبد الرحيم لم يَطَّلع عليها بالقراءة».

زاد قلقُه احتداماً، وقال:

«ألا ترى من الأنسب أن تتحدث معه في الأمر حين يأتي إلى المغرب في نهاية العام الميلادي؟».

«لا مانع عندي في ذلك، وإنْ كنتُ أشكّ في أن كلامي قد يصرفه عمّا هو فيه».

«ولماذا تعتقد أن كلامك لن يثنيه عن حَمْل هذه الأفكار؟».

«أخشى أن يكون قد رسخ في رأسه أنها هي الإسلام الصحيح، وأن ما يقوله له شيوخُه مقدَّس لا يَقْبل مراجعة، وأن يتمادى فيها إلى أبعد الحدود التي لا تُحْمَد عقباها».

«ماذا لو كان منتمياً إلى جماعة من هذه الجماعات، وتمادى في حَمْل أفكارها، لا قدَّر الله؛ هل سيجلب عليه ذلك متاعب؟».

«أتمنى، حينَها، أن يكون إيمانُه بتلك الأفكار محصوراً في نطاق الإيمان فحسب، وأن لا يتحوّل إلى أفعال».

«أفعال؟ مثل ماذا؟».

لاحظ السي محمد الاضطرابَ بادياً على عبد الرحمن، والمخافةَ تجتاح ملامحَه، فآثر التهوين من هَوْل المسألة قائلاً:

«قد يكون من هذه الأفعال أن ينتدب نفسه لأداء مهمّة الدعوة إلى هذه الأفكار في محيطه الأسري، أصدقائه. وهذا، كما تعلم، مزعج لكثيرين؛ فحين يطلب من أخته، مثلاً أن تضع الحجاب الشرعي كما يسمّيه، أو يطلب منك أن ترتاد المسجد في كل الأوقات، وأن لا تدعو لأولي الأمر مع إمام الصلاة، وحين يرفض زيارة أخيه في السجن لأنه مارق عن الدين كما يعتقد، أليس في ذلك ما يزعج؟ ومَن أدراك بأنه لن يفعل الشيء نفسَه مع زوجته

وابنته وأصدقائه، مع ما سيخلقه ذلك من متاعب لهم وله؟».

«صدقتَ يا السي محمد، اللهم لطفك من هذا...».

«الغُلُوّ».

«نعم، الغُلُوّ».

تلاشت، مع الأيام، هواجسُه التي أوقدها في رأسه حديث السّي محمد، كاد أن ينساها تماماً، في الأسابيع الأخيرة، إلى أن أيقظتها فيه مكالمة عبد الرحيم؛ التي اعتذر له فيها عن عدم المجيء إلى المغرب، لأسباب غمضت عليه في الحديث إلّا من إشارات أقلقته. عبارة مثل «حتى يأذن الله» قد لا تستوقف أحداً، لكن عبد الرحمن يعرف أخاه كثيراً ويقيس نبض كلامه. وهو، مع توجّسه منها، كان يمكنه أن يتخطاها، فلا تستوقفه، لو لم يكن قد لاحظ التغيُّر الذي طرأ على سلوكه في الصيف؛ اللحية المُرْسلة على غير ضابط، والنسك الزائد، والتشدّد في مراقبة سلوك الأقربين...، ثم الإحجام عن الإفصاح عن أسباب الامتناع عن المجِيء. عادت إليه وساوسه، ولكن عاد معها كمٌّ من المشكلات لم يكن يتحسّب له: صدمة صفية من خبر عدم مجيء يارا، خيبته ـ هو نفسه ـ من عبد الرحيم ووعوده، رغبته الجهيضة في ترتيب لقاءٍ بين أخيه والسي محمد عسى أن يكون في هذا اللقاء ما يخفف من غلواء الأول. في وسعه أن يلوذ ببعض الرَّيْث حتى يحصل اللقاء، وفي وسعه أن يعُضّ على جرح خيبته من وعود أخيه، ولكنه لا يقوى على رؤية صفية في هذه الحال من الحزن الذي استبد بها، منذ يومين، فخيَّم على البيت كلِّه. ثم إنه لا يعرف طريقاً أو طريقة لإخراجها منه، أو للتهوين عليها ممّا هي فيه. لم تنفع معها توسّلات أمّها وزينب ورقية لإخراجها من اعتكافتها، ولا نَفَعَ معها

وعودُه لها بِحَثِّ عبد الرحيم على القدوم في أقرب فرصة.

وجد، مرةً أخرى النصيحة المناسِبة من السي محمد. بَاحَ له بمشكلة صفيّة، وبما لاقاه من عُسْرٍ في ثَنْيِها عمّا هي فيه من حزن واعتكاف وإضراب عن الكلام والأكل. فكّر السي محمد قليلاً، ثم قال له:

«ماذا لو تتصل هاتفياً بعبد الرحيم، وتطلب منه أن يحدّثها بنفسه على الهاتف، غداً أو بعد غدٍ، وتَدَعُه يَعِدَها بنفسه بالقدوم قريباً؛ فقد يخفف عليها ذلك ممّا هي فيه من حزنٍ ووجوم».

«والله إنها فكرة حسنة، لكني أخشى أن لا يَفِيَ بوعده، مرةً أخرى، فتسوء العاقبة».

«أترك ذلك للزمن، المهمّ أن تخرج، الآن، من هذه الصدمة التي هي فيها. ولعلّك تطلب منه، أيضاً، أن يجعل ابنتَه يارا تتحدث إلى صفيّة حتى تطمئن نفسها».

«بارك الله فيك يا أستاذ، هذا هو الحلّ».

«إذا استطعتَ إقناع عبد الرحيم بالحديث إلى أخته، وحددت معه موعداً، فقُل لصفيّة إن يارا هي من طلبت من أبيها الحديث إلى عمّتها».

لم يشعر عبد الرحمن إلّا وهو ينحني على رأس السي محمد مقبِلاً! فوجئ الأخير بالحركة ولم يتعودها من هذا الفلّاح الطيب، فجذبه إليه وعانقه. شعر بمقدار الارتياح الذي هبَّ على صدرعبد الرحمن حين فتح له باباً لتفريج كربة أخته، وشعر ـ أكثر ـ بحسّ المسؤولية العالي الذي لديه تجاه أفراد أسرته. قال له:

«سيكون عليك أن تنتظر عودته من العمل إلى البيت ليلاً

لتهاتفه، وهذا يعني أنك لن تستطيع الاتصال به إلّا عند الثامنة مساءً».

«آه؛ أنا لم أخبرك بأنه زوّدني برقم هاتفٍ جديد قال لي إنه يحمله معه في جيبه».

«إذاً، فلديه هاتف محمول».

«لا أدري ما اسمه، لكنه فاجأني بالقول إنه يمكنه أن يتحدث منه من أي مكان».

«هذا الهاتف من المخترعات الجديدة التي صارت شائعة عند الأوروبيين. ومنذ عام أصبح بعض الموسرين المغاربة يقتنونه، لأن سعره غال».

«وكيف شكله يا أستاذ؟».

«يشبه الأجهزة التي يستخدمها رجال الدرك في الحديث بينهم، لكنه أصغر حجماً».

«سبحان الله، وكيف يصل الصوت من دون أسلاك».

«بواسطة الأقمار الصناعية. اسمع هذا الكلام يطول شرحه. المهم أن تُسْرِع في الاتصال به، وطلبِ مساعدته في تهدئة خاطر أختك».

*

لم تكن صفيّة أسعد حالاً ممّا بدت عليه بعد أن تحدثت إلى عبد الرحيم، وخاصةً إلى يارا، بالهاتف. بكت بكاء الفرح وهي تكلِّم يارا، ودمعت عينا عبد الرحمن وهو يراقبها. حتى السي محمد لم يَسْلَم من غارة التأثير العاطفي، فاحتقنت مقلتاه وإن كبتَ الإنزال بقدر ما استطاع إلى ذلك من جَهد. في مثل هذه اللحظات الإنسانية

الحارّة، تتبخّر صرامتُه وتُمْطِر هشاشةً نفسية تفاجِئُه بوطأتها عليه. يعرف، ممّا رواه له عبد الرحمن، أن صفيّة شديدة الارتباط بأخيها عبد الرحيم منذ طفولتها المبكّرة، ربما لأنه كان يلاعبها ويتسَتّر على شغبها، ولم يكن ينهرها مثلما يفعل عبد الرحمن متقمّصاً شخصية الأب، كما لم يكن يُؤْثِر عليها مهدي كما يفعل أخوها الأكبر. لكنه يشعر أن لعاطفتها الجيّاشة تجاه يارا سبباً آخر يعدو محبَّتَها الخاصة لعبد الرحيم، قد تكون العاطفة هذه بوْحاً بأمومةٍ مبكّرة أو مُجْهَضة، وربما تكون متّصلةً برغبةٍ في السفر أشعلها فيها عبد الرحيم نفسُه، حين تمنّى لو أخذها معه إلى فرنسا، كما أخبرهُ بذلك عبد الرحمن. قد لا تكون رغبتُها تلك واضحة، قد تتخفّى أو ترقد في مكانٍ قَصِيّ من نفسها. لكنها، قطعاً، ليست مستبْعَدَة.

أخذهما السي محمد، بسيارته المتهالكة، من بن جرير إلى الدّوار. رافق عبد الرحمن أختَه إلى البيت وعاد إلى صديقه الذي أوصله إلى الضيعة. في طريقهما القصير، التفتَ عبد الرحمن إلى السي محمد، وقال:

«لا أعرف كيف أشكرك وأذكُر فضلك عليَّ يا أستاذ؛ لقد رفعتَ عن صدري غمَّة لا أراكَ اللهُ مثلَها».

«لا فضل لي، ولا شكر يَلْزمُك نحوي، إنما هي فكرةٌ خَطَرتْ لي ولم يكن مفعولها مضموناً، ولكنها نجحت من حسن الحظ».

«بارك الله فيك وفي عقلك الثاقب، ورجائي الوحيد أن لا يخيّب عبد الرحيم أمل صفية والعائلة، مرةً أخرى، فيُحجم عن المجيء في عطلة الربيع القادمة».

«أحسن حلّ لهذه المسألة أن لا تجعل صفية تنتظر موعداً جديداً لمجيئهما».

«وماذا أفعل، إذاً؟».

«أن تأخذها، بين فينة وأخرى، إلى بن جرير للحديث إلى أخيها وابنته، حتى تظل تشعر بالتواصل وعدم الانقطاع. سوف يكلفك ذلك مادياً، لأن الاتصال بهاتفٍ محمول أمرٌ مكلّف...».

«لكن ثمنه أهون من ثمن كآبتها يا أستاذ».

«صدقت».

«ويعلم الله لو أن شفاء صفية مما ألَمَّ بها كَلَّفَني أكثر من ذلك ما بخلت به».

«أعرف كم هي غالية عندك كسائر إخوتك وأخواتك».

«ثم إنها فوق ذلك، يا أستاذ، عمادي الوحيد في القيام على أمور الوالدة. وأنا لا أتصوَّر البيتَ وانتظامَ أموره من دونها».

«احْذَر أن تسمع منك هذا وإلّا حسِبَتْه رفضاً منك لذهابها مع عبد الرحيم إلى فرنسا».

«وهل سأتركها تفعل؟».

حين ودّعه، وهَمّ بالنزول من السيارة، بادره السي محمد بالقول:

«فكّر في الذي قُلْتُه لك عن مهدي»

*

ما زال مهدي مشكلته الأولى التي لا تكاد أن تبرحه؛ تُعَاشر نهارَه وتُدَاهِم ليله. وليتَه وحده تأرَّق بها وكابد! فقد بات سرُّ مهدي عند أهل الأسرة ما خلا أمّه. حدث ذلك بالصدفة السيئة التي لم

يتوقعها عبد الرحمن الذي أحاط سرّ أخيه بالكتمان الشديد؛ فقد نما إلى علم صهره الشعيبي، زوج رقية، أن مهدي معتقل ومحكوم في قضية مخدرات. أخبره بذلك أحد حرّاس السجن من أقربائه علم بما بين مهدي والشعيبي من مصاهرة، وتأكد من ذلك حين رآه مع عبد الرحمن في إحدى زيارات الأخير إليه. تذكر عبد الرحمن على الفور، تذكر أنه رآه في حفل زفاف أخته إلى ابن عمّته الشعيبي قبل سنوات. لم يكن قد صدَّق تماماً مَن أبلغه أن مهدي ابن الرحماني حتى رأى أخاه الأكبر في الزيارة. لم يتريث الشعيبي في الأمر، إذ سارع إلى إخبار زوجته التي انهارت أمامه تحت وقع الصدمة، ثم لم تلبث أن غابت عن الوعي بعد نوبة هبوط حادّ في الضغط. سرى الخبر سريعاً إلى زينب وصفية؛ ولم تكن حالهما تختلف، عند تلقي الخبر، سوى في أن صدمة رقية امتصت بعض الشحنة من صدمتيهما. ومن حظ الأمّ أن صفية تلقَّت النبأ في بيت أختها زينب، فأطلقت العنان لدموعها لتنتقل، سريعاً، إلى بكاءٍ هستيري، فما كان من عبد الرحمن وزينب إلّا أن أجبراها على المبيت عند الأخيرة مخافةَ أن تراها الأم في هذه الحالة. كان على عبد الرحمن، بعد أن استوثق من أخواته من أنّ الخبر لن يصل إلى الولّادة، وبعد أن استحْلفهُنّ على كتمانه، أن يرتّب أمر اختفاء صفية عن البيت ليوم أو يومين. كان عليه أن يدعي أن زينب استبقت صفية عندها ليومٍ أو يومين لمساعدتها في شؤون البيت الذي استقبل ضيوفاً من عائلة زوجها. ثم كان عليه، أن يغطيَ ـ هو ـ ذلك الغياب بالمبيت مع والدته.

ظل خوفه، مع ذلك، شديداً من أن يتناهى إلى أمّه الخبر بطريقٍ أو أخرى. حين أجهشت صفية، بعد أيام من الحادثة، وهي تتذكر مهدي القابع في سجنه، وكان ذلك بمحضر أمّها وعبد

الرحمن، بادر الأخير إلى إجابة سؤال أمّه عن سبب بكائها بأنها اشتاقت إلى يارا، وأنه رآها بالأمس تبكي للسبب نفسه، ووعدها باستعجاله عبدَ الرحيم على القدوم. وحين التمست منها أمّها تأكيداً لقول عبد الرحمن، ردّت بتأكيد كلامه. مرَّت السابقة بسلام، لكنه خشيَ من أن تتكرّر في غيابه، فتضعف صفية وتبوح للوالدة بالسرّ. ولمّا سنحت له فرصة الحديث مع صفية، على انفراد، استحلفها أن لا تُسِرّ بالأمر إلى أمهما مبيّناً لها أن معرفتها ما جرى لمهدي قد يكلفها حياتها، ومهدّداً إيّاها بإخبار عبد الرحيم الذي لن يأتيَ ـ حينها ـ إلى المغرب، مثلما قال لها، لأنه هو نفسُه نبَّهه ـ كما زعم لها ـ إلى أن علمَ أمّه بما حصل لمهدي سيدفعه إلى الإحجام عن العودة إلى المغرب. أقسمت له ـ حينها ـ بأنها لن تفعل.

لم تتبدَّد مخاوفه بقَسَمها، كما لم تتبدد بسبب الخشية من مفاجآت غير متوقعة؛ كأنْ يتسرب الخبر إلى أمّه من ثرثارة من الثرثارات في المنطقة، وهنَّ كثيرات. وقد حاول، في غير مرّة، أن ينبّه صفية إلى ملازمة الوالدة في كل مرةٍ تزورهما فيها زائرة من الدّوار والنواحي، لئلا يقع المحذور. وكان كلما رآها قادمةً إليه بالطعام إلى الضيعة ـ وكان ذلك يحدث في الأيام التي يكون فيها العمل كثيفاً في الأرض ـ يردُّها إلى البيت مؤنّباً، ويحذّرها من مغبَّةِ هذا الطيش الذي قد يكلّف الأسرة ثمناً غالياً، فلا تلبث ـ عندها ـ أن تشعر بخطئها غير المقصود، فَتَجدّ في العودة. ثم كان عليه أن يعمّم التحذير على صهريْه مخافةَ أن ينزلقَ لسانُ أيّ منهما في الحديث أمام الأولاد، أو في جلساتهما مع أصدقائهما. كان يعلم أن الخبر وصل إلى بن جرير، منذ أشهر، وقبل علم الشعيبي به بوقتٍ طويل. أبلغه، بذلك، محمد الحريزي قبيل وصول أخيه عبد الرحيم في الصيف. قال له إنه سمعه من عبد الرزاق، فتوسَّل الأخير بأن لا

يُشيعَه، لكنه أجاب توسُّلات الحريزي بأن الخبر وصل إلى البركاوي، وهذا مثل الإذاعة لا يتوقف. اغتَمَّ عبد الرحمن لذلك وخامره الشك في أن عبد الصمد، صديق مهدي، هو من سرَّب الخبر، لأنه لا أحد في المنطقة غيره، وغير السي محمد، يعرف بما جرى. وحين استفسره في الموضوع، أقسم عبد الصمد، بأغلظ الأيْمان، بأن لا علاقة له بتسريب الخبر، وأنه ليس من أخلاقه أن يسيء إلى أصدقائه وإن اختلف معهم في الرأي والمزاج. أما السي محمد فلم يستبعد فقط تورُّط عبد الصمد، بل أكدّ لعبد الرحمن أن هذا الشاب كان، دائماً، أصدق الناصحين لمهدي، ولم يكن ممّن يمارسون الوشاية والنميمة منذ كان تلميذاً في الإعدادية. وحين سأله عبد الرحمن عمّن عساه أن يكون وراء تسريب الخبر، أجابه على الفور إنها السلطة، وإن أعوانَها الأمنيين من الدرك، والإداريين من شيوخ، يعرفون أوكار النمل في الرحامنة، ولا شيء ممّا يقع فيها من أحداث، أو ما يدور فيها من أحاديث، يَذْهَلون عنه أو يجهلونه. وما كان منه إلّا أن صدّق رواية الأستاذ.

لم يعد يعنيه أن يعرف المصدر الذي منه تَسرَّب الخبر، فتدفَّق من الألسنة على بن جرير، فليكن من يكون؛ أعوان السلطة، أو عبد الصمد، أو حتى العياشي نفسه، المهم عنده أن يتوقف عند عتبة باب الدار لا يعدوها، لئلّا يصيب انفجارُهُ صدرَ الوالدة. شدّد الرقابة، عبر صفية، على الزائرات وأوصى أختيْه بعدم اصطحاب أبنائهما عند زيارة الوالدة. وحين استغربت رقية نصيحته، التي ستحرم الجدةَ من رؤية أحفادها والأحفاد من زيارة جدّتهم، نبَّهَها محتدّاً إلى أن الأولاد لا يخفون شيئاً من الأسرار، وقد تأتي المشاكل منهم لا من غيرهم. ولم ينفع معه تأكيدُها بأن أولادها لا يعلمون شيئاً مما جرى لخالهم، لأنها وزوجها تداولا الخبر من

دون علمهم؛ إذ ردّ عذرها بأنهم قد يسمعون عن الموضوع في المدرسة أو في الدّوار. وقد ثنّت زينب على كلامه ملتزمةً بأن لا تأخذ معها أبناءها عند زيارة أمها، وستتذرّع بوجودهم في المدرسة. لكن المشكلة ظلت قائمة؛ إذ ماذا لو أن الأمّ ألحَّت على رؤية أحفادها، أو طلبت أن تزور ـ بنفسها ـ بنتيْها: كما قالت صفية؟ «الله يستر»: أجاب عبد الرحمن وهو يستصوب حذر أخته الصغرى، ويتطيّر منه في الوقت نفسه.

لم تكن مشكلة مهدي هنا فقط، وإن أرقتْهُ وضاقتْ بها نفسُه، وإنما شغله ما بات يشعر به من تبدُّلٍ سيّئ في أحواله، بعد أن أوحى إليه سلوكُه، في الأشهر الثلاثة الماضية، بأن أموره تحسَّنت واستقامت. اطمأنّ إلى أن طلباته المتكررة للروايات تُفْصح عن استقرارٍ نفسي يعيشه في سجنه، وأن استغراقه في القراءة فألٌ حسن، أو عساه أن يشغله عن الشعور بأنه مذنب وسجين. ويذكر أنه اقتنى له عشر روايات وسبعة كتب في النقد الأدبي في الأشهر الثلاثة تلك، حتى إنه استغرب لإيقاع القراءة السريع عنده، فخشي عليه من إرهاق نفسه وعينيه. وما كان ليستطيع إخفاء سعادته عن السي محمد وهو يروي له كيف يستقبل مهدي الكتب بحماسة حين يحملها إليه في الزيارات الأسبوعية، وما إن يتسلمها حتى يطلب منه كتباً أخرى يسجّل عناوينها على ورقة يدسّها بين يديه. استوقفه مرّة أن السي محمد سأله إن كان يقرأ، حقّاً، ما يحمله إليه من كتب، فاستغرب سؤاله الذي بدا له تشكيكاً غير مبرَّر. وحين طلب منه الأخير تزويده بعناوين الكتب التي دوَّنها له مهدي في وريقات مختلفة، وأتاه بها ذات مساء، قرأها وبدت على صفحة وجهه علامات الدهشة، وصمت. وحين استفسره عبد الرحمن، أجاب أن مهدي مولَعٌ بروائي واحد، وأن كتب النقد التي طلبها لها علاقة

بروايات هذا الروائي، ثم ابتسم مبدياً الأمل في أن يستفيد ممّا يأتيه به من كتب.

لم يكن مرتاحاً لطريقة حديث السي محمد وتعليقاته؛ استشعر فيها ارتياباً في أن مهدي يقرأ، فعلاً، ما يقتنيه له من كتب، وعَدّ ذلك في جملة إساءة ظنّه الدائمة به، منذ دخل السجن. ولم يقطع الأمل في أن يصحّح الأستاذ موقفه من تلميذه حين يقف بنفسه، غداً، على مدى استفادة الأخير من مطالعة الكتب في السجن. تمنى لو أن السي محمد تراجع عن قراره الانقطاع عن مرافقته لزيارة مهدي، بسبب شكوكه في أنه ما زال يتناول المخدرات. إذ لو أنه استأنف عادة الذهاب معه في الزيارات، لاكتشف مقدار التغيّر الملحوظ الذي طرأعلى مزاجه منذ بدأ يقرأ الروايات؛ مثلما لاحظ هو نفسُه،

تغيّرت الأمور، سريعاً، في الزيارتين الأخيرتين. لم يعد يستطيع أن يمنع نفسَه من الشك في أن مهدي كان يتحايل عليه، ولم يكن يقرأ كتباً. لم ينتبه إلى الأمر حين بدأ أخوه يطلب منه النقود لشراء الكتب عبر صديقٍ له يقتنيها ـ مثلما ادّعى ـ بأسعار أرخص، بأن لا يَنْقُدَهُ شيئاً لأنه لن يشتريَ كتباً كما ادّعى. سأله:

«ماذا تعتقد أنه سيفعل بها يا أستاذ؟».

«لا أدري، لكنه ـ قطعاً ـ لن يقتنيَ بها الكتب».

«ولماذا تعتقد ذلك؟».

««لأنك تحْمل إليه الكتب؛ أليس هذا ما كان يطلبه منك؟».

«بلى، ولكنه يطلب الآن شيئاً آخر».

«لا شيء يبرّر طلبه، وقصة الأسعار الرخيصة كلام سخيف.

ويمكنك أن تَرُدَّ حجتّه بأن تطلب منه إرشادك إلى البائع الذي يبيع بالأسعار الرخيصة، فتذهب أنتَ إليه بنفسك».

«قلت له هذا».

«وبمَ أجابك؟»

«قال إن صديقه له دالة على ذلك البائع، ووحده من يستطيع أن يقتني منه الكتب بسعر منخفض».

«إذاً، ما عليك في الزيارة القادمة سوى أن تطلب منه أن يعرّفك بذلك الصديق لتذهب معه لاقتنائها».

حين زاره، بعد ذلك الحديث، مستحسناً فكرة السي محمد، وعرض عليه تعريفه بصديقة لمصاحبته إلى بائع الكتب، انزعج مهدي، وصرخ في وجهه بعنف متهماً أستاذه بأنه هو من يوحي إليه بهذه الأفكار، وأشبع السي محمد شتماً وتشنيعاً مدعياً أنه يحقد عليه، ويكيد له... الخ. وقع قذفُ السي محمد، بالكلام البذيء، وقعاً سيئاً في نفسه، وصغُرت صورةُ أخيه في وجدانه، وركبه التحدي، فقال له:

«لن أفعل إلّا ما يشير عليَّ به الأستاذ، وليس لك عندي سوى أن أحمل إليك ما تطلبه مني من كتب، أما أن أعطيك نقوداً فهذا ما لن أفعل».

تصوّر أنه سيُضرم أعصاب أخيه بكلامه فتوقف عن المزيد، لكنه فوجئ بالأخير يبكي ويتوسّل إليه أن يَنْقُدَهُ مالاً لشراء ما يحتاج. استغرب لتذلّله المفاجئ، وارتاب في الأمر وإن رقّ له وهو يراه في تلك الحال من الضعف. ضغط على عواطفه واصطنع

الحزم مكرّراً أنه لن يحرمه من الحقّ في القراءة، وأنه جاهز دائماً لتلبية طلباته من الكتب التي يريدها، على أن يقتنيها بنفسه، أو يصطحب معه صديقه لاقتنائها. غيّر مهدي سحنة الذِلّة التي ركبته، وخاطب أخاه بحدّةٍ لم يتوقّعها:

«أنا لا أطلب منك صدقة، أطلب مال والدي».

أجابه هازئاً:

«هل ترك لنا الوالد مالاً لا أعرف عنه؟»

«والأرض التي تؤجّرها وتنعم بإيجارها».

«أنا أنعم بإيجارها؟ سامحك الله؛ إنّ ما أصرفه عليك منه، وأنت في سجنك، هو ثلاثة أضعاف ما أصرفه عليّ وعلى أمك وأختك، ويعلم الله أن خَصَاصَتَنَا وتقتّرنا في الحياة إنما هو من وراء مصروفك المجنون. هل تعلم، يا ابني، أنني أنفق عليك شهرياً كل ما أحصل عليه من أجر عملي في الضيعة، وأنه لولا تواضُعُ أهلك في الإنفاق وتقشُّفُهم فيه لمددت يدي أتسوَّل؟».

«أعطني حقوقي السنوية من إيجار الأرض، ولا تسأل عني أو تحمل لي طعاماً».

«إن شئت ذلك سأفعل، ولكن عليك أن تعلم أنّ ما يحقّ لك من إيجارها في عامٍ كامل هو ما أنفقه عليك في شهر واحد».

*

حين أوصله السي محمد إلى باب الضيعة، بعد إيصال صفيّة إلى البيت، وقال له «فكّر في الذي قلته لك عن مهدي»، كان يشير إلى نصيحته له بعدم تسليمه أي فلس مخافة أن يقتني بها

مخدرات؛ فلقد أتاه عبد الرحمن، بعد زيارته الأخيرة لأخيه، محزوناً محطَّم الخاطر، وروى له ما دار بينه وبين مهدي، من دون أن يشير إلى شتائم الأخير لأستاذه. بدا له يائساً وحائراً؛ يائساً من صلاح أمر أخيه، وحائراً في شأن الذي عليه أن يفعله. شعر بما يعتمل في داخله من ألمٍ وحزن وحسرة تجاه أخ عقوق لا يرعى ذمّة، ولا يحفظ كرامةً، أو يردَّ جميلاً ولو باللسان الحسن، وواساهُ بالعبارات المناسبة التي ترفع من معنويات هوَتْ، وقال له ـ في ما قال ـ إنّ ما عليه هو أن يظل ملتزماً نداء الدّم والأخوة تجاه مهدي، من دون أن يترك العواطف تغلبه، وتسوقه إلى مزيدٍ من إفساد من يرجو صلاحه، وأن يستمر في زيارته والنصح له، على جاري عادته، من دون أن ينزل ـ في لحظة ضعفٍ ـ عند طلباته المجنونة. واستصوب سلوكه الممانع ضد ابتزازات مهدي، وشجّعه على التمسك به من غير تفريطٍ في الصدّ، وكبح الجماح، لئلّا يقطع خيط الصلة به، مؤكداً له أنه ما حاد عن الصواب في ما أتاه من سلوك تجاه عقوق مهدي وجنونه، وأن أحداً لا يملك أن يأخذه بجريرةٍ في هذا الذي يفعله. وطيَّب خاطره بعبارات الثناء على مروءته، ممنياً إياه بسرعة تعقُّل مهدي، وإدراكه مقدار ما يقترفه من أخطاء في حقّ وليّ نعمته. ثم ما لبث أن ختم كلامه بما يدرك أنه الترياق الذي تحتاجه نفس عبد الرحمن كي تُشفى من دائها القاتل، فقال:

«ليس لمهدي من الناس غيرك أيها الطيب، فأنت والده الذي ربّاه وعلّمه، وأنفق الغالي والنفيس في سبيل أن يكون رجلاً. إذا كان قد أخطأ في حقّك، وفي حق نفسه، فما عليك إلا أن تساعده في أن يبرأ من خطئه، ويعود إلى رشده، ولسوف تعلّمه محنة السجن كيف يصفو ويكبر، ويدرك كم كنت له العون والسند».

حيث شعر بتأثره الشديد، انتبه - فوراً - إلى ما فيه من هشاشة نفسية، فخشي ضَعفه أمام تيار العواطف الدافق، مما دفعه إلى تغيير لهجته، وتحذيره من مغبّة النزول عند طلب مهدي، ناصحاً إياه بعدم نفحه المال لئلّا يزيد ذلك طباعَهُ فساداً. وما إن لمح آثار ذلك الضعف في عينيه المحتقنتين، بأثرٍ من سماعه كلام السي محمد، حتى اشتد الأخير في التحذير من خطر الاستسلام لرغبات مهدي، لأن الاستسلام لها مَهْلَكَةٌ له، ودفعاً به إلى الانتحار الذي سيكون له - هو - سهم فيه وضلع. توقّف عند هذا الحدّ، الذي بدا له مفعوله النفسي كافياً لثني عبد الرحمن عما قد يُقدم عليه من نزولٍ عند ابتزازات أخيه، واكتفى بأن قال له إنه يتمنى منه أن يصدّق - هذه المرة - حدسه وتحذيره. فما كان من الأخير سوى أن أغضى في ما يشبه التسليم.

لم يصْدقه القول وهو يحذّره، لم يكشف له عن أسباب شكّه في مهدي، ولا عمّا تبلّغه من أخبار ومعلومات عنه، لئلّا يرفع من ضغطه النفسي والمعنويّ، فمثل هذه الصراحة يقتُل، أحياناً، أو يفعل في النفس فعل القتل. وإذا كان هو نفسه لم يصدّق ما قيل له عن مهدي، فكيف لأخيه أن يصدّق؟ وإن هو صدّق، فكيف له أن يتحمّل وقْع الصدمة؟! منذ ما يزيد عن شهر أخبره عبد الصمد، تلميذه القديم وزميل مهدي في المدرسة والجامعة، أن الأخير كان يطلب من عبد الرحمن شراء روايات يعيد بيعها، بسعر أقلّ لفؤاد؛ زميله في الزنزانة الذي يقضي عقوبةً سجنية لاعتدائه المبرّح على عونٍ من «الحرس الجامعي» في كلية الآداب انتقاماً من تحرُّش العون بصديقته. لم يكن معروفاً عن فؤاد اللجوء إلى العنف، لكنه فقد أعصابه حين أخبرته هدى، صديقته، بأن عون «الحرس الجامعي» تحرَّش بها في مناسبات مختلفة، وضايقها إلى حدودٍ لم تعد تتحملها. تَلَاسَنَ الشابان، ثم لم

يدْرِ فؤاد إلا وهو يسدّد لكمة لوجه العون. ولم يكن الأخير قد أفاق من وقْع الفَجْأة وهجم على غريمه، حتى كان هذا يمزّق بطنه بأداةٍ حادةٍ كادت بها أمعاؤه أن تندلق. حُكم على فؤاد بعامين حبساً، ونُقل إلى جناح سجناء الحق العام في السجن. ولأنه كان يتابع دراسته في السنة الرابعة، بشعبة اللغة العربية، وكان سجَّل بحثه للإجازة، للتوّ، قبيل اعتقاله، في موضوع «البنية السردية في روايات حنّا مينة»، فقد آثر أن يستغل فترة سجنه في الاعتكاف لقراءة المتن الروائي لحنّا مينة تمهيداً لإنجاز بحثه.

لم يكن فؤاد حين اعتُقل، وحوكم، ثم نُقل إلى السجن، يعرف من روايات الروائي السوري سوى روايتين: **الشمس في يوم غائم**، و**الياطر**. ولم تكُنِ الروايتان تحت تصرفه؛ فقد استعارهما من مكتبة الكلية، وأعادهما بعد الانتهاء من قراءتهما. كان عليه في سجنه أن يقرأ نصوص مينة، وهي تتجاوز عشرين رواية، في القائمة التي أعطاه إياها أستاذه، وأن يعزّز قراءته بدراسات نقدية حول الإنتاج الروائي، عموماً، وإنتاج حنّا مينة خصوصاً. وتصادف أنه تحدَّث إلى مهدي، زميله في الزنزانة، عن إصراره على إنجاز بحث الإجازة، خلال إقامته في السجن، وعن اعتزامه توفير الروايات والدراسات عنها وقراءتها، فما كان من الأخير سوى أن تلقَّف رغبة فؤاد، بعد أن آنس منها مناسبةً للاهتبال يستطرق منها للحصول على المال لاقتناء الحشيش، مؤكداً له أنه يستطيع أن يوفّر له احتياجاته من الكتب بنصف أسعارها. وحين بهت فؤاد، وهو يستمع إلى عرضه، وسأله كيف سيحصل عليها بنصف سعرها؟ لم يزد الأخير عن القول إنه يعرف كيف يتدبر ذلك من طريق أصدقائه ومعارفه ممن يملكون الحصول عليها بأرخص الأسعار عند باعةٍ يتعاملون معهم.

روى عبد الصمد للسي محمد ذلك كله؛ روى له كيف انطلت حيلة مهدي على أخيه عبد الرحمن، وكيف طفقَ الأخير، مغموراً بالحماسة والفرح، ينفق المال لإجابة طلبات أخيه السجين وفي ظنّه أنه فاء إلى الصواب، واستتبَّ له الاستقرار النفسي في سجنه، وروى له كيف أنه عانى ـ هو شخصياً ـ على الصعيد النفسي، أمام استغفال مهدي لأخيه، من عجْزه عن مصارحة عبد الرحمن بالأمر، وتنبيهه إلى هذا الفخّ الجديد الذي ينصبُه له أخوه مستغلاً حبَّه له، وطيبوبته. لكنه ضرب الأخماس في الأسداس قبل أن يقرّر صرف النظر عن أمر مفاتحته في الموضوع، لئلّا يدقّ الإسفين بين الأخوين من جهة، ولعلمه أن مهدي لن يعدم، من جهةٍ أخرى، وسيلة ثانيةً وثالثة للحصول على المال الذي ينفقه من أجل الحصول على المخدرات، مُؤْثِراً ـ في النهاية ـ إخباره هو ـ أي السي محمد ـ بالأمر ليتدبّر الطريقة المناسبة لتنبيه عبد الرحمن إلى غفلته.

وحين سأله السي محمد عن مصدر معلوماته في هذا الشأن، أجابه بالقول:

«أخبرني فؤاد نفسه في إحدى زياراتي له. نسيت أن أقول لك إنه من معارفي، لأن أخاه سليم من أصدقائي وزملائي في الجامعة، وقد صَحِبْتُ الأخير في زيارته فؤاد في السجن».

«وكيف عرف فؤاد أن بينك ومهدي علاقة حتى يروي لك؟».

«لم يكن يعرف؛ الذي يعرف هو سليم. لكن حديثاً دار بيني وبينه، بحضور سليم، عن رغبته في التحضير لامتحان الإجازة، وإنجاز البحث، دفعني إلى أن أسأله عن موضوع بحثه، وعن المراجع التي يحتاج إليها، وعمّا يمكنني أن أقدّمه له من مساعدة في هذا النطاق. ففاجأني بإخباري بتطوّع زميله في الزنزانة لتوفيرها

بأسعار رخيصة. وحين سألته اسم زميله ـ ولم أكن أعرف حينها أنه يقاسم مهدي الزنزانة ـ قال لي إنه فلان. وقد سُقِطَ في يدي، حينها، ولم أعد أعرف كيف أتصرف؛ هل أحذّره منه ـ علماً أن أخاه سليم لا يعرف مهدي شخصياً، لينبّه فؤاد عليه ـ أم أُمسك عن الحديث، وأترك له ـ هو نفسه، أن يكتشف مهدي بالمعاشرة؟ لكنّ أكثر ما حزّ في نفسي أن عبد الرحمن خُدِع في أخيه، حين صدّق دعواه، وبدأ يزوّده بالكتب. ذلك ما أَفَدْتُهُ من فؤاد حين قال لي إنه تلقى من مهدي، حتى ذلك الحين، أربعة عشر رواية اقتناها له صديق له ـ كما أبلغه مهدي ـ وحملها له أخوه في ثلاث زيارات. وما كنتُ، عندئذٍ، لأشكّ في أن مهدي سخَّر عبد الرحمن لغرضه الخبيث، وأَوْهَمَ فؤاد بأن الأخير مجرَّد حاملٍ لغرضٍ أدَّاهُ غيره من الأصدقاء.»

تسلقتِ الغصّةُ حلقه، وامتصت ريقه، تخيَّل مقدار ما سيصيب عبد الرحمن من حسرةٍ وحزن وكآبة إن علم بخديعة أخيه المنحرف. قرَّر أن لا يخبره بما نقله إليه عبد الصمد من أخبار، لكنه صمَّم على ثنيه عن الإمعان في الاستسلام لطلباته. انتبه إلى أمرٍ لا مناص له من تجنبه، فالتفت إلى عبد الصمد قائلاً:

«أرجو أن لا تُحدِّث عبد الرحمن في هذا الموضوع، ولو بالتلميح، وأن تحفظه سراً عندك وكأنك به غير عليم. وأنا سأعرف كيف أتصرّف».

*

في بداية فصل الربيع، وانتظار صفية للموعد على الجمر، يهاتف عبد الرحيم عبد الرحمن، مساء أحد السبوت، ليقول له إنه سيصل إلى المغرب في نهاية شهر أبريل. سأله بلهفة إن كان سيأتي بيارا، وكم من الوقت سيقضي معهم، فاكتفى بأن قال إن زيارته

للمغرب قد تمتد لثلاثة أسابيع. سعيداً حمل البشارة إلى صفية والوالدة، وشاطرهما الفرحة الغامرة، وقضى معهما شطراً طويلاً من الليل في حديث عن الزيارة المرتقبة، وعمَّا على الأسرة أن توفره للصغيرة يارا من أسباب السعادة. لم يكن في حاجةٍ إلى دليلٍ على أن صفية أكثر من سيسعد بخبر مجيء عبد الرحيم وابنته إلى الرحامنة، من أي فردٍ آخر من أفراد الأسرة، لكنه لم يصدّق أن فرحتها الجنونية يمكن أن تفصح عن نفسها بالدموع الغزيرة! بكت بسخاء وكأنها تنتحب، وتوقفت أكثر من مرة لتسأله إن كان صادقاً، ثم ما لبثت ـ في لحظةٍ وهو يردّد الأَيْمَان بأنه صادق في ما يقول ـ أن طلبت منه اصطحابها، في الغد، إلى بن جرير للحديث إلى عبد الرحيم هاتفياً، والتأكد شخصياً من أنه آتٍ فعلاً. لم يتوقف، كثيراً، أمام طلبها المفاجئ، وما فيه من تشكيك في أن يكون صادقاً في الأخبار التي نقلها إلى الأسرة عن أخيه، فما كان منه سوى أن وعد صفية بأن يأخذها معه، مساء الغد، إلى بن جرير لإجراء اتصال هاتفي مع عبد الرحيم، وسماع الخبر منه شخصياً. كان يكفيه أن يزيد نفسها اطمئناناً عسى أن تستقيم أحوالها أكثر.

بعد أن عاد إلى الضيعة، في منتصف الليل، انتبه وسواسُهُ فجأةً فخشي أن يُخْلِفَ عبد الرحيم وعده. لم يترك للخاطرة السيئة مجالاً لتُفسد عليه سعادةً غَنِمَها ـ هو وصفية والوالدة ـ ذلك المساء، لكنه ارتاح داخلياً إلى فكرة اصطحاب أخته إلى بن جرير للحديث مع عبد الرحيم في شأن زيارته، فرأى فيها إبراءً للذمّة إن دار بِخَلَدِ أخيه أن ينكث وعده. غير أنه، وهو يُسْلِمُ جسمه للفراش ابتغاء النوم، تذكّر أن النكث ذاك، إن حصل، لن ينفعه في تبييض صفحة وجهه أمام صفية إن كان على هذه الأخيرة أن تتلقى صدمةً جديدةً.

XIV

ما كان عبد الرحيم في حاجة كبيرة إلى تبرير غيابه الطويل عن فرنسا لكريستين، بعد أن تأكدت من أن تجارته الجديدة ـ التي بدأها قبل شهر ـ تقتضيه أن يتنقل بين باكستان والهند وأفغانستان، للاتفاق مع المورِّدين على نوع السلع، وكمياتها، وطرق توريدها إليه. كان يدرك أنها لن تتدخل معه في التفاصيل، كي تعرف حجم صفقاته، والجهات التي أبرم معها اتفاقات التصدير؛ فهي لم تتعوّد أن تتدخّل في عمله، وحتى نشاطه الديني وأسفاره إلى البلقان، أثناء الحرب البوسنية ـ ولم تكن ترتاح إليهما ـ لم تُبدِ حيالها اعتراضاً جهيراً، ولم تسأله شيئاً في أمرها، ما خلا تنبيهه إلى وجوب اتخاذ ما يستطيع من الحيطة والحذر حفاظاً على حياته وأمنه. كان يكفيه أن يملك دليلاً، في جواز سفره، على أنه زار الهند وباكستان وأفغانستان فعلاً، حتى يرفع عنه سيف الشك والاشتباه، ويعيد إلى نفسها الاطمئنان. وإلى ذلك، فإن امتلاكه هاتفاً محمولاً وفرَّ له فرصة التواصل معها من دون أن تعرف مكان وجوده.

لم يكن هو من اهتدى إلى حيلة السفر إلى البوسنة عبر رحلة طويلة تمتد من الهند وباكستان وأفغانستان إلى سراييفو، ولا كان يخطر بباله أن محو آثار الشبهة يقتضيه قطع كل هذه المسافات

الطويلة، لولا أن أبا عبيدة أفهمه أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتبرير غيابه. وحين ردّد عبد الرحيم قول شيخه بأن هذه ليست المرة الأولى التي يسافر فيها إلى البوسنة، بعلم زوجته، أجابه أبو عبيدة بأنها المرة الأولى التي سيغيب فيها شهراً عن بيته، وأن شيئاً لا يمكن أن يُقنع كريستين أن ثمة ما يبرر قضاء هذه المدّة الطويلة في البوسنة. هكذا اقترح عليه أن يستغل عمله الجديد ـ وهو في طور التأسيس ـ ويتخذه ذريعة للسفر إلى آسيا، بحيث يقضي بضعة أيام في الهند وباكستان، يسجل خلالها في جواز سفره تاريخ الدخول إليهما، وأن يُتبع ذلك بزيارة أفغانستان لساعات يعود بعدها، برّاً، إلى باكستان. وزوّده بعناوين من عليه أن يلتقيهم في إسلام آباد لمساعدته في أمر تجارته، من دون أن ينسى تنبيهه إلى أنه من المفيد له أن لا يستعمل هاتفه المحمول للاتصال بزوجته من الهند وباكستان، وأن استخدام الهاتف الأرضي لمهاتفتها على هاتفها المحمول سيُطمئِنُها، أكثر من ختم الجواز، إلى وجوده هناك. ويمكنه أن يبرّر لها ذلك بأنه نسي شحن بطارية الهاتف، ناصحاً إياه بإقفاله طيلة وجوده في آسيا، وعدم تشغيله إلا بعد الوصول إلى البوسنة.

أدرك عبد الرحيم، حين قضى أيامه الستة في الهند وباكستان وأفغانستان، قبل أن يشدّ رحاله جواً من باكستان إلى فيينا، ومنها إلى سراييفو، أن تعليمات شيخه ونصائحه ذات أثر حميد، وأنها لا يمكن أن تصدر إلّا من عقل رجلٍ عبقري؛ فمكالماته الثلاث التي أجراها مع زوجته تلك الأيام، من نيودلهي وإسلام آباد وقندهار، فعلت فعلها في نفسيتها ارتياحاً واطمئناناً إلى أن زوجها، الذي أصاب علاقته بها برود مفاجئ في الأشهر الثلاثة الماضية، لم يتخلف عن واجبه الأسري والعاطفي في التواصل معها ومع

ابنتهما، وأن في كثافة اتصالاته بها ما ينمّ عن شعوره بشوقه إليهما وإلى جوّ البيت. وهو أتقن تنفيذ تعليمات الشيخ في المكالمات الثلاث؛ حين تحجّج بأنه مضطر لمحادثتها بالهاتف الأرضي لأنه نسي جهاز شحن الهاتف المحمول في فرنسا، ولم يجد الوقت لينزل إلى السوق لشراء آخر، بسبب استغراقه في اللقاءات مع المورّدين التجار، واعداً إياها بأنه سيقتنيه ما إن يجد فرصة للتبضّع الحرّ. لكنه أدرك أن استخدام الهاتف المحمول لا يمكن أن يكون مجدياً إلّا عند الرغبة في إخفاء الشبهة، كما عليه أن يفعل عندما يسافر إلى سراييفو، وفكّر في أن الذي اخترع فكرة هذا الهاتف لا بدَّ من أن يكون قد فكّر في طريقة لتيسير الخيانة الزوجية، أو للتغطية عليها!

قضى يوماً واحداً في نيودلهي، تحدث فيه إلى زوجته من الفندق، ومنها سافر بالطائرة إلى كراتشي، ثم إلى إسلام أباد، وفي إسلام أباد التقى عليّ شريف، الوسيط الباكستاني الذي زوّده أبو عبيدة بأرقام هواتفه؛ فوجئ بأنه ينتظره في المطار، ويقدّم له نفسه بأنه عليّ شريف الذي أوصاهُ الشيخ بالاتصال به. عربيتُه مكسَّرة وتميل إلى الفصحى، لكنه يبلّغ ما يريده في الحديث. أخذه إلى فندق، واقترح عليه بأن يرتاح فيقضي ليلته فيه، على أن يكون جاهزاً في صباح اليوم التالي ليأخذه إلى الذين عليه أن يتعامل معهم، منذ الآن، كمورّدين للسلع. حين سأله عبد الرحيم كيف سيدخل إلى الأراضي الأفغانية ومتى، أجابه بأن شخصاً سيقوم بمرافقته، وترتيب أمور عبوره على الحدود، وأن ذلك لن يحصل قبل يومين سيكون عليه، فيهما، أن يستغل وجوده لترتيب أمور تجارية.

في اليوم التالي، أخذه عليّ شريف إلى مقر شركة ملبوسات

«إسلامية» تصنع أصنافاً مختلفة من الألبسة: من الأثواب الآسيوية الفاخرة، التي لا يملك أن يقتنيها إلا الأثرياء، إلى العباءات والسراويل، المستهلكة على نطاق واسع في أفغانستان، التي تشبه القندريسة في المغرب. اهتم، كثيراً، بمعرفة أنواع الملبوسات النسائية، عملاً بنصيحة أبي عبيدة الذي قال له إن نساء المسلمين في فرنسا يُقبلن على السلع الباكستانية والأفغانية أكثر من أزواجهنّ. ولأنه كان يبغي تعبئة متجرٍ يجيب حاجةَ المسلمين المهاجرين كافة، من الطبقات جميعها، فقد أصرَّ على أن يأخذ فكرة دقيقة عن المنسوجات كافة: الأغلى والأرخص، مركّزاً أكثر على أنواع الحجاب والشادور المتوفرة، ودائماً عملاً بنصيحة شيخه الذي نبَّهه إلى أن الطلب عليها شديد في فرنسا. قضى اليوم كلّه يتصفّح كاتالوغات الأثواب، وأنواع هذه الأخيرة وأسعارها، والملبوسات الجاهزة، ويؤشّر على الأصناف التي يريدها منها، وكميتها، ويتفاوض على أسعار الجملة مستعيناً بعليّ شريف ترجماناً. بلغت مشترياته النظرية زهاء المليون فرنك فرنسي، دفع منها مبلغ الخمسين ألف فرنك شيكاً على حسابٍ للمتجر في أحد فروع الكريدي ليوني في بوردو، مثلما طلب منه شيخه أن يفعل، مع التزامٍ من الشركة بتوفير البضاعة له على أربع دفعات ـ بعد شهر ونصف، تُشحن فيه بحراً، وبعدم صرف الشيك إلا بعد وصول الدفعة الأولى منها.

قضى اليوم كلَّه متنقلاً بين مقر الشركة، في قلب المدينة، ومستودعات تابعة لها في الأطراف. حين أنهى عمله وعاد إلى الفندق، طمأنه عليّ شريف إلى أن تجارته ستكون جزيلة العوائد، لأن المنسوجات الهندية ـ الباكستانية مطلوبة في أوروبا، حتى عند النصارى، وأن أسعارها في السوق الأوروبية تساوي ثلاثة أضعافها

عند شرائها من المصدر، وأن الشركة ستجد طريقةً لرفع سعر مبيعاتها له في كشوف الحساب يبرّر ـ هو ـ بها تسعيرَها بسعر أعلى في فرنسا، كي يتغلب على إرهاق الضرائب. حين سأله عبد الرحيم عمّا إذا كان يفهم في التجارة والتسويق والتصدير والبيع، ابتسم قائلاً إنه يفهم في كل شيء. قبل أن يودّعه، سأله إن كان يرغب في أن يأتيه في صباح الغد ليأخذه إلى جولة سياحية، أم يدعه ينام ويرتاح إلى ما بعد العصر ليأخذه إلى من سيتكفل بنقله إلى الأراضي الأفغانية. أجابه بأنه يفضل أن يبقى في الفندق إلى موعد المساء لأن زحمة المدينة دوّخت رأسه.

أخذه علي شريف، عصراً، بالسيارة إلى بلدةٍ صغيرة تقع خارج المدينة، ودخلا في شارع ضيّق، لا يسع أكثر من سيارة، ليستطرقا منه إلى خلاءٍ ممتد تنتهي طريقُهُ المترَّبة بمزرعةٍ صغيرة. المزرعة لتربية الدواجن، كما قدّر عبد الرحيم من الروائح المنبعثة من أرجائها، وقد تكون فيها مزروعات غير الأشجار البرية التي تطالع الداخل إليها. صفُّ المساكن المواجه لمدخل المزرعة يحجب رؤية ما يقع وراء الأشجار التي تحتلّ خلفية البيوت. لم يهتم بسؤال علي شريف، خصوصاً وقد لاحظ عليه، طوال الطريق بين الفندق وهذا المكان ـ وقد أخذ قطْعُهُ منهما قرابة الساعة والنصف ـ أنه كان ممسكاً عن الكلام، ويكاد أن لا يقطعه إلا متى سأله عن اسم حيٍّ مرّا به، أو شارع طويل قطعاه، أو بناية كبيرة توحي بأنها مؤسسة أو إدارة رسمية. توقفت السيارة، بعد أن جازت البيوت المقابلة للمدخل، وانعطفت يساراً. ومن دون أن يستعمل عليّ منبِّهها، للنداء على أحدٍ من قاطني البيت، الذي توقفت السيارة أمامه، خرج رجلٌ طويل القامة، نسبياً، متوسط الوزن، مع شيء من علامات القوة في بنيته العضلية، وحادث علي

شريف، الذي لم يترّجل من السيارة، من خلال نافذة السيارة. لم يفهم عبد الرحيم شيئاً مما تبادله الاثنان بلغتهما المعقّدة، ثم ما لبث أن قدمهما إلى بعضهما؛ رنَّ في رأسه اسم عبد رسول، واعتبره فوراً المرادف لاسم عبد النبي في المغرب. فوجئ عبد الرحيم بأنه يعرف، هو أيضاً، العربية مثل علي شريف، حيث سأله عبد رسول عن الشيخ أبي عبيدة. أجابه بأنه في أحسن حال، وسُرّ في داخله لأن مرافقه يملك لغة التواصل معه، ثم أردف سائلاً:

«منذ متى تعرف الشيخ يا أخ عبد الرسول؟».

«منذ اثني عشر عاماً، وقضيت معه سنوات ثلاث نتنقّل فيها بين باكستان وأفغانستان».

«وهل انقطعت الصلة بينكما منذ ذلك الحين؟».

«وكيف تنقطع وكنّا سوياً نقاتل في أرض الرباط في البوسنة؟».

تردد عبد الرحيم في أن يخبرهُ بما جرى للشيخ في البوسنة، وما آلت إليه حاله من بتر ساقه، فأمسك عن الحديث مخافة أن يكون في إفاداته ما قد يزعج شيخه إن علم به، ناهيك بأنه لا يعرف إن كان هذا لا يجهل ما حصل للشيخ. أما عليّ شريف فقد التفت إلى عبد الرحيم قائلاً: «أرجو أن تنطق الاسم نطقاً سليماً: عبد رسول وليس عبد الرسول». ابتسم عبد الرحيم معتذراً، واستطرد علي شريف متوجهاً بالكلام إلى عبد رسول: «حاول أن تتذكر صورة الأستاذ عبد الرحيم جيداً حين تلقاه غداً على الحدود». ابتسم عبد الرحيم لسماع عبارة الأستاذ تقترن باسمه، ولم يتدخل لتصحيحها خشية أن يكون أبو عبيدة هو من عرّفه بها عند عليّ شريف.

أثناء العودة إلى الفندق، سأل عبد الرحيم مرافقه عليّ شريف

عمّن سيوصله إلى الحدود، ومتى عليه أن يتهيأ لمغادرة الفندق. أجاب شريف باقتضاب:

«بعد صلاة الفجر، سيمّر شخصٌ يسأل عنك في مصلحة الاستقبال في الفندق، اسمه أحمد. من الأفضل أن ترتّب أغراضك، الليلة، في حقيبتك حتى تكون جاهزاً بعد الفجر. ينبغي أن تكون عند الحدود عصر الغد إن شاء الله».

«وهل سنقطع كل هذه الساعات للوصول إلى الحدود؟»

«نعم».

«هذا كثير، أليس من وسيلة أخرى للسفر؟».

«لا، ليس من وسيلة».

حين وصلا إلى المدينة، تذكّر عبد الرحيم أن عليه أن يقتني هدايا لفاطمة وكريستين ويارا من باكستان، فطلب من علي شريف أن يأخذه إلى سوق تجاري للتبضع، لكن الأخير أجابه بأن عليه أن يترك ذلك إلى ما بعد العودة من أفغانستان، لأنه لا يَحْسُنُ به أن يُثقل على نفسه بأغراض يسهل حملها في الطائرة من باكستان إلى وجهة سفره القادمة.

❊

أوصله أحمد، عصر اليوم التالي، إلى الحدود الباكستانية ـ الأفغانية، وتركه وراح من دون أن يقول له شيئاً. تعذّر عليه، طوال الطريق، أن يتفاهم معه بسبب أنه لا يعرف التحدث بالعربية. تذكّر أن هذه الحال عاناها، نسبياً، حين هِجْرَتِهِ إلى فرنسا والتحاقه بالعمل في المزرعة؛ فلم تكن فرنسيته ـ حينها ـ تتجاوز بضع مفردات شائعة، لكنه استطاع أن يتغلب على ذلك العائق في أقل

من ثلاث سنوات من دون أن يلتحق بمدرسة من المدارس التي يتعلم فيها المهاجرون، عادة، لغة فولتير مثل «لاليانس فرانسيز» وغيرها. حرجه الآن أشدّ؛ فهو في مكان لا يعرفه، وليس متأكداً من أن عبد رسول سيجده، وسط هذا الزحام البشري، إن أتى. أكثر ما بعث في نفسه الاستغراب أن مرافقه يحمل اسم أحمد، لكنه لا يفقه حرفاً في العربية. عرف مسلمين كثراً في فرنسا لا يعرفون العربية، وبعضهم عمل معه في المزرعة، وخاصةً من الإيرانيين والأتراك، لكنه رآهم يرتادون المساجد، ويصلّون ويقرأون القرآن؛ أما أحمد هذا فَبَدَا له أنه سمّي كذلك خطأً، وأنه كان ينبغي أن يحمل اسماً آخر. وهو حاول أن يجرّبه، أثناء السفر، وبعد أن أَيِسَ من استدراجه إلى الكلام، بأن بدأ يتلو من القرآن بعض السور القصار من التي تُتلى آياتها في الصلوات، ودعاه بالإشارات إلى مشاركته تلاوتها، لكن الأخير حرك رأسه أفقياً دليل جهله لما يتلوه!

لم يَدْرِ كم من الوقت مرَّ عليه، وهو في تلك الحال من الانتظار المُمِلّ، ومن الهواجس المتلاحقة، حين وصل عبد رسول معتذراً له عن تأخّره لأسباب طارئة اقتضته صرف وقتٍ طويل لتسهيل مرور بعض الشخصيات إلى الأراضي الأفغانية. لم يكمل جملته حتى دعاه إلى ركوب السيارة حاملاً حقيبته إلى صندوقها. تحركت السيارة لعشرات الأمتار، لكنها لم تأخذ مكانها في طابور المَرْكَبَات التي تنتظر فرصتها للدخول، وإنما سلكت طريقاً أخرى موازية وتوقفت عند أحد المداخل. طلب منه جواز سفره الفرنسي، ونزل متجهاً إلى شبّاك المدخل. لاحظ عبد الرحيم أن الجنود وحرس الحدود يبادلونه الحديث والابتسام، وبعضهم يؤدي له التحية العسكرية. أدرك، على التوّ، أنه شخص نافذ في البلد. ثم

ما لبث عبد رسول أن عاد إلى السيارة حاملاً معه بطاقة، طالباً منه تعبئتها بالمعلومات المطلوبة. البطاقة مكتوبة بحروفٍ عربية من وجهٍ، لكنها لا تشبه العربية ولا هي مفهومة، وبحروف لاتينية، من وجهٍ ثان، قدّر أنها بالإنكليزية. طلب منه عبد الرحيم أن يرشده إلى المعلومات المطلوبة لتعبئتها، فأخذ عبد رسول الوجه الإنكليزي وبدأ يعرّفه بالمطلوب منه. أعاد عبد رسول البطاقة، ثم استعادها وجواز السفر بعد ختمهما وانطلقا بالسيارة مسافة ليتوقفا، ثانيةً، عند حواجز الحدود الأفغانية. كرّر عبد رسول ما فعله أمام الحدود الباكستانية، ثم انطلقا من جديد.

لاحظ عبد الرحيم أن الحواجز الأمنية تكاد أن تملأ الطريق داخل الأراضي الأفغانية، لكن أيّ حاجزٍ لم يخضعهما للتفتيش. كان يكفي عبد رسول أن يدلي ببطاقةٍ له عند أيّ حاجز، ويرتجل كلمات حتى تُفتح له الطريق. سأله سببَ هذه الإجراءات الأمنية، أجابه عبد رسول أنها ضرورية لاستتباب الأمن في البلد، بعد سنوات من الفوضى والاقتتال، وأنه لولا ذلك لما كان يسع حكومة «طالبان» أن تسيطر على الأوضاع فيها. توقف قليلاً وأضاف ضاحكاً: «أفغانستان اليوم، هي البلد الأكثر أمناً وأماناً في المنطقة كلها، وذاك بفضل التزام الحكومة والناس تعاليم أمير المؤمنين».

«مَنْ أمير المؤمنين؟».

استغرب السؤال وأجاب:

«الملّا محمد عمر؛ لا شك في أنك تعرفه يا شيخ عبد الرحيم».

«نعم، ويعرفه المجاهدون جميعاً».

قال ذلك متستراً على جهله؛ هو لا يعرف من أمراء المؤمنين غير أمير المؤمنين في بلده، ولا يستطيع أن يتخيل وجود غيره في

بلدٍ آخر. أخرجه التوقفُ أمام حاجزٍ جديد من شروده. لاحظ أن هيئة العسكريين والمسلَّحين لا تشبه هيئة أمثالهم في فرنسا والمغرب؛ فمعظمهم لا يلبس ثياب الميدان العسكرية المألوفة، بل جلاليب قصيرة، ويتمنطقون بأحزمة. تذكّر قوات الكوم، كما كان يراها في الأفلام الوثائقية المتلفزة عن حقبة الحماية الفرنسية للمغرب. حين غادرا الحاجز، سأل عبد رسول إن كان الأفغان يفهمون لسان الباكستانيين ليتحدثوا معه بهذه الطلاقة، فأجابه بأنه هو من يتحدث لسان الباشتون. خجل من أن يسأله عن الفرق بين لسان الباشتون ولسان الأفغان، أو عما إذا كان اللسانان لساناً واحداً، لكنه وجد طريقةً أخرى لاستدرار معلوماته فسأل:

«لا بدّ من أنك عاشرتهم طويلاً لتعرف لسانهم».

«والدي باكستاني، وأمّي أفغانية من قندهار، وأخوالي ما زالوا هناك. وكنت، منذ صغري، أزور أفغانستان مع والدتي التي أَلِفَتْ أن تصطحبني في زياراتها لأختيْها وإخوتها الخمسة. كما إني عشت في أفغانستان سنوات طويلة، شاركت فيها في الجهاد ضدّ السوفييت، وفي قوافل المساعدات إليها من باكستان، وفي تدريب المقاتلين العرب والمسلمين المتطوعين، وإيوائهم في بيشاور، كما قاتلت مع «طالبان» ضدّ مقاتلي أحمد شاه مسعود وقلب الدين حكمتيار، وضدّ نظام صبغة الله مجددي وبرهان الدين رباني. وحين غَادَرَنَا الشيخ أبو عبيدة، بعد جلاء الاحتلال الشيوعي، كنت أنا من يزوّده بأخبار الجهاد، ولكن انقطعت عنا أخباره في الجزائر، ثم تجدّد الاتصال به في البوسنة، إلى أن علمنا بإصابته ونقله إلى فرنسا. وأراك، والحمد لله، تُطَمْئِنُنِي على صحته. ولو كان معنا هنا، لتبادل الحديث مع الجنود مثلي».

«هل تعلَّم الشيخ لسانهم؟»

«تعلّم ما يكفيه للحديث مع الناس، ووجد لغتهم صعبة مثلما أخبرني. لكنني كنت أتعجّب كيف يتحدث بطلاقة لسان الفرنسيين، وهم ليسوا مسلمين، ولا يستطيع أن يأخذ من لسان الأفغان إلا البعض اليسير منه».

انتبه عبد الرحيم إلى أنه لم يسأل عبد رسول عن وجهة سيرهم. سأله فأجاب الأخير إنهما قاصدان بيت صديقٍ للشيخ أبي عبيدة للمبيت فيه، على أن يكملا الطريق صباح الغد إلى قندهار، وهو مطلوب منه أن يعيده مساء اليوم نفسه إلى باكستان. سأله إن كان هناك فندق على الطريق ليتحدث منه، بالهاتف، مع زوجته فضحك عبد رسول وقال: «الفنادق حرام في هذا البلد لأنها أوكار للفسق».

*

على امتداد الطريق إلى قندهار، وهما يقطعانها في الصباح الباكر، لم يتوقف عبد الرحيم عن شرود الذهن. يصاحبه طيفُ الشيخ أبي عبيدة؛ يراه في كل بقعة من الأرض مَسَحَتْها عينُهُ: «هنا كان يحمل سلاحه، عند ذاك الجبل، على سفحه، أو في الأعلى، وربما نام في مغارة. القوافل الإغاثية التي سيّرها، أيام الجهاد، مرّت بهذه الطريق، والمقاتلون العرب الذين جمعهم قصدوا جبهات القتال سالكين الطريق عينَها. ما أسعده بمعرفة رجلٍ من طراز هذا الشيخ. صديقه، الذي استضافهم أمس في بيته، قائد عسكري من قادة «طالبان»؛ كان تلميذاً للشيخ قبل سبعة أعوام، وعنه أخذ علوم الدين وفنون القتال. ما حدّثه به عن بطولات الشيخ وشجاعته، وعن هيبته في أوساط المجاهدين، زاد من محبته له وتعظيمه إياه. جميعهم تَحَدَّثَ عن كرمه وسخائه، لو سألوه هو لأفاض في بيان وجوه الكرم

في سلوكه. مَنْ رفعه إلى هذا المستوى من التنعّم بما أَحَلَّ الله من طيِّبات الدنيا غيرُه؟ من أقام تجارته ومكّنه من مشاهدة ما في هذا العالم من عجائب خلق الله غيرُه؟ من زوّجه إلى امرأةٍ مسلمة جمالها من آيات الله غيره؟ من علّمه أن الدين ليس صلاةً وصياماً وعبادات فحسب، بل جهاد في سبيل الله، غيره؟ من أوصله إلى أرض الجهاد هذه، التي يمشي في أرجائها، غيره؟ كان لا يزال مستغرقاً حين سمع عبد رسول يقول له: «لم يبقَ غير دقائق قليلة ونكون، بمشيئة الله، في قندهار».

لم يكن في قندهار، الغاصة بالمسلمين، والغارقة في البؤس والخراب، ما يثير في نفسه الإعجاب أو الانبهار، لولا أنه رأى فيها بقعةً من بقاع الجهاد التي حررها المسلمون من الإلحاد الشيوعي، ومن نفاق المتاجرين بالجهاد كما سمّاهم بقية الله متوكل؛ القائد العسكري الطالباني الذي استضافه، وعبد رسول، ليلة ذلك اليوم. توقفت سيارة مرافِقِه أمام مبنًى يقف جنودٌ على مدخله. دعاه إلى الترجل. فعل من دون أن يسأله إلى أين يقصدان؛ فانبهارُهُ بلغ علاه. شَهَرَ بطاقته عند البوابة، وتبادل كلمات مع حارسها، فأشار الأخير برفع الحاجز عن المدخل فَدَلَفَا. في الطريق إلى البناية، التي تشبه مدرسة ابتدائية، التفت إليه عبد رسول قائلاً:

«ستقابل مسؤولين في الدولة والحركة، وبعضهم من تلامذة أبي عبيدة، فقُصّ عليهم بطولاته في الجزائر والبوسنة، وعمله الدعوي في فرنسا، رحمك الله».

«سأفعل إن شاء الله».

كان ضباط الثكنة السبعة يُصْغُون لما يرويه عبد الرحيم، ويترجمه أحدهم للآخرين؛ فقد كان أربعة منهم يجهلون العربية،

ولا يكادون أن يعرفوا منها سوى عبارات التكبير. انتبه إلى أن أحد الضباط وجّه كلمات إلى عبد رسول، فغادر الأخير القاعة. فَهِمَ من ذلك أنه سيسمع شيئاً خاصاً لا يريدون أن يسمعه عبد رسول، ولم يخطئ ظنُّه؛ إذ ما لبث أحدهم أن قال له:

«بلّغِ الشيخ أبا عبيدة، جازاك الله، إننا جاهزون لوضع معسكرات التدريب عندنا تحت تصرف المجاهدين المتطوعين، ممّن يرسلهم الشيخ إلينا، من بلاد الإسلام ومن بلاد النصارى. وما عليه إلا أن يبلّغنا بواسطة عليّ شريف أو أبي حفص الحضرمي، وسنرتب أمور وصولهم من باكستان إلى هنا إن شاء الله. وبلّغه طلبنا بأن لا يبخل علينا بدعواته الصالحات زادنا الله من فضله وعلمه. واخْبِرْهُ أننا على عهد الله ماضون، وما أبدلنا أحزابنا إلّا بما هو أحسن للدين والمؤمنين».

«ستصل الرسالة إلى الشيخ بعون الله».

ثم مدّ الضابط يده وصافحه دليل انتهاء اللقاء. لكنه توجّه إلى زميل له قائلاً:

«خذ الشيخ عبد الرحيم إلى غرفة البدّالة، ودعه يتصل هاتفياً بأهله».

قالها بالعربية، ففهم عبد الرحيم أن رغبته في الاتصال وصلتهم من عبد رسول أو من بقية الله متوكل. شكر له ذلك وخرج بصحبة الضابط الثاني.

آبَا إلى الحدود الأفغانية ـ الباكستانية منتصف النهار، بعد أن تناولا وجبةً سريعة لكسب الوقت. كان يفكر، طوال الطريق، في هذا التحوّل الذي أحدثته فيه هذه السفرة إلى أرض الجهاد. لم يحصل له مثل هذا من قبل؛ حصل له شيء قليل منه حين زار

سرايفو، لكنه ـ الآن فقط ـ يشعر أنه أصبح مجاهداً، والآن ـ فقط ـ يستطيع أن يقطع بأنه لن يتردد أمام دعوة الجهاد إن دعته في أي بقعة من أرض الإسلام. ما زالت عبارة «الشيخ عبد الرحيم» تَرِنّ في أذنيه، وتَطْرب نفسُه لرنينها. هل أصبح شيخاً حقاً أم هو خطأ من عبد رسول استطرق إلى الضباط؟ عليّ شريف، مثلاً، لم يناده باسم الشيخ، وهو لا شك أهم مكانةً من عبد رسول بدليل أن الضابط الأفغاني ذكر اسمه كوسيط مع الشيخ أبي عبيدة. ولكن من ذا الذي أبلغ عبد رسول أن اسمه مسبوق بنعت الشيخ إن لم يكن علي شريف نفسه؟ فهو لا يعلم، حتى الآن، أن الشيخ أبا عبيدة حدّثه شخصياً، وأخبره أن شيخاً ما قادماً عليهم يحمل اسم عبد الرحيم. بل هو يشك في أن شيخه على صلة بعبد رسول منذ سنوات، على ما عَلِمَهُ من الأخير. ولكن، ما الفارق عنده بين أن يجتهد عبد رسول، بالتلقاء، فيُطْلِق النعت عليه، وبين أن يكون علي شريف هو من أرشد الأخير إلى هذا النعت؛ فالنتيجة واحدة في الحالين، فها هو نعت الشيخ يصل إلى قادة طالبان ويرددونه أمامه.

حين وصل إلى الفندق بعد انسدال المغيب، وجد علي شريف في انتظاره في البهو، وكأنه على علمٍ سابق بموعد وصوله. كان متعباً من السفر، ومع ذلك لم ينسَ أنّ عليه أن يقتنيَ بعض الهدايا والتذكارات. سأل شريف إن كان لا يزال، في مثل هذا الوقت، من محالّ تجارية مفتوحة، فأجابه إنه ينتظره، لهذا الغرض، كي يصطحبه معه إلى سوق من أسواق المدينة ليختار ما يشاء، فأبوابها ـ مثلما قال ـ تظل مفتوحة للزبائن حتى آخر الليل.

اقتنى ملبوسات نسائية لفاطمة وأمها، ولكريستين ويارا، وأمّه وصفية، وعباءة رجالية لعبد الرحمن، واكتفى بأن اشترى له ولشيخه مسبحتين فاخرتين. في طريق العودة، أخبره علي شريف أن

مرافقاً له إلى المطار سيكون منتظراً إياه في بهو الفندق فجراً، لينطلقا في الخامسة لأن موعد إقلاع طائرته في الثامنة صباحاً. ودّعه بحرارة قائلاً:

«سعدنا بمعرفة شخصكم الكريم يا شيخ عبد الرحيم، بلغ تحياتنا إلى الشيخ أبي عبيدة، ونلقاكم قريباً إن شاء الله؛ ربما في مكة المكّرمة والمدينة المنوَّرة».

«إن شاء الله».

ظل اسم الشيخ يتردد في رأسه وهو مستلْقٍ على مقعده في الطائرة.

XV

سَلَبَتْهُ فيينا لُبَّه، منذ حطت به الطائرة في مطارها غروب ذلك اليوم. المسافة طويلة جداً، وفيها توقّف ساعة في مطار دبيّ. لكنه قرّر أن يستمتع بجمال المدينة في الليل. وجد صعوبة في أن يتفاهم مع سائق سيارة الأجرة الذي لا يعرف الفرنسية. كان يَبْغِي أن يوصله إلى فندق متواضع، من فئة ثلاثة نجوم، في وسط المدينة. اهتدى إلى حيلةٍ نفعته: كتب بالفرنسية عبارة Hotel وعبارة Centre، ورسم تحت عبارة أوتيل ثلاث نجمات. فَهِمَ السائق بُغْيته وحَمَلَه. ما إن وضع حقيبته في الغرفة، حتى انطلق يهيم في الشوارع المحيطة بالفندق. تمنى، دائماً، أن يزور فيينا التي سمع الكثير عن جمالها، وها هي الفرصة قد واتته من دون أن يسعى أو يخطط. تذكر أغنية اسمهان «ليالي الأنس في فيينا»، وما إن بدأ يردّدها حتى توقف مستغفراً؛ ففي الأغنية مقطع يشبّه المدينة بالجنّة. جلس في مقهىً وتناول مثلجات، وتلهّى بمراقبة المارة. ما أشدّ ما راعه من فروقٍ بين النساء النمساويات والنساء الأفغانيات. المرأة في النمسا تبدو أشبه بنظيرتها في فرنسا، أما في أفغانستان فتكاد لا تراها؛ لأنها تتدثر من الرأس إلى القدمين. لم يرتح للمنظر في قندهار، ومال إلى حجاب المرأة البوسنية، والمغربية، والمسلمة عموماً في فرنسا، وفضّله على ما في أفغانستان. لكنه قال في نفسه إنه يفضّل الشادور والاختفاء

الكامل للمرأة وراء حجابها وردائها، في بلاد الأفغان، على هذا السفور الفاضح في النمسا وفرنسا. . . وفي مدن المغرب الكبرى.

حين عاد إلى الفندق، بعد أن حمل بين يديه سندوتشاً، قرّر أن يزور فيينا ثانيةً، في زيارة سياحية مع فاطمة. ربما قد يفعل ذلك بعد أسبوع من وصوله إلى سراييفو. وستكون الأيام القليلة التي يقضيانها هنا بمثابة شهر عسلٍ مصغّر، يستمتعان فيه بالزواج، وهذا الجمال المعماري الباهر، ويمسح عن قلب فاطمة بعض الحزن الذي يسكنها منذ فقدان الوالد والأخوين.



مرّت حفلة زفافهما في جوّ عادي أشبه بالصمت. لم يكسر صمت الليلة سوى صوت المقرئ يرتل القرآن، وينشر الخشوع في الجالسين السبعة؛ فاطمة وأمها وجارتين لهما، وقد اجتمَعْن في زاويةٍ من الصالة الكبرى، وعبد الرحيم وسليمان ـ الذي بعثه أبو عبيدة في مهمّة ـ وأحد أقربائه من المقيمين في سراييفو؛ وقد انتحى الثلاثة ركناً آخر من الصالة. بعد تناول العشاء انفض الجَمْع، وقبل أن يخرج سليمان ورفيقه أشار إلى عبد الرحيم إشارة فَهِمَ منها الأخير أنه يريد إخباره بشيء ما. خرجا من البيت، وانتحيا جانباً فهمس له سليمان بأن الشيخ سلَّمه أمانةً لإيصالها إليه، وأن الأمانة معه، ولكنه لم يحضرها لئلّا يفسد عليه ليلته.

«ولماذا لم تأتني بها؟»

«خشيت أن يكون فيها تكليفاً لك بمهمة يُفْسِدُ عليك أمرُها ما أنت فيه».

«وبأيّ حقّ، يا أخي، تتصرف في الأمانات بمزاجك؟»

ابتسم وردّ:

«هي، في الحقيقة، وصية من الشيخ؛ هو من طلب مني أن لا أسلمك إياها هذه الليلة».

تنهّد عبد الرحيم وعلّق:

«خيرٌ إن شاء الله. تعال عندي غداً في نهاية الصباح».

«هذا إذا نمتَ قبل الصباح»، وقهقه مودّعاً.

أصابه كلام سليمان ببعض الضيق؛ لا شك في أن ثمة طارئاً خطيراً استدعى إرسال الشيخ السائقَ إلى سراييفو. نسي أن يسأله إن كان أتى لهذا الغرض فحسب، واستغرب أن لا يتصل به أبو عبيدة على هاتفه المحمول من دون أن يتكلف إرسال سليمان. لا شك لديه في أن الأمر كبير، وربما بالدرجة التي لا ينبغي أن يُسّرّ به، ولو بالهاتف. ويؤكد ذلك أن أبا عبيدة أوصى السائق أن لا يسلّمه الأمانة هذه الليلة لئلّا يُفسدها عليه. زاد قلقه، لكنه لعن في داخله سليمان الذي لم يحفظ وصية شيخه فلا يفاتحه في الموضوع إلّا في الغد. هو لا يخشى من أي مهمة يسندها أبو عبيدة إليه، لكنه يخشى أن يكون عليه القيام بها الآن وهو عريس، فتطير منه فرحة الظفر بأسبوعين مع فاطمة. لو تريّث هذا التركي الأهوج إلى الغد، لما سرق منه استعداده النفسي للقاء، الذي حلم به، مع فاطمة حين يختلي بها، فيصليان ركعتين قبل أن يشرعا في ما أراد الله.

ما إن رآها، حتى اختفت هواجسه. حلالُه، التي أصبحت في عصمته منذ حُرّر عقد النكاح قبل ساعتين، تضيء لَيْلَهُ وتبدِّد غمامةَ السواد التي ألقاها سليمان في روعه قبل دقائق. جلس الثلاثة في الصالة قليلاً: فاطمة وأمها وهو، ثم ما لبثت والدتها أن بسطت كفيها تقرأ الفاتحة، فشاركاها قراءتها، ودعت لهما بالاقتران

الكريم، وبالبنين، والمحبة المتبادلة، ثم نهضت. هرعت فاطمة لتقبيل كفها، ودعا لها عبد الرحيم بالصحة وطول العمر قائلاً: «إن فاطمة أمانة في عنقي أحفظها إلى يوم القيامة». ولم يطل المقام بالزوجين حتى ولجا غرفة نومهما.

لم يخطئ سليمان حدسه حين توّقع أن عبد الرحيم لن يخلد إلى النوم قبل بداية الصباح؛ قال ذلك ممازحاً العريس، لكن ذلك ما حدث بالفعل. لم يكن أحد من الزوجين يملك شجاعته ليستدرج الآخر إلى ما تقتضيه المناسبة. من المفهوم أن تكون تلك حال زوجةٍ ستعيش أول تجربة وصالٍ، في حياتها، مع رجل، وإن كان الرجل هذا زوجها، خاصةً أنها بكت طويلاً حين تذكرت مأساتها بفقدان والدها وأخويها، وحاصرها الخوف الشديد من شعور فراق والدتها قريباً. غير أن شيئاً لم يكن يبرّر تردّد عبد الرحيم، حتى حينما عاد إليها بعض الشعور بالطمأنينة، بعد أن تذكرت أن زوجها قد يعوّض عن بعض ذلك الفقدان. ظل يتأمل صفحة وجهها ومحاسنَها، ويذكر الله، وما كاد أن يلمسها أو يضمها إلى صدره إلّا عندما بدأت تنتحب. وحين هدأت عاصفة عواطفها، نهض من السرير وجلس في مقابلها متأملاً. ما كانت ترفع عينيها لتراه حتى تغض البصر سريعاً لتتقيَ سهام عينيه. من يراه في ذلك الموقف شبه الافتراسي، وهو يمسحها بصرياً من فوقٍ وتحت، وحواسُهُ مستنفرة في حال تَوَثُّب، يخال أن الفتاة ستسقط قريباً كالفريسة بين يديه. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. لا يدري لِمَ؟ كل شيء فيه يريدها، ويريدها على عجل، غير أن شجاعته تخونه. هل هو الخوف أم الخجل؟ لا يدري! حاول أن يُداريَ تردّده بالحديث إليها عما رآه في الهند وباكستان وأفغانستان. تُصغي إليه صامتة، وانتظار شيء ما يمضُّها. هي، أيضاً، خائفة مثله وأكثر، لكن خوفها ممزوج بالاطمئنان إلى أنها باتت في عهدة رجل مسلم، وأن ثمن ذلك من

جسمها هيّن ولا مهرب منه. نبهتها أمها إلى أن حال الخوف والتهيُّب طبيعية في المرأة، في لحظة اللقاء الأول، إلا أنها سرعان ما تزول، وتسكن إلى زوجها كما كانت تسكن إلى أمها وهي صغيرة. أوصتها بطاعة زوجها في كل ما يطلبه منها، أو يأمرها به، وكانت جاهزة لتطبق تمرين الطاعة بإشارة منه فقط. حين طوّقها بذراعه، وهي تبكي، وقَبَّل رأسها، أحست بقُشَعْرِيرة تسري في جسمها، فاستسلمت وعاد إليها هدوؤها المسروق بالذكرى الأليمة. لكنه قام من جنبها، وأمسك كرسياً اقتعده في مقابلها، وظل يتطلع إليها. كلما أَحْنَتْ رأسها، تذكرتْ أن عليها أن تكون معه، وأن لغة العيون ما يقُوم به التواصلُ بين جسدْين متباعدْين. وما إن ترفع رأسها وترمقه، حتى تغض البصر فوراً وقد تملّكها الخجل من عينين مصوبتين إليها، وتقولان ما يُعفي اللسان من الكلام. لم يحدْ عنها اضطرابُها والحرجُ إلا حينما بدأ يروي لها مشاهداته في سفرته الآسيوية. أُخذت بذلك العالم المجهول، والسحري، الذي نقله لها وصفاً، وزاد من شدة انتباهها إلى كل تفصيل أن شطراً من حياة والدها قضاه في تلك البلاد.

امتدّ بهما الأمر على هذه الحال حتى الفجر. حدّثها بإسهاب عن أهله، وعن الأرض التي سيقتنيها ويحوّلها إلى ضيعة يقيم فيها مسكناً؛ عن تجارته في فرنسا وسفْراته التي ستتكرّر إلى آسيا. ولم يَنْس أن يَعِدَهَا باصطَحابِها معه في بعض أسفاره. حين سألته إن كان سيأخذها إلى المغرب للتعرف إلى أهله، أجابها أن ذلك سيحصل قريباً، ربما في الصيف، وأنها ستَسْعَد بالتعرّف إليهم، وسألها إن كانت والدتها ترضى بمرافقتها، فردّت بأنها ستستفسرها في الغد. أنقذه صوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر؛ وجد ذلك مناسباً للهروب من حرجه. وقف ودعاها إلى الصلاة. صَلَّيَا، وأطال القراءة في

المصحف بعد الصلاة حتى بدأت تباشير ضوء الصباح تَهِلُّ. كانت في غاية التعب لأنها قضت اليوم كلَّه تساعد أمها في إعداد البيت والطبخ للمناسبة. ولم تستطع ـ هي التي لم تتعوّد السهر كل هذا الوقت ـ أن تقاوم تثاؤباً متلاحقاً زحف عليها. قامت، فجأة، إلى الحمَّام كي ترشَّ وجهها بالماء عساها أن تقاوم النعاس الذي يدّب في أوصالها والعينين. في هذه اللحظة، بالذات، استيقظت فحولته؛ أيقظتها المخافة من أن تظن فاطمة به الظنون. ما إن عادت حتى جَرُؤَ على الإمساك بكفها وضمها إليه وتقبيلها. أفلتت منه بهدوء وهرعت إلى زرّ الكهرباء لتُخفيَ حرجَها في الظلمة. حين حملها إلى السرير، عثر على كلمة السر التي تبرّئ ساحته من تهمة التردّد والخوف، فقال لها هامساً:

«كان ينبغي أن ننتظر صلاة الفجر قبل الوصال».

❋

تأخَّر مجيء سليمان إلى ما بعد الظهيرة. برّر ذلك لعبد الرحيم بأنه لم يكن يرغب، فعلاً، في إزعاجه لعلمه بأن من واجب العريس، صباح اليوم التالي للزفاف، أن يمكث في البيت مع زوجه وأهلها: «هي عادتنا في تركيا، ولعلها تكون كذلك في بلاد المسلمين جميعاً»؛ هكذا قال. بعد قليل من دخوله غادرا البيت؛ كان عبد الرحيم مشغولاً بمعرفة ما يحمله إليه سليمان، وزاد انشغاله حين أبطأ الأخير في المجيء، بينما هو لا يستطيع أن يبحث عنه في سراييفو، لأنه لا يعرف أين يقيم. ما إن خرجا حتى التفت يسأله أمر الأمانة. أخرج سليمان ظَرْفاً كبيراً وسلّمه إلى عبد الرحيم. فضّه فإذا هو يحتوي ظرفين. قبل أن يشرع في فتح الظرف الأول، أمسك سليمان يده قائلاً:

«نصحني الشيخ بأن أتركك وحيداً لتقرأ ما كتبه إليك. ولكنه طلب مني أن أنبهك إلى أن عليك أن تسلّم الظرف الثاني مختوماً إلى من ستلتقيه وتسلّمه الأمانة».

«وإلى أين تذهب الآن؟».

«سأتركك تعود إلى البيت لتقرأ رسالة الشيخ، وتحتفظ بالظرف الثاني في حقيبتك، وسأزورك مساءً بعد صلاة المغرب».

عاد من فوره إلى البيت. وضع الظرف في الحقيبة، واستلقى لقراءة الرسالة. تخطى سريعاً الأسطر الأولى التي حملت تهانيَهُ إليه، ولفاطمة، بزفافهما ودعواته لهما بالصحة والبنين، ثم انتقل إلى الفقرات التالية منها:

«. . . يعلم الله، يا أخي، أني ما ابتغيت أن أُفسد عليك التمتع بزواجك وإجازتك في البوسنة، لأكلفك بما سأكلفك به إلاَّ لحاجةٍ طارئة تقتضيها الدعوة، وتفرض علينا سرعة الاستجابة لتلبيتها. وأنت رجلُ أمانة، ومحطّ ثقتي، ولذلك اخترتك أن تقوم بهذه المهمة التي سأكلفك بها، وأنا واثق من حسن إجابتك، والله سيوفقك إلى نيل مَرضاته.

ستجد صحبة هذه الرسالة ظرفاً مختوماً، أوصيك بأن تُحسن حفظه، وأن تحرص على تسليمه مختوماً إلى من سأذكر لك اسمه ورقم هاتفه في خاتمة هذه الرسالة. والمطلوب منك أن تسافر إلى بلاد الحجاز، بعد ثلاثة أيام أو أربعة من قراءتك هذه الرسالة. ويمكنك أن تقضي هناك أسبوعاً تؤدي فيه العمرة. وحبّذا لو تأخذ معك زوجك لأداء العمرة، التي يتشوّق إليها كل مسلم ومسلمة، ويكون ذلك تعويضاً مجزياً لها على تغيير برنامج إقامتكما في سراييفو. أما ترتيبات السفر، واقتناء البطاقات، والمصاريف اللازمة للإقامة أسبوعاً،

فسيتكفل بها سليمان الذي سيبقى في سرايبفو لهذا الغرض، والذي سيعطيك مبلغاً من المال يكفي احتياجاتك عشية سفرك.

احْرِصْ على أن لا يعْلَم أحد بهذه المهمة، حتى زوجتك، وأن تحيطها بالكتمان الواجب في عمل المجاهدين؛ فهي مهمة إنسانية اعتدنا على إتيان أمثالها في مناطق كثيرة من العالم لصالح أمة الإسلام. وتأكّد أن الرسائل الموجودة في الظرف المختوم مما ينبغي ألّا يطّلع عليه أحد ما خلا الموجَّهةُ إليه، وليس من وجهِ خطورةٍ فيها ترتاب منه، لكن الخطورة في إعلام غيرك بأمرها؛ فَتَحَرَّ الأمانة والكتمان يرحمك الله.

وعليه، سيكون عليك بعد أن تصل إلى مطار جدّة، والإقامةِ ليلةً فيها، أن تأخذ طريقك في صباح اليوم التالي إلى المدينة المنوّرة. وما إن تحطّ الرحال فيها حتى تتصل هاتفياً بالسيد جاسم بن متعب مكّي، الذي تجد رقمه الهاتفي في أسفل الرسالة. وإياك أن تستعمل هاتفك المحمول في هذا الاتصال، أو أن تستخدم هاتف الفندق لهذا الغرض؛ سيكون عليك أن تهاتفه من هاتف خارجي من الهواتف التي توضَع في الخدمة العامة. اتصل به، في مطلع الأسبوع القادم، بين الخامسة والخامسة والنصف عصراً، حيث يكون هو منتظراً مكالمتك. إذا لم يردّ عليك لا تجرّب مرة أخرى بعد الخامسة والنصف، بل انتظر إلى يوم الغد على التوقيت عينِهِ. وإذا لم يَرُدَّ عليك في نصف الساعة هذا، فلا تكرر المحاولة: لا حينَها ولا بعد ذلك، وإنما عُد إلى فندقك واحرق الظرف الذي بحوزتك، واقْضِ أيامك بشكل عادي. أما إذا ردّ عليك، فلا تسأله اسمه، بل قل إنك أحمد الذي طلب منك أن تشتري له طائر الحباري، وحينها سيحدثك بشكل طبيعي مرحّباً. أما إن تردّد أو تساءل عمن يكون أحمد، فاقطع المكالمة على الفور. وهو لن يذكر

لك اسمه إلّا حين يلتقيك مباشرة. واحذر أن تلتقيه في الفندق.

إنني أعوّل على حِذْقك ونباهتك، وعلى أمانتك في إبلاغ ما في ذمّتك من أمانات، والتمسّك بحرفية ما أوصيك به. وعليه، بعد أن تقرأ هذه الرسالة، وتعيد قراءتها، حافظاً كل تفصيل فيها، احرقها ولا تُبْقِ منها عندك سوى رقم الهاتف. دَوِّنْهُ في ورقةٍ عندك، وغيِّر مفتاح البلد بحيث يبدو وكأنه رقم من بلدٍ أوروبي، وغيِّر ترتيب الأرقام من اليسار إلى اليمين.

وفقك الله لأداء مهمتك، مع تهانيَّ لك ولزوجك بالزواج وأداء العمرة. وادع لنا ولأهل القبلة في مقام المصطفى الكريم».

أعاد قراءة الرسالة ثانيةً وثالثة، متوقفاً عند كل جملة. سيعيد القراءة، لمرات عدّة، حتى تَرْسخ الوصية في رأسه، قبل أن يتخلص من الرسالة. لا يدري إن كان سعيداً بما قرأ أو قلقاً؛ تناوبه الشعوران منذ القراءة الأولى، وإن كان الشعور بالارتياح أغلب. ولكن ما إن عاد إلى قراءتها، مرة أخرى فثالثة، حتى بدأ يزاحمه الشعور بعدم الارتياح. هو سعيدٌ لأن هذه السفرة ستحقق له شوقاً عميقاً إلى أداء العمرة، ولأنها ـ وهذا أهم ـ ستوفّر لفاطمة فرصة زيارة الحرمين، وستكون أثمن هديةٍ يقدمها إليها لمناسبة الزواج. سيدّعي أنه كان يخبئ لها خبر العمرة مفاجأةً. سيكذب إذاً؟ ولِمَ يكذب؟؛ إنه مضطر لأن يخفي عنها المهمة: عملاً بنصيحة شيخه. ينبغي، إذاً، أن لا تَعْلم بأمر الرسالة لئلا تطّلع على ما يعتزمه. قام من فوره إلى باب الغرفة فأغلقه بالمفتاح، وعاد إلى تداعياته يقلب الاحتمالات على وجوهها. هي المرة الأولى التي سيكون عليه أن يحتاط إلى ذلك الحد الذي توصيه به الرسالة. لم يفعل ذلك حتى حينما كان يذهب إلى الحدود البوسنية أثناء الحرب. نعم، هو لم يشارك في الحرب، ولا دخل إلى ميادين القتال، لكنه اجتاز حدود دول أوروبية عدة وهو

يحمل أمانات كان من شأن ضبطها معه أن يرمي به في السجون. لو لم تكن المهمة خطيرة، لما حرص الشيخ على ترتيل كل هذه التحذيرات: حرق الرسالة بعد الفروغ من حفظها، عدم فتح الظرف وتسليمه مختوماً، عدم استخدام الهاتف الشخصي وهاتف الفندق، تقديم نفسه لمُخَاطَبِهِ باسمٍ وهويةٍ مستعارين، عدم تكرار محاولات الاتصال الهاتفي إلا في التوقيت المضروب له، وعدم تكراره لأكثر من يومين، ثم إعادة الأمانة إن تعذّر الاتصال خلال اليومين المحدَّدين له، وأخيراً كتمان أمر المهمة حتى عن ابنة صديقه المرحوم، علي أورلوفيتش، التي زوَّجها له! لا شك أن «في الأمر إنَّ» كما يقولون في المغرب!

يرتفع معدّل قلقه كلما استعاد هذه المحاذير، لكنه يهوِّن من المسألة بأن يتذكر أنه لم يتخلّف عن أداء مهمةٍ كلّفه بها شيخُه، وأنه أقسم له على المصحف بالتزام الطاعة، وأنه كان مستعداً، قبل عامٍ ونصف، حتى للجهاد، غيرَ آبهٍ للموت. ثم لماذا يتذكر ذلك كي يطردَ شبح القلق عنه؟ يكفيه أنه سينعم ـ وفاطمة ـ بأداء العمرة والصلاة عند قبر الرسول؛ وهذا وحده يَهُون معه كل صعبٍ أو امتحان.

ظلت رأسه تدور بين السكون والاضطراب قرابة الساعة إلى أن سمع طرقاً على الباب. نسي أن يعيد فتحه بعد معاودته قراءة الرسالة؛ فقد أخذه الاسترسال في تداعيه عن تفصيل ما كان عليه أن ينساه. فقام يفتحه، ولم يترك لفاطمة أن تسأله، حيث بادر إلى القول مبتسماً: «من شدّة تعبي دخلت إلى الغرفة وأغلقتها، من دون أن أشعر، كأنني في فندق». ضحكت ودعته إلى مائدة الطعام لتناول الغداء. على المائدة خطر له أنه قد يكون لدى سليمان بعض ما يبدد أسئلته عن طبيعة المهمّة الموكولة إليه، من طرف الشيخ، خاصة وأن الأخير قال في رسالته إن سليمان هو من سيرتّب أمور سفره وزوجه

إلى السعودية. غير أنه صرف الخاطرة سريعاً ما إن انتبه إلى أن الشيخ ما كان ليخبر سليمان بفحوى هذه المهمة، وإلا كان كلفه القيام بها.

*

ذهب وسليمان يتحدثان، خارجاً، وهما يذرعان الشارع الموازي جيئة وذهاباً. أخبره أنه سيأخذ فاطمة معه إلى بلاد الحجاز، وأن عليه ـ كما كتب الشيخ في الرسالة ـ أن يتدبر أمور سفرهما. قال سليمان على الفور: «طلب مني الشيخ ذلك، وما عليك إلا أن تسلّمني جوازيْ سفركما لأتدبَّر الأمر». ردّ عبد الرحيم بأنه لم يخبر فاطمة بعد، ولم يسألها إن كانت استخرجت جواز سفرها الذي قدّمتْ طلبه وأوراقه قبل شهر، حين طلب منها ذلك بالهاتف من فرنسا. ابتسم سليمان وردّ قائلاً: «اطمئن، لقد اصطحبتُها إلى إدارة الجوازات، قبل وصولك إلى سراييفو بيومين، واسْتَلَمَتْهُ من السلطات البلدية». علّق عبد الرحيم ممازحاً: «لا شيء يقع في هذا البلد من دون أن تكون طرفاً فيه». توقف فجأة، كأنه تذكّر أمراً فاته التفطُّن له، والتفت إلى سليمان قائلاً:

«أخشى أن لا ترضى بالذهاب معي إلى السعودية».

قهقه سليمان وسكت.

«لا تقُل لي إنك أقنعتها بالذهاب إلى أداء العمرة».

«وما دخلي أنا في الموضوع يا سيّد عبد الرحيم؟ من أدراني، أصلاً، بأنك ستوافق أنت على الذهاب لأبادر إلى مفاتحتها في شأنٍ يخصّك وحدك؟».

«آمل أن توافق على مرافقتي».

«هل تمزح يا سيد عبد الرحيم؟».

«لا، لا أمزح، أخشى أن يفاجئها طلبي وهي غير مستعدة نفسياً».

«لعلك لا تعرف مقدار ما يعنيه بالنسبة إلى أي مسلم ومسلمة، في بلاد البوسنة والهرسك، الذهاب إلى بلاد الحرمين الشريفين، وأداء شعائر الحجّ أو العمرة؛ إنه منتهى الطلب والمرام. اذهب، يا حبيبي، إلى بيتك وبَشِّر امرأتك بالخبر الشريف، وسأكون عندك صباح غدٍ الاثنين لآخذ جوازَي السفر، كي أجري المعاملات».

لم يخطئ سليمان في توقعه؛ ما إن دخل البيت، وطلب من فاطمة أن تتبعه إلى الغرفة، وأخبرها بأنه يخبئ لها مفاجأة سارة يرجو أن تتلقاها بالرضا، حتى اتسعت عيناها الجميلتان باسمتيْن، وهي تنتظر أي شيء إلّا أن تكون المفاجأة بهذا الدويّ الذي يرتجّ له قفص الصدر. حبس أنفاسه، ومدَّد انتظارها قليلاً، فغضّت بصرها لئلّا توحي إليه بأنها تنتظر هدايا أجمل من هديتها الأكبر: الاقتران به.

«سنذهب معاً، بعد أيام قليلة، إلى بلاد الحرمين لأداء العمرة».

فتحت عينيها، على اتساعهما، واضطربت أنفاسها وهي لا تصدّق، وفي نظرتها تساؤلٌ واستزادة. أجاب سؤالَ العينين بابتسامة عريضة، وحركةٍ من الرأس تؤكد ما يقول. غامت العينان وهطل ما في الغيمتين على الخدّين. ثم زادتا احتقاناً اشتبه في معناه، لحظةً، قبل أن تلقي بذراعيها في حضنه وهي تشهق من شدة الفرح. قبل أن تنهض إلى أمها، حاملة البشارة، قال لها:

«أخبري الوالدة الكريمة، بأننا سنأخذها معنا في المرة القادمة إن أراد الله».

جرت الأمور سريعاً؛ لم تأخذ ترتيبات السفر أكثر من يومين. لكن خَطَّ السفر بَدَا لعبد الرحيم طويلاً جداً ومرهقاً لفاطمة: السفر

إلى بلغاريا بالحافلة ويأخذ قرابة يومين، ومنها إلى تركيا بالقطار، ثم بالطائرة من إستامبول إلى جدّة. حين سأل سليمان عمّا إذا كان هناك من طريق أيسر للسفر، أجابه بأنه ينفذ التعليمات، وتركه في حال استغرابٍ من جوابه.

كانا سعيدْين وهما يقطعان كل هذه المسافة الطويلة. اكتشف، مرة أخرى، جمال الطبيعة في هذه المنطقة من أوروبا، وكانت فاطمة أكثر تفاجؤاً بالعالم الخارجي؛ فهي المرة الأولى التي ترى فيها مكاناً خارج سراييفو وضواحيها. أعجبتهما صوفيا، وهما يشاهدان معالمها من داخل سيارة الأجرة التي أخذتهما إلى المحطة. غير أنهما أُخِذَا بإستامبول أكثر، وبمآذن وقباب مساجدها حتى إن عبد الرحيم وعد فاطمة بأن يقضيا معاً إجازة أسبوع كامل فيه في الصيف. تذكَّر، وهما يتأهبان لدخول المطار، أن سليمان كان يحدّثه دائماً عن تركيا بأنها أكبر وأجمل بلد إسلامي، ولم يكن يصدّقه أو يحمل كلامه على محمل الجدّ، وكثيراً ما كان يردّ عليه بأنه لو زار المغرب لنسيَ اسم بلده. ها هو الآن يصدّقه، ويغبطه ـ في نفسه ـ على أنه شاهد، منذ صغره، آيات عظمة الإسلام في البناء والمعمار العريق.

*

قبل أن تحطّ الطائرة في جدّة، سحب الظرف من الحقيبة اليدوية الصغيرة ووضعه في الجيب الخلفي لسرواله. فعل ذلك احتياطاً من دون أن يفكر فيه قبلاً، ولم تُثِرِ الحركةُ انتباهَ فاطمة لاعتقادها، ربما، أنه وضع في جيبه عملة أجنبية أو أوراقاً خاصة، كانت دموعها لا تزال تُذْرَف كلما تذكرت أنها ستكون، بعد قليل، في الأرض المقدسة، ولم تهتم لتفصيلٍ صغير كهذا. سلّم جوازَها

لموظف الجوازات فختمه بعد أن تأكد من عقد النكاح. ثم سلَّم جوازه، فبدأ الموظف يتصفح، بعنايةٍ، صفحاته والتأشيرات التي عليها، ويحدّق فيه وفي صورته على الجواز، سأله عن أصوله، فأجابه أنه مغربي الأصل، ومن مواليد المغرب. حدّق فيه مرّة أخرى، ثم طلب منه أن يتنحّى جانباً، ليمكّن غيره من الدور، من دون أن يختم جوازه أو يسلّمه له. حين سأله ما الأمر، أجابه ـ بغلظة ومن دون أن يرفع بصره نحوه ـ : انتظر قليلاً.

سُقِط في يده؛ لقد وقع، إذاً، وبعد قليل سيكتشفون عنده ما سيُدينه من دون أن يدريَ ماذا عساه أن يكون دليلُ الإدانةِ الذي يحمله معه. ندم لأنه لم يحاول أن يعرف ماذا في الظرف، ولو جرَّ عليه ذلك غضبَ شيخه، وندم، أكثر، لاصطحاب فاطمة معه في سفْرةٍ يقوم فيها بمهمة قد تكون أخطر مما تخيَّل. ما ذنبها هي إن أصيب ـ هو ـ بمكروه؛ كيف ستتصرف؟ وكيف ستعود إلى بلادها؟ وماذا عساها أن تقول عنه إن أمسكوه؟ وأي زواج هذا الذي سينتهي بها، بعد ستة أيام منه، إلى هذه المحنة؟ ويارا؟ وكريستين؟ كيف ستستقبلان خبر اعتقاله؟ وهل ستفهمان ما معنى أن يُمْسَكَ شخصٌ وهو يؤدّي مهمة جهادية؟

أتى شرطي يسأل موظف الجوازات، فأشار الأخير بيده إلى عبد الرحيم. طلب منه الشرطي أن يتبعه، فتبعه هو وفاطمة والأخيرة في حالٍ من الذهول أخرستها. أدخلهما إلى مكتب قريب من جناح خَتْم الجوازات وانصرف. ظلَّا وحيدين والصمت ثالثهما. فجأةً كسرت فاطمة الصمت وسألته ما الأمر، أجابها بأن لا تقلق، وأن في الأمر خطأً ما سيتبين قريباً. بدأت تذرف الدموع. طلب منها التوقف عن البكاء لأن ذلك سيزيد أمن المطار اشتباهاً. اشتباه؟ هل هناك من شبهة أكثر مما يحمله في جيبه؟ لا بد له من أن يجد وسيلة للتخلص

مما يحمله! ولكن كيف يتخلص من أمانةٍ كُلِّفَ بأدائها؟ لن يفعل وإن أدّى ذلك إلى الموت. ولكنه يحمل معه دليل إدانته، ولا شك أن الأمن السعودي تلقَّي معلومات عن مهمته، فأوقعه في الشباك. وهو لن يَقْوى على التفلُّت منها إلا بإعدامِ دليلِ الإدانة، وحينها لن تنفعهم معلوماتهم في شيء، على الأقل لن يمسكوه بأي دليل.

هل عاد إليه خوفه، إذاً؟ من الأفضل أن يتماسك لئلّا يبدوَ عليه الاضطراب، فيكون اضطرابُهُ حجّةً عليه، أو مبْعثَ شكّ. لمعتْ في رأسه خاطرةٌ سريعة عندما دخل رجل إلى المكتب. أدرك من لباسه أنه ليس من ضباط الأمن، وإنما من موظفي المطار العاديين. ربّما يكون عوناً أو فرَّاشاً. وقف وطلب منه، وهو يبتسم، أن يدُلَّه على الحمَّام، فأشار الأخيرُ إلى بابٍ مجاور. التفت إلى زوجته طالباً منها عدم الخوف، ومستأذناً في الذهاب إلى الحمّام. دخل وأقفل عليه، وسحب الظرف. وما إن فضَّه حتى وجد فيه سبعة شيكات بأسماء عربية وأجنبية مختلفة، وبحسابات على بنوك مختلفة، بالفرنك الفرنسي، والفرنك السويسري، والجنيه الإسترليني، والمارك الألماني! بعدٍّ سريع، غير دقيق، حيث كان يعرف أسعار العملات الأوروبية، قَدَّر أن المبلغ الإجمالي يفوق كثيراً المليونيْ دولار! وضع الشيكات مطوية تحت قدميه؛ بين القدمين والجَوْربيْن، واحتفظ في جيبه بالظرف. رفع ماسورة ماء المرحاض، لينزل الماء ثم خرج.

لم يكن أحد قد دخل إلى المكتب حين عاد. لم يعُد إليه اطمئنانُه بما فعله في الحمّام؛ لأن ما اكتشفه حين فضّ المُغَلَّف المختوم أمرٌ مخيف. ظل الضيق يلازمه، وزاده الانتظارُ أواراً. توقفت فاطمة عن البكاء تماماً. وبَدَا كما لو أنها استسلمت. حاول أن يخفِّف عنها الوطأة بالقول إنهم ربما اشتبهوا في جنسيته الفرنسية، وهو عربي مسلم، لعدم علمهم بوجود مسلمين

أوروبيين، أو ربما شَكُّوا في أنه يختطف هذه المرأة الجميلة التي ترافقه. ابتسمت للدعابة ابتسامة باهتة، لكنها نفثت في نفسه القوة. ينبغي أن يُمْسِكَ نفسه وأعصابه حتى لا يبدو عليه الاضطراب أثناء «التحقيق». إن لم يحصل وفتّشوه «لن يأخذوا منه لا حقّاً ولا باطلاً» كما يقولون في المغرب؛ فوضْعُهُ سليم، وهو قطعاً لا يمكن أن يكون ضمن لوائح المطلوبين للأمن، لأنه لم يشارك مرّةً في القتال، ثم لأنه يتنقل حرّاً بين حدود الدول الأوروبية، من دون أن يوقفه أحدٌ ـ مرّةً ـ في مطار، أو على المعابر البرية، والمعلوم لديه أن الإنتربول توزّع أسماء المطلوبين على الحدود كافة.

كان لا يزال غارقاً في تداعياته حين دخل ضابط أمنٍ حاملاً جواز سفره الأحمر القاني. وقف عبد الرحيم احتراماً، فبادره الأخير قائلاً:

«كيف حالك يا السي عبد الرحيم؟ لَابَاسْ عليك؟». نطقها بالعامية المغربية وكأنه يرغب في طمأنته. استبشر خيراً، ثم ابتسم وردّ:

«يبدو أن حضرتك تعرف اللسان المغربي».

«طبعاً، أنا أزور المغرب في إجازاتي وأقضي فيه أياماً عدة. من أي منطقة أنت؟».

«من بن جرير».

«وأين توجد هذه؟».

«على بعد ستين كيلومتراً من مراكش، في الطريق الواصلة بالدار البيضاء».

«أعرف مراكش والدار البيضاء حُسْن المعرفة، لكن بلدتك لم يستوقفني اسمُها، ولعلي مررت بها من دون أن أعرف. تفضل اقعد».

نفث الحديثُ بعضَ الاطمئنان في نفسه. كان الضابط لا يزال يتصفح الجواز، ثم توقف ورفع رأسه، مصوِّباً البصر إلى زوجته.

«هذه كريمتك، أليس كذلك؟».

«نعم يا سيدي».

«وفهمتُ من موظف الجوازات أنكما حديثًا عهدٍ بالزواج».

«نعم، من أسبوع فقط».

«وماذا أتيتما تفعلان هنا؟».

«جئنا نزور بيت الله الحرام، وقبر رسولنا المصطفى، ونؤدي العمرة. عندهم هناك، في أوروبا، يقضون ما يسمونه شهر العسل، ونحن أتينا نطلب المغفرة من الله في بيته، وبين يدي نبيّه».

«بارك الله فيكما، وفي سعيكما يا أخ عبد الرحيم. ولكني أريد منك تفسيراً لسبب سفرك إلى باكستان وأفغانستان».

«أنا تاجر، يا سيدي، أملك متجراً في مدينة بوردو لبيع الملبوسات. ولأن طلب المسلمين والمسلمات هناك كبير على اللباس الشرعي، فقد نصحني كثيرون بأن أقتنيه من الموّرِدين الباكستانيين حيث صناعة النسيج مزدهرة عندهم. وقد سافرتُ لهذا الغرض، وأبرمت اتفاقاً مع شركة لإنتاج الملبوسات لتوريده لي».

تذكّر، على الفور، أنه يحمل معه عقد الاستيراد في حقيبته اليدوية، فمدّ يده إليها وسحبه ليسلّمه إلى الضابط. وزاد على ذلك بأن سحب بطاقة الترخيص التجاري، التي تسلمها من السلطات الفرنسية، وقدمها له. تأمل الأخير الأوراق التي بين يديه، وهو يحرّك رأسه، ثم سأله:

«ولماذا دخلت إلى أفغانستان؟».

لم يعرف بم يجيب. تمالك نفسه حتى لا يبدو عليه الاضطراب ثم قال:

«ظننت أنني سأجد ضالتي فيها، فأعثر على مؤسسات للنسيج استورد منها ملبوسات نسائية، لكني فوجئت بأن لا شيء يمكن اقتناؤه من أفغانستان. ولذلك تلاحظ أنني لم أقض فيها أكثر من نصف يوم، فقفلت عائداً إلى باكستان».

«من نصحك بزيارة أفغانستان؟».

«لا أحد، لكني فهمتُ ـ وأنا أتردّد على أسواق الملبوسات في باكستان ـ أن كثيراً من البضائع المعروضة أفغاني».

«ومن أخذك إليها؟».

«استأجرت سيارة أوصلتني إلى الحدود. وبعد إتمام معاملات الدخول، استأجرت سيارة أخرى أخذتني إلى قندهار».

«وكيف سمحوا لك بدخول التراب الأفغاني وأنت تحمل جنسية أجنبية؟».

«عرفوا أنني مسلم جاء للتجارة؛ فقد وجدت أحدهم يعرف العربية، وأخبرته بأنني من بلاد المغرب، أعيش في فرنسا، فلم يترددوا في ختم جوازي».

«ألم تخش الذهاب إلى أفغانستان؟».

«ولمَ أخشاه، يا سيدي، فلقد انتهت الحرب منذ عامٍ، وأصبحت الأوضاع الأمنية عادية».

«لا تكرر مثل هذه الحماقات». وقف وطلب منه أن يتبعه. إلى

أين سيأخذه ثانية؟ لم يطل انتظاره ليعرف الجواب، فقد وقف الضابط عند الممر، وطلب من الموظف أن يختم جواز السفر، ثم سلمه إليه.

تنفّس الصعداء؛ هذه المرة سلمت الجرّة. عليه أن يتعلم الدرس، فلا يقوم بمهمّة أخرى لا يعرف عنها شيئاً. تذكر أمراً عليه القيام به فوراً؛ ترك فاطمة أمام الحزام الإلكتروني للحقائب تَحْرُس الحقيبتين، وذهب يبحث عن الحمّامات. في الحمّام، مدّ يده ثانية إلى الشيكات، فسحبها من تحت القدمين. عاد إليه اطمئنانُه لأنها لم تفسد أو تبَّلل بالعرق؛ فهو غلَّفها بورق التواليت حين خبأها قبل نصف ساعة. في طريق العودة من الحمّام، ولئلّا يثير شكوك فاطمة في غيابه، دخل إلى بوتيك في السوق الحرّة، واقتنى لها عطراً وشوكولاته. كطفلة صغيرة فرحت بالهدية، وتبعته وهو يسوق عربة الحقائب في اتجاه بوابة المخرج.

لم يكن الفندق فخماً، لكنه بدا كذلك لفاطمة؛ ربما لأنه يطل على البحر، وتمكنك شرفته من رؤية سلسلة البنايات الشاهقة القائمة على طول الساحل. تركها ترتّب الأغراض في الغرفة. ونزل إلى جناح الاستقبال متوقفاً عند لوحة أسعار العملات. معلومات اللوحة ليست دقيقة تماماً، لكنها قريبة من الدقة؛ لأنها تستعرض سعر صرف الريال السعودي بالنسبة إلى باقي العملات. لم يسجل منها إلا البيانات المتعلقة بالدولار، والأسترليني، والمارك، والفرنك السويسري، والفرنك الفرنسي. مدّ يده إلى جيبه، فاستخرج مبلغ ألفي فرنك فرنسي لتحويلها إلى ريال سعودي. قبض مقابلها ما يزيد قليلاً عن السبعمائة وخمسين ريالاً، ثم دلف إلى حمّام بهو الفندق ليجري العمليات الحسابية لمعرفة الرصيد الذي تحويه الشيكات.

*

لم ينم ليلَتَه إلا قليلاً، مع أن تعب السفر الطويل أخذ منه مأخذاً، فنابت عنه فاطمة في النوم نوماً عميقاً. الوقت الشحيح من النوم، الذي سمح له به الأرق المزمن، لم يزد عن ساعتين. ولم يكن من الممكن تعويضُه في الصباح، لأن عليهما أن يسافرا إلى المدينة المنورة، حيث موعده لتسليم الأمانة ينتظره مساءً. أرقته أسئلة كثيرة طوال الليل: من أين أتى أبو عبيدة بكل هذه المبالغ التي جاوزت المليونيْ ومائتي دولار (بعد أن عدَّها عدّاً دقيقاً)؟ قطعاً هي ليست له لأنها بأسماء أشخاص آخرين. ولكن ألا يحتمل أن تكون الحسابات البنكية حساباته هو بأسماء غيره؟ استهجن السؤال لأنه يعرف أن شيخه يعيش عيشه متواضعة، وليس معروفاً عنه أنه رجل أعمال. وإذا كان الموقعون السبعة عليها يملكون، فعلاً، حسابات خاصة في البنوك تلك، عائدة إليهم، لا إلى غيرهم، فكيف لهم أن يدفعوا كل تلك المبالغ إلى أبي عبيدة، وكيف للأخير أن يدفعها إلى شخص واحد؟ ولماذا لم يحوّلْها هؤلاء، رأساً، إلى حساب الشخص الموجَّهة إليه؟ ولأي غرض، أو أغراض، ستستخدم هذه المبالغ؟ وهل ستدفع الشيكات جميعها إلى حسابٍ واحدٍ أم أكثر؟ توقف قليلاً عند هذا السؤال لأن وجهة الحسابات غير معروفة، ولم تكتب في اسم أحد! ما زاده استغراباً أن ضياعها، أو سقوطها في يد أي شخص، كان سيسمح بالتصرف فيها وصرفها! ألذلك قال له إن عليه حرقها إذا لم تُسلَّم في الموعد المقرر، خشية أن يعثر الأمن عليها عند مغادرته الأراضي السعودية. ولكن ماذا عند الدخول؟ ماذا لو عثروا عليها كما كان سيحصل له يومه؟ بل ماذا لو أنها اكتُشِفت عنده في بلغاريا أو تركيا؟...

دوّخته هذه الأسئلة لساعات طار فيها نومُهُ والتعب. لكن أكثر ما أرقه وآلمه أن أبا عبيدة كلفه بمهمة خطيرة مثل هذه كانت

ستأخذه، لو اكتشفت، إلى السجن. لو دَفَعَ به إلى الاستشهاد لكان أهونَ عليه. أساء به الظن، لأول مرة يسيء به الظن إلى درجة أنه لم يستبعد أن يكون اللقاء، غداً، بمن سيلتقيه فخاً للإيقاع به. طرد الخاطرة الشيطانية سريعاً، وردّ عليها بأسئلة بديهية: لماذا سيُوقِع الشيخ به؟ ماذا فعل حتى يستحق عقاباً أقسى من الموت؟ وهل يسترخص أبو عبيدة كل ذلك المال من أجل الإيقاع به؟ ولماذا ينصحه باصطحاب زوجه ـ ابنة صديقه ـ معه إذا كان سيفعل به هذا؟ لكن هذه الأسئلة لا تلبث أن تجيب عن نفسها سلباً بأسئلة أخرى: ماذا لو كان هناك من وشى به وشايةً كاذبة في باكستان وأفغانستان؟ وماذا لو كان اصطحاب فاطمة مرسوماً سلفاً كي يكون، في عين المكان، من يبلّغ الشيخ أو سليمان بأنه اختفى؟ وماذا لو كان في السعودية من كُلِّف بإعادة فاطمة إلى البوسنة بعد أن تقع الواقعة؟

منذ استقلّا السيارة، التي نقلتهما من جدّة، وإلى أن وصلا المدينة، وفاطمة تذرف الدموع في صمت. لم يطلب منها التوقف؛ تركها تعيش اللحظة الروحية الاستثنائية بكل تلقاء. ولكنه ما إن شهد مآذن المسجد النبوي حتى اغرورقت عيناه بالدموع، وأخذه الخشوع بعيداً إلى حيث تَخْلِيَةُ النفس من الوساوس، وتحليتها بالطمأنينة التي يبعثها الإيمان في الدواخل. نزلا فندقاً في منطقة البقيع، قريباً من الحرم النبوي، ثم خفّا ـ بعد حينٍ قليل ـ إلى الصلاة في الحرم. استعجلها في العودة إلى الفندق لأنه يعتزم الذهاب، كما ادَّعى، لزيارة صديق يعرفه، لكنها طلبت منه أن يتركها حيث هي جالسة، بين النساء، في أحد أبهاء المسجد، وأن يذهب إلى القيام بواجبه تجاه صديقه، وسيجدها في مكانها تنتظره. وحين ردَّ عليها بأنه قد يتأخر إلى ما بعد صلاة المغرب، أجابت أنها ستظل في مكانها منتظرةً، وإن تَعَسَّرَعليه العثور عليها في الزحام،

فستأخذ الطريق إلى الفندق، لأنها حفظت في ذاكرتها معالمه.

قبل أن يصل إلى الفندق، الذي لا يبعد إلا عشر دقائق مشياً على الأقدام، اقتنى ظرفاً ليضع فيه الشيكات التي وضعها في خَزْنَة الأمانات في غرفتهما. في الغرفة ركَّب الرقم السريّ، الذي اختاره مفتاحاً للخزنة: ١٩٧٩ (سنة ميلاد زوجه فاطمة)، وسحب الشيكات، واضعاً إياها في المغلّف. وأخرج الورقة التي دوَّن عليها رقم السيد جاسم بن متعب مكي، بالمقلوب، من حقيبته اليدوية، ووضعها في جيبه، وغادر ليبحث عن مكانٍ، من خارج الفندق، للاتصال الهاتفي منه.

كانت الساعة قد بلغت الخامسة وثلاث دقائق حين أجرى الاتصال الأول. رنّ الهاتف مرات عدة وانقطع الرنين. انقبض صدره؛ سيكون عليه أن يعيد الكرّة ثانية وثالثة وعاشرة، وربما ليوم الغد أيضاً. بعد دقيقة أعاد الاتصال. ردّ عليه صوت رفيع حسبه صوت طفل. ارتبك في الأول، ثم ما لبث أن أجاب سؤاله:

«أنا أحمد؛ أليس جنابك من طلب مني أن أستعلم له عن أسعار طائر الحباري؟».

«نعم، أنا هو؛ أين أنت الآن؟».

«أنا أمام الساحة المفضية إلى المسجد النبوي».

«ابق حيث أنت، سيأتيك شخص من قِبَلي ليرافقك إلى بيتي، لأني مريض لا أستطيع الخروج».

«شفاك الله يا سيدي. ولكن كيف سيتعرف عليَّ أو أتعرّف عليه؟».

«لا تقلق يا أحمد، سيعرفك». ثم قطع المكالمة.

أثناء الانتظار، وهو يذرع الساحة، حاول أن يرتّب أفكاره.

ماذا لو كان السيد جاسم على علم بنوع المغلّف الذي أرسله الشيخ أبو عبيدة إليه؟ ماذا لو كانت فيه علامة ما لم ينتبه إليها؟ في داخله مثلاً؟ ندم لأنه لم يفتشه بشكل دقيق؟ وماذا حين يعود إلى فرنسا، إن عاد وخرج سالماً من هذا الامتحان؛ هل عليه أن يخبر شيخه بما جرى له في المطار، وبأنه اضطر لفتح الظرف؟ ولكن، لماذا يخفي الأمر عنه؟ وماذا لو سأله إن اطَّلع على ما في الشيكات من مبالغ؛ هل يملك أن يكذب عليه بالقول إنه لم يّطلع؟ وهل ستكون العواقب سليمة إن اعترف له بأنه اطّلع على ما فيها؟

وضع يده على كتفه من خلف وجذبه برفق. اهتز قلب عبد الرحيم وهو يستدير قبل أن يفغر فاه، من شدة الفجأة. ابتسم فاتحاً ذراعيه وهو يقول:

«من؟ السيد عليّ شريف!».

تَحَاضَنَا ثم دعاه عليّ إلى التحرك من المكان. سارا قليلاً، في اتجاه الشارع، وأشار عليّ إلى سيارة أجرة. استقلَّاها وبدأ عليّ يسأله أسئلة أدرك أنها من باب تغليط السائق. سأله عن محل الحلاقة الذي فتحه في الدار البيضاء، وعما إذا كان الزبائن يتقاطرون عليه، وعن شهادة الحلاقة التي حصل عليها في فرنسا، وعما إذا كان المغاربة يحلقون ذقونهم، كما سمع، على غير عادة الباكستانيين... إلخ، ثم التفت إلى سائق السيارة وطلب منه التوقف. سارا قليلاً، ودلفا إلى سوبر ماركت، اقتنى منه علي قنينتيْ ماء صغيرتيْن. ثم استقلا سيارة أجرة ثانية، وقبل الصعود أشار إليه عليّ بالتزام الصمت. تحركت بهما السيارة مسافة أربع دقائق، وأشار للسائق بالتوقف متحدثاً إليه بالإنكليزية. نزلا ثم اتجها إلى شارع فرعي ومنه إلى شارع ثانٍ وثالث، أدرك معه عبد

الرحيم أن ذلك من قبيل الاحتياط. وأخيراً دخلا إلى بناية راقية وصعدا المصعد إلى الطابق السادس.

فتح عليّ الباب ببطاقة مغناطيسية، ودعاه إلى الدخول. في صالون البيت، كان رجل نحيف، في أواسط الثلاثينات من عمره، يقتعد الأرض جالساً الأربعاء، وقد أرسل لحية مصبوغة ربما بالحناء، لأن احمرارها من نوع الاحمرار الذي تتركه صباغة الحناء. نهض وسلّم مرحّباً بعبارات أدرك منها أنه سعودي. انتبه إلى صوته؛ بَدَا له مختلفاً تماماً عن الصوت الرفيع الذي سمعه، قبل ساعة، على الهاتف؛ إذ هو أشبه ما يكون بالأجشّ. أحسّ الشيخ الملتحي بحيرة عبد الرحيم فبادره بالقول:

«حدثك أحد إخواننا قبل قليل على الهاتف. وأتصوّر أنك تقدّر ظروف عملنا. أخبِرْنا كيف حال الشيخ أبي عبيدة!».

«بخير والحمد لله. وقد طلب مني أن أسلمكم هذه الأمانة». مدّ يده إلى جيب الجاكيتة الداخلي ليسحب المغلّف، فأمسك عليّ شريف يده وسأل:

«إلى من طلب منك الشيخ تسليمها؟».

فوجئ عبد الرحيم بالسؤال، والتفت نحو الشيخ الجالس وكأنه يجيب بصريّاً عنه، ثم قال بهدوء:

«طلب مني تسليمها إلى السيد جاسم بن تميم مكّي».

«الشيخ جاسم لم يصل بعد»؛ ردّ عليّ شريف.

شعر عبد الرحيم بإحراج شديد، فارتجل عبارات الاعتذار. ابتسم الشيخ الجالس ابتسامةَ تهوين ليرفع عنه الحرج. أدرك أنه ارتكب خطأً قاتلاً لا يجوز في عالم المجاهدين. أحنى رأسه منتظراً

مجيء الشيخ. بعد قليلٍ، دخل رجل قصير القامة، عريض الصدر والمنكبين، في عمر الشيخ الجالس، تتخلل ذقنه شعيرات قليلة متفرقة كأنه أمرد، وفي عينيه نظرة حادة. وقف عليّ والشيخ الجالس ـ فوقف عبد الرحيم ـ لتحيته معهما قال عليّ:

«هذا هو الشيخ عبد الرحيم، الذي أرسله الشيخ أبو عبيدة لفضيلتكم، لتسليمكم أمانته».

رحّب الشيخ جاسم به، وشكره على تجشمه عناء حمل هذه المهمة. والتفت إليه عليّ يحثُّه على تسليم الأمانة. فعل على الفور، ثم سلّم الشيخُ جاسم المغلّفَ إلى الشيخ الجالس. بَسْمَلَ الأخير، وفضَّه، ثم أطلَّ على ما بداخله متقرِّياً من دون أن يُخرج منه شيئاً، ووضعه فوق حجره. استأذن عبد الرحيم، حينها، في الانصراف، فلم يلح مضيفوه عليه للبقاء. صفَّق الشيخ جاسم، فأتى شاب أسمر، وطلب منه الشيخ أن يوصله إلى حيث يشاء. أما عليّ فسلّم عليه مودّعاً، مخبراً إياه أنه سيعود في الغد إلى باكستان. في طريق العودة، ضيَّع عليه السائق معالم الطريق تقصُّداً؛ فكان يدخل إلى شارع ثم ينعطف إلى آخر حتى شعر بالدوار...

*

أدَّيا العمرة، فاطمة وهو، وبدأ يتهيآن للسفر. كان سعيداً لأنه أدّى العمرة وزوجته. وكان سعيداً لأنه أبلغ الأمانة إلى أهلها، وأزاح عن صدره كابوساً عاشه أياماً قبل أن يبلّغها. لكن بعض البلبلة لم يزايل رأسه، وظل يتقاطر على ذهنه صوراً ووقائعَ يحاول أن يَرْتُقَ أمشاجَها ليكوِّن تفسيراً؛ ما معنى قدوم عليّ شريف إلى المدينة، بعد ثمانية أيام على لقائهما في باكستان؟ وما معنى مغادرته السعودية فور لقائهما في بيت الشيخ جاسم؟ هل كان

يعرف أنهما سيلتقيان، بعد أسبوع، حين ودعه قائلاً إنهما قد يلتقيان في مكّة المكرّمة أو المدينة المنورة؟ هل أخبره الشيخ أبو عبيدة بذلك قبله؟ ولماذا أتى؟ هل ليكون شاهداً على أنه سلّم الأمانة؟ ولماذا لم يوفّر عليه الشيخ كل هذه الأسفار، فيسلّمه الأمانة قبل سفره إلى باكستان ليوصلها إلى عليّ شريف، ما دام الأخير يعلم بأمرها، ويعرف أولئك الذين ستصل إليهم؟ ما معنى كل هذا الفيلم الغامض الذي لا تُعْرَف لأحداثه خيوطُ اتصال؟ غير أن أكثر ما ألحَّ عليه هو السؤال عمَّن يكون الشيخ جاسم؛ لم يصدِّق أن الرجل القصير هو الشيخ المقصود، مال إلى الظن أن مقتعد الأرض، الجالس الأربعاء، المُسْدِلَ لحيتَه الحمراء، هو الشيخ. لا دليل له على ذلك إلا قلبه. أمُّه كانت تقول له، منذ الصغر، إن اختلطت عليك الأشياء، فقلبُك دليلُك. وها قلبه يقول له إنه هو الشيخ لا غيره. لماذا يريدون، إذاً تغليطه؟ هل في الأمر ما يدعوهم إلى كل هذا التحوُّط والتكتم مخافة علم شخصٍ هو، عينُه، الذي تجشّم الأخطار ليوصل إليهم ما أوصله؟!

أعاد تدوير هذه الأسئلة في رأسه، في طريق العودة، جوّاً وبرّاً، إلى سراييفو. وفي كل مرةٍ يعثر في تقليب الصور على «طرف خيط». وما إن حطّ الرحال في المدينة والبيت حتى كان ذهنُه يتلقى جرعةً من الوضوح، أو هكذا خال؛ لا بدّ أن تكون هذه الأموال قد أخذت طريقها إلى جماعةٍ ما مرتبطةٍ بطالبان. خيْطُ العقدة الأساس عنده هو عليّ شريف. سيعرف في ما بعد. . .، ربما من أبي عبيدة نفسه.

XVI

بينما يستعدّ عبد الرحمن لاستقبال عبد الرحيم ويارا بعد يومين من صباحه ذاك، ويتهيّأ ليطلب من العمّال المستخدمين الانتهاء سريعاً من تقليب جزء من الأرض، ذلك اليوم، لزراعته ببذور بعض الخضروات الموسمية، حتى يتفرغ في الغد لاقتناء ما ينبغي اقتناؤه من سوق بن جرير، فوجئ بصفية تقتحم عليه الضيعة باكراً ووجهُها من الامتقاع في غاية. خال أن مكروهاً ما أصاب أمّه، وسألها ما الأمر:

«جاء دركيان يسألان عنك قبل قليل. وحين أخبرتهما أنك لم تَبِتِ الليلةَ في البيت، تركا لك هذه الورقة، وطلبا مني الإمضاء على دفتر».

«هل علِمتْ أمّي بالأمر؟».

«لا، لم تعلم، أخبرتُها أن أحد أصدقائك ترك لك هذه الورقة، حين لم يجدك، وأنني سأحملها إليك».

أمسك منها الورقة وتأملها، فإذا هي استدعاء له للمثول في قسم الدرك. اضطرب، في البداية، ثم تمالك نفسه، والتفت إلى صفية يدعوها إلى العودة إلى البيت وعدم إخبار الوالدة بالأمر. امتثلت لأمره وأدبرت، لكنها عادت ـ بعد خطوتين من إدبارها ـ

وقد احتقنت عيناها، واقتربت منه وقبّلت كتفه داعيةً له بحسن العاقبة. اصطنع ابتسامة، وقال يخفّف من وطأة خوفها:

«لا تخافي، لست ذاهباً إلى الحرب. ماذا تريدين من بن جرير؟».

«أريد سلامتك».

انصرف ذهنه إلى مهدي وانقبض صدره حين تخيَّل أن شيئاً ما ربما يكون أصابه، فطُلِب من الدرك إبلاغه. ثم هجم عليه وسواس آخر: عبد الرحيم الآخذ طريقه بالسيارة إلى أهله. لعن الشيطان، وبالله استعاذ من وساوسه، ثم ذهب يسأل عن محمد الحريزي ليوصيه.

أخبر الحريزي بما حصل، وطلب منه أن يخبر السي محمد في نهاية المساء إن لم يعد من قسم الدرك، وسأله تقديره لسبب استدعائه، ففوجئ بالأخير يمسك بيده وينتحي به جانباً ليقول:

«أخشى أن يكون ذلك نتيجة شكايةٍ من الحاج العياشي أو ابنه».

«وماذا فعلتُ لهما ليشكواني؟ هل لديك علمٌ بأمرٍ ما تخفيه عني؟».

«لا، لم أسمع منهما شيئاً عنك والله يشهد، لكني أخشى من أن يكون الشيطان لعب في رأس أحد منهما وحرَّضه عليك».

يتمنى، في قرارة نفسه، أن يكون السبب في الاستدعاء ما ذهب إليه ظن الحريزي؛ فالثمن أهون من أن يكون شيئاً أصاب مهدي أو عبد الرحيم وابنته. ركب دراجته النارية واتجه إلى بناية الدرك عند مداخل بن جرير، وقبل أن يترجل خطرت في رأسه فكرة نفّذها على الفور؛ دخل إلى المقهى وطلب الهاتف للتحدث إلى أخيه عبد الرحيم، الذي تذكّر أن لديه هاتفاً محمولاً لا يبارحه. من حسن حظه أنه حفظ رقمه، ومن حسن حظه أنه وجد سبيلاً إلى

جلاء غمّة وساوسه، من جهة عبد الرحيم، حتى إذا ما استبقاه الدرك عندهم، أو صحَّتْ مخافةُ الحريزي، يكون قد اطمأنَّ إلى سلامة أخيه وابنته. اهتزّ صدرهُ فرحاً حين سمع صوت عبد الرحيم. ردّ عليه أنه في طريقه إلى الحدود الفرنسية ـ الإسبانية التي قد يصلها عصراً، وأنه سيبيت الليلة في مدريد، وليلة الغد في مالقة، وسيصل إلى سبتة ظهراً، وفي الليل يكون في بن جرير. سأله، متلهفاً، إن كانت يارا معه، فردّ بأنها معه وهي الآن تغط في النوم. دعا له بالسلامة مؤكداً له أن الجميع في انتظار وصوله.

غادر المقهى سعيداً، وإن بقي في صدره خوف من أن يكون مكروهٌ ما أصاب مهدي. أخذ دراجته وعاد أدراجه باتجاه الدرك في المكتب الذي أشير عليه بأن يسأل فيه، بادره دركيٌّ يعرفه بالقول:

«ماذا فعلت يا عبد الرحمن حتى يستدعيك البوليس إلى مراكش؟».

ما إن سمع البوليس ومراكش حتى أيقن، في نفسه، بأن الأمر يتعلق بمهدي. أجاب والفجأة أضاعت صوابه:

«لم أفعل شيئاً، وما ظننتُ أن الاستدعاء إلا منكم».

فتح الدركيّ دُرْجاً في المكتب، وسحب ورقة مدّها إليه قائلاً:

توصلنا بهذا الاستدعاء لنسلّمه إليك. عليك الآن أن تذهب إلى مراكش، وتلتحق بالدائرة الأولى للأمن الوطني لأنهم يريدونك هناك».

تسلّم الورقة وقد دارت صورة مهدي في رأسه، بعد أن تأكد لديه أن العياشي لا علاقة له بموضوع الاستدعاء، وإلا كان رجال الدرك استبقَوْهُ عندهم، أو حققوا معه. لم يعد يعرف ماذا يفعل، أيسأل السي محمد في الأمر، أم يذهب من فوره إلى مراكش؟ هو

لا يستطيع أن ينتظر الأستاذ حتى عودته من المدرسة منتصف النهار، ثم إنّ أي تأخير في الوصول إلى مراكش قد يكون على حساب مهدي. ترى ما الذي حصل؟ هل أصيب أخوه بمكروه فأخذوه إلى المستشفى، ام إنهم ضبطوا لديه مخدرات ويريدون إعادة محاكمته؟ لعن، في نفسه، اليوم الذي قرّر فيه أن يبقيه في المدرسة بعد الشهادة الابتدائية. وضع دراجته النارية عند صديقه الميكانيكي، وأخبره بأنه ذاهب إلى مراكش لقضاء بعض الأغراض التي أوصاه عبد الرحيم بقضائها.



«هل تعرف مصطفى؟».

«أعرفه يا سيدي؛ استأجر أرض العائلة منذ خمس سنوات إلا قليلاً، وأنا من يحرُسها ويشرف على زراعتها».

«هل يتردد كثيراً على الأرض؟».

«مرات قليلة، وفي الأعوام الثلاثة الأخيرة لم تتعدَّ زياراته المرة الواحدة في العام».

«وكيف يتابع أمورها ويصرف عليها؟».

«أزوره مرةً كل شهر في مراكش، وأعرض عليه حاجياتها من المحروقات أو من البذور، ناهيك بأجور العمال المياومين، والنفقات الخاصة بأدوات الزراعة المستأجرة، مثل المحراث الآلي، والمحصاد وسوى ذلك. كما أسلّمه المبالغ المستحقة من مبيعات غلاتها».

«ماذا لاحظت عليه خلال تعاملك معه؟».

«لم ألاحظ عليه إلا علامات الخير يا سيدي».

«هل طلب منك، يوماً أن تساعده في تجارته؟».

«لم أعرف عنه، يا سيدي، أنه تاجر».

«وماذا تعرف عنه غير أنه استأجر أرضك».

«كل ما سمعته عنه أنه، والله أعلم، مقاول يبني العمارات، وأن هذه هي صنعته في الأساس».

«ولماذا يستأجر أرضك؟».

«عِلْمُ ذلك عند الله. ولكنني أدركت متأخراً أن حرصه على زراعة اللويزة إنما كان ـ كما قيل لي ـ لأنه متعاقد مع مصنع لإنتاج العطور، ولستُ أقطع بصحّة ما أُخْبِرْتُ به، لأني ما جَرُؤْتُ يوماً على سؤاله في الأمر، ولا وجدت أن ذلك من حقي».

«هل طلب منك شراء الأرض؟».

«لا، لم يطلب ذلك. وأنا ما كنتُ لأبيعَهُ إياها، هو أو غيره، لأنني مؤتمنٌ عليها بوصيةٍ من والدي رحمه الله».

«لماذا لم يطلب منك أن تبيعه إياها ما دام مقاولاً غنيّاً؟».

تذكر ما دار بينه وعبد العزيز والسي محمد، قبل سنتين، في الموضوع، وكيف استوقفه السؤال، فردّ:

«عِلْمُ ذلك عند الله وعنده هو».

هكذا تسلسلت الأسئلة من ضابط الأمن، وامتدت لساعةٍ ونصف، وهو يجيب على الفور من دون تردّد، فيما شخص ثان يتابعهما بكتابة ما يدور من حديث. بعد أن انتهى الضابط من طرح الأسئلة، قال له:

«يمكنك أن تنصرف الآن، وحين نحتاج إليك ثانية، سنطلبك للمثول هنا».

لم يصدّق أن الأمر وقف عند هذا الحدّ، وهو قطعاً كان مرتاحاً لأن شيئاً لم يحصل لمهدي كما ذهب به الظن الخبيث. أحنى رأسه مودّعاً، لكنّ فضولاً ركبه لمعرفة الأمر، فتنحنح وسأل الضابط:

«عفواً يا سيدي؛ ما الذي حصل للسيد مصطفى؟».

حدجه بنظرة حادة من عينين يتطاير منهما شرر وقال:

«وما شأنك أنت وما حدث له؟».

«عفواً مولاي، أنا آسف».

عاد أدراجه إلى بن جرير وهو يفكر، طوال الطريق، في هذا الذي يحصل؛ في التحقيق الذي جرى معه، وفي ما عساه أن يكون قد حدث للسي مصطفى، وفكّر في السبب الذي يدعو البوليس إلى سؤاله هو بالذات، من دون الناس جميعاً. ولكن من أدراه أنه الوحيد الذي حُقِّق معه في الأمر؟ الشيء الوحيد الذي شكر الله على أنه لم يتورط فيه أنه لم يأت، في التحقيق، على اسم الحريزي بالذكر، لأن ضابط الأمن لم يسأله عمَّن توسَّط له في استئجار الأرض. وهو الآن ليس متأكداً مما إذا كان يستطيع أن يُمْسِك عن تسمية الوسيط لو سُئِل عنه، أم سيبوح. كان خائفاً، مضطرباً، لكنه أبدى التماسك حتى لا يثير شبهة المحقق.

حين بلغ بن جرير، أخذ دراجته وعاد إلى الضيعة. الوقت غروب والحريزي لا يزال هناك، ولا بدّ أنه لم يذهب إلى السي محمد لإخباره. نادى عليه من باب الضيعة، فأتاه. سأله محمد الحريزي أين كان طوال النهار؛ فقد عرف بأنه دخل إلى

قسم الدرك وغادره، كما أخبره بذلك مَن شاهدهُ من الناس.

«كنت في مراكش».

«هذا ما قلته للسي محمد حين رأيته».

«أين التقيتَه؟».

«زارك منتصف النهار، وحين لم يجدك قال لي إنه أتى يُخبرك بأن السي مصطفى اعتُقِل قبل أيام».

«ماذا فعل؟».

«اعتُقِل بتهمة تجارة المخدرات».

«لا حول ولا قوة إلا بالله؛ أجرى معي البوليس في مراكش تحقيقاً حوله، اليوم، وسألوني في تفاصيل كثيرة من دون أن أعرف السبب».

روى له تفاصيل ما جرى منذ التقاه صباحاً، وطمأنه إلى أنه لم يذكر اسمه كوسيط بينهما في الإيجار. حرص الحريزي على معرفة ذلك، لكن عبد الرحمن سبقه إلى تبديد مخاوفه. وجد الحريزي نفسه مضطراً لأن يدفع عنه شبهة العلاقة بالمستأجر، حتى لعبد الرحمن نفسه، فقال له إنه لم يكن يعرف به إلى أن حدثه عنه صديق له في مراكش، مخبراً إياه أنه يبحث عن أرض زراعية للإيجار. وحيث أطرق عبد الرحمن مفكراً، خال الحريزي أنه لم يصدّقه، فبدأ يحلف اليمين بأن لا صلة تربطه به. ردّ عبد الرحمن على الفور:

«لست في حاجة إلى القسم، فأنا أصدّقك أيها الرجل الطيب، ولا يمكنني أن أنسى لك أنك من انتشلني من حيرتي وضائقتي وأعدْتَ الحياة إلى أرض أبي. إنما يصعب عليَّ أن أصدّق أن السي مصطفى يمكن أن يكون تاجر مخدرات، وليس مستبعداً

أن يكون أحد أعدائه أو خصومه هو من أوقعه بوشاية كاذبة».

«كل شيء ممكن، ومع ذلك ألم تلاحظ، يوماً، أن الرجل ليس معْنياً بالأرض، ولا بما يجري فيها، وأنه لولاك لما استقامت أمورها؟ غيرُك كان سيستفيد من لا مبالاته ويفعل بحقوقه في غِلالها ما يشاء».

«أعوذ بالله من المال الحرام».

«وماذا ستفعل إن حوكم ودخل السجن؟ كيف ستصرف على الأرض؛ على المحروقات والعمّال وسوى ذلك؟».

«ستثبتُ براءتُه إن شاء الله؟».

«وإذا ما أُدِينَ؛ ماذا تفعل؟».

«تفاءل خيراً يا رجل، يسوق الله لك الخير».

*

لم يقض عبد الرحيم في بن جرير أكثر من يومين حتى غادر إلى مراكش ثم أكادير مع ابنته، مصطحباً صفية لتكون بقربها. حينما روى له أخوه، لحظة وصوله، ما جرى للمستأجر، اكتفى بالقول إنه أخذ جزاءه، وهنأه بأنه تحرَّر من مالٍ حرام لم يكن يعرف عنه شيئاً. استغرب عبد الرحمن لطريقة حديث أخيه عن مصطفى، واستسهاله أمرَ ما جرى وسيجري للعائلة من وراء فقدان المصدر الذي كان ينفق على الأرض، وراعه أكثر مقدار ما في كلامه عنه من قسوة غير مبررة، مع أنه لو عرفه وتحسَّس طيبوبته، كما اعتقد عبد الرحمن، لاكتشف فيه إنساناً آخر غير الذي يتصوّر. أمّا حين أخبره عبد الرحيم أنه أدّى العمرة قبل شهرين، وتلقى تبريكاته، فقد زاد ذلك من رفع استغرابه أكثر؛ فعبد الرحمن من

النوع الذي لا يملك أن يتصوّر، لحظةً، أن من زار مكة وقبر النبي، يمكن أن يحمل في قلبه شعور حقدٍ أو كرهٍ اتجاه أحد ولو كان له خصماً. هكذا قال، قبل سنوات ست، وهو يرى الحاج العياشي يغدر به، ويَكيد له، ثم نسيَ الأمر، بل كاد حتى أن يَصْفح عنه. وها هو، اليوم، يقول الشيءَ عينه حين يرى أخاه يكرّر ما يَنْقُض القاعدة عنه، ويذكّره بما فعله العياشي به! لم يكن سعيداً باستعجال أخيه السفر إلى مراكش وأكادير، للترفيه عن يارا كما قال، لأنه حَرَمَه من الطفلة التي أحبّها حبَّ عمتها صفية لها. وما كان لِيُمَنِّيَ نفسَه بأنه سيتمتع بوجودها، بعد العودة من أكادير، لأن عبد الرحيم أخبره أنه لن يقضيَ في الرحامنة، بعد إجازة الأسبوعين، إلا يوماً واحداً يغادر بعده إلى فرنسا.

لأول مرة يحسد صفية على هذه النعمة التي أنعم بها عليها عبد الرحيم حين اصطحبها معه ويارا إلى مراكش وأكادير. يعرف أن بين صفية وعبد الرحيم علاقة محبة مذ كانت طفلة صغيرة، وأنها تعلقت به منذ ذلك الحين، ثم ترجمت محبتها له محبةً ليارا، وشعوراً خفياً بالأمومة تجاهها. ويعرف أن عبد الرحيم كان يُؤْثرها على غيرها من أخواته وإخوته حتى حينما هاجر إلى فرنسا، واشتغل فيها، فكان يحمل إليها من الهدايا الأثمنَ في ما يحمل إليهم. ثم إنه يعرف أن ذهاب صفية مع يارا، في رحلة الاستجمام هذه، يعيد إليها طمأنينتها النفسية وتوازنها الذي كادت أن تفقده منذ غابت يارا عن ناظريها قبل ثمانية شهور. لكنه، مع ذلك كله، ظل يغبطها على هذا الامتياز الخاص الذي خصَّها به عبد الرحيم؛ الذي كان خليقاً به أن يستغني عنه بمسلك عادل، يجعل فيه يارا حقاً مشاعاً للعائلة كلها، خصوصاً وأن جدتها حُرِمت منها، مثلما حُرمت من ابنتها صفية التي تَحْدِب عليها وترعاها. والمشكلة في

أن قرارات عبد الرحيم المزاجية يدفع ثمنها وحده؛ فها هو بات مدعوّاً، منذ غادرت صفية، إلى المبيت في البيت العائلي مخافة أن تضطر الحاجةُ الأمَّ إليه. وهذا رتّب عليه تبعات كثيرة: أن يبرمج نومه واستيقاظه مع إيقاع أمّه اليومي في النوم والإفاقة، وأن يعود إلى البيت ظهيرةَ كل يوم ليُعِدَّ لها الطعام، وأن ينام ليلاً نوماً يحتله خوفٌ من أن يكون الكلبان تعرَّضا للتخذير، بطعمٍ مسموم، وأن يكون عابثٌ عَبَثَ بالضيعة، هذا إلى كوابيس التحقيق مع مصطفى، والخوف من أن يطرق الطارقون في الليل بيت العائلة كي يأخذوه إلى التحقيق مرة أخرى.

حزَّ في نفسه كثيراً أن عبد الرحيم رفض، بشدّة، أن يزور مهدي في سجنه، حتى حين علم بأن أخاه الصغير حمل إليه، عبر الأخ الأكبر، رغبته في أن يراه، بل حتى حينما أخبره عبد الرحمن أنه مريض. ظل يشتمه ويتبرّأ من أُخُوّته. وظل عبد الرحمن يتوسّل ويُجْهِد نفسه في الإقناع وإثارة نداء الدم الخامد في نفس عبد الرحيم. ولم يتوقف عن الإلحاح في الطلب إلا حينما بدأ الأخير يدعو عليه بأشنع الدعوات، فخاف ـ حينها ـ أن تستجاب له، وأمسك عن المزيد. حين روى للسي محمد عناد عبد الرحيم، وقسوة قلبه تجاه مهدي، لم يجد ما يرد به عليه سوى أن عبد الرحيم، كمهدي، ضائع ويدعو إلى الرثاء، وأنه لا يملك امتيازاً على مهدي كي يَعِظَ ويعطي دروساً في الاستقامة. وحين استزاد عبد الرحمن، وهو من التفاجؤ في غايةٍ، اكتفى السي محمد بالقول إن عليه أن ينسى ما بين الأخوين من جَفْوة ويهتمّ بأرضه، وكيف ينقذها من الموت بعد الذي حصل لمستأجرها القابع في السجن.

حرَّضه السي محمد على أن يفاتح عبد الرحيم في أمر القيام المادي على الأرض، بعد حبس المستأجر، واقترح عليه أن يكون

حاضراً معه حين يفاتحه في الموضوع، لكن كرامة عبد الرحمن أبت أن يتصاغر مرةً أخرى، فطلب منه أن ينسى الموضوع لأنه لن يفعل وإن اضطرته الظروف إلى الاستغناء عن العمال الزراعيين، وحَمْلِ أعباء العمل فيها وحده.

«والمحروقات؟ من أين لك أن توفّرها إن أنت اقْتَدَرْتَ على العمل وحدك في الأرض؟».

«سأوفّرها مما أبيعه من غِلال، ويَفْضُل عن حقوق صاحب الأرض المستأجِر».

«وهل ما زلت تحفظ له حقوقه وهو في السجن لا يسأل عنها؟».

«سأظل كذلك إلى أن أموت، أو يطلق الله سراحه ولن آخذ منها قرشاً؛ فهي عندي بمثابة أموال اليتامى؛ أليست في مقام الوديعة؟».

«ما أطيبك أيها الرجل النبيل!».



خلال الأسبوعين، اللذين قضاهما إجازة مع ابنته وأخته في مراكش وأكادير، سافر عبد الرحيم بالطائرة إلى الدار البيضاء وقضى فيها يومين. قبل أن يغادر الفندق إلى المطار، أوصى صفية بالاعتناء بيارا، وبعدم مبارحة الفندق، أو عند الحاجة، وحيث تبدي يارا القنوط، بعدم تجاوز محيط الفندق ومنطقة الكورنيش التي يطل عليها. وشدد على يارا بأن تمتثل لتعليمات عمتها، وأنه لن يصطحبها ثانية إلى المغرب إن أخبرته عمتها أنها خالفت أوامرها. برنامجُه في البيضاء كان محدّداً؛ أن يستطلع في بعض الوكالات العقارية إمكانية العثور على عقاريْن ملائمين: واحد لإقامة متجر للملبوسات يكون قريباً من مركز المدينة، والثاني شقة للسكن إيجاراً. وهو لا يبغي

من الاستطلاع سوى معرفة الأسعار التي يتكلفها الإيجار السنوي للمتجر والمسكن، بينما يراهن أكثر على مساعدة الحاج عبد السلام في العثور على العقارين المناسبين، لواسع معرفته بالناس في الدار البيضاء، وخاصة بعالم التجارة فيها، ثم لأنه لا يشك في أن الأسعار التي سيعرضها عليه الحاج ستكون أقل، بكثير، مما تعرضه عليه أية وكالة عقارية. ولا يَبْعد أن يستطيع الحاج تأمين حصوله على مسكنٍ ومتجرٍ للإيجار من صاحبيهما، مباشرة، ومن دون توكيلِ أيةِ وكالة تأخذ لها من الحقوق ما يُرهق أي مستأجِر.

فكرةُ نقل بعض تجارته إلى المغرب لم تكن بقرارٍ ذاتي منه، وإنما عرضها عليه أبو عبيدة، فلقيت هوىً في نفسه وتحمس لها. حصل ذلك بعد عودته من سراييفو، حيث ترك فاطمة هناك إلى حين ترتيب أمور إقامتها في فرنسا، ووعدها بالعودة بعد شهرين، في أول الصيف. روى لشيخه، بالتفصيل، ما جرى في رحلته الآسيوية إلى الهند، وباكستان، وأفغانستان، والسعودية، ولكنه لم يأت بالذكر على اضطراره فتحَ مغلَّف الأمانة في المطار، تاركاً له أن يسأله عن ذلك، إن علم بأمره، وحينها يعترف له بالأسباب التي دعته إلى فعل ذلك، والتي لا شك عنده في أن الشيخ سيتفهمها. ولقد سُرَّ حين لم يفتح معه شيخُه الموضوع، وأقنعه ذلك بأنه لم يعرف بالأمر.

سأله أبو عبيدة إن كان مستعداً أن يفتح متجراً في المغرب، بحيث يتردّد على البلد كلّ شهرين أو ثلاثة، لأن الدعوة تقتضي أن يُولَى اهتمامٌ كبير بالمغرب. استمع إليه عبد الرحيم بانتباه واهتمام وسأل:

«وماذا سيكون عليّ أن أفعل من أجل الدعوة؟ أن أبني مسجداً وألقي الدروس فيه؟».

«لا تستعجل الأمور، واترك ما عليك أن تقوم به إلى حينه. فكِّر الآن، فقط، كيف تجد بيتاً ومتجراً للإيجار، وكيف تحصل لك على رخصة للتجارة».

«ومتى أبدأ في الإجراءات يا مولانا؟».

«بعد أن تعود من سراييفو، في المرة القادمة، نتحدث في هذا».

خطرت له، في الحين، فكرة لم يتردد في البوح بها لمعرفة رأي شيخه فيها.

«هل المناسب أن تقيم معي فاطمة في الدار البيضاء، بدلاً من أن تقيم هنا، من باب إبعاد الشبهة، خاصة وأن القانون الفرنسي لا يسمح لي أن أتزوج على مواطنة فرنسية مسيحية، رغم أنني سجلتُ عقد النكاح في البوسنة».

«وكيف ستترك فاطمة وحدها في الفترات التي لا تكون فيها أنت هناك؟».

«أفكر في أن تقيم معها أختي صفية وترعاها».

«إسأل زوجك رأيَهَا في الأمر حين تراها».

«أعوِّل على فضيلتك لإقناعها بذلك».

قبل أن يزور البوسنة في أوائل شهر مايو، مثلما وعد فاطمة، اختار أن يأتي إلى المغرب ليضرب عصفورين بحجرٍ واحد: لِيَفِي بوعدٍ قطعه لصفية، على الهاتف، بأن يأتي مصطحباً معه يارا، وليستطلع إمكان العثور على المكان المناسب لتجارته وإقامته. هكذا يمكنه أن يحدّثها في أمر مضمون. أما إذا اعترضت بدعوى أنه سيتركها في بلدٍ لا تعرف فيه أحداً، فسيجيبها بأن أخته تعوّضها عن غيابه، وبأنها إذا أقامت معه في بوردو، ستعيش الغياب نفسه حين

يسافر لشهرٍ أو شهرين إلى المغرب، وحينها ستعيش وحيدة في بلدٍ لا تعرف فيه أحداً، مع فارق أنها ستكون في المغرب بين المسلمين، بينما ستكون في فرنسا بين النصارى. ارتاح لمنطقه، ورأى فيه عيْنَ العقل، خاصة مع معرفته لحساسية فاطمة ضدّ المسيحيين الذين تُحمِّلهم مسؤولية قتل أخويْها ووالدها والمسلمين في بلدها.

تَقَدَّمَ الحاج عبد السلام في السِّنّ، لكنه ما زال نشطاً، ويشتغل متردّداً بين متجريْن له، بعد أن توسّعت تجارتُه ففتح له متجراً آخر، قبل ثلاثة أعوام، في حي المعاريف. لم يكن قد رآه منذ سبعة أعوام، قبل أن يتزوج وينجب يارا. ولم يستطع الحاج، عند أول نظرة، أن يتميز عبد الرحيم بسبب لحيته الطويلة وشاربه الحليق. وأبْدَى سعادة كبيرة به، حين عرف أنه أمسى من رجال الدعوة إلى الله. روى له عبد الرحيم عمّا يعتزمه من نقل بعض تجارته إلى المغرب، وعن حاجته إلى متجرٍ صغير لا تزيد مساحته عن ثلاثين متراً، وإلى شقة من ثلاث غرف وصالون تكون قريبة من المتجر. وعده الحاج بأن يردّ عليه خلال أيام معدودات يسأل فيها بعض معارفه، ناصحاً إيّاه بعدم إضاعةِ وقته بين الوكالات العقارية. ولم يطل به الانتظار؛ فما إن عاد إلى أكادير، وفي اليوم الثالث لعودته، ليلة أَوْبَتِهِ وابنتِه وصفية إلى بن جرير، حتى اتصل به الحاج عبد السلام ليخبره أنه عثر له على محل تجاري، في باب مراكش، وعلى شقة قريبة من ساحة فردان لا تبعد إلا بثلاث أو أربع دقائق مشياً على الأقدام، وأن إيجارهما السنوي معاً لا يتجاوز مائة وستين ألف درهم. سُرَّ عبد الرحيم كثيراً، وشكر الحاج، وبلّغه أنه سيزوره في البيضاء، بعد ثلاثة أيام في طريق سفره إلى فرنسا، ليعطيه «العربون» ضمانةً منه للالتزام بعقد الإيجار، على أن يعود بعد شهر لتوقيع عقدَي الإيجار، ثم البدء في إجراءات طلب الرخصة

التي وعده أحد أصدقائه، كما قال، بتسهيلها له، سأله الحاج:

«ألا تريد أن ترى العقارَيْن؟».

«يكفيني أن تكون راضياً عنهما ياحاج».

«وفقك الله يا ابني».

لم يكن يستطيع أن يرى العقارين لأن يارا معه، وهي ستسمع ما يدور من حديث بينه والحاج، وقد تفهم الكثير منه، ثم إنه يثق ـ فوق ذلك ـ بذوق الحاج واختياراته. أكثر ما أراحه أن مبلغ الإيجار السنوي ليس عالياً جدّاً كما توقّع، وكما أوحى إليه حديث صديقٍ له عن الغلاء الفاحش في قطاع العقار في الدار البيضاء؛ فالمبلغ السنوي، الذي ذكره الحاج، لا يعادل راتبه في فرنسا لأربعة أشهر.

❊

لم يستطع عبد الرحمن أن يُقنع نفسه بما أشار عليه به السي محمد من ضرورة مفاتحة عبد الرحيم في أمر مساعدته في توفير مبلغٍ ماليّ لتغطية نفقات المازوت لجلب الماء، رغم أنه كرَّر نصيحته له ثلاث مرات خلال الأسبوعين اللذين قضاهما عبد الرحيم في إجازته. وحين عاد الأخير من أكادير، فوجئ عبد الرحمن بأنّ أخاهُ هو من بادر وفتح معه الموضوع، واعداً إياه بمساعدته ماليّاً كل شهر، تاركاً له أن يحدّد المبلغ الذي يحتاجه كي يتصرف في الأرض مثلما كان يتصرف قبل اعتقال مستأجِرها. وزاد، محدِّداً مقصود كلامه، أنه يعني المبلغ الذي يحتاجه لتغطية مصروفات المازوت، وأجور العمال، واقتناء البذور، واكتراء الآلات الزراعية.

تأثر عبد الرحمن كثيراً، ودعا له بالخير والبركات، وحمد الله في نفسه على عدم المبادرة إلى طلب مساعدته. ومع أنّ كلام

عبد الرحيم رفع عن صدره غمّةً كادت أن تُودِيَ به منذ عشرين يوماً، بعد تناهي خبرِ اعتقال السي مصطفى إليه، إلا أن شيئاً ظل في نفسه، من جهة أخيه، لم يستطع أن يَبْلَعَهُ، هو رفضه زيارة مهدي في سجنه، وعدم صفاء نفسه تجاهه.

حين بدأ عبد الرحيم يحزم حقائبه للسفر، وعبد الرحمن في حال من الوجوم، تحاكي وجوم صفية التي لم تعد تطيق أن تفارق يارا سَحَابَةَ رمشة، التفت إلى الأخير قائلاً له بصوتٍ خافت:

«ابتداءً من نهاية هذا الصيف، ستراني كثيراً في المغرب».

فتَّح عبد الرحمن عينيه من أثر المفاجأة، وسأل:

«هل ستعود نهائياً؟».

«لم أقل ذلك، ولكني سأُكْثِر من زياراتي. ستراني كل شهرين إن شاء الله».

«ما أسعدنا بهذا الخبر أيها العزيز».

ودَّع والدته، مستمطراً إياها الدعوات، ونادى على يارا أن تأتي، فأتت بها صفية وركبتاها من وطأة اليأس لا تحملانها. لاحظ عبد الرحيم يأسها، فقال إنها سترى يارا قريباً. لم تلمع عيناها، وإنما بكت بحرقة دفعت عبد الرحمن إلى نَهْرها قائلاً:

«توقفي، فأخوك سيزورنا كل شهرين».

حدجه عبد الرحيم بنظرةٍ حادة لم يفهم مغزاها، وقال قبل أن يدخل إلى السيارة: «أنتظر منك مكالمةً لتخبرني عن حاجيات الأرض».

XVII

لم يترك أبو عبيدة مجالاً للشك، عند عبد الرحيم، في أنه سيطلب منه في المغرب أكثر، بكثير، مما طلب منه في البوسنة والسعودية من مهمات وأدوار؛ فالمبالغ التي حوّلها باسمه إلى حسابه في البنك، في الدار البيضاء، أكبر بكثير من احتياجات متجرٍ صغير، أو خمسة متاجر بحجمه. وهو ما وَجَد حاجةً من نفسه إلى مثل هذا الاستنتاج؛ فشيخه أفهمه أنه لا يملك التصرّف إلّا في ربع هذا المبلغ، لأن الجزء الأكبر منه سيُرصد للدعوة. سمع منه، مرّات عدّة، عبارة الدعوة من دون أن يُفصح، يوماً، عن مقصِدِه بها. ولا يكاد أن يسأله عن المطلوب منه حتى يردّ سؤاله خائباً بمزيدِ غموضٍ يحيط به إجاباته. وأحياناً لا يجيبه؛ إمّا بتجاهُل سؤاله، أو بالردّ الملفوف بلغةٍ بلسمية: « العجلة من الشيطان يا ابني».

كان يمكنه أن يقْلَق من هذا الغموض، أو أن ينشغل به على الأقل، لكن الخطوات التي قطعها في تأسيس تجارته، في الشهريْن الماضيين، من الحصول على رخصةٍ تجارية وتوقيع عقد الإيجار، وإقناع فاطمة بالاستقرار معه في المغرب، وإرضاء صفية باصطحاب يارا معه إلى المغرب، طيلة شهر يوليوز الذي قضى ـ هو ـ معظمه

في الدار البيضاء، وقضت معه يارا وصفية أسبوعين فيها في الفندق، ومباشرته في إجراء طلبات استيراد الملابس، وفي تأثيث البيت. . . ، كل ذلك هوَّن عليه ما يمكن أن ينتظره من مصاعب في مهماته القادمة الغامضة، وأطلق حماستَه إلى العودة التدريجية إلى بلده.

ولم يَنْسَ، في غمرة ذلك كلّه، أن يفيَ بوعده بمساعدة عبد الرحمن في مغالبة ظروفه الجديدة، فخصّص له مبلغاً شهريّاً لإجابة احتياجات الأرض اليومية، وطلب منه ـ في الوقت عينه ـ أن يوصيَ معارفه بالبحث له عن قطعة أرض من خمسة هكتارات، في نواحي مراكش الجنوبية الغربية، قصد تجهيزها زراعيّاً. أصبح شيئاً فشيئاً يضع قدمه على طريق العودة نهائيّاً، بعد أن كان توقَّع أن لا تحصل قبل عشر سنوات. وحين يتذكر هذا كلّه، ينسى هواجسه، ويحمد الله على الصدفة الطيبة التي ساقت إليه شيخه.

عبد الرحمن، أيضاً، لم يكن أقل سعادةً منه؛ فها هو أخوه يُفلح في عمله، ويزيد كسباً حلالاً، ويخطو نحو العودة إلى الوطن بعد اثني عشر عاماً من الغربة. يعرف، مثلما أعلمه عبد الرحيم، أنها ليست عودة نهائية، لأن عليه ـ أيضاً ـ أن يدير أمور تجارته في فرنسا، ولكن يكفيه أنها الخطوة الأولى إليها، وأن زياراته أهلَهُ زادت كثيراً، في عامه ذاك، عمّا كانَتْهُ قبل سنوات؛ فمنذ الصيف الماضي حتى صيف هذا العام، زار المغرب أربع مرّات، وفي ثلاث منها اصطحب معه يارا. وهو سعيد، ثانياً، لأن أخاه لم يخذُلْهُ ولا خذل العائلة هذه المرة، فَوَفَى بما وعد، ومكّنه من المال الذي يعوّض عن مصروفات المستأجِر السجين، وحمى الأرض من نكسةٍ جديدة تأتي على الحياة فيها. ثم إنه سعيد لأنه أحْيا صفية بغيْث يارا، وأخذها معه إلى مراكش وأكادير والدار

البيضاء لترى ما لم تَرَهُ، هي التي لم تعرف من العالم سوى بلاد الرحامنة. وأخيراً، هو سعيد لأن نداء الأرض تجدَّد في نفس عبد الرحيم، ليس فقط حين حرص على إنقاذ أرض العائلة من العطش والموت، ولكن - أيضاً - لأنه فكّر في اقتناء أرضٍ زراعة وتجهيزها. بقي شيء واحد يحزّ في نفسه؛ أنه رفض بشدّة أن يزور مهدي في سجنه، أو يغفر له ذنبه، ولم تنفع دماء الأخوّة في عروقه، ولا توسّلات أخيه، ولا مرور عامين ونصف على دخوله السجن، كي تليّن قلبه.

أخبره عبد الرحيم قبيل سفره، في آخر شهر يوليوز، أنه سيبدأ عمله في متجره، في الدار البيضاء، في بداية شهر أكتوبر. وهذا يعني أنه سيكون في المغرب بعد أقل من أسبوعين. وأعلمه أنه سيقيم فترةَ شهرين لأن تأسيس تجارته يقتضيه ذلك، قبل أن يجد رجلَ ثقةٍ يكلّفه بها. وحين سأله إن كان سيأتي بيارا معه، قهقه قائلاً:

تراك تريدها من دون تعليم مثل بناتنا في الرحامنة».

خجل عبد الرحمن لسؤاله، فأضاف أخوه:

سآتي بها في عطلة نهاية العام، وسأعطي صفية مبلغاً من المال يمكّنها من الحديث الهاتفي مع يارا كل أسبوع».

بارك الله فيك يا أخي، وزادك من نعمته».

*

منذ وصل عبد الرحيم إلى الدار البيضاء، في بداية الخريف، وأخبر أخاه بوصوله، ومباشرتِه العمل في المتجر، انقطعت اتصالاته به. مَرَّ شهر على آخر مكالمة له معه. جربّ لمرات عدّة،

أن يكلّمه على هاتفه المحمول، لكنه يجده مُقْفَلاً، حتى خال أنه سافر ثانيةً. فكّر في أن يذهب إلى الدار البيضاء للبحث عنه، غير أنه تراجع عن الفكرة لأسباب عدّة؛ فهو لا يعرف أين يقع محلّه التجاري، وصفية لم تتعرف على موقعه حين كانت معه في الدار البيضاء، قبل ثلاثة أشهر، ولن يفيده أن يأخذها معه كي تدُلّه على الفندق الذي نزلوا فيه، عساه يعرف ـ بواسطة إدارته ـ مكان عمل أخيه إن كان قد أبلغ إدارة الفندق بذلك، أو عاد إلى الإقامة فيه. وهو لا يستطيع، في هذه الفترة من العام بالذات، حيث يبدأ الموسم الزراعي، أن يترك الأرض والعمّال فيها، وليس له من يستأمنه عليها سوى الحريزي؛ وهذا مراقِبٌ لضيعة العياشي. ثم إنه لا يملك أن يغيب كثيراً عن الرحامنة لأنه مضطر لزيارة مهدي بانتظام، فيما يقتضيه البحث عن عبد الرحيم في مدينة كبيرة، مثل البيضاء، قضاءَ أيام عدة فيها. ندم كثيراً لأنه تردَّد في سؤال أخيه عن مكان متجره، وترك له هو أن يخبره بذلك تلقاءً من دون أن يفعل الأخير. حين سأل السي محمد رأيه في كيف عليه أن يتصرف، أجابه الأخير أن أخاه سيكون، لا محالة، غارقاً في أعباء التأسيس، وأن إقفاله هاتفَه أمرٌ عادي، لأن كلفة الاتصال منه برقم هاتفٍ أرضي في المغرب عالية، وطمأنه إلى أنه سرعان ما سيتصل به ما إن يَفْرغ من أعباء البدايات.

في مساء اليوم التالي لحديثه مع السي محمد، وهو يتأهب لمغادرة المزرعة إلى البيت لإيصال ما اقتناه من أغراض، ظهيرة ذلك اليوم بعد زيارة مهدي، توقفت سيارة أمام البوّابة لم يتعرف على مَن فيها؛ لأن زجاج نوافذها يميل إلى السواد، ويخفي وجوه من بداخلها. وقف يتأمل هذه السيارة التي لم يرها من قبل، وما لبث أن أخذته الدهشة والفرح حين رأى عبد الرحيم يترجل

منها. تعانقا وقد ألقى بنظره إلى داخل السيارة عسى أن تكون يارا فيها، فلمح طيف امرأةٍ لم يستطع، بسبب الغروب، أن يتبيّن ملامحها، وقدّر أنها زوجته وقد جاء بها من فرنسا. دارت الفكرة سريعاً في رأسه وصَرَفها حين تذكّر أنها لا يمكنها المجيء بينما يارا في فترةٍ مدرسية. أغلق عبد الرحيم باب السيارة، وترك مَن فيها من دون دعوةٍ إلى الخروج منها. ثم دلف إلى المزرعة، ماسكاً ذراع عبد الرحمن، ومتبسطاً في الحديث إليه. عاتبه على قطع الاتصال به كل هذه الفترة، فردَّ ـ معتذراً ـ بأنه كان « غارقاً حتى أذنيْه» في الشغل. سأله ماذا يفعل الآن، فأجابه عبد الرحمن بأنه انتهى توّاً من العمل، وكان يتأهب للذهاب إلى البيت حين وصل. قال عبد الرحيم:

«إذاً، ما عليك سوى أن تقفل باب المزرعة، لنذهب سويّاً، ولكن دعني أعرّفك ـ أولاً ـ بزوجتي».

«ولكني أعرفها؛ أهلاً وسهلاً بها».

«لا، لا تعرفها؛ هذه زوجة جديدة من بلاد في أوروبا اسمها البوسنة».

بهت عبد الرحمن، وحاول أن يخفي الدهشة بسؤاله:

«هل. . . ؟».

«اطمئن، لم أطلّق كريستين؛ ما زالت على ذمتّي، ولكني مارستُ حقاً شرعيّاً وَهَبنيهِ ربّي».

«مبروك لك يا أخي، بارك الله لك في زوجك وزواجك».

تعرّف إليها عبد الرحمن، وأدرك ـ على الفور ـ أنها لا تصافح الرجال بمجرد أن وضعت يدها على صدرها تحيةً. فَعَلَ

مثلها، ثم فوجئ بأخيه يقدمها باسم فاطمة. هي مسلمة، إذاً؛ وسُرّ أكثر حين ردّت عليه السلام بالعربية. اختلطت عليه الأمور: أوروبية المنبت والملامح ومسلمة؛ كيف؟ أخرجه عبد الرحيم من حيرته حين شرع في الحديث إليه:

«تزوجنا منذ أشهر في البوسنة، وأدَّينا العمرة سويّاً، لكنني تعمَّدت أن لا أخبركم حتى أفاجئكم بها معي».

«ونِعْم المفاجأة السارة يا أخي، بارك الله لكما في زواجكما».

«لن تجد صعوبة في التواصل معها لأنها تتقن اللغة العربيّة، ربما أفضل مني، وإذا وجدْت صعوبة في دارجتها، القريبة من دارجة أهل الشام، فيمكنك أن تتحدث معها بالفصحى فهي تتقنها».

«ما شاء الله، تعلّمتْها في المدرسة؟».

«في المدرسة وفي البيت؛ حيث تعلّمتها وحفظت القرآن على يد والدها رحمهُ الله».

«رحمة الله عليه وعلى المسلمين جميعاً».

«لكنها وعدتني بأن تتعلم عاميتنا كذلك. وأنا متفائل لأنها سريعة الفهم».

«إن شاء الله؛ فعاميتنا بسيطة وهي لا تختلف كثيراً عن الفصحى».

«كنتُ أخشى أن لا تقبل المجيء إلى البادية، لكنها أصرَّت على المجيء لتتعرف إلى والدتي والأخوات».

«سيكُنَّ في غاية السرور والسعادة حين يريْنها. وبعد أن نصل إلى البيت، سأذهب لإخبار أخْتَيَّ بالمجيء لرؤيتها».

«لا، لا، نترك هذا إلى ما بعد الغد إن شاء الله».

«ولماذا يا أخي؟».

«نحن نعتزم الذهاب بعد ساعة، إلى مراكش؛ سنبيت فيها الليلَةَ، ونقضي فيها يوم الغد، وبعد غدٍ صباحاً نعود لرؤيتكم مجدداً، ونسافر عصر يوم الأحد».

«ولماذا العجلة يا أخي؟».

«لدي عمل ينتظرني في الدار البيضاء، وقد أقفلتُ المحلّ، ليومين ونصف، من أجل هذه السفرة».

تحركت السيارة تجاه البيت. خطر لعبد الرحمن أنّ أخاه سيكون أخفى زواجه من كريستين عن فاطمة، لذلك قرّر أن يسبق عبد الرحيم إلى البيت، حينما يَصِلون، لينبّه أمّه وأخته إلى ذلك حتى لا يذكروا زوجته أو ابنته في حضرتها. وما إن وصلا حتى قال له:

«دعني أنقل البشرى إلى الوالدة وصفية».

«ولماذا ستحرمني من المفاجأة؟».

«لا، لن أحرمك منها، تأكد من ذلك؛ سأخبرهم بوصولك أنت فقط».

ابتسم عبد الرحيم، وفَهم من إصرار عبد الرحمن أنه يبغي تنبيه صفية إلى ترتيب الغرفة، فتباطأ في النزول من السيارة، وفَتْحِ صندوقها، وإخراج حقيبة الهدايا منها. أمّا عبد الرحمن فدخل إلى البيت، وزفَّ بشرى وصول عبد الرحيم، وقبل أن تهرع صفية بالخروج لاستقباله، أمسك بها وقال:

«انتبها؛ معه شخص لا يريد عبد الرحيم أن يذكَر أمامه أنه متزوج، أو أنّ له ابنة».

حدجته صفية بنظرة استغراب، وسألت:

«هل تريد أن تُدخل علينا رجلاً؟ وهل يقبل عبد الرحيم ذلك؟».

قالت ذلك وانكفأت إلى الداخل، أما عبد الرحمن فخرج يدعو أخاه وزوجته إلى الدخول، ويحمل عنه حقيبته. كانت مفاجأة الأم وابنتها عظيمة حين رأتا الابن مصطحباً امرأة. بعد عناق طويل معهما التفت إلى فاطمة وأشار إليها بيده أن تتقدم قائلاً:

«أقدّم لكما زوجتي فاطمة».

قبّلتاها وهُمَا في حالٍ من الدهشة نجحتا في إخفائها.

«تزوجنا، منذ أشهر، وأدّينا العمرة معاً، ثم جئت بها إلى المغرب لتقيم معي في الدار البيضاء. وقد أصرت على أن تتعرف إلى الأسرة، فما كان مني إلاّ أن اصطحبتها معي».

رحّبتا بها، والتزمتا بما نصحهما به عبد الرحمن، وقد فوجئتا ـ كما فوجئ قبلهما الأخير ـ حين تحدثت باللغة العربية. لم تفهم أمّه كلامها تماماً، بعكس صفية التي استطاعت أن تلتقط منه ما استطاعت التقاطه، لكنه كان يكفيها أنها مسلمة، وتعرف لسان القرآن، حتى يطمئن قلبُها. حدّثهم عبد الرحيم عن عائلتها ووالدها واستشهاده وابنيه، وعن بلادها التي جاءت منها، ومساجدها وأخلاق أهلها. استمع الثلاثة مسحورين بذلك العالم سحْرهم بجمال فاطمة وفتنة عينيها. فجأة، التفت عبد الرحيم إلى صفية وسألها:

«هل ما زلتِ تتصلين هاتفياً بابنتي يارا؟»

فوجئ الثلاثة بالسؤال، وأوّلهم عبد الرحمن، الذي ما توقّع أن أخاه أخبر فاطمة بزواجه من كريستين وإنجابه طفلةً منها. أطرقت الأمّ، أمّا صفية فارتبكت واحتارت في الإجابة، بل همّت بتغيير الموضوع، مخافة أن يكون أخوها زلّ لسانُه في القول. وحين لاحظ عبد الرحيم صمتها، خال ذلك منها اعترافاً بأنها لم تعد تسأل عن يارا، بلهفةٍ، مثلما كانت، فقال لها ممازِحاً:

«لعلّكِ شبعت من صوت يارا».

حينها أيقنت أن ليس من زلة لسان، فبادرت تردّ:

بل حدثتُها أوّل أمس؛ أخذني أخي إلى بن جرير لهذا الغرض، وقالت لي إنها تنتظر العطلة كي تأتي لزيارتنا، وتكلمنا طويلاً حتى ظننت أنها معي».

التفت عبد الرحيم إلى فاطمة وقال:

«لم أرَ حبّاً كالذي بين ابنتي وأختي. أسرعي بإنجاب طفل كي تعتني لك به صفية».

احمر وجه فاطمة من الخجل، فيما أضاف:

«عليّ أن أخبركم بأن فاطمة حامل في شهرها الثالث».

تعالت التبريكات، وزاد وجهُ فاطمة احمراراً، فيما اتسعت عَيْنَا صفية وابتسامتُها لسماعها خبر الوليد القادم، وقالت:

«لعلّه طفل إن شاء الله».

«لا يهمني جنسه؛ ما يريده الله لنا نقبله. ومع أن كثيرين نصحوني بأن تُجريَ فاطمة فحصاً لمعرفة جنس الجنين، إلّا أنني رفضت بشدة».

أحسنْت؛ لا يعرف ما في الأرحام إلّا الله تعالى»؛ قال عبد الرحمن.

بعد أن فتح الحقيبة ووزّع الهدايا على الجميع: الوالدة، عبد الرحمن، والأخوات الثلاث، استأذنهم في الذهاب وزوجته إلى مراكش. حاولت الأمّ ثَنْيَهُ عن الفكرة، فشرح لها بأن وقته ضيق، ولا بد أن يُري فاطمة مراكش قبل أن يعود للغداء معهم في اليوم الموالي، موصياً أمّه بأن تُعِدّ لهم أختُه رقية طعام الكُسكُس. وحين ردّت صفية بأنها أهلٌ لذلك، ربما أفضل من أختيْها، ضحك وقال:

«لأنك لن تكوني هنا، بعد غد، وإنما ستذهبين معنا إلى مراكش» اتسعت عيناها فرحاً، والتفتت إلى أمّها استئذاناً، وإلى عبد الرحمن توسُّلاً كي يبيت مع الوالدة، ففهم مغزى نظرتها قائلاً:

«لا تحملي هماً، سأهتم بالوالدة».

رافقهم عبد الرحمن إلى السيارة محزوناً، لأن عبد الرحيم تذكَّر، بهداياه، إخوته جميعاً ما عدا مهدي. ولم يكن يستطيع أن يقول له شيئاً، سوى أن يدعو الله له برحمةٍ تسكن قلبه.

قضى عبد الرحيم يومه في تعريف زوجته وصفية ببعض معالم مراكش: جامع الكُتُبيّة، وقصر البديع، وقصر الباهية، والمنارة وحدائقها، وساحة جامع الفِنَاء، وأسواق المدينة العتيقة. كانت فاطمة في غاية الانبهار بهذا العالم السحري الذي لم تَر مثله، ولا خطر ببالها أنه موجود. وشعرت بالدفء يسري في نفسها، وبالناس كأنهم أهلُها. تمنَّت، للحظةٍ، لو أن زوجها فتح تجارته وبيته في هذه المدينة التي بدت لها أقرب إلى روح الإسلام من الدار البيضاء، وتمنّت لو تستطيع إقناعه بذلك متوسِّلةً حبَّه لها، ورغبته في أن يكون قريباً من أهله. صفية، أيضاً، انبهرت بمدينةٍ لم ترها

منذ كانت صغيرة لا تكاد أن تميّز بين الأشياء؛ منذ كان والدها نزيل المستشفى في مَرْضَته التي قضى فيها. للمدينة، اليوم، طعمٌ آخر؛ وطعمُها أطيب مذاقاً في العين والنفس من الدار البيضاء. حين جاء بها أخوها، مع يارا، قبل أشهر، لم تكن قد رأت شيئاً من المدينة؛ فهو أخذهما على فندقٍ خارجها، ولم يغادراه إلّا حين سلكوا الطريق إلى أكادير. لكن مذاق طعمها أحلى مع فاطمة؛ أحبَّتها منذ اللحظة الأولى، وزادت حبّاً حين رأت من سلوكها ووداعتها ما يبهر. هي تختلف، كثيراً، عن كريستين في كل شيء تقريباً؛ يكاد اسم الله لا يبارح لسانها، فينزل صوتها ـ وهي تتكلم ـ على قلب صفية صفاءً وسكينة. وابتسامتُها، وإن كانت مشوبة بمسحة حزنٍ عميق، ترفرف لها جوانحُها. شغلها شاغل واحد، أنها ستغيب عنها في مساء الأحد آيبةً مع زوجها.

حين بلغ عبد الرحيم بيت الأهل في الرحامنة، وقبل أن ينزل، التفت إلى صفية وقال:

اجمعي أغراضك، يا صفية، ستسافرين معنا إلى الدار البيضاء، وتقيمين معنا في البيت، لأن فاطمة ترغب في ذلك».

أمسكتها الدهشةُ لحظةً، ثم أطلقت دموعها، وارتمت تقبّل يده.

*

أتاهُ السي محمد إلى المزرعة ـ ونادراً ما كان يفعل ذلك ـ ليخبره أن حكماً قضائياً صدر أمس في حق المستأجِر بالسجن لعشرين عاماً. عرف عبد الرحمن بالمحاكمة، وكان يتابع أخبارها منذ بدأت جلستها الأولى في بداية الخريف، لكنه توقف منذ

انطلق موسم الأمطار الشتوية، ليُشْغَل عنها بالزراعة، وخاصة حينما سمع أنها قد تمتد لأشهر. ها هو الحكم يصدر، بعد أربعة أشهر من بدء المحاكمات. بَدَا له قاسياً، وربما ظالماً لظنّه، الذي لم يَحِد عنه، بأن السي مصطفى بريء. عَقَّب على الخبر بحزن ويأس:

«لاحول ولاقوة إلّا بالله؛ الرجل لا يستحق هذا العقاب».

ردّ السي محمد باستغراب:

«ما زلتَ تُحسِن به الظن! الحق إن عقابه الشنق أو المؤبّد».

«لا أعرف في قلبك هذه القسوة يا أستاذ».

«أنت رجل طيب لا تعلم مقدار ما يفعله أمثال هذا المجرم في المجتمع وشبابه؛ هذا واحدٌ من أكبر أباطرة المخدرات في المغرب. ويكفي أن مشاريعه في تبييض الأموال يفوق مبلغُها التقديري عشرة مليار سنتيم: من عقارات للسكن، ومقاهٍ ومطاعم، وأراضٍ زراعية، ومن يصرف كل هذه الأموال الطائلة لمجرّد التمويه، ماذا عسى أن يكون مبلغ تجارته في المخدرات».

«أنا والله لا أصدّق أن يكون الرجل بهذا القدر من السوء، فما رأيت منه إلا الخير».

هو الأفعى التي باعت السمّ لأخيك مهدي، ورمت به في السجن».

اهتزّ قلبُه لسماع اسم أخيه. لأول مرة يربط بين المتهميْن.

«هل تقصد أنه من كان يزوّده بالمخدرات؟».

«ليس هذا ما عنيتُ، ولكنه مورِّدٌ كبير لتجارٍ وسطاء هم من يصلون، عبر شبكات وكلائهم، إلى أمثال أخيك من المستهلكين».

لاحظ انقباضه الشديد، وتأثُّره بما سمع منه، فآثر أن لا يزيد فيقلّب عليه المواجع.

أخبرني محام صديق، هذا الصباح، أن في وسعك أن ترفع قضية تستردَ بها أرضك، وأنك ستكسبها لا محالة».

«لن أفعل؟».

«ماذا تقول؟».

«سأظل أحتفظ له بنصيبه من الأرض، طوال السنوات الباقية من عقد الإيجار، وأسلّمه إياه حين يطلق الله سراحه، وأوصي أهلي بذلك إن متّ قبل خروجه من الحبس».

ودَّعه السي محمد وقفل عائداً إلى بن جرير. شيء ما في نفسه يهجس بشعور الغرابة! هل ما زال في الأرض بشرٌ من هذه الطينة؟ ألم يولد عبد الرحمن ويكبر في بلاد الرحامنة، وهي على ما هي عليه من قيمٍ تختلط فيها الخرافة بالذكاء البدوي، والأنانية بالكيد؟ أبوه ليس رجلاً صالحاً من ذوي الكرامات، وهو ليس من مرتادي الزوايا، ومن مريدي شيوخ التصوف، حتى يَغْمُر وجدانُه وصدرُهُ بهذا المقدار الغريب من الصفاء، والسكينة، والسلام الداخلي. بَسيطٌ هو، نعم، وشبهُ أمّيّ، وسريع التصديق، لكنه قويُّ الإيمان بما يتشّبع به من أخلاق لا يحيد عنها، ولا يزعزع إيمانه بها تشكيك مشكِّك. لو أكمل دراسته، وتعمَّق في التحصيل العلمي لكان ذا شأنٍ عظيم في المجتمع. ولكن من أدراهُ بأن لا يكون علمُه سبباً يكفي لِتَفَتُّق الغش في نفسه! هذا أخوهُ مهدي مثلاً: تعلّم في المدرسة، وكاد أن يُكمل تحصيله في الجامعة، ولكن عَمَّ تمخضت شخصيته؟ وأيُّ فرقٍ يفصله عن هذا الفلّاح الطيب! وهذا عبد العزيز، الذي تفوَّق على زملائه جميعاً

في الدراسة، وتمرَّد على قيم وسطه الاجتماعي الإقطاعي، وتوسَّم فيه أن يكون رمزاً لنخبة جديدة في الرحامنة، يسيل لعابهُ على أيّ دور سياسي يكون له من دون أن يعبأ بأيّ مبدإ عاصمٍ من الزلل! عبد الرحمن وحده المتفوّق أخلاقياً وإنسانيّاً على تلك الحشرات الانتهازية جميعاً؛ هكذا قال وهو يصُفّ سيارتهُ أمام مدخل البناية التي يقطن فيها. بعد قليل، سيكون على موعدٍ مع عبد العزيز العثماني. أُرغِمَ على قبول موعدٍ مع شاب باتت نفسُه تعافُه، وإن تحاشى أن يفُوه بمَا في داخله من مشاعر الاحتقار والرثاء كلما التقاه، في العامين الماضيين، ودار بينهما حديث. هذه المرَّة صمَّم على أن ينهي صلته به حين يجالسان بعضهما في المقهى بعد قليل. ليس في ذهنِه طريقة محدّدة لإبلاغ عبد العزيز موقفه منه، وإفهامه بأن مبادءَهما في الحياة مختلفة، والأوفق لهما أن يقطعا العلاقة؛ هل يبوح له بمشاعر الاحتقار، ويقذفها في وجهه من دون مصانعة، أم يكتم التعبير عنها بمفردات، فيقولها بطريقة أخرى أقلّ عنفاً، كأن يطلب منه أن لا يلتقيا بعد الآن؟ سيرى كيف سيكون مزاجهُ بعد قليل. . .

*

تغيرت عادات عبد الرحمن، التي ألِفها طويلاً، منذ انتقلت صفية إلى الدار البيضاء للإقامة مع عبد الرحيم وزوجته، قبل ستة شهور؛ بات عليه أن يبيت في البيت مع والدته؛ يجهز لها طعام غدها، ويقاسمها وجبة العشاء، ثم يغادر البيت بعد صلاة الفجر إلى المزرعة. مع أن خشيته من أن تتعرض المزرعة، في غيابه، لمكروه: سرقة أو إحراق، ظلت تجثم على صدره، حتى بعد أن زاد من عدد كلاب الحراسة، إلا أن إيمانه بالقدر جعله يسلّم الأمر إلى من لا يغمض له جفن. خاف عليه أخوه عبد الرحيم من

خروجه في الليل متنقلاً، بعد المغرب، بين المزرعة والبيت، وعائداً بعد الفجر، فاقترح عليه أن يقتني له سيارة بيك آب مستعملة يستعين بها على حاجته، لأنها آمَنُ له من الدراجة النارية. لكن عبد الرحمن أبى ذلك شاكراً له اهتمامه بسلامته، مؤكداً له أن لا خوف عليه، وأن مرضاة والدته تحميه من كل شرّ.

ذهنه مشغول كثيراً على صفية وفاطمة، الحامل في شهرها التاسع، ويكون أكثر انشغالاً كلما سافر إلى فرنسا وتركهما وحيدتين في البيت. وفي المرة الأخيرة غاب شهرين كاملين حتى رثى لهما عبد الرحمن، فهاتفه طالباً منه أن يسمح لهما بأن تأتيا إلى بن جرير أثناء غيابه، وتقيما مع الوالدة وبين الأهل إلى حين عودته. لكن عبد الرحيم أبى ذلك، متذرعاً بأنّ حمل زوجته يقتضيها البقاء في البيت كي تكون قريباً من طبيبتها التي ترعاها، وأكّد له أن لا خوف عليهما؛ فهو يقطن في عمارة محروسة تسكنها عائلات، ومساعِدُهُ في المتجر، وهو من «رجال الله»، يتردد عليهما كل يومين أو ثلاثة ليجيب طلباتهما من أغراض البيت؛ مثلما أوصاه. طمأنتْه صفية، من جهتها، إلى أنهما في أمان، وأن علاقتهما بالحاجة نفيسة، جارتهما في الطابق الرابع، أمّ الأولاد الثلاثة الصغار وزوجة الفقيه الحاج عبد الفتاح، تملأ بعض فراغهما الاجتماعي الذي بالكاد تشعران به. وأنهما لا تخرجان معاً إلّا يوم الجمعة للصلاة في الجامع، قبل أن تدخل فاطمة الشهر الثامن لحملها. وهي نفسُها تكاد لا تخرج من البيت إلّا حين تحتاجان إلى غرضٍ مستعجل من أغراض البيت.

عاد عبد الرحيم إلى المغرب حين أخبرته فاطمة أنها تشعر بقرب الطلق. لم يتأخر، بعد المكالمة، لأكثر من يوم واحد. في اليوم التالي لوصوله، جاءها المخاض وحملها إلى المستشفى. بعد

عشر ساعات من وصولها أنجبت من دون شديد عسر. كان طفلاً، وقد أخذت عبد الرحيم نشوةٌ من أثر ذلك، فصلّى ليلته تلك كما لم يُصِلّ منذ كان في مكة والمدينة عامه السابق. عند أول وصولهم إلى البيت، حدث خلاف بين الزوجين، لأول مرة منذ اقترانهما قبل عام، وكان موضوعه اسم الوليد. أرادت فاطمة أن تُطْلق عليه اسم ابيها: عليّ، تيمُّناً به، وتخليداً لذكراه، لكن عبد الرحيم صمَّم على أن يسمّيه أسامة. تطلعت فيه راجية أن يَثنيَ رأيه عمّا اعتزم، لكنه ردّ نظرتَها الحزينة بوعدٍ هو إطلاق اسم عليّ على الوليد القادم. وحين سألته في ما لو لم يكن الوليد القادم ذكراً، أجابها:

«الذي بعده، أو الذي بعد الذي بعده، إلى أن يهبنا الله ولداً ذكراً. ولوكان الشهيد الحاج عليّ حيّاً، لكان أوّل من وافقني على تسمية حفيده باسم أسامة، لأنه يعرف ما الذي يعنيه هذا الاسم».

لو كان والدي، رحمة الله عليه، حيّاً ما كنتُ تمَسَّكْتُ بتسمية ابني باسمه، ولا رجوتُك ذلك ». قالت ذلك ودمعت عيناها، فقام يسترضيها بينما فاطمة موزَّعة المشاعر بين حقّ الأب في اختيار الاسم، وبين رغبة الأمّ في حفظ ذكرى أبيها. لم تجد الفارق كبيراً بين اسمين يتقاسمان الجمال، فقط يشغلها أنها لا تعرف من يكون أسامة، الذي يتمسّك أخوها بإطلاق اسمه على ابنه، بينما تعرف أن عليّاً ليس فقط اسم جدّ الوليد لأمّه، وإنما هو اسم سيّدنا عليّ.

لم يعد عبد الرحيم عادلاً في توزيع وقته بين الدار البيضاء وبوردو، منذ وُلِدَ ابنُه أسامة قبل ستة شهور؛ قضى في المغرب، خلال هذه الفترة، ما يناهز ثلاثة أرباعها موزَّعةً بين سفرتين. وفي الثالثة جاء بيارا، رأساً، إلى الرحامنة بعد أن سبقته إليها صفية

محمولةً بوصاياهُ بأن لا تحدّث ابنتَه في شيء من حياته في المغرب. تركهما هناك لقضاء عشرة أيام سويّاً، وعاد إلى البيضاء مفكراً في كيف سيكون عليه أن يجمع، في مناسبةٍ ما، بين يارا وأخيها ـ بعد أن يكبر قليلاً ـ من دون أن تعرف البنت بأنه أخوها، لئلّا تفشي السرّ لأمّها، في انتظار أن تكبر يارا وتتفهم. أما صفية، ورغم محبتها ليارا، فلم تطق البعد عن أسامة، وتمنت لو أن والدهما جمع بينهما تحت سقف واحد. في اليوم العاشر، وصل عبد الرحيم إلى بن جرير، وأخذ يارا وصفية معه في طريق العودة. سألته يارا:

«هل ستذهب معنا عمتي إلى فرنسا؟».

«لا يا ابنتي، عمتُك ليس لديها جواز سفر، وإنما سنوصلها إلى الدار البيضاء، عند قريبةٍ من قريباتنا».

أنزلها في ساحة الفردان، وأخبرها أنه سيعود بعد يومين، ثم استأنف طريقه نحو المطار.

*

مرَّ شهران ونصف على سفرته الأخيرة إلى بوردو، مصطحباً ابنته بعد إجازة فصل الربيع الدراسية. فصل الصيف على الأبواب، لم يعثر بعد على جوابٍ مقنع على طلب كريستين قضاء شهر معه في بيته في الدار البيضاء، والتعرّف على متجره الذي يأخذه منها، ويأخذ منه كل ذلك الوقت. لم يكن يستطيع أن يستمر في الكذب، مثلما فعل في الماضي، والادعاء بأنه ينزل في الفندق كلما حلَّ بالدار البيضاء؛ فهي طلبت منه رقم هاتف الفندق في أكثر من مرة، وهو تحجَّج بأن الاتصال على الهاتف المحمول أدعى إلى الراحة عنده، لأنه يعفيه من تلصُّصِ عاملِ مصلحة الهاتف في

الفندق على مكالمتهما. حين ألحَّت أكثر، وبدأ يستشعر استرابةً في نظراتها، اضطُرَّ للقول إنه يبحث عن بيت للإيجار، وما إن أخذ يارا إلى المغرب وأعادها، حتى أخبرها أنه استأجر بيتاً. طلبت منه هاتف البيت، فادَّعى أنه لم يقدّم طلباً للاشتراك لأنه في غنىً عن الهاتف الأرضي ما دام يملك هاتفاً محمولاً. فاجأته، قبل أسابيع، أنها ترغب في أن تقضيَ ـ ويارا ـ إجازة شهرٍ معه في الدار البيضاء. أخذتْه الفَجْأةُ من الطلب، الذي لم يتوقعه، لكنه تمالك نفسَه، وأوحى إليها بأنه سعيد بسماع هذا الطلب منها، بعد أن مرّ ما يزيد على سبع سنوات عن زيارتها اليتيمة إلى بلده.

يشعر، الآن، بالندم لأنه أوحى إليها بالرغبة في قضاء تلك الإجازة في المغرب، ويفكّر في كيف يتحايل عليها بادّعاء السفر إلى آسيا، أو بالذهاب إلى بوردو أثناء إجازتها السنوية بدعوى طوارئ العمل التجاري، أو حتى بترضيتها بقضاء إجازة بديلة في بلدٍ أوروبي: النمسا أو سويسرا. ولم يكن يصعب عليه أن يستأجر بيتاً، قبل مجيئها، فيدّعي أنه بيته الذي يعيش فيه، ولكن صعُب عليه أن يزوّد البيت بهاتفٍ، فيصبح هاتفُه ذاك حجَّةً عليه، بعد عودته إلى فرنسا؛ فهو ـ حينها ـ قد يُنهي عقد إيجار الشقة، وحتى إنْ أبقى عليها فلن يقيم فيها، وـ بالتالي ـ لن يستطيع مخادعتَها حينما ستُمْطِر رقمه الهاتفي بالطلب، فلا يردّ عليها. وإذا ما استطاع أن يتفادى هذا الامتحان كلّه بالإصرار على رفض الاشتراك في الهاتف، فماذا يفعل مع فاطمة التي لن يستطيع أن يبيتَ عندها ليلةً واحدة طيلة ذلك الشهر!

حين حسم أمره، في بداية شهر يوليوز، وقرَّر السفر إلى فرنسا لمحاولة إقناع كريستين بقضاء الإجازة في فيينا أو لوزان، وأخبر فاطمة بأنه قد يغيب لفترة شهرٍ ونصف، فاجأهُ صوت

سليمان، ذات صباحٍ، على الهاتف. تحدّث إليه بسرعةٍ وارتباك وكأنه يلهث من الركض:

اسمعني جيداً؛ قُبض على الشيخ أبي عبيدة، من قِبل الأمن الفرنسي، منذ شهر، ويَجري معه تحقيق. وقدطلب مني اثنان من مساعديه أن أبلّغك بالأمر، وأن أخبرك بأنك قد تكون مطلوباً، ولذلك ينبغي لك أن لا تدخل إلى الأراضي الفرنسية لئلّا تُعْتَقَل».

أصيب بالدوار، حاول التماسك وهو يسأله:

«من أخبرك بهذا؟ وأين أنت الآن؟».

«لا شأن لك بمن أخبرني، اسمع ما قلتُه لك ونفّذه. أنا أحدّثُك من إستامبول، وقد وصلتُها قبل اعتقال الشيخ بأسبوع، فاضطُرِرت لأبقى فيها. ولم أكن أعلم أنك قد تكون مطلوباً، ولا كنتُ أستطيع أن أخبرك بمَا حدث إلّا حين طُلِب مني ذلك».

«كيف تمّ القبض عليه، وما تهمتُه؟».

«قُبض عليه في بيته، كما قُبِض على ثلاثة آخرين من معاونيه، ومحاموه يقولون ـ كما بَلغني ـ إنه يجري التحقيق معه في تهم تتعلق بتجنيد مقاتلين إلى الجزائر، وإرسال أموال إلى جماعات إرهابية في السعودية وأفغانستان والجزائر».

«وماذا ستفعل أنت؟».

«سأبقى هنا إلى أن تتبيّن الصورة».

لا شك أنه مطلوب؛ فهو حمل شيكات إلى السعودية. أما أفغانستان فذهب إليها من دون أن يُحَمَّل بمهمة فيها. تذكّر، على الفور، علي شريف ومجيئه السريع إلى السعودية؛ ألا يكون بعض الشيكات له؟ دارت رأسُه من شدّة وقْع السؤال في نفسه. لا شك

أن عليّ شريف طرف في شبكة عابرة للبلدان؛ فهو باكستاني معروف عند قادة الجيش في أفغانستان، وعند السعوديين، والله أعلم مَن أيضاً! تتحرك الأسئلة في رأسه بسرعة جنونية؛ نعم، هو لم يذهب إلى الجزائر، لكنه التقى جزائريين مرتيْن في الدار البيضاء، وسلّمهم ـ بطلبٍ من الشيخ ـ مبالغ مالية طائلة: ثلاثمائة ألف درهم في المرة الأولى، وتسعمائة ألف درهم في الثانية، بعد أن حوّلها، عبر بازارات عدة وتجّار العملة، إلى الفرنك الفرنسي. قدّموا أنفسهم له بوصفهم مغاربة من وجدة. لكنه شك في أن الصفة منتَحَلَة، وزاد يقينه حين طُلِب منه تحويل المبالغ إلى عملات أجنبية. ماذا سيفعلون بهذه العملات في المغرب لو كانوا مغاربة؟!

فَهِم الآن، لماذا لم يردّ الشيخ على هاتفه قبل ثلاثة أسابيع حين اتصل به. كانت عادتُه، مثلما أفهمه شيخه، أن لا يبادر بالاتصال به، من أي مكان، إلّا عند الضرورة القصوى، وأن ينتظر منه هو مكالمات. هذه المرة خرق القاعدة لأنه مرّ شهر تقريباً لم يحادثه على الهاتف، فخشي أن يكون قد أصابه مكروه. كان يعرف، من طريق آخرين، أنه يجنّد جزائريين في فرنسا للقتال في الجزائر، في الشهور الأخيرة، لكنه لم يُشرِكه في الحديث في الموضوع، ولم يَسْعَ هو إلى تسقُّط المعلومات، تاركاً لشيخه أن يحدّثه، يوماً، في الموضوع. لم يعرف أنه تورّط فيه إلّا الآن؛ حين استعاد حادثتَي تسليم الأموال إلى «الوَجْديَّيْن» اللذين طُلِبَ منه تسليمهما تلك المبالغ.

استعاد شريط علاقته بشيخه، منذ تعرّف إليه قبل أربع سنوات؛ ما سمعه منه، ما أقسم له عليه من التزام الطاعة، ما كلّفه به من مهمات خطيرة، ما أسبغ عليه من نِعَم، ما تعلّمه منه

من شؤون الدين والجهاد. خامره شعور بأنه فَعَل أشياء كثيرة في هذه الأعوام الأربعة لم يفعلها في حياته كلها. حتى هذا الزمن الشحيح يعادل، في الامتداد، عمره كلّه. شعر، في الوقت نفسه، بحزن عميق لسقوط مجاهد كبير، مثل شيخه، في قبضة الأمن الفرنسي. لماذا اعتقلوه مع أنهم كانوا يعرفون عمله في ساحات الجهاد، وأحياناً يسهّلون له العمل كما في البوسنة والشيشان؟ هل مَسَّ بالأمن الفرنسي في الداخل فدخل إلى المناطق المحرَّمة؟ إنه مستعد أن يفتديه، أن يشارك في عملية جهادية لتحريره من قبضة من سرقوه من أهله المسلمين. ولكن كيف، وقد أصبح ممنوعاً من دخول فرنسا، وربما الأراضي الأوروبية كاملة؟ ضاعت تجارتُه، إذاً؟ وزوجته وابنتُه؟ لم يعد من سبيلٍ إلى رؤيتهما إلّا في المغرب. آه، كأن في طلب كريستين قضاء الإجازة في المغرب حدساً ونبؤة. هي، أيضاً، مؤمنة بدينها كإيمانه بدينه؛ فَلِمَ لا يكون لها حدسٌ صادق.

عاد هاجس يارا يضغط عليه؛ كيف يتركها بين يدي جدّتها الشمطاء تنتصّر، وتخرج عن دين أبيها؟ لا بدّ أن يفعل شيئاً؛ لا بدّ أن يستدرج كريستين للمجيء، هي ويارا، للاحتفاظ بالبنت هنا، حتى لو اقتضاه الأمر بقاء كريستين معها في المغرب، وهو الذي لم يكن يرغب في ذلك، أو حتى يتصور حدوثه. عليه، الآن، أن يفكّر مليّاً في طريقةٍ لاستبقاء بنته في المغرب. لا بأس أن تبقى كريستين، على أن لا يجمع بينها وبين فاطمة في مكان واحد. ستظل معه كريستين في الدار البيضاء، وسيأخذ فاطمة وصفية إلى مراكش ويستأجر لهما شقة هناك، ويظل بعدها متنقلاً بين المدينتين مثلما كان يتنقل بين البيضاء وبوردو. فاطمة عشقت مراكش، وتمنت لو تعيش فيها، وحان الوقت لإرضاء رغبتها. وغداً سيطلب

من أمّها أن تأتي إلى المغرب للعيش مع ابنتها وحفيدها.

ارتاح لهذا التدبير، وقام يتوضأ للصلاة. على مرآة الحمّام، طالت لحيتُه المسدلة وشاربه الحليق. يَحْمِل تُهمته معه إذاً. عليه أن يخفيَ آثار الشبهة فيحلق اللحية.

*

توقفت سيارة السي محمد، عصراً أمام المزرعة. سُرَّ عبد الرحمن، كثيراً، للزيارة. وجه الأستاذ بشوش، وتنطق ملامحه ببشارةٍ ما يحملها. حدسُه لا يخطئ، وتقاسيم وجه الأستاذ لا تخدع.

«ماذا تفعل يا عبد الرحمن؟».

«أفقتُ لتوّي، وها أنذا ـ كما ترى ـ أقلّم الأشجار».

«تنام إلى هذا الوقت يا كسول؟».

«لا، والله، ليس من عادتي ذلك؛ تغدّيتُ متأخِّراً وقِلْتُ لبِضْع دقائق. القيلولة لا بدّ منها لمن يعمل ثلثي اليوم».

«حَضِّرْ نفسَك غداً، أو بعدَ غدٍ، لاستقبال أخيك مهدي؛ فقد أُفرِج عنه بعفوٍ ملكي».

«صرخ من الفرح وارتمى في أحضانه، وهو يمرّغ رأسه في صدره ويقبّل رأسه، مردّداً: « بارك الله فيك يا أستاذ».

«لست أنا مَن أطلق سراحه».

«لكنك بشّرتني بشّرك الله بالخير».

«ماذا ستفعل الآن؟».

«سأذهب، لتوّي، لأخبر والدتي بأن مهدي عاد من السفر،

وسأتصل بعبد الرحيم لأنقل إليه البشرى؛ فهو سيأتي إلى بن جرير، بعد ثلاثة أيام، كما أخبرني أمس».

كان يتهيأ للخروج إلى المسجد للصلاة، فجراً، حين سمع طَرْقاً على الباب. فتح، بتلقائية، متوقعاً أن يرى جاره منتظراً لمرافقته. دهش حين رأى أمامه أربعة رجال. وجوه متجهمة، بدتْ له مكفهِرّة، ونظرات حادّة مصوَّبة إليه كالسهام. نطق أحدهم:

«أنت عبد الرحيم؟».

«نعم».

«تفضل معنا».

الرباط ـ بيروت

ربيع وصيف ٢٠١٣

صدر للمؤلف عن
منتدى المعارف

بيروت

١ ـ **العولمة والممانعة:**
دراسة في المسألة الثقافية (٢٠١٠).

٢ ـ **رائحة المكان: نص** (٢٠١٠).

٣ ـ **صيف جليدي** (رواية) (٢٠١١).

٤ ـ **الحركة** (رواية) (٢٠١٢).

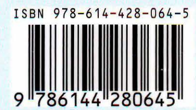
٥ ـ **ثورات وخيبات:**
في التغيير الذي لم يكتمل (٢٠١٢).

٦ ـ **الدولة والسلطة والشرعية** (٢٠١٣).

٧ ـ **ليليات: نص** (٢٠١٣).

«خُيِّل إليه، في تلك اللحظة، أن السلطة كائن متوحّش، لا مكان للرحمة في قلبه. اكتشف ذلك منذ زمن بعيد؛ حين عاين كيف يتعسف الشيخ والقائد على فقراء الفلاحين، ويتزلفان لكبار المُلّاك، ويقضون لهم المعاملات الإدارية بهمّة لا تفتر. وهو لا يمكنه أن ينسى أن السّي محمد سِيقَ إلى السجن ظلماً لأن غريمه من رجال السلطة، ولأن الخونة والبصاصين شهدوا ضدَّه لصالح الدّركي، فأقيمت عليه الحُجّة. ولا هو يمكنه أن ينسى مشاهد العدوان على أرزاق الناس وأملاكهم باستغلال النفوذ؛ الابتزاز لغة المخاطبة الوحيدة عند من يملكون النفوذ، إذا لم تفهم «واجبك» تجاه نداء الجشع، تتعطل مصالحك وتُرْجَأ إلى ما شاء الله. وعليك أن «تَدْفَع» في أي مكانٍ ألجأتْكَ إليه الظروفُ لتقضيَ فيه مصلحة. كلٌّ يريد «قهوته»، ولسان حال الجميع «ذْهَنْ السِّيرْ يْسِير». وإذا أَبَتْ نَفْسُك رِشوةَ من يدعوك إلى رِشْوَته: خِشيةَ غضب الله، أو صوناً للكرامة، فعلى نفسها جَنَتْ بَرَاقِشُ. «متى ينتهي هذا الظلم، ويعاملنا رجال السلطة كالبشر؟»؛ قال بصوتٍ مرتفع اختلط بتنهيدةٍ قذفَتْهَا أعماقُه كما يقذف البركان حُمَمَه».

لوحة الغلاف: منال الرويشد


ISBN 978-614-428-064-5
9 786144 280645

منتدى المعارف

بناية «طبارة» ـ شارع نجيب العرداتي ـ المنارة ـ رأس بيروت
ص.ب: ٧٤٩٤ ـ ١١٣ حمرا ـ بيروت ١١٠٣ ٢٠٣٠ ـ لبنان
بريد الكتروني: info@almaarefforum.com.lb